من كنوز القرآن
٩

القصص القرآني

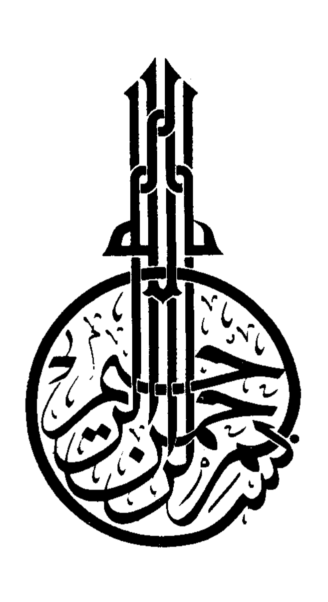
عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف
الدكتور صلاح الخالدي

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

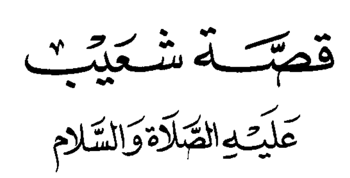



القصص القرآني

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



قصة شعيب

عليه الصلاة والسلام



[١]

مواضع قصة شعيب في القرآن

وردَ اسمُ شعيبٍ في القرآن إحدى عشرةَ مرة. وهذه هي السورُ التي ذُكرَ فيها:

١ ـ سورة الأعراف: ذُكر فيها خمس مرات.

٢ ـ سورة هود: ذُكر فيها أربع مرات.

٣ ـ سورة الشعراء: ذُكر فيها مرة واحدة.

٤ ـ سورة العنكبوت: ذُكر فيها مرة واحدة.

وقد بعثَ اللّهُ شعيباً عليه السلام نبياً ورسولاً إلى قوم مدين.

ووردتْ قصةُ شعيب في القرآن أثناءَ حديثِ القرآن عن شعيب عليه السلام، وأثناءَ حديثِ القرآن عن مدين، وأثناءَ حديثِ القرآن عن أصحابِ الأيكةَ.

وفيما يلي مواضع قصةِ شعيبٍ مع مدين في القرآن:

ما عرضته سور القرآن من قصته:

١ ـ ما أوردتْه سورةُ الأعَراف من قصته:

وردتْ قصتُه في تسعِ آيات في السورة: ٨٥ ـ ٩٣.

وتحدثت الآياتُ عن إرسالِ الله شعيباً نبياً إلى مدين، حيث دعاهم إلى عبادةِ الله وحده، وطالبهم بتوفيةِ المكيال والميزان، ونهاهم عن بخسِ الناسِ أشياءهم، وعن صدِّهم عن سبيل الله، ثم أخبرتْ عن ردِّ قومه عليه، وتهديدهم له، وردِّ شعيب وأتباعه المؤمنين بلجوئهم إلى الله وتوكلِهم عليه، ثم أشارتْ إلى تعذيبِ قومِ مدين بالرجفة، وتعقيبِ نبيهم شعيبٍ على هلاكهم.

٢ ـ ما أوردتهُ سورةُ هود من قصته:

وردتْ قصةُ شعيب في سورة هود، في اثنتي عشرة آية من آياتها: ٨٤ ـ ٩٥.

وَذِكْرُها في هذه السورة من أطولِ المواضع واللقطاتِ ذكراً في سور القرآن. وقد تحدثت الآياتُ عن طلب شعيبٍ من قوم مدين عبادةَ الله وحده، وعدمَ إنقاصِ المكيال والميزان، وعدمَ بخس الناس أشياءهم، وعدمَ الإفسادِ في الأرض. وذكرتْ ردَّ قومه الساخرَ عليه، وتعريضَهم بصلاته، وإنكارَهم عليه الربط بين الصلاة والمال، وسجلتْ ردَّه عليهم بحرصِه على الالتزام بما يدعوهم إليه، وعلى الإصلاح، وتذكيره لهم بما جرى للكافرين من قبلهم من تدميرٍ وهلاك، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط.

وبينت الآياتُ ردَّ قومه على حسن أسلوبه في دعوتِه بتهديدهم له بالرجم، لولا رهطُه وعشيرتُه، وردَّه على ذلك، وطلبَه منهم انتظارَ وقوع العذاب بهم. ثم أشارتْ إلى نجاةِ شعيب وأتباعه المؤمنين، وإهلاك مدينَ الكافرين بالصيحة.

٣ ـ ما ذكرتْه سورةُ الشعراء من قصته:

وردت الآياتُ عن مدينَ باسمِ أصحاب الأيكة، وأَشارتْ إلى دعوةِ شعيب لهم إلى عبادةِ الله وطاعته ونهيِه لهم عن إنقاصِ المكيال والميزان، وأمرِه لهم بالوزن بالقسطاس المستقيم، وذكرتْ ردَّهم على دعوته بالاتهامات والإشاعات، وطلبهم منه إسقاطَ السماء عليهم وإهلاكهم، وأخيراً كيفَ أصابهم عذابُ يوم الظلة.

هذا هو أساسُ قصةِ شعيب في هذه السور الثلاث: الأعراف، وهود، والشعراء.

إشارات لشعيب ومدين في سور أخرى:

ووردتْ إشاراتٌ سريعة لقصتِه في سورتي: الحِجْر والعنكبوت:

ففي سورةِ الحجر، وردت الإِشارةُ إلى تدمير أصحاب الأيكة الظالمين وبقاءِ آثارهم آية. جاء ذلك في الآيتين: ٧٨ ـ ٧٩.

وفي سورةِ العنكبوت، وردت الإِشارةُ إلى دعوة شعيب لمدين، وإلى تكذيبهم له، وإهلاكِهم بالرجفة. جاء ذلك في الآيتين: ٣٦ ـ ٣٧.

وقد وردَ ذكرُ اسم مدين، أو قوم مدين، مجردَ ذكر، بدون تفصيل، وردَ ذلك في الآية (٧٠) من سورة التوبة. وفي الآية (٤٠) من سورة طه. وفي الآية (٤٤) من سورة الحج. وفي الآيات (٢٢، ٢٣، ٤٥) من سورة القصص.

أما أصحابُ الأيكة فقد وردَ ذكرُهم مجرداً بدون تفصيلٍ في آية (١٣) من سورة صَ. وآية (١٤) من سورة قَ. إضافةً إلى ذكرهم مرةً واحدة في سورة الحجر.

هذه مواضعُ ومراتُ ذكْرِ قصة شعيب عليه السلام في القرآن، سواء تحتَ اسمِ شعيب، أو اسمِ مدين، أو اسم أصحاب الأيكة.

[٢]
مدين وشعيب من حيث الزمان والمكان

معنى شعيب ومدين والأيكة:

«شعيب» اسمُ النبيِّ الرسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام، الذي بعثه الله رسولاً إلى قوم مَدْيَن.

ومَدْيَن قومٌ من العرب، وشعيبٌ عربي، مثلُه في ذلك مثلُ هود وصالح عليهما السلام، اللذيْن كانا نبيّين عربيّين، مبعوثيْن إلى قبيلتيْن عربيتيْن: عاد وثمود.

و«شعيب» اسمٌ عربي مشتقٌّ من «الشَّعب».

قال السمين الحلبي: «الشَّعْب: القبيلةُ المتشعبةُ من حيٍّ واحد.

والشِّعْب من الوادي: ما اجتمَع منه طرَف، وتفرقَ منه طرف. فإذا نظرتَ إليه من الجانب الذي يتفرق، أخذْتَ في وهمِك واحداً، وإذا نظرتَ إليه من جانب الاجتماع أخذتَ في وهمك اثنيْن اجتمعا. فلذلك قيل: شَعَّبْتُ الشيء: جمعتُه. وشَعَّبْتُه: فرقتُه.

وشُعيب: إذا لم يكن اسماً للنبي المعروف عليه الصلاة والسلام فهو تصغيرُ شَعْب»[1].

إذن «شعيب» مشتقٌّ من الشَّعب، وهو تصغيرٌ له في الأساس، ثم صارَ اسماً للنبيِّ المعروف عليه السلام، ثم ذاعَ هذا الاسمُ وانتشر فيما بعد، عَلَماً على بعض الأشخاص.

أما «مَدْيَن» فهو اسمُ علم، أُطلقَ على هؤلاء القوم، الذين بَعثَ اللّهُ لهم شعيباً نبياً.

و«مَدْيَن» مشتقٌّ من «مَدَن».

تقول: مَدَن بالمكان: إذا أَقامَ فيه. وسُميت المدينةُ بذلك، لأنها يكثرُ سكانُها الذين يقيمونَ فيها. ومعنى الإِقامةِ في المدينة ملحوظٌ واضح[2].

أما الأَيْكَة في قوله: «أصحاب الأيكة» فهي مشتقةٌ من الأَيْك. قال السمين الحلبي: الأَيْك: جمعُ أَيْكَة. وهو الشجرُ الملتفّ، وقوله: «أصحاب الأيكة»: هم أصحابُ غَيْضَةٍ كانوا فيها يسكنونَها، فنُسبوا إليها، أرسلَ اللّهُ لهم شعيباً عليه السلام نبياً فكذَّبوه، فأهلكهم الله»[3].

فالأيكةُ هي الغابةُ من الأشجار الكثيفة، التي كان قومُ مدينَ

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين ٢: ٣١٣.

(٢) المرجع السابق: ٤: ٩٠.

(٣) انظر المرجع السابق ١: ١٦٢ ـ ١٦٣.

يسكنون فيها أو قريباً منها، فدمَّرهم الله، وأزالَ أيكتَهم وغابتَهم وغيضَتهم، لما كذَّبوا شعيباً عليه السلام.

هذا من حيثُ معاني الكلمات الثلاثة: شعيب، ومدين، والأيكة.

قرب مدين من قوم لوط زماناً ومكاناً:

أما من حيثُ المكان، فإنَّ أرضَ مدين كانت قريبةً من قرى قوم لوط، من حيث الموقع الجغرافي. فإذا كان قومُ لوط يقيمون في منطقةِ البحر الميت في الأغوار ـ كما سبقَ أنْ ذكرْنا ـ فإن أرضَ مدين كانت قريبةً منهم في الجنوب الشرقي.

ولعلَّ أرضَ مَدْيَن كانت في منطقةِ وادي عربة وما حولَها من جهةِ الغرب، ومن جهةِ الشرق.

ونحنُ مع الإمام ابن كثير في قوله: «كان أهلُ مدينَ قوماً عرباً، يسكنونَ مدينتهم «مَدْيَن»، التي هي قريبةٌ من أرضِ مَعان، من أطرافِ الشام، مما يلي الحجاز، قريباً من بحيرةِ قومِ لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة»[1].

وبقي اسمُ تلك المنطقة «مَدْيَن» حتى بعد إهلاكِ أهلها الكافرين، بدليل أن موسى عليه السلام لما خرجَ من مصرَ هارباً من فرعون، توجَّه إلى مدين. ومعلومٌ أن موسى كان بعدَ إبراهيم ولوط وشعيب بعشرات السنين.

هذا من حيث التحديد الجغرافي لمكان أرضِ مدين.

أما من حيثُ زمانِ وجودِ قوم مدين ونبيهم شعيب، فقد كان بعدَ إبراهيم ولوط عليهما السلام. فبينَ إبراهيم ولوط وبين شعيب عليهم الصلاة والسلام فترةٌ زمنيةٌ يسيرة.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٨٥ ـ ١٨٦.

والدليلُ على أنَّ شعيباً كان قريباً زمنياً من إبراهيم ولوط:

أن قصةَ شعيب كانت ترِدُ بعدَ قصةِ لوط مباشرة، في السورِ التي كانت تَسردُ بعضَ قصصِ الأنبياء متتابعة.

دلالة تسلسل وتتابع قصصهم في القرآن:

فسورةُ الأعراف أوردتْ قصصَ الأنبياء بهذا التتابع: قصة آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

وكان تَتَابعُ قصصِ سورة هود هكذا: قصة نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب.

وكان تَرتيبُ قصصِ سورة الحجر هكذا: قصة إبراهيم، ولوط، وشعيب، ثم أصحاب الحجر الذين هم قوم ثمود.

وكان تَرتيبُ قصصِ سورة الشعراء هكذا: قصة موسى، وإبراهيم، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

فعندما كانت تَذكرُ السورُ قصصَ هؤلاء الأنبياء: نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، شعيب عليهم السلام، كانت تورِدُهم بهذا الترتيب والتتابع. وهذا يدلُّ على أنهم كانوا على هذا الترتيبِ الزماني التاريخي.

ثم إن شعيباً عليه السلام لما ذكرَ تعذيبَ الأقوام الكافرين السابقين، قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

إنَّ قومَ لوط قريبين من قومِ مدين، وليسوا بعيدين عنهم، وقربُهم منهم قربٌ مكاني جغرافي أوَّلاً، ثم قرب زماني تاريخي بعد ذلك. والله أعلم.

[٣]

جرائم مدين: اقتصادية اجتماعية

كان كلُّ نبيٍّ يجدُ عند قومه جرائمَ خاصة، صدرتْ منهم، وتعمقتْ فيهم، إضافةً إلى الجريمة الأكبر والأشنع، وهي الكفرُ بالله والشركُ به، وعبادةُ الأصنام والأوثان، وجعلها آلهةً مع الله.

فهودٌ عليه السلام وجدَ عند قوم عاد التكبرَ والظلمَ والاستعلاءَ والتجبر على الآخرين.

ولوطٌ عليه السلام وجد عند قومه أسوأَ جريمة وأخبثَ سلوك، وهو شذوذُهم وإتيانُ الرجال شهوةً من دون النساء.

وصالحٌ عليه السلام وجد عند قومِ ثمود الاغترارَ بالنعمة الإِلٰهية عليهم في استعمارِهم في الأرض، ونحتِ البيوت في الجبال، وبناءِ القصور في السهول.

وشعيبٌ عليه السلام وجدَ عند قوم مدين جرائمَ اقتصادية، تتعلقُ ببخسِ المكيال والميزان، والإفسادِ الاقتصادي، ولذلك دعاهم شعيبٌ عليه السلام إلى الإقلاع عن هذه الجرائم الاقتصادية والاجتماعية.

وعندما ننظرُ في قصةِ شعيب مع مدين في القرآن، فإننا نجدُ أنَّ الآياتِ سجلتْ لهم الجرائمَ التالية:

عدمُ وفاء الكيل والميزان، وبخسُ الناس أشياءَهم التي معهم، والإفسادُ في الأرض، والقعودُ على الطرق للتعرض للذين يمرون عليها، يتوعَّدونهم، ويهدِّدونهم، ويَسلبونَهم ما معهم من أشياء، ويَصدون الناسَ عن سبيل الله، ويَبغون الحياةَ معوجَّةً بعيدةً عن منهاج الله.

[٤]

دعوة شعيب عليه السلام لهم

دعاهم إلى عبادة الله وحده:

انصبتْ دعوةُ شعيبٍ عليه السلام لقومِ مدين على إنكار ما

يرتكبون من جرائمَ ومفاسدَ وقبائح.

أولُ ما وَجدَ فيهم هو الشركُ بالله، وعبادةُ غيره معه، فبدأ بدعوتهم إلى عبادةِ الله وحده، والإيمان به وحده، وتركِ عبادةِ غيره معه، والتخلي عن عبادةِ الأصنام والأوثان. وهذه هي نقطةُ البدء التي كان يبدأ بها كلُّ نبي مع قومه.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

شعيب أخو مدين، وواحد منهم، وليس غريباً عنهم بعثه الله إليهم كلوطٍ عليه السلام.

شعيبٌ يتحببُ إليهم قائلاً: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فهم قومُه، وهو حريصٌ على مصلحتِهم، ودعوتُه من أجلهم، وهذا أحرى بهم أن يستجيبوا له، لو كانوا يفقهون.

وما طلبهُ منهم واضحٌ مفهوم محدد: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: اخضعوا له وحدَه أو أطيعوه وحدَه، واستسلموا له وحده، ودِينوا له وحده. وهذا هو المعنى الأصليُّ للعبادة.

ويعللُ ذلكَ بأنه لا إله إلا الله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾. إنه لا يُعبدُ إلا الله، فبما أنه لا إله إلا الله، فيجبُ أن يكون: لا معبودَ إلا الله، ولا خضوعَ إلا لله.

وهذه هي خلاصةُ دعوةِ كل نبي، وخلاصةُ رسالةِ كلِّ رسول، وخلاصةُ كلِّ دين رباني، وهي خلاصةُ الإسلام والقرآن، وهي نقطةُ البدء التي يجبُ أن يبدأ بها كلُّ نبي ورسول، وكلُّ داعية ومصلح، يريدُ إعادةَ الناس إلى الله.

وبعدما بدأ شعيبٌ عليه السلام البدايةَ الإيمانية، وعالجَ أساسَ الداء، وأصلَ الانحراف، التفتَ إلى معالجةِ الجرائم الأخرى، التي صدرتْ عن قومِ مدين.

آيات في إنكار شعيب على قومه جرائمهم:

قال لهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ

وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦].

وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦].

وقال لهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٧ ـ ١٨٤].

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: المرادُ بالبينة هنا الآيةُ والدليلُ والبرهان، على أن شعيباً عليه السلام هو رسولُ الله إليهم، وأنه يجبُ عليهم اتباعُه.

ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: قدمَ نفسَه لهم باعتباره رسولاً أميناً صادقاً، حَريصاً على مصلحتهم، وأَمَرَهُم بتقوى الله وطاعتِه، وطاعةِ رسولهم الذي بعثه الله إليهم.

وقال لهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾: إنه داعيةٌ رسول، يقومُ بواجبه في التبليغ والدعوة، وهو لا يريدُ منهم مقابلَ دعوتِه أجراً ولا أجرة، ولا مالاً ولا منفعة، ولا يريدُ أنْ يكلفَهم شيئاً من المال، حتى لا يكونَ هذا صارفاً لهم عن الاستجابة.

ولما نهاهم عن الجرائم المالية والاقتصادية قال لهم: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. فقد كانوا يَنقصونَ المكيالَ إذا كالوا للناس، وكانوا يَنقصونَ الميزان إذا وَزنوا للناس.

شعيب يأمرهم بتوفية المكيال والميزان:

وأمرهم بتوفيةِ المكيال والميزان، عندما قال لهم: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. وهذا يكون بأن يكيلوا للآخرين وأنْ يَزِنوهم بالتمام.

لقد حثَّهم شعيبٌ عليه السلام على الإتمام والتوفية بأسلوبيْن: أسلوبِ النهي عن الإنقاص، ثم أسلوبِ الأمر بالإتمام والتوفية، وما ذلك إلا لتمكن جريمةِ التطفيف فيهم.

وقد جمعَ الأسلوبيْن: النهيَ والأمر، فيما روتْه آياتُ سورة هود: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أما في سورة الشعراء فقد جاءَ هذا التوجيهُ بأسلوبٍ آخر: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

والقسطاسُ هو الميزان، وهو مبالغةٌ من القسط، والقسطُ هو العدل. فكأن الميزانَ الذي يَزِنون فيه تحوَّلَ إلى قسطٍ مجسَّم كامل.

شعيب ينهاهم عن جرائمهم:

ونهاهم شعيبٌ عن بخسِ الأشياء والحاجيات التي مع الناس: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾. والبخسُ هو الإنقاص، وهو صورةٌ أُخرى من صور التطفيف، وهو ظلمٌ اقتصادي.

قال الإمامُ الراغب: «البخس: نقصُ الشيء على سبيل الظلم»[١].

---

(١) المفردات: ١١٠.

أي: عندما تشترونَ الأشياءَ والحاجياتِ من الناس لا تَبخسوهم إياها، ولا تُنقصوها قيمتها، ولا تَشتروها بأقلَّ من قيمتها.

ونهاهم شعيبٌ عن الإفسادِ في الأرض، عندما قال لهم: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾. وإفسادُهم في الأرض، المفهومُ من جرائمهم المذكورة في الآيات، إفسادٌ اقتصادي، يقومُ على التطفيف وإنقاصِ المكيال والميزان، وإنقاصِ الناس أثمانَ أشيائهم.

وتوفيةُ المكيال والميزان، وإعطاءُ الناس حقَّهم كاملًا، والوزنُ بالقسطاسِ المستقيم هو الإصلاحُ في الأرض.

إن الظلمَ الماليَّ والجرائمَ الاقتصادية فسادٌ عريض كبير في الأرض، والتاريخ البشريُّ مصداقُ هذه الحقيقة.

ونَهاهم شعيبٌ عليه السلام عن القعودِ في الطرق، والتعرضِ للناس فيها، وأَخْذِهم لما معهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

لقد جمَع قومُ مدين بين جريمةِ إنقاصِ المكيال والميزان، وجريمةِ قطع الطريق على المسافرين، والتعرضِ لهم، وإرهابهم وتهديدهم، والسطوِ على ما معهم، ومحاربةِ المؤمنين بالله، والصدِّ عن سبيل الله، والرغبةِ في حرفِ الطريق إلى الله عن مسارِها الصحيح المستقيم، لتكونَ معوجةً منحرفة.

وذكَّرهم شعيبٌ عليه السلام بفضلِ الله عليهم، وتكثيره لهم، ودَعاهم إلى تذكُّر حالِهم السابق: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

كان قومُ مدينَ قليلًا فكثرهم اللّهُ بالعددِ والنسلِ والمواليد، وكانوا قليلًا من حيث المال، فكثَّر اللّهُ أموالَهم، وكانوا قليلًا من حيث القوة والاقتصاد، فكثَّرهم اللّهُ وزادهم من ذلك، وعليهم أنْ يذكُروا كيف كانوا وكيف أصبحوا بفضلِ الله وإنعامِه، إنَّ تذكُّرهم لذلك بقلبٍ مؤمن

شاكر، سيزيدُهم شكراً لله، وإقبالاً على الله، وسيدعوهم إلى تركِ ما هم عليه من مفاسد.

ودَعاهم إلى الاكتفاءِ بالرزق الحلال الذي يكتبه اللّهُ لهم، فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

والمرادُ ببقيةِ الله: ما يُبقيه اللّهُ لهم من رزقٍ ومال حلال، وهو الذي ينتجُ عن وفاءِ المكيال والميزان بالقسط، فهذا خيرٌ وأفضلُ لهم من المال الكثير الحرام، الذي ينتجُ عن إنقاصِ المكيال والميزان.

إن المالَ الكثيرَ الناتجَ عن الحرامِ وأكلِ أموالِ الناس بالباطل، وبخسِ حقوقهم وأثمانِ أشيائهم ليس خَيراً لهم، لأنه يقودُ إلى محقِ المال وتضييعِه، فعاقبتُه شرٌّ لهم.

وإنَّ الربحَ الحلال القليلَ هو خيرٌ لهم، لأن اللّهَ يباركُ لهم فيه، وعاقبتُه الخيرُ والسعادةُ والفوزُ والصلاح.

وأخبرهم شعيبٌ بخوفِه عليهم في المستقبل، إنْ أَصرّوا على جرائمهم المالية والاجتماعية: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

وهذا التخوفُ في محلِّه، إنهم الآنَ في خيرٍ ورخاء وربح ومال، وهذا فضلٌ ونعمةٌ من الله، لكن المستقبلَ الذي ينتظرهم مظلمٌ خطير، لما يرتكبون من جرائم، فإنَّ العذابَ المحيط هو عاقبتُها، وإن الدمارَ هو نهايتُها، وبذلك ينتهونَ إلى الشر!!

[٥]

الدعوة بين شعيب وقومه

قومه ينكرون عليه دعوته ويتهكمون عليه:

بعدَ أنْ دعا شعيبٌ قومَه إلى الله، ونهاهُم عما يرتكبونَه من جرائمَ

ومفاسد، ردَّ القومُ عليه دعوتَه، وسخروا منه.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

لقد أَنكروا عليه دعوتَه إلى توحيدِ الله وعبادتِه، والالتزامِ الأخلاقي الإِيماني في الاقتصادِ والتجارة والأموال، ولم يَقبلوا منه رَبْطَ المال بالإِيمان والأخلاق، فهذا شيء، وذاك شيءٌ آخر!!

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أهذه هي نتائجُ صلاتك التي تصلّيها لله، أنْ ترفضَ الدينَ الذي نحنُ عليه، والذي ورثْناه عن آبائنا؟ لقد وجدْنا آباءَنا يعبدون هذه الآلهة، فعبدْناها، ولا يمكنُ أن يكونَ آباؤنا على ضلال، فكيف تريدُ منا أن نعبدَ اللّهَ وحده، ونتخلى عما ورثْناه عن آبائنا. أهذا ما تأمُرك به صلاتُك؟

أتأمركَ صلاتُك أنْ تلومَنا على تصرُّفنا في أموالِنا كما نشاء؟ لماذا لا تدعنا نتصرفُ في أموالنا كما نشاء! وما دخْلُ صلاتِك ودينِك ودعوتك في أموالنا؟ ولماذا تتدخلُ يا شعيبُ في اقتصادنا وتجارتنا؟ ولماذا تُقحمُ دينَك في حياتنا؟

نحن أحرارٌ في حياتنا نعيشها كما نشاء! ونحن أحرارٌ في أموالنا، ننمّيها ونربحُ فيها ونزيدها كما نشاء! ونحن أحرارٌ في تجاراتنا ومكاييلِنا وموازيننا، نتصرفُ فيها كما نشاء! فكفَّ عنا، ولا تتدخلْ في تجارتِنا واقتصادِنا وأموالنا.

وبالَغوا في السخرية منه قائلين له: ﴿لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾!! أي: ما تقحمُ نفسَك فيه في حياتنا يتنافى مع ما تُظهرُه من حلْمِك ورشدك، إنك تزعمُ أنك حليمٌ رشيد، فإن كنتَ كذلك فدعْ ما تقولُه لنا، وإنْ لم تتوقف عن ذلك فلن تكونَ حليماً ولا رشيداً.

إن هذا الكلامَ الصادرَ عن قومِ مدين في الإِنكار على شعيب، هو نفسُه الكلامُ الذي يصدرُ عن الجاهلِين الجاهليّين دائماً، الذين يستغربونَ تدخُّلَ الإسلامِ في تجاراتهم وأموالِهم واقتصادهم، بخاصةِ أهلِ هذا العصر منهم!!

إنهم يريدونَ أن يكونوا أَحراراً في اقتصادِهم وتجارتهم وتنميةِ أموالهم، ولا يقبلون إقحامَ الدين أو الأخلاق في أفعالهم، ويرفضون تدخُّلَ الإِسلام في ممارساتهم التجارية، ويستغربونَ من دعاةِ الإِسلام أن يقولوا لهم: هذا حلال، وهذا حرام.

يقولون لدعاةِ الإِسلام: أَصلاتُكم وعبادتُكم تأمركم بالتدخلِ في اقتصادنا؟ أإسلامكُم يحرمُ ما تزعمون من ربا وغش واحتكار وظلم وتطفيف؟ إنَّ إسلامَكم ينظمُ العلاقةَ والصلةَ بينكم وبين ربكم، لكن لا دخْلَ له في الحياة والمجتمع، فنحن ننظمُ حياتنا الاقتصاديةَ كما نريد.

وكأنهم يقولون كما قالَ قومُ مدين لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

شعيب يرد عليهم ويلتزم بدعوته:

وردَّ شعيبٌ عليه السلام على قومه قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وجوابُه هذا مَعْلَمٌ بارز واضحٌ من معالم الدعوةِ إلى الله، وإقامةِ الحجة على أعداء الله، والتزامِ الداعية بما يدعو إليه، وحرصه على الإِصلاح.

يخبرهم شعيبٌ عليه السلام أنه على بينةٍ واضحةٍ من ربه، وهي النبوةُ والرسالة، فهو على يقينٍ أنه رسولٌ من عند الله، وأنه على حقٍّ

قاطع، وهم على باطل واضح.

واللّهُ رزقَهُ منه رزقاً حسناً، وهو النبوة، أوضحُ نعمةٍ من نعم الله عليه، ونعمةُ الإيمان والهدى والاستقامة هي الرزقُ الحسن، الذي لا يساويه المالُ الكثير الحرام. فما عنده من نعمةِ الهدى والإيمان لا يساويه ما يجمعونَه من مالٍ حرام.

وأخبرهم شعيبٌ بقاعدةٍ دعوية قاطعة، وهي التزامُه هو أوَّلاً بما يدعوهم إليه، قبلَ أنْ يطالبهم بالالتزامِ به، إنه لن يَدْعوهم إلى شيء، ثم لا يفعلُه، وإنه لا ينهاهم عن شيء، ثم يرتكبُ ما نهاهم عنه.

وعلى الدعاةِ إلى الله أنْ يَعوا جيداً هذا الموقفَ من شعيبٍ عليه السلام، وأنْ يَقتدوا به في ذلك الالتزام الصادق، وأنْ لا يكونوا أول تاركين لما يَدْعونَ الآخرين إليه، أو أولَ مرتكبين لما ينهونَ الآخرين عنه.

كما أخبرهم بهدفِه من دعوته، وهو الإصلاحُ بقدرِ ما يستطيع: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

وبعدَ ذلك ذكَّرهم شعيبٌ عليه السلام بما جرى للكافرين من قبلهم من عذاب، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٩ ـ ٩٠].

شعيب يطلب عدم جعل المعركة شخصية ويذكرهم بمن قبلهم:

ومعنى ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾: لا يحملكم خِلافي على العناد، ولا يقودُكم هذا إلى رفضِ الحق الذي معي.

أي: لا تعتبروا الأمرَ خلافاً وشِقاقاً ونزاعاً شخصياً بيني وبينكم، ولا تعتبروا المسألَة معركةً شخصية، إنكم إنْ فعلتُم ذلك فإن هذا سوف يقودكم إلى العناد؛ إذ كيفَ تستسلمونَ لخصْمِكم، وتتنازلون له،

وتنهزمونَ أمامه، ولذلك سوفَ تستمرون على ما أنتم عليه عناداً، ولو ظهر لكم أنَّ الحق معي وليس معكم.

يجبُ عليكم أنْ تنظروا للموضوعِ نظرةً موضوعيةً علمية منهجية، وأنْ تَنسوا البُعْدَ الشخصيَّ فيه، اِبحثوا عن الحق، فإنْ وضحَ لكم أنَّ الحقَّ معي، فلا تَرفضوا اتباعَه لأنه جاءكم عن طريقي، ولكن عليكم اتباعُه!

إنكم إنْ رفضتُم ما معي من الحق عناداً، فسوف تخسرون، وتَبقون على الكفر والضلال، وبهذا تكونون عرضةً لأن يصيبكم العذاب. حيث أَصابَ العذابُ كفاراً معانِدين قبلكم، مثل قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح.

والمرادُ بقربِ قومِ لوطٍ منهم ناحيتان: القربُ المكاني، لأنَّ موقع ديارهم الجغرافيَّ قريبٌ من موقعِ قوم مدين الجغرافي.

والقربُ الزماني، لأنه لم يمضِ على تدميرِ ديار قوم لوط وإهلاكِهم طويلُ عهد، بل دُمِّروا قبلَ فترة قريبة، لأن شعيباً كان قريباً تاريخياً وزمنياً من إبراهيمَ ولوط، عليهم الصلاة والسلام.

ويدعو شعيبٌ قومَه إلى الإقبالِ على الله، ويُحببُهم إلى الله، ويُرغبهم في التوبةِ والاستغفار، ويخبرهم بأن اللّهَ قريبٌ من عباده المؤمنين، وَدودٌ إلى عباده الصالحين التائبين المستغفرين.

ونلاحظُ في خطاب قومِه له الغلظةَ والجفاءَ والجلافة، مع السخريةِ والاستهزاء، وهذه سماتُ خطابِ الكفار للأنبياء دائماً.

بينما نلاحظُ في خطابِ شعيب عليه السلام لهم وردِّه عليهم، الموضوعيةَ والاعتدال، والحكمةَ والاتزان.

ردهم عليه بغلظة وقسوة ولولا رهطه لرجموه:

لكن هذا الأسلوب لم يؤثِّرْ في قومه، فردّوا عليه ردّاً آخر، وقالوا

لــه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ [هود: ٩١].

وهذا الردُّ في غاية الغلظةِ والقسوةِ والجفوة، الصفاتُ التي لا تفارقُ الكفارَ أبداً.

ادَّعوْا أوَّلاً عدمَ فقههم لكثيرٍ مما يقولُه لهم، وليس هذا ناتجاً عن عجمةٍ في التعبير من قِبَلِ شعيب، فهم عربٌ فصحاء، وهو عربيٌّ فصيح، يخاطبهم بمنطقٍ واضح، ولغةٍ عربية فصيحة، ولكنهم لا يُريدونَ أن يَفقهوا دعوتَه، ولا أنْ يُدْخلوها قلوبَهم، لأنهم يرفضونَها أساساً، كونها تتعارضُ مع ما عندهم من أعرافٍ وعادات. لا يُريدونها، ولذلك لا يفقهونها!!

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾: نظروا إلى شعيبٍ بمنظارِ المظاهر الدنيوية الفارغة، فاستضْعَفوه، لأنهم وجَدوه لا يملكُ منها شيئاً يُذكر، ولم ينظروا له بمنظارِ الحقائق والقيم والمبادئ، ولو فَعلوا ذلك لوجدوه غنياً قوياً، لا يقاربه أحدٌ في الغنى والقوة، ويكفيه أنَه مع الله، يمنحه اللّهُ القوة، ومَن كان كذلك لا يكونُ ضعيفاً.

هو بمنظارِ قومِه الماديِّ الجاهلي ضعيف. فلماذا لم يؤذوه ويضربوه؟ أَخْبَروه عن سببِ ذلك قائلين: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

إنَّ الذي منعَهم مِن رجْمِهِ هو رهطُه وجماعتهُ وعشيرتُه، فهم لا يَحسبون حساباً له، ولا يجعلون وزْناً له، لأنه ليس عزيزاً عليهم، ولا مكرَّماً عندهم. إنما اعتبارُهم لعشيرتِه ورهطه.

لقد قالوا له ذلك مبالغةً في السخرية مِنه والتهكمِ عليه، وإيذائه نفسياً بإِسْماعِه هذا الكلامَ القاسيَ الجافي.

وقولهم له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ﴾ دليلٌ على أنَّ رهط شعيبٍ

عليه السلام كان له قيمةٌ اجتماعية كبيرة، ووزنٌ اجتماعي ثقيل، وأنه كان ينتسبُ إلى عشيرةٍ ذاتِ نسَبٍ شريفٍ عزيز في مدين، وذاتِ قوةٍ وتأثير فيهم.

ونتذكَّرُ غربةَ لوط عليه السلام في قومه، وضعْفَه العشائريَّ بينهم، ونضعُ قولَه لقومه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ بجانب قولِ مدين لشعيب عليه السلام: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾. لنعرفَ معنى قولِ رسول الله ﷺ ـ الذي سبقَ أنْ أورَدْناه ـ في تعليقِه على قول لوط السابق: «وما بعثَ اللّهُ بعده نبياً إلا وهو في ثروةٍ من قومه».

بين الميزان الجاهلي والميزان الإيماني:

وأمامَ تهجُّم مدينَ على شعيب، وتصريحهم بعدم تكريمهم له، وأنهم إنما يراعونَ رهطه، أعادَ لهم المسألةَ إلى وضْعِها الصحيح، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: ٩٢].

مَنْ هو الأَوْلى بالمراعاةِ والاعتبارِ والإعزاز: أَرهطي وعشيرتي أم اللّهُ ربُّ العالمين؟

إِنه يرفضُ ميزانَهم وعرفَهم الجاهلي، القائم على اعتبارِ الموازين والقيم الماديةِ الجاهلية، التي تكرم العشيرةَ بحدِّ ذاتها، بدون نَظرٍ إلى ما يتوفرُ فيها من قيم وحقائقَ صحيحةٍ صادقة. ويَدْعوهم إلى الميزانِ الإِيماني الصادق، الذي يَزِنُ الناسَ والأشخاصَ والرهط وَزْناً إيمانياً، ويكرمُهم على أساسِ ما يتوفَّر لهم من إيمانٍ وهدى.

يقول لهم: أَيُّهما الأَوْلى بالإِعزاز: أَرهطي أم اللّهُ ربكم؟ وكيفَ جعلْتم رهطي أعزَّ عليكم من الله؟ وكيف جعلتم اللّهَ ربَّكم وراءَكم ظِهْرياً؟ ونسيتموه، ولم تجعلوا له قيمةً ولا اعتباراً؟

إِنه يدعوهم إلى جَعْلِ الاعتبارِ لله، وإلى تكريم مَنْ كَرَّمه الله، وإلى إهانةِ مَن أهانَه الله، إلى رفعِ مَنْ رفعه الله، ووَضْعِ مَنْ وضَعَه الله.

لكن أنَّى لهم الاستجابةُ لدعوتِه، واستعمالُ مقياسِه وميزانه، وهم الكفارُ الجاهلون؟

[٦]
قوم مدين يصعِّدون المواجهة مع شعيب

قوم مدين فريقان أمام دعوة شعيب:

وانتقلت المواجهةُ بين شعيبٍ عليه السلام وبين قومه إلى مرحلةٍ أخرى، أَكثر حدةً وشدةً وعنفاً، حيثُ صعَّد قومُه من مواجهتهم له ولأَتْباعه الذين آمَنوا به.

لقد قامَ شعيبٌ عليه السلام بواجبه تجاهَ قومِه، وبلَّغَهم ما أمرهُ اللّهُ به، وأقامَ عليهم الحجة، وهذا كلُّ ما يملكُه تجاهَهم، وما يجبُ عليه نحوهم.

ولقد آمنَ به مَنْ آمن منهم، واستجابَ له مَن كان فيه خير، وصار مِنْ أَتْباعِه المؤمنين الصالحين.

أما الأغلبيةُ من قومه، فقد أَغلقوا قلوبَهم أمامَ دعوته، وأصرّوا على الكفرِ والتكذيب.

وعند هذه المرحلةِ من قصةِ شعيبٍ عليه السلام مع قومه، يكون كلٌّ منهم قد اختارَ طريقه، اختارَ الإِيمان أو الكفر، اختارَ تصديقَ شعيبٍ عليه السلام أو تكذيبَه.

وبذلك تمايزت الصفوف، وتمَّ «فَرْزُ» أهل مدين إلى فريقَيْن:

الفريق الأول: شعيبٌ عليه السلام، ومَنْ آمن به واتَّبعه من قومه، وهم قليل، لأن أَتباعَ الإِيمانِ والحق دائماً قليلون.

الفريق الثاني: الملأُ من قوم مَدْيَن الكفار، الذين قادوا قومَهم في الكفر، وجنَّدوهم لمواجهةِ شعيب عليه السلام وأَتْباعه المؤمنين.

وانحازَ كلٌّ إلى فريقِه، وصعَّدَ كلٌّ من مواجهته لخصمِه، وبقيت المرحلةُ التالية، مرحلةُ الحسم والفصل، وإنهاءُ هذه القصة، وفقَ السنةِ الربانية، وهي نجاةُ المؤمنين، وهلاكُ الكافرين. وهذا الحسمُ والفصلُ بيد الله وحده، يأتي اللّهُ به وقتما يشاء.

شعيب يطلب من الكفار انتظار الحسم:

وفي انتظارِ الحسمِ الرباني جرى كلامٌ بين شعيبٍ عليه السلام وبين الملأ من قومه الكافرين، وعرضَ عليهم شعيبٌ عرضاً، وطلبَ منهم طلباً، لكنهم رفضوا عرضَه، وأصرّوا على تصعيدِ المواجهة.

قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: ٩٣].

وقال لهم: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٨٧].

طلبَ شعيبٌ عليه السلام من كلِّ فريق أنْ يعملَ على مكانته ومنهجه وطريقه، فالقومُ الكافرون يعملون على مكانتِهم وطريقتهم، وشعيبٌ ومَن معه يعملون على مكانتهم وطريقتهم.

والكلُّ ينتظرُ النهايةَ والعاقبة، وسوف تُحسم المسألةُ في المستقبل.

وطلبَ شعيبٌ منهم أنْ يَصبروا حتى يأتيَ الحسمُ في المستقبل، وأنْ لا يتعجَّلوا هم في المواجهةِ والتصعيد والحسْم: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

لكنَّ كلامَه لهم يتضمنُ التهديد، لأنه يوقنُ أنه على هدى وأنهم على ضلال، يوقنُ أنه صادقٌ وأنهم كاذبون، ولهذا يوقن أن الله سينجيه

ومَنْ معه من المؤمنين، وسيُهلك اللّهُ الفريقَ الآخر الكافر: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

اِعملوا، واصبروا، وانتظروا، وارتقبوا إني معكم رقيب. ولا تَبْدؤونا بالإِيذاءِ والعدوان، واطلبوا من الله أنْ يحكمَ بيننا وبينكم، وأنْ يُنهيَ الأمرَ لصالحِ أهدى الفريقيْن.

إنَّ كلامَ شعيبٍ عليه السلام لقومه في غايةِ الإنصاف، وإنَّ ما طلبه منهم لهو طلبٌ موضوعي منهجي علمي، وهذا أَقصى ما يفعلُه معهم، بعد أن أدّى واجبه تجاهَهُم.

لكن هل يقبلُ الملأُ المستكبرون ذلك منه؟ وهل يوافقون على هذه الموضوعيةِ وهذا الإنصاف والانتظار؟ وهل يسكتون عليه وعلى أَتباعه إلى أنْ يحكمَ اللّهُ بين الفريقين؟ كلا.

تشنج القوم في الرد عليه إما الطرد وإما الردة:

لقد ردَّ الملأُ على شعيب رداً متشنجاً غليظاً قاسياً: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨].

الملأُ المستكبرون هم الذين كانوا يقودون قومهم في مواجهةِ شعيبٍ عليه السلام، ويُهيّجونهم ضدّه وضدَّ دعوته، وأَشدُّ القوم عداءً لكلِّ نبي هم الملأ المستكبرون، وكلُّ نبي كان يواجه الملأَ في المقام الأول.

لم يقبل الملأُ المستكبرون من قوم مدين الانتظار، والصبرَ على الحكم، والمهادنةَ مع شعيب وأَتْباعه، وإنما أرادوا تعجيلَ الحسم وإنهاءَ المسألة، وصعَّدوا المواجهة حيث هدَّدوا بإخراجِ شعيبٍ والذين آمنوا معه من القرية.

لقد وضعوا شعيباً وأَتْباعه المؤمنين أمامَ خياريْن جاهليْين عنيفيْن،

صادريْن عن قوم مستكبرين مستبدّين متشنجين: إما أَنْ يتخلّوا عن دينهم ويعودوا إلى ملّةِ قومهم، وإنْ كانتْ ملةً باطلة في نظرهم، وإمّا أَنْ يَخرجوا من بينِ القوم، ويُغادروا القرية.

والإضافةُ في قولهم: ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ توحي بالتكبرِ والاعتدادِ والعنجهية، وكأنَّ الملأَ الكافرين المستكبرين يقولون لشعيب وأَتْباعه: إنَّ القريةَ قريتُنا، وليست قريتكم، هي قريتُنا وبلدتُنا، ونحن أحرارُ التصرف فيها، نُبقي فيها مَن نشاءُ إبقاءَه، ونُخرج منها مَن نشاء طردَه وإخراجَه. وأنتم فقدتُم حقكم في المواطنةِ والملكية في القرية. لأنكم أتيتُم بدينٍ جديد، وخالفتم دينَ الملأ الحاكمين، فلستم من الأهلِ والأقارب، ولا من المواطنين، ولا بدَّ أنْ تغادروا من بيننا، وأنْ تتركوا قريتنا لنا.

إنَّ منطقَ هؤلاء المستكبرين هو منطقُ الملأ المستكبرين في كلِّ زمان ومكان، عندما يَقفون أمامَ الأنبياء ودعاةِ الحق، ويعاملونهم بهذه الغلظةِ والجلافةِ والقسوة، ويُخيِّرونهم بين أمريْن أحلاهما مُرّ: فإمّا أنْ يتخلّوا عن ما هم عليه، ويعودوا إلى باطل قومهم، نادمين تائبين، وإمّا أنْ يُصَبَّ عليهم العذابُ والنكال والأذى، وقد يوصِلُ ذلك إلى سجنهم، أو نفيهم وإخراجهم، أو قتلهم.

وبهذا يعيدُ هؤلاءُ الملأ المستكبرون قولَة الملأ من قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

وفي هذا الردِّ المتشنج من الملأ على دعوةِ شعيبٍ للانتظار والمراقبة، دليلٌ آخر على أنَّ الملأَ المستكبرين المستبدين، لا تنفع معهم أيةُ وسيلةٍ لتحييدهم، أو تخفيفِ عداوتهم، وأنهم يصرّون دائماً على إيقاعِ الأذى بأصحاب الحق، ومهما حاولَ أصحابُ الحق إزالةَ العداوةِ والحقدِ عند أولئك، فلن يتمكنوا من ذلك.

ما قاله شعيب لقومه وثباته:

وقد ردَّ شعيبٌ عليه السلام على تهديدِ الملأ من قومه، وعلى

الخيارين اللذين وضعوهما أمامه بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩].

اختارَ شعيبٌ عليه السلام وأَتباعُه خيارَ الثبات على دينِ الله، ورفضوا العرضَ المقدمَ لهم للعودة إلى الباطل، واستعدّوا لتحملِ ما ينتجُ عن ذلك، وهذا هو الموقفُ الثابتُ الذي يقفُه كلُّ رسول، وكلُّ مَن ساروا بصدقٍ على طريقِ الرسول، عليه الصلاة والسلام.

قال شعيبٌ للملأ من قومه: هل تظنّون أننا كارهون لإِخراجكم لنا من قريتكم، إننا لا نكرهُ ذلك الإِخراج، ونستعدُّ له، ونعرفُ الباعثَ الذي يحملكُم عليه، إنه كرهكُم للحقِّ ولجنودِه.

أما عودتُنا لملتكم الباطلةِ ودينكم المحرَّف، فهذه لن تكون، لأننا نوقنُ أنكم كافرون ضالون، وأننا مؤمنون مهتدون. وكم نكون كاذبين على اللّهِ إنْ عُدنا إلى ملتكم بعدَ إذْ نجانا اللّهُ منها!

لقد منَّ الله علينا بنعمةِ الإِيمان، فكيفَ نعودُ إلى ما أنتم عليه من كفر؟ إنَّ هذا لن يكون، إلاّ أنْ يشاءَ اللّهُ ربنا، فنحنُ ننوي الثباتَ على الحق، وعدمَ الارتكاسِ للباطل، أما إذا شاءَ اللّهُ لنا التراجعَ والانتكاسَ والفتنة، والعودةَ لملتكم، فلا يكونُ إلا ما شاء وأراد.

إننا قد توكلْنا على الله، واعتمدْنا عليه، وسلَّمنا أمْرَنا له، وطلبْنا منه أنْ يُثبتَنا على الحق، وأنْ لا يفتِنَنا بالعودةِ للباطل، وأن يعينَنا على تحمُّلِ ما يترتبُ على ذلك مِن محنٍ وأذى.

ونطلب من الله أن يفتح بيننا وبينكم، وأن يحسمَ المواجهة بيننا وبينكم، وأنْ يمنَّ علينا بالنجاةِ والنصر، وأنْ يكتبَ عليكم الهزيمةَ والهلاك، وأن يطبقَ علينا وعليكم سنته الدائمةَ بنصرِ الحق وإزهاقِ الباطل!

وبهذا حسمَ شعيبٌ عليه السلام وأَتباعُه المسألة، وأَحْسَنوا الاختيار، وثَبَتوا على الحق، مهما كان الثمن.

الملأ يهددون أتباع شعيب:

وأمام ثباتِ شعيب على الحق. حاولَ الملأُ المستكبرون محاولَتَهم الأخيرةَ في مواجهةِ دعوتِه، حيث توجَّهوا إلى أتباعه المؤمنين، مهددين متوعدين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٠].

أرادَ الملأُ الكافرون مِن مَدْينَ بهذا التوجُّهِ للأَتباعِ، وتهديدِهم وتوعُّدِهم، أنْ يؤثروا في الأَتباع، وأَنْ يَجعلوهم يتخلَّون عن الحق، وذلك لينفضّوا عن شعيبٍ ودعوتِه.

قالوا لهم: إنْ أَصررتُم على تصديقِ شعيب وأَتباعه، فإنكم تكونون خاسِرين، خاسِرين لكلِّ شيء: سنجعلكم تَخسرون العملَ والمال، والأَمنَ والهدوء، وحتى البيت والأرض والقرية عندما نخرجكُم منها، وقد نجعلكم تَخسرون الحياةَ والدنيا، عندما نقتلكم ونتخلصُ منكم!

لما أخفقَ الملأُ الكافرون في محاولاتِهم مع الرسولِ شعيب عليه السلام، ولم يَنجحوا في زحزحتِه عن الحق، توجَّهوا إلى جنوده وأَتباعه المؤمنين، وذلك ليجفِّفوا الروافدَ حول الحق والدعوة، وليبقى شعيبٌ في النهاية وحده، ليسهلَ القضاءُ عليه.

وهذا موقفٌ مكررٌ للأَعداءِ الكافرين في حربهم للأَنبياء ودعواتِهم. فحينما كانوا يُخفقونَ مع الأنبياء والقادة كانوا يحاولونَ ذلك مع الجنودِ والأَتباع، ولكنهم كانوا يُخفقون حتى مع هؤلاء!

الملأ يطلبون عذاب الله:

لم ينجح الملأُ الكافرون في جهودِهم مع الأَتباع، فاستعملوا

السلاحَ الأخير ضدَّ شعيب ودعوته، حيث طلبوا منه عذابَ الله إنْ كان صادقاً. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٨].

اتَّهموه بالسحر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾. والمسَحَّرون هم المسحورون. تقول: هو مسحور. أي وقعَ عليه السحر، فصارَ يتصرفُ بدون عقلٍ ولا وعي.

وتقول: هو مسَحَّر. وهذا أكثرُ مبالغةً من المسحور.

اعتبروا شعيباً مُسَحَّراً مسحوراً، بدون عقل، وكلامُه لا يُعقلُ أنْ يصدرَ عن عاقلٍ في زعمهم!

واعتبروا بشريتَه مطعناً في نبوته: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فلا يقبلُ عندهم أنْ يجعلَ اللّهُ نبياً بشراً، فإنْ بعثَ اللّهُ نبياً، فلا بدَّ أنْ يكون مَلَكاً من الملائكة.

وبَنوا على ذلك نتيجةً أُخرى، وهي أنه كاذب: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. فهو عندهم كاذبٌ في دعوى النبوة والرسالة، وفي ادِّعاء أنه على هدى، وفي دعوتِه لهم للدخولِ في دينه، كاذبٌ في كلِّ ما يقولُه لهم!

وبما أنه كاذبٌ في تهديدِه لهم بوقوعِ العذاب بهم، فلن يقعَ بهم ذلك العذاب، ولذلكَ طلبوا منه أنْ يوقعَ بهم العذاب في صورةٍ عجيبة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

والكِسَفُ هي: القِطعَ، ومفردُها كِسْفَة وهي القطعة.

قال الإمام الراغب: «الكِسْفَة: قِطعةٌ من السَّحاب والقُطن، ونحو ذلك من الأجسامِ المتخلخلةِ الحائلة، وجمعُها كِسَف»[1].

(١) المفردات: ٧١١.

إنْ كنتَ يا شعيبُ نبياً كما تقول، فقَطِّع السماءَ إلى قِطَع متفرقة، ثم أَسقِطْها علينا كسفاً متتابعة، وقِطَعاً متكاثفة، ليكونَ فيها هلاكُنا ودمارُنا وموتنا.

وقد ردَّ شعيبٌ عليه السلام على هذه السخرية بأنْ أَخبرهم أن هذا بيدِ الله، وهو يعلمُ كلَّ ما يصدرُ عنهم من جرائم: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

[٧]
تعذيب مدين بالرجفة والصيحة والظلة

بعدما هددَ الملأُ من قوم مدين بإخراجِ شعيبٍ وأَتباعه من قريتهم، وبعدما كذَّبوه، وطَلبوا منه أنْ يأتيهم بعذابِ الله، وأنْ يُسقطَ عليهم السماءَ كِسَفاً، وصلتْ قصةُ شعيبٍ عليه السلام مع قومه إلى نهايتها، فقد أقامَ عليهم الحجة، وبلَّغهم الدعوة، وأَصرّوا على كفرهم وعنادِهم، وانتهى كلُّ شيء.

عند ذلك أَتاهم أَمْرُ الله، وحقَّتْ عليهم سنةُ الله، فأَوقعَ اللّهُ بهم العذابَ والدمار. وأنجى شعيباً عليه السلام وأَتباعَه المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١ ـ ٩٢].

تشيرُ هذه الآياتُ إلى أنَّ اللّهَ عذَّبهم بالرجفة.

أخذهم بالرجفةِ: حركة الساكن أسكنت المتحرك:

قال الراغب عن الرجفة: الرجف: الاضطرابُ الشديد. يقال: رَجفت الأرض، ورجفَ البحر»[١].

---

(١) المفردات: ٣٤٤.

لقد حركَ اللّهُ الأرضَ من تحتهم حركةً قوية، فاضطربتْ اضطراباً شديداً، ووقعت الصيحةُ والزلزال، فقضتْ عليهم وأَبادَتْهم، وأَصبحوا في ديارهم جاثمين، جُثثاً هامدة، بدون حركةٍ أو حياة.

إنَّ الأصلَ في الأرضِ أن تكونَ ساكنةً هادئةً مستقرة، والأصلُ في الناسِ أن يكونوا متحركين نشيطين، أَقوياءَ أحياء.

ولكنَّ اللّهَ لما عذبَ قومَ مدين، حركَ الأرضَ الساكنة، فقضتْ على حركةِ القوم فوقَها وأَسكنَتْهم، أي: تحركَ الساكنُ المستقرُ فأسكن المتحرك، وجعَلَه جاثماً هامداً.

وعقَّبت الآياتُ على هلاكهم بقولها: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

قال الإمام الراغب: «غَنَىٰ في مكانٍ كذا: إذا طالَ مقامُه فيه، مستغنياً فيهِ عن غيره بغِنى. قال: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾»[1].

لقد كانَ قومُ مدين في بلادِهم أغنياءَ سعداء، أعطاهم اللّهُ فيها ما أَعطاهم من النعمِ والخيرات، فاستغنوا في بلادهم، وأقاموا فيها إقامةً مستقرة، وعاشوا فيها حياةً هانئة.

وكانَ عليهم أنْ يشكروا اللّهَ على نِعَمه، لتبقى تلك النعمُ عليهم، وليستمروا في إِقامتهم أغنياءَ مستغنين.

ولكنهم قابَلوا تلك النعمَ بالجحود والكفران، فزالتْ عنهم، وعَذَّبهم الله، وقضى عليهم، فكأَنَّهم لم يغنوا في بلادهم، لم يُقيموا فيها، ولم يَعيشوا عليها، ولم يَستغنوا بها، وغادروها إلى لعنةِ الله وعذابه.

من هم الخاسرون ومن هم الفائزون:

لقد كانَ الملأُ المستكبرون من مدين يقولون للذين آمنوا بشعيب:

---

(١) المفردات: ٦١٦.

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

والآن: أنجى اللّهُ المؤمنين الذين اتَّبعوا شعيباً، فكانوا فائزين مُفلحين ناجحين، ولم يكونوا خاسرين. أمّا الذين كَذَّبوا شعيباً وعادوه وحاربوه فها هم هلكى، في ديارهم جاثمين هامدين أموات.

فمن هم الخاسرون؟ هل هم الذين آمَنوا بشعيب فأَنجاهم الله؟ أم هم الذين كَذَّبوه فأهلكهم الله؟ الجوابُ صريح في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

وبينما أَخبرتْ آياتُ سورةِ الأعراف أن اللّهَ أهلكَ قوم مدين بالرجفة، فقد أَخبرتْ آياتُ سورة هود أن اللّهَ أهلكهم بالصيحة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

أخذهم بالصيحة والزلزلة والظلة:

أنجى اللّهُ شعيباً عليه السلام وأَتباعَه المؤمنين بفضله ورحمته، وأخذَ الكافرين بالصيحة فأهلكهم، حيث أَصبحوا في ديارهم جاثمين هامدين، كأن لم يَغنوا ولم يُقيموا ولم يسكنوا ولم يستغنوا في قريتهم.

قال الإِمام الراغب في الصيحة: الصيحةُ رفعُ الصوت. وأَصْلُها: تشقيقُ الصوت. من قولهم: انْصاحَ الخشب أو الثوب. إذا انشقَّ فسُمع منه صوت..»[1].

والصيحةُ التي أَخذهم الله بها هي صوتُ الزلزلة العالي، الناتجُ عن رجف الأرض وانشقاقها، حيثُ رجفت الأرضُ بهم، وحصلَ الزلزالُ المدمر، وبعد ذلك الزلزال والانشقاق جاءت الصيحةُ الشديدة،

(١) المفردات: ٤٩٦.

التي كانت سبباً في هلاكهم.

وقد ذكَّرَتْنا الآياتُ بإهلاك ثمود. فقالت: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

لقد دمَّرَ اللّهُ ثمود من قبل، فأَبعدهم من المكان والأرض، وأَبعدهم من الوجود والحضور، وأَبعدهم من التاريخ والذكر، والآن دَمَّرَ مدين، فأبعدَها من كل ذلك، كما أبعدَ من قبلها.

لكن لماذا ذِكْرُ ثمود في هذه الآيات؟ وقد دَمَّرَ اللّهُ أقواماً كافرين غيرها، كقومِ عاد، وقوم لوط.

ذِكْرُ ثمود هنا لاشتراكِ مدينَ مع ثمودَ في نوعِ العذاب الواقع بهم:

قال تعالى عن ثمود: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال تعالى عن مدين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

أما سورةُ الشعراء فقد أخبرتْ أن اللّهَ دمَّرَ قومَ مدين بالظلة، وسماهم أَصحابَ الأيكة. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧].

ثم قال عن تعذيبهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

والظلةُ هي السحابة التي تظلِّلُ الناس، عندما تكون فوقَهم في السماء، فتجعلُ لهم ظلاً وفَيْئاً.

وهذه الظلةُ التي فوقَ مدين ظلةُ عذاب، وهي ناتجةٌ عن الرجفة والصيحة. حيثُ أعقبَ الصيحةَ والزلزلة، خروجُ دخانٍ بركاني كثيف،

ارتفعَ في الجو، وظلَّلهم، وصارَ سحابةً بركانية قاتلة، أبادتْهم وقضتْ عليهم

ولا تناقضَ أو تعارضَ بين ما ذكرتْه السورُ الثلاثة: الأعراف وهود والشعراء. عن تعذيب قوم مدين.

أَخبرتْ سورةُ الأعرافِ أن اللّهَ عَذَّبهم بالرجفة، وأَخبرتْ سورةُ هود أن اللّهَ عَذَّبهم بالصيحة، وأَخبرتْ سورة الشعراء أن الله عذبهم بالظلة.

فما الحكمةُ في تفاوت هذه الأخبار؟

حجة من جعلهم قومين: مدين وأصحاب الأيكة:

لقد دفعَ هذا التفاوتُ بعضَ المؤرخين والمفسرين إلى القول: إن اللّهَ بعثَ شعيباً إلى قوميْن اثنيْن. فبعثه أَوَّلاً إلى قومِ مدين، وهم قومُه وأهلُه، فلما كذَّبوه عذَّبهم الله بالرجفة والصيحة، كما أخبرتْ سورتا الأعراف وهود.

وبعد ذلك وجَّهه اللّهُ إلى قومِ آخرين كافرين، هم أصحابُ الأيكة، وهم قوم كانوا يَعبدون صنَماً اسمُه الأيكة، فلما كذَّبوه، أَخذهم اللّهُ بالعذاب، وهو عذابُ يوم الظلة، كما أخبرت سورة الشعراء.

واستَشهدوا لرأيهم هذا بأنَّ الآيات أخبرتْ أن شعيباً أَخو مدين، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

بينما لم تُخبرْ أنَّ شعيباً هو أخٌ لأصحاب الأيكة، ولم يقل لهم شعيب: يا قوم، كما قالَ لقومه مدين. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧].

الراجح أن مدين هم أصحاب الأيكة وكلام لابن كثير:

ولسْنا مع هؤلاءِ في رأيهم، ولا في استشهادهم واستنتاجهم، فالراجحُ أنَّ شعيباً عليه السلام بُعثَ إلى قومِه مدين، ومدين هم أنفسُهم أصحابُ الأيكة، وأنَّ اللّهَ دمَّرَ مدين أصحابَ الأيكة بعذابٍ واحد، هو الرجفة والصيحة والظلة.

إننا معَ الإمام ابن كثير في ما قالَه حولَ ذلك: «ذكرَ اللّهُ في سورة الأَعراف أنهم أَخذتْهم رجفة، أي: رجفتْ بهم أرضُهم، وزُلزلتْ زلزالاً شديداً، أَزهقتْ أَرواحَهم من أجسادهم، وصيَّرَت حيوانَ أرضهم كجمادها، وأَصبحتْ جثثُهم جاثية، لا أرواحَ فيها، ولا حركات بها، ولا حواسَّ لها.

وقد جمعَ اللّهُ عليهم أَنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المَثُلات، وأشكالاً من البليّات، وذلك لما اتصفوا به من قبيحِ الصفات.

سلطَ اللّهُ عليهم رجفةً شديدة، أسكتت الحركات، وصيحةً عظيمة أَخمدت الأصوات، وظلةً أَرسلَ عليهم منها شررَ النارِ من سائر أرجائهم والجهات.

ولكنه تعالى أخبرَ عنهم في كل سورة بما يناسبُ سياقها، ويوافقُ طباقَها:

في سياقِ قصة الأعراف أَرجفوا نبيَّ الله وأصحابَه، وتوعَّدوهم بالإِخراج من قريتهم، أو ليعودون في ملَّتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. فقابلَ الإِرجافَ بالرجفة، والإِخافةَ بالخيفة، وهذا مناسبٌ لهذا السياق، ومتعلقٌ بما تقدمه من السياق.

وأما في سورةِ هود: فذكَرَ أَنهم أَخذتْهم الصيحة، فأَصبحوا في ديارهم جاثمين. وذلك لأنهم قالوا لنبيِّ الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقُّص: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧)﴾

فناسبَ أنْ يَذكر الصيحة، التي هي كالزجرِ عن تعاطي هذا الكلامِ القبيح، الذي واجَهوا به هذا الرسولَ الكريم الأمينَ الفصيح، فجاءتهم صيحةٌ أسكتَتْهم، مع رجفةٍ أسكنتهم.

وأما في سورةِ الشعراء: فذكَرَ أنه أخذهم عذابُ يوم الظلة، وكان ذلكَ إجابةً لما طلبوا، وتقريباً لما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٨٨)﴾. قال تعالى وهو السميع العليم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)﴾.

ومن زعمَ من المفسِّرين، كقتادة وغيره: أنَّ أصحابَ الأيكةِ أُمةٌ أُخرى غير أهل مدين، فقولُه ضعيف.

وإنما عمدتُهم شيئان:

أحدُهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٧٦) إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧)﴾ ولم يقل: أخوهم. كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾.

والثاني: أنه ذكرَ عذابهم بيومِ الظلة، وذكَر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجوابُ عن الأول: أنه لم يذكر الأُخوة، بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٧٦)﴾ لأنه وصفَهم بعبادةِ الأيكة، فلا يناسبُ ذكْرَ الأخوةِ ههنا. ولما نَسبهم إلى القبيلةِ ساغَ ذكْرُ شعيبٍ بأنه أخوهم.

وهذا الفرقُ من النفائسِ اللطيفة العزيزة الشريفة!

وأما احتجاجُهم بيوم الظلة، فإنْ كان دليلاً بمفردِه على أن هؤلاء أمةٌ أخرى، فليكنْ تعدادُ الانتقام بالرجفةِ والصيحة دليلاً على أنهم أُمَّتان أُخريان. وهذا لا يقولُه أحدٌ يفهَمُ شيئاً من هذا الشأن!

ثم قد ذكرَ اللّهُ عن أهلِ الأيكة من المذمَّةِ ما ذكَره عن أهل

مدين، من التطفيفِ في المكيالِ والميزان. فدلَّ على أَنهم أمةٌ واحدة، أُهلكوا بأنواعٍ من العذاب. وذَكَر في كل موضعٍ ما يناسبه من الخطاب..»[1].

مدين هم أصحاب الأيكة وتعذيبهم على ثلاث مراحل:

إذن: الراجحُ أنَّ قومَ مدين هم أصحابُ الأيكة، وهم الذين أهلكَهم اللّهُ بالرجفة، التي نتَج عنها الصيحة، وهي التي نتجَ عنها الظلة.

وكان عذابُهم على ثلاثِ مراحل متعاقبة متدرجة:

المرحلةُ الأولى: الرجفة: حيثُ رجفت الأرضُ من تحتهم، وتحركتْ بهم حركةً شديدة، وزُلزلتْ بهم زلزلةً قوية.

المرحلةُ الثانية: الصيحة: حيثُ نتجَ عن رجفةِ الأرض وزلزلتِها وتشقُّقها صيحةٌ عاليةٌ، وصوتٌ مرتفعٌ مُدَوٍّ، وانفجارٌ كبير، أفزعهم وأخافَهم وأرعبهم.

المرحلةُ الثالثة: الظلة: وهي السحابةُ البركانية الحارقة، المكونةُ من الدخان الزلزالي، الذي تصاعدَ من زلزالِ الأرض وتشقُّقها، والذي أعقبَ الصيحةَ المدوية والانفجار الكبير.

وبهذا نعرفُ أنه لا تناقضَ أو تعارضَ بين الإِخبار عن تدميرهم بالرجفةِ والصيحة والظلة.

شعيب يخاطب مدين بعد موتهم:

وبعدما دمرَ اللّهُ قومَ مدين بالعذاب، وأَنجى شعيباً عليه السلام ومَن آمن به، وقفَ شعيبٌ عليه السلام على أطلالِ قومه الهالكين، وكلَّمهم وهم موتى هامدون، ساخراً بهم، مُعقباً على دمارهم.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٩٣ ـ ١٩٤.

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

قال يخاطبُ الجثثَ الهامدة: يا قوم، لقد أبلغتُكم رسالاتِ ربي، وأقمتُ عليكم الحجة، ودعوتُكم إلى الله، وبذلتُ أقصى طاقتي في نصحكم والحرصِ عليكم، ودَلَلْتكُم على طريقِ النجاة، وحذَّرتكم من هذا العذاب الذي وقعَ بكم، وهذا المصير الذي صرتُم إليه.

لكنكم قابلْتُم دعوتي بالإِنكار، وتحذيري بالسخرية، وكذَّبتم ما أخبرتكم عنه، وأصررْتُم على العنادِ والتكذيب، والإِعراضِ والكفر. وبذلك جنيتُم على أنفسكم، واستقدمتم العذاب، فكيف آسى عليكم؟ وكيف أحزنُ عليكم؟

إنكم تستحقونَ ما وقعَ بكم، وأنتم السببُ في ما انتهيتم إليه، فبئسَ المصيرَ مصيرُكم، وبئست النهايةُ نهايتكم!!.

ولا غرابةَ أنْ يخاطبَ شعيبٌ عليه السلام قومَه الموتى بعد موتهم بقوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ لأنه يعلمُ أنهم الآن ـ بعد موتهم ـ يَسمعون كلامَه، ولكنهم لا يقدرون على الردِّ عليه، لانتقالِهم إلى مرحلةِ البرزخِ والقبر، حيث يسمعُ الأمواتُ كلامَ الأحياء، لكنهم لا يردّون عليهم.

وهذا ما فعلَه رسولُ الله محمد ﷺ مع قتلى المشركين من قريشٍ في معركةِ بدر، بعدما دَفنهم في القليب.

روى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسولَ الله ﷺ تركَ قتلى بدرٍ ثلاثاً، ثم أَتاهم، فقامَ عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أميةَ بن خلف، يا عُتبةَ بن ربيعة، يا شيبةَ بن ربيعة: أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقاً؟ فإنّي قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً.

فسمعَ عمرُ قول النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يسمعون، وأنّى يُجيبون وقد جَيّفوا.

قال: والذي نفسي بيده، ما أَنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يَقدرون أنْ يجيبوا...»[1].

فما فعلَه شعيبٌ عليه السلام مع قومه الكفار بعد موتهم، هو ما فعلَه محمدٌ ﷺ مع قومه الكفار بعد موتهم. والله أعلم.

بقاء آثار قوم مدين عبرة:

وبعدما دمَّرَ الله قومَ مدين أصحابَ الأيكة، أَبقى ديارهم آيةً لمن بعدهم، وديارُهم على طريقِ التجارِ العرب المشركين إلى بلادِ الشام، كديارِ قوم لوط.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾ [الحجر: ٧٨ ـ ٧٩].

تسجلُ الآياتُ على قومِ مدين ظلمَهم كقوم لوط، وتخبرُ أن اللّهَ أَبقى آثارهم آيةً وعبرةً لمن بعدهم، كما فعلَ مع آثارِ قوم لوط.

وجمعَ القوميْن معاً، وجمعَ ديارَهما وآثارهما معاً، في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

فضميرُ المثنى في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعودُ على ديارِ قوم لوط، وديار قوم مدين. حيثُ كان الكلامُ في الآياتِ السابقة عن تدميرِ قومِ لوط، وذلك في آيات: ٦١ ـ ٧٧. ثم تكلمَ عن تدميرِ أصحابِ الأيكة، ثم قال عنهما: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

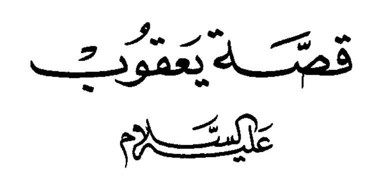
---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٨٧٤. وانظر كتاب صحيح السيرة النبوية للأستاذ إبراهيم العلي. حديث رقم: ٢٧٤.

ومعنى «إمام» هنا: الطريق. لأنَّ ديارَ مدين، وديارَ قوم لوط، على الطريقِ الكاشف، والإِمامِ المبين، الذي كان يسلكُه العرب، في تجارتهم إلى الشام.

وأَزالَ اللّهُ قومَ مدين من الوجود، كما أزالَ الكفارَ من قبلهم: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾. والحمدُ لله رب العالمين.




قصة يعقوب
عليه السلام



[١]

يعقوب النافلة عليه الصلاة والسلام

هو يعقوبُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام، ابنُ إسحاق النبي عليه الصلاة والسلام. وجَدُّه هو إبراهيمُ النبي عليه الصلاة والسلام، وعمُّه هو إسماعيلُ النبي عليه الصلاة والسلام، وابنُه هو يوسفُ النبي عليه الصلاة والسلام.

فهؤلاء خمسةُ أنبياء من عائلة واحدة عليهم الصلاة والسلام، وبيتُهم هو بيتُ نبوة ورسالة، بيتُ علم وفضل، بيت نور وهدى.

بشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب:

وقد أسبغَ اللّهُ على أهلِ هذا البيت نِعَمه، ومنحهم فضْلَه. وأَخبرت الملائكةُ «سارةَ» زوجَ إبراهيم بهذا الفضل، وذلك لما بشَّروها بإسحاق، فاستغربت وتعجبت. قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧١ ـ ٧٣].

والشاهدُ في الآيات قولُ الملائكة لسارة رضي الله عنها: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

فاللّهُ قد أحلَّ رحمته على أهلِ بيت إبراهيم عليه السلام، ونشرَ عليهم بركاته ونعمه، وأهْلُ هذا البيت من أفضلِ الناس عند الله، وهذا البيتُ من أَشرفِ البيوت وأكرمِها عند الله، لأنه بيتُ النبوةِ والدعوة، والعبادة والطاعة.

وهؤلاء الأنبياءُ كِرام، الأبُ والابنُ والحفيدُ وابنُ الحفيد. فالأبُ إِبراهيم، والابنُ إسحاق، والحفيدُ يعقوب، وابنُ الحفيد يوسف، عليهم الصلاة والسلام.

وقد أخبرَنا عن ذلك رسولُ الله ﷺ. فروى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسولَ الله: مَنْ أكرمُ الناسِ؟

قال: «أكرمُ الناس أتقاهم».

فقالوا: ليس عن هذا نسألُك.

قال: فأكرمُ الناس: يوسف نبيُّ الله، ابنُ نبي الله، ابنِ نبي الله، ابنِ خليل الله».

قالوا: نعم.

قال: «فخيارُهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»[1].

وفي حديثٍ آخر رواه البخاريُّ وغيره عن عبدِ الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم: يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم. عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

إنَّ رسولَنا محمداً ﷺ يخبرُنا عن هذه السلسلة المباركة الكريمة، في هذا البيتِ المبارك الكريم.

وبما أنَّ أكرمَ الناس عند الله أَتقاهم، فقد كان هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام هم أَتقى الناسِ لله، وأخشاهم له.

تُقررُ آياتُ القرآن الكريم أن اللّهَ بعثَ الملائكةَ لتخبرَ إبراهيمَ عليه السلام بذهابها لتدميرِ قوم لوط، وتبشِّرَه هو وزوجَه سارة بأن اللّهَ سيهبُه إسحاق، ثم سيهبُ إسحاقَ ابنه يعقوب، عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥٣. ومسلم برقم: ٢٣٧٨. انظر «الأحاديث الصحيحة» رقم: ١١٤ ورقم: ١٦٩.

إبراهيم وزوجه سيدركان حفيدهما:

لقد بشَّرت الملائكةُ سارةَ بأنها ستنجبُ ابنَها إسحاق، وبما أنها عجوزٌ عقيم، فإنها تظنُّ أنها لن تبقى حيةً حتى يكبرَ ابنُها إسحاق، وتظنُّ أنها ستموتُ في طفولته، وأنه سيعيش يتيماً. وقد طمأنَتْها الملائكة، وأخبرَتْها أنها ستلدُ إسحاق، وستبقى حية حتى يكبرَ إسحاق، وستشهدُ زواجَه، ثم ستشهدُ ولادةَ ابنه يعقوب، وستطمئنُّ برؤيةِ حفيدِها.

وهذا تكريمٌ من الله لها، لإيمانِها وتسليمها وجهادِها وصبرها.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

وكما بشَّرَ اللّهُ سارةَ بإسحاق ثم بيعقوب حفيدها، كذلك بَشَّرَ ابراهيمَ عليه السلام بذلك.

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٧١ ـ ٧٢].

وهبَ اللّهُ إسحاق لإبراهيم عليهما السلام على كِبَر، وشكَرَ إبراهيمُ ربَّه على هذه النعمة، وسجلتْ آياتُ القرآن شكرَه لربه. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وبما أنَّ إسحاق سيوهَبُ لإبراهيم على كِبَر، فقد طَمْأنَ اللّهُ إبراهيمَ بأنه سيبقى حياً حتى يكبرَ إسحاق، وحتى يتزوجَ إسحاق، وحتى يولَدَ ابنُه يعقوب،، وستقرُّ عينُ الجدِّ إبراهيم برؤيةِ حفيده يعقوب، وسيشبُّ الحفيدُ في حياة جده، عليهم الصلاة والسلام.

فمن كمالِ فضلِ الله على إبراهيم أنه بشَّره بولادةِ ابنه، ثم بولادة حفيدِه، في حياته.

ووصفت الآيةُ يعقوبَ بأنه نافلة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾.

والراجحُ أنَّ الواوَ في جملة «ويعقوب نافلة» عاطفة، و«يعقوب» معطوفٌ على «إسحاق». أي: وهَبْنا لإبراهيم كُلًّا من إسحاق ويعقوب.

والراجحُ أن كلمةَ «نافلة» حالٌ منصوب من يعقوب. وليست حالاً من إِسحاق ويعقوب معاً، لأنَّ إسحاقَ لم يكن نافلةً لإبراهيم، فهو ابنُه من صلبه، والنافلةُ هو يعقوبُ فقط.

معنى كون يعقوب نافلة:

لقد أرادَ إبراهيمُ الولد، فبشَّره اللهُ بابنه إسحاق، وزادَ اللّهُ له في الإِنعام والبشارة، فوهبَ له حفيدَه يعقوب، وجعَلَه «نافلة».

والنافلةُ مشتقٌّ من «النَّفْل»، والنفلُ هو الزيادة، وكلُّ تصريفاتِ الكلمة تدلُّ على هذا المعنى. مثل: الأنفال والنوافل..

ومعنى كونِ يعقوبَ نافلة: أنَّ البشارةَ به زائدةٌ على البشارةِ بأبيه إسحاق، فالبشارةُ بإسحاق هي المقصودةُ في المقام الأول، ولكنَّ اللهَ زادَ البشارةَ لإبراهيم فبشَّره بحفيدِه يعقوب، وطمأنَه بأنه سيدركُه وسيشهدُ حياته ـ لما سبق أن قلنا ـ.

ووصْفُ القرآنِ يعقوبَ بأنه نافلة، دليلٌ على إِطلاقِ النافلةِ على وَلَدِ الولد.

ومما يدلُّ على أنَّ اللَّهَ وهبَ إبراهيمَ كُلًّا من إسحاقَ ويعقوبَ تكريماً له، وجزاءً له على نصرته للدين، ودعوتِه إلى رب العالمين، ومواجهته للظالمين، قولُ الله عز وجل عن قصتِه مع أبيه وقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨ ـ ٤٩].

لقد رتبت الآيةُ الهبةُ الربانيةَ لإبراهيم بإسحاق ويعقوب على اعتزالِه لقومه الكافرين، ومفاصلتِهم والبراءةِ منهم، لأنهم عبدوا غيرَ الله.

مبهمات في قصة يعقوب عليه السلام:

لم يُفصل القرآنُ كثيراً في قصةِ يعقوبَ عليه السلام، من حيث ولادتُه ونشأتُه وشبابُه وإقامتُه، وإنما ذكرَ إشاراتٍ موجزة عن صلتِه بابنه يوسف وأبنائه الآخرين، ومعظمُ هذه الإشارات في قصةِ يوسف عليه السلام، وسنقفُ عندها في موضعها إن شاء الله.

هناكَ «مبهمات» في قصةِ يعقوب عليه السلام، لا بيانَ لها في آياتِ القرآن، ولا في أحاديثِ رسول الله ﷺ.

وإننا نعلمُ أنَّ هذه المبهمات مبينةٌ في «سَفْر التكوين» من أَسفارِ العهد القديم، ومُبَيَّنَةٌ في الإسرائيليات وغيرِها من أخبارِ أهل الكتاب، ونعلمُ أن كثيراً من المؤرخين والمفسرين والإخباريين المسلمين قد رجعوا إلى هذه الإسرائيليات، وأَخذوا منها بيانَها لهذه المبهمات.

ولكننا لا نرى الذهابَ إلى تلك الإسرائيليات، ولا اعتمادَ ما فيها من أخبارٍ وأساطير، وسنبقى مع المنهج العلمي المأمون، في التعاملِ مع القَصص القرآني، وأخْذِ أحداثِها من الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة.

من هذه المبهمات التي لا بيانَ لها عندنا:

اسمُ أمه. عمرُ والده إسحاق عند ولادته. تحديدُ مكانِ وزمان ولادته. هل له إخوان أو أخوات. لماذا سمي يعقوب. تفاصيلُ طفولته ونشأته وشبابه. تفاصيلُ حياته وأعماله. تفاصيلُ رحلاته وتنقلاته. اسم زوجته أو زوجاته ونوعُ قرابتها له. توزيعُ أبنائه على زوجاته. تَحْدِيدُ أَسْمَاءِ أبنائه، تفاصيلُ وفاتِهِ، تحديدُ عمره عند وفاته. تحديدُ زمان ومكان وفاته. تحديدُ قبره الذي دُفن فيه. سببُ تسميته إسرائيل. ومعنى هذا الاسم.

[٢]

إسرائيل هو يعقوب والذي حرمه على نفسه

ذكرَ القرآنُ ليعقوب اسمين: يعقوب وإسرائيل.

أما يعقوب فهو اسمُ علمٍ أعجمي، وهو ممنوعٌ من الصرف للعلمية والعجمة.

وكونُه أعجمياً يدعونا إلى أن لا نبحثَ له عن معنى في العربية، ولا نلتفتُ إلى الإسرائيلياتِ التافهة في تعليلِ تسميته بيعقوب.

مواضع ورود يعقوب في القرآن:

وردَ «يعقوب» ستَّ عشرة مرة في القرآن.

وردَ في السور المكية التالية:

في سورة يوسف ثلاثَ مرات. في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام.

وفي سورة مريم مرتين. مرةً في الإخبار عن إبراهيم عليه السلام، ومرةً في دعاء زكريا عليه السلام طالباً من ربه الولد.

وفي سورة هود مرة. في الإخبارِ عن بشارةِ سارة بإسحاق ثم بيعقوب.

وفي سورة الأنبياء مرة. في الإخبارِ عن بشارة إبراهيم بإسحاق ثم بيعقوب.

وفي سورة العنكبوت مرة. في الإخبارِ عن جعْلِ الله النبوةَ في ذرية إبراهيم وحفيدِه يعقوب.

وفي سورةِ ص مرة. في جمْعِ الكرام الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

أما السور المدنية التي ذكر فيها فهي:

سورةُ البقرة، وذكر فيها أربعَ مرات. وذلك في معرض الحديثِ عن إسلامه، ووصيته لأولادِه وهو على فراش الموت بالإسلام والموتِ عليه، ودعوةِ ذريته إلى الدخول في الإسلام، والإيمانِ بجميع الكتب المنزلة، وبجميع الرسل المبعوثين، ويلزمُ من هذا اتباعُ اليهودِ لرسول الله محمد ﷺ ودخولُهم في دينه.

وسورةُ آل عمران، حيثُ ذكر فيها مرةً واحدة، في معرضِ دعوةِ أهل الكتاب إلى الإيمان بكلِّ الأنبياء وما أنزل عليهم.

وسورةُ النساء، حيث ذكر فيها مرة واحدة، أثناء ذكْرِ أسماء مجموعة مباركة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ذكر اسمه الثاني إسرائيل في القرآن:

والاسمُ الآخر ليعقوب هو «إسرائيل». وقد ذُكر في القرآن مرتين:

الأولى: في سورة آل عمران، عند الحديثِ عن ما حرَّمه على نفسه، وما حرَّمه اللّهُ على بني إسرائيل.

الثانية: في سورة مريم، عند الحديثِ على شجرةِ النبوة، المتفرعةِ عن إبراهيم وعن يعقوب عليهما السلام.

وسنعودُ للحديث عن هاتين الآيتين بعد قليل، إن شاء الله.

و«إسرائيل»: اسمُ علم أعجمي، ولهذا لا نبحثُ له عن معنى في العربية، مثلُه مثلُ يعقوب.

ولا نلتفتُ هنا إلى الروايةِ الإسرائيلية الكافرة، التي دوَّنَها الأحبارُ اليهود الكفار في سَفرِ التكوين من العهد القديم، والتي زَعموا فيها أنَّ يعقوبَ قد صارعَ الربَّ ليلاً، وأنه قد صرعَ الربَّ عدةَ مرات، وأن الربَّ المصروعَ المغلوبَ باركَه وبارك بَنيه، وجعلَ الأرضَ المقدسة لهم إلى قيام الساعة، ومنذ تلك الليلة غيَّرَ اللّهُ اسمَه من يعقوب إلى إسرائيل، ومعناه الذي: جاهدَ الربَّ وصارعَه!!!

لا نلتفتُ إلى هذا السخفِ من الكلام، لأنه كفرٌ بالله، وإن اليهودَ كفار، عندما زَعموا أن أباهم يعقوبَ أَقوى من الله!!!.

إن اليهودَ قد بلغوا الغايةَ المرذولة في الكفر، فكيفَ يظنونَ أن الربَّ يتحولُ إلى صورة إنسان، وأنه ينزلُ إلى الأرض على هذه الصورة، وأنه يرضى أنْ يصارعَه إنسان، وأنه يضعفُ أمامَ هذا الإنسان، وأنَّ هذا الإنسانَ يصرعُه ويغلبه، لأنه أبو اليهود!! فما هذه النظرةُ اليهوديةُ لله؟؟

الذي حرمه إسرائيل على نفسه:

قالَ اللّهُ عز وجل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣].

أنزلَ اللّهُ هذه الآيةَ في مجادلةِ الرسولِ ﷺ لأهل الكتاب، وبالذاتِ اليهود، بشأن يعقوبَ عليه السلام، وما حرَّمه على نفسه تقرُّباً إلى الله عز وجل.

وتُكذِّبُ هذه الآيةُ وما بعدَها اليهودَ في مزاعمهم وأكاذيبهم حول يعقوب عليه السلام.

وقبلَ أنْ نتكلمَ عن معنى الآية نعيشُ مع مناسبة نزولها، لنستحضرَ الجوَّ الذي نزلَتْ فيه:

مناسبة نزول الآية:

روى الترمذيُّ وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرتْ عصابةٌ من اليهود نبيَّ الله يوماً. فقالوا: يا أبا القاسم: حَدِّثْنا عن خِلالٍ نسألُك عنهن، لا يعلمهنَّ إلا نبي.

قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمةَ الله، وما أَخذَ يعقوبُ على بنيه، لئن حدثْتُكم شيئاً فعرفتمُوه لتتابِعُنّي على الإسلام.

قالوا: فذلك لك.

قال: فسَلوني عما شئتم.

قالوا: أَخْبِرْنا عن أربعِ خلالٍ نسألك عنهن: أَخبِرْنا أي الطعام حرمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أنْ تنزلَ التوراة؟ وأخبرْنا كيف ماءُ الرجل وماءُ المرأة، كيف يكونُ الذكر منه؟ وأخْبِرْنا كيف هذا النبيُّ الأمي في النوم؟ ومَنْ وليُّه من الملائكة؟

قال: فعليكم عهدُ الله وميثاقُه لئن أنا أخبرتكم لتتابِعُنّي!

فأعطوه ما شاءَ من عهدٍ وميثاق.

قال: فأنشدكم بالذي أَنزلَ التوراةَ على موسى ﷺ: هل تعلمونَ أن إسرائيلَ يعقوبَ عليه السلام مرضَ مرضاً شديداً، وطالَ سقْمه، فنذرَ لله نذراً، لئن شفاهُ الله من سقمه، ليُحرِّمنَّ أحبَّ الشراب إليه، وأحبَّ الطعام إليه. وكان أحبُّ الطعام إليه لَحْمانَ الإبل، وأحبُّ الشرابِ إليه ألبانَها؟

قالوا: اللهمَّ نعم.

قال: اللهم اشْهَدْ عليهم. فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزلَ التوراة على موسى: هل تعلمون أن ماءَ الرجل أبيضُ غليظ، وأن ماءَ المرأة أصفرُ رقيق، فأيهما عَلا كان له الولدُ والشبهُ بإذن الله، إنْ عَلا ماءُ الرجل على ماءِ المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإنْ عَلا ماءُ المرأة على ماءِ الرجل كان أنثى بإذن الله؟

قالوا: اللهمّ نعم.

قال: اللهمّ اشْهَدْ عليهم. فأنشدكم بالذي أنزلَ التوراة على موسى: هل تعلمون أن هذا النبيَّ الأميَّ تنامُ عيناه ولا ينام قلبه؟

قالوا: اللهم نعم.

ثم قالوا: وأنتَ الآن فحدِّثْنا مَنْ وليُّك من الملائكة؟ فعندَها نجامعك أو نفارقك.

قال: فإنّ وليّي جبريلُ عليه السلام، ولم يَبعث اللّهُ نبياً قط إلاّ وهو وليّه.

قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليُّك سواه من الملائكة لتابَعْناك وصدَّقْناك!!

قال: فما يمنعكم مِن أنْ تصدِّقوه؟

قالوا: إنه عدوُّنا.

قال ابنُ عباس: فعند ذلك قالَ اللّهُ عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ٩٧ ـ ١٠١].

رواية ثانية في مناسبة نزولها:

وقد رُويتْ هذه الحادثةُ بلفظٍ آخر عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: أَقبلت اليهودُ إلى رسولِ الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم: إنا نسألك عن خمسةِ أشياء، فإنْ أنبأتَنا بهن، عرفْنا أنك نبي، واتَّبعناك.

فأَخذَ عليهم ما أَخذَ إسرائيلُ على بنيه إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ثم قال لهم: هاتوا.

قالوا: أخبِرْنا عن علامةِ النبي؟

قال: تنامُ عيناه ولا ينامُ قلبه.

قالوا: أخبِرْنا كيفَ تُؤنِثُ المرأة وكيف تُذْكِر؟

قال: يلتقي الماءان، فإذا عَلا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكَرت، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنَثَتْ!

قالوا: أخبِرْنا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه؟

قال: كان يشتكي عرقَ النسا، فلم يجدْ شيئاً يلائمُه إلاّ ألبانَ ولحومَ الإبل، فحرَّمَ اللهُ لحومَها.

قالوا: صدقت. فأخبِرْنا ما هذا الرعد؟

قال: مَلَكٌ من ملائكةِ الله عز وجل، موكَّلٌ بالسحاب، في يده مِخراق من نار، يزْجرُ به السحاب، يسوقُه حيث أمرَ الله.

قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمع؟

قال: هو صوتُه.

قالوا: إنما بقيتْ واحدة، وهي التي نبايعُك إن أَخْبرتَنا بها، فإنه ليسَ من نبيٍّ إلا له ملَكٌ يأتيه بالخبر، فأخبِرْنا من صاحبُك؟

قال: جبريلُ عليه السلام.

قالوا: ذلك الذي ينزلُ بالحرب والقتال والعذاب، وهو عدوُّنا. ولو قلتَ ميكائيل، الذي ينزلُ بالرحمة والمطر والنبات لتابَعْناك.

قال ابنُ عباس: فأنزلَ اللّهُ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآيات[1].

من دلالات الحادثة:

هذه الروايةُ عن ابن عباس هي تصريحٌ منه بسببِ نزول الآيات: ٩٧ ـ ١٠٠ من سورة البقرة، لكنها توضِّحُ معنى آيةِ سورة آل عمران

---

(١) أخرجه الترمذي مختصراً برقم: ٥١٢١. وأحمد: ١:٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٨. وانظر الأحاديث الصحيحة حديث رقم: ١٤٧.

التي نحن بصددها، حيث يبينُ الرسولُ ﷺ ما حرَّمَه إسرائيلُ على نفسه، وملابساتِ ذلك التحريم.

وتكشفُ لنا هذه الروايةُ طبيعةَ اليهود الخبيثة، التي تقومُ على التكبرِ والعناد، وعلى الكذبِ والافتراء، وعلى نقضِ العهد والميثاق، وعلى الكفرِ بعد معرفة الحق.

فهؤلاء النفرُ من اليهود جاءوا الرسولَ ﷺ، ليسألوه ويمتحنوه، ويوجهوا له أسئلةً لا يعلمُ جوابَها إلا نبي. وإن الرسولَ ﷺ يعلمُ خُلُقَ اليهود السيء، ونفسيتَهم المريضة، ويعلمُ أنهم سيكفرون به حتى لو أَجابهم على أسئلتهم! ولهذا أَخذَ عليهم العهدَ والميثاق أن يؤمنوا به ويتَّبعوه، إذا كان جوابُه صحيحاً صائباً.

لقد قدَّمَ لهم الإجاباتِ الصحيحة على أسئلتهم الأربعة: كيف ينام النبي. وكيف ومتى تلدُ المرأةُ الذكر، وتلدُ الأنثى. وملابسات ما حرَّمه يعقوبُ على نفسه. وحقيقة الرعد.

فلما أَجابَهم على تلك الأسئلة الأربعة، وأحرجَهم بصحةِ الإجابات، لم يبقَ عليهم إلا الوفاءُ بالعهد، واتباعُه والدخولُ في الإسلام.

لكن أنَّى لليهود المعوَجِّين أنْ يُسْلموا ويخضعوا للحق؟ لقد هداهم تفكيرُهم الشيطاني إلى طريقةٍ ماكرة للتخلصِ من الوعد، والتحللِ من الشرط، ونقضِ العهد.

من أكاذيب اليهود:

إنهم يريدونَ معرفةَ المَلَك الذي يأتيه بالوحي من عند الله، فأَخبرهم أنه جبريلُ عليه السلام، وأنه هو الذي كان يأتي كلَّ نبيٍّ من الأنبياءِ السابقين بالوحي.

عندها أعلنَ اليهودُ المجرمون التحللَ من الوعد، لأن جبريلَ عدوٌّ لهم، حيث كان يأتيهم بالعذاب والهلاك والدمار!!

وكذَبوا فيما قالوا، فجبريلُ ليس ضدهم ولا ضدَّ البشر، ولكنهم أَرادوا حيلةً يتخلَّصون بها من المعاهدة، ولو أَخبرهم أن الملَكَ الذي يأتيه بالوحي هو ميكائيل، لأَعلنوا الكفرَ به، ولأَوْجَدوا سبباً آخرَ مزعوماً لمعاداتهم له!!!

المهمُّ هو أن يكفروا بالرسولِ ﷺ، والإصرارُ على كفرهم وباطلهم، من بعدما تبينَ لهم الحق.

إنَّ هذا الحديثَ الصحيحَ يقدِّمُ لنا بعضَ المعلومات عن يعقوب عليه السلام، ويبينُ لنا بعضَ المبهمات في كلمات الآية عن ما حرَّمه على نفسه، وتكذبُ اليهودَ في ما زعموه عنه!.

تخبرُ الآيةُ أن اللّهَ قد أباحَ لبني إسرائيل كلَّ أنواع الطعام، وذلك قبلَ إنزالِ التوراة على موسى عليه السلام.

ولم يُحرم اللّهُ عليهم قبل إنزال التوراة إلا الصنفَ من الطعام الذي حرَّمه على نفسه أَبوهم إسرائيلُ عليه السلام، وهو لحومُ الإبل.

فإنِ ادَّعى اليهودُ غيرَ ذلك فهم كاذبون، وعليهم إحضارُ النسخةِ الأصلية من التوراة، التي تشهدُ لهم، ولن يستطيعوا ذلك: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وإنّ أصروا على افترائِهم وكذبهم فهم ظالمون: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

لماذا حرم إسرائيل لحوم الإبل؟:

تنصُّ الآيةُ على الاسم الثاني ليعقوب عليه السلام: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

يعقوبُ هو إسرائيلُ عليه السلام. وأولادُه وذريتُه هم «بنو إسرائيل».

وكان إسرائيلُ قبلَ إنزالِ التوراة، لأن اللّهَ أنزلَ التوراةَ على نبيه موسى عليه السلام، وإسرائيلُ وُجدَ قبلَ موسى عليه السلام بعشراتِ السنين.

وبما أنَّ إسرائيلَ عليه السلام نبي، فإنَّ ما التزمَ به قد أصبحَ شرعاً مُلزماً له، وقد ألزمَ اللّهُ به ذريتَه وأبناءه، وجعلَه تشريعاً لهم.

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الصحيح السابق أن أحبَّ الطعام لإسرائيل عليه السلام كان لحومَ الإبل، فلما مرضَ يوماً مرضاً شديداً بعِرْقِ النسا، واشتدَّ به سقمه، وطالَ مرضه، نذرَ نذراً لله، لئن شفاهُ الله وعافاه، ليتقرَّبَنَّ إلى الله، بتركِ أحبِّ الطعام إليه والامتناعِ عن أكله.

وبما أنَّ أحبَّ الطعام إليه هو لحومُ الإبل، فقد وفَّى بنذْرِه بعدما شفاه الله، وامتنعَ عن لحومِ الإبل.

وهنا وقفةٌ للتساؤل: إنَّ إسرائيلَ عليه السلام نبي، فكيفَ يحرمُ على نفسه ما أَباحَه الله له؟ مع أنَّ التحليلَ والتحريمَ حقٌّ لله وحده!

إن تحريمَ إسرائيلَ لحومَ الإبل على نفسه ليس تحريماً شرعياً، أي: ليسَ هذا تشريعاً منه. فالتحريمُ الشرعي حقٌّ لله، لأنَّ التشريع حقٌّ لله وحده، لا يشاركُه في ذلك أحدٌ من البشر.

تحريمه لها امتناع وليس تشريعاً:

ما فعلَه إسرائيلُ عليه السلام إنما هو «امتناعٌ» منه عن أكلِ لحوم الإبل، وهذا امتناعٌ عاديٌّ وليس تحريماً شرعياً. وأيُّ إنسانٍ قد يمتنعُ عن بعضِ أصنافِ الطعام والشراب، ولا يعيبُه أحد، طالما أنه لا يُحرمُ المباح. ولا يَدَّعي أنَّ امتناعَه إنما هو لتحريم ذلك.

ثم إنَّ إسرائيلَ عليه السلام أراد أن يتقرَّب إلى الله بأَحبِّ شيء إليه، وبما أنَّ أحبَّ شيء إليه هو لحومُ الإبل، فلْيمتنعْ عنها ـ امتناعاً عادياً ـ شكراً لله، الذي يعافيه من مرضه.

وهذا تناسقٌ لطيفٌ مع الآية السابقة من سورة آل عمران، التي تَدْعونا إلى إنفاقِ أَحبِّ شيء إلينا لننالَ البرَّ والأجر عند الله!

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٢ ـ ٩٣].

فإذا كان المسلمُ الصالحُ لا ينالُ البرَّ حتى ينفقَ في سبيل الله أحبَّ شيء إليه، تقرُّباً إلى الله، وبما أنَّ أحبَّ شيء إلى نبيِّ الله إسرائيل عليه السلام هو لحومُ الإبل، فقد امتنعَ عنها، وتقرَّبَ بذلك الامتناع إلى الله، وأنفقَه في سبيل الله، لينالَ البرَّ عند الله.

وقد ألزمَ اللّهُ بعد ذلك أبناءَ إسرائيل بما امتنعَ عنه أَبوهم إسرائيل عليه السلام، وصارَ هذا تشريعاً من تشريعاتِهم، وحرمَ بذلك أكلَ لحومِ الإبل!

[٣]

يعقوب هو الفرع الثاني لنبوة إبراهيم

شجرة النبوة الإبراهيمية ذات فرعين:

تبينُ آياتُ القرآن أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو أبو الأنبياء، وأَبو هذه الأمة، وأنَّ «شجرة النبوة» منه، وأنَّ الأنبياءَ المذكورين بعده في القرآن، والمبعوثين بعد زمانه، هم من نسلِه وذريته.

وبهذا السياق وردَ اسمُ إسرائيل ـ يعقوب ـ المرة الثانية في القرآن. وذلك في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

ذَكرت الآيةُ أربعةَ أنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل.

وذُكر آدمُ عليه السلام باعتبارِه أبا البشر.

وذُكر نوحٌ عليه السلام باعتباره أبا البشرية الثاني بعد الطوفان.

وذُكرَ إبراهيمُ عليه السلام لأنَّ النبوةَ انتهتْ إليه، وشجرةَ النبوة استقرتْ عنده، فهو أَبو الأنبياء.

وقد تفرعَ من شجرة النبوة فرعان:

الفرعُ الإسماعيلي: المتمثلُ في إسماعيلَ بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهذا الفرعُ خُتمَ بخاتمِ الأنبياء والمرسلين رسولِ الله محمد ﷺ، سيدِ ولد إسماعيل، بل سيدِ ولدِ آدم، بل أفضلِ المخلوقين جميعاً، وأَحبِّهم إِلى الله.

والفرعُ الإسرائيلي: المتمثلُ بإسرائيل - يعقوب - حفيدِ إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهو أبو بني إِسرائيل، وأصْلُ أسباطهم، وكلُّ أنبيائِهم من ابنه يعقوب حتى عيسى ابن مريم - عليهم الصلاة والسلام، فهم من ذريةِ إسرائيل - وعيسى من ذريةِ يعقوب من جهةِ الأم، فهو إسرائيليٌّ من جهة الأم، لأنه لا أبَ له، عليه الصلاة والسلام.

ولهذا الاعتبارِ - والله أعلم - وردَ ذكْرُ إسرائيل معطوفاً على إبراهيم عليهما السلام في الآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وقد صرَّحَ القرآنُ بأنَّ اللّهَ جعلَ النبوةَ في ذرية كلٍّ من إِبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦ - ٢٧].

فاللّهُ وهبَ لإبراهيم كلًا من إسحاق ويعقوب، وكان ذلك بعدَ أنْ هاجرَ إلى الله، وغادرَ العراق إلى الأرض المقدسة.

أنبياء الفرع الإسرائيلي:

وقد جعلَ اللّهُ النبوةَ والكتاب في ذريةِ إبراهيم وحفيده يعقوب عليهما الصلاة والسلام. والراجحُ أنَّ ضميرَ التثنية في قوله: «في ذريتهما» يعودُ على إبراهيم ويعقوب. ووجْهُ الترجيح في ذلك ما سبقَ أنْ قرَّرْناه من تفرُّعِ فَرْعي النبوة من الشجرة الإبراهيمية: الفرعِ الإسماعيلي، والفرعِ الإسرائيلي.

لقد استمرت النبوةُ في الفرعِ الإسرائيلي عدةَ قرون، حيث بعثَ اللّهُ أنبياءَ عديدين إلى بني إسرائيل. أَوَّلُهم نبيُّ الله إسرائيل نفسه عليه السلام، الذي كان نبياً لأبنائه، ثم ابنُه نبيُّ الله يوسف عليه السلام، ثم الأنبياء الآخرون لبني إسرائيل، مثل موسى وهارون، وداود وسليمان، وزكريا ويحيى، وآخرُهم هو عيسى ابن مريم، عليهم الصلاة والسلام.

ختم النبوة بالفرع الإسماعيلي:

وقد ختمَ اللّهُ النبوة في الفرعِ الإسرائيلي بعيسى ابن مريم عليه السلام، آخرِ أنبياءِ بني إسرائيل، الذي خَلَقَه اللّهُ خلْقاً معجزاً، بدونِ أب، وأظهرَ على يديه كثيراً من المعجزات.

وشاءَ اللّهُ أن يختمَ النبوةَ كلَّها بنبيٍّ من الفرعِ الإسماعيلي، وهو أفضلُ الخلق جميعاً، محمدٌ ﷺ.

[٤]

بداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب

مزاعم اليهود في الابتداء من إبراهيم:

عرَفْنا أنَّ إسرائيلَ هو يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقد أخبَرَنا اللّهُ في القرآن أنه كان لإسرائيلَ اثنا عشر ولداً ذكراً، وهم المذكورون في سورةِ يوسف، في قصة يوسف عليه السلام.

ومن أبنائِه الاثني عشر جاءَ بنو إِسرائيل، الذين وردَ ذكرهم كثيراً في القرآن، وهم الذين سُمّوا بعد ذلك «اليهود».

وينتسبُ بنو إسرائيل السابقون إلى جدهم إسرائيل عليه السلام وهذا انتسابٌ صحيح، لمن ثبتَ أَصْلُه ونَسَبُه به.

أما يهودُ هذا الزمان فيدَّعون أَنهم من نسلِ إسرائيل، وهم لذلك بنو إسرائيل، وهذا ادّعاءٌ منهم باطل، فمعظمُهم جاءوا من أجناسٍ وأقوامٍ آخرين، تهوَّدوا ودخلوا في اليهودية، ولا صلةَ نَسَبية تربطهم بإسرائيل عليه السلام.

كما يَدَّعي اليهودُ أَنهم أبناءُ نبيِّ الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويزعمون أن تاريخَه تاريخٌ لهم، وأَنهم امتدادٌ له، وهم في ذلك كاذبون مفترون.

وقد ناقَشْنا ـ سابقاً ـ أثناءَ حديثنا عن قصة إبراهيمَ عليه السلام هذا الزعمَ اليهودي، وبَيّنّا أنه لا صلةَ إيمانية ـ وهي الصلةُ المعتبرة ـ بينهم وبين إِبراهيم، وأنَّ أَولى الناس به هم أتباعُه من قومه، ثم رسولُ الله محمد ﷺ، ثم الذين آمنوا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام حتى قيام الساعة، لأنهم هم الورثةُ الحقيقيون له.

ونُفَنِّدُ هنا دعوى اليهود صلتَهم التاريخية بإبراهيم، وبَدْءَ تاريخهم من إبراهيمَ عليه السلام.

إنَّ تاريخَهم لم يبدأ منذُ إبراهيم، وإبراهيمُ ليس أَباهم، وقصتُه ليست قصتَهم، ووعْدُ الله له ليس وَعْداً لهم، لأنهم ليسوا «بني إبراهيم»، ولا «بني إسحاق».

هم بنو إسرائيل وليسوا بني إبراهيم:

إِنهم بنو إِسرائيل. أي: بنو يعقوب.

إنّ تاريخَ بني إسرائيل يبدأُ من يعقوب عليه السلام، وصلَتُهم

بإبراهيم كصلتِهم بإسماعيل عليهما السلام! أليسَ إسماعيلُ عماً ليعقوب؟ أليس هو شقيقُ أبيه إسحاق؟ فلماذا لا يجعلون تاريخَه تاريخاً لهم، مع أنه عمٌّ لأبيهم؟

لو كانوا «بني إبراهيم» لبدأ تاريخُهم من تاريخ إبراهيم.

ولو كانوا «بني إسحاق» لبدأ تاريخُهم من تاريخ إسحاق.

ولأَنهم «بنو إسرائيل» - أي: بنو يعقوب - فإنَّ تاريخَهم يبدأُ من تاريخ يعقوب عليه السلام. فلهم أن يتوقَّفوا عند حياته وحياةِ أبنائه الاثنيْ عشر، وأنْ يعتبروا هذا بدايةً لوجودهم وحياتِهم وتاريخِهم!.

هذا من حيثُ الصلةُ التاريخية لهم بإسرائيل عليه السلام، التي لا تأخذُ أَبعاداً أخرى، فما هي إلاّ صلةٌ تاريخية فقط، ولا يربطهم بإسرائيل إلا هذا الخيطُ التاريخيُّ السابق.

وبعد هذا نقررُ أنه لا صلةَ بينهم وبين إسرائيل - غيرَ التاريخ الماضي - ولا رابطَ بينهم وبينه، فهم من حيثُ الدين والإيمان والعهد والرسالة، مبتوتو الصلة به.

إنهم كافرون ظالمون، كاذبون محرفون، ناقضون مجرمون، خرجوا على عهد إسرائيل عليه السلام، وكفروا بدينه، وخالفوا تعاليمَه، ونقضوا عهدَه.

وإسرائيلُ عليه السلام نبيٌّ كريم، ومؤمنٌ عظيم، وَلاؤُه وبراؤُه لله، فهو يوالي كلَّ مؤمن مهما ابتعدَ عنه في النسَب أو الزمان، ويتبرأُ من كلِّ كافر ولو كان مِن صُلْبه ونسله وذريته.

ولهذا نشهدُ أنَّ «إسرائيلَ» عليه السلام بريءٌ من هؤلاء اليهود، وأَنه يلعَنُهم ويكرهُهم، ولا صلةَ ولا رابطَ بينه وبينهم.

[٥]

خلاصة حياة يعقوب عليه السلام

حياة يعقوب من خلال الآيات والأحاديث:

من خلالِ اعتمادِنا للمصادر اليقينية الصحيحة الثابتة، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ الصحيحة، فإننا نستطيعُ أن نلخصَ منها خلاصةَ حياةِ يعقوب عليه الصلاة والسلام.

لقد وُلِدَ في الأرض المقدسة فلسطين، ونشأَ وشبَّ بها.

وكانت ولادتُه وطفولتُه في حياةِ جدِّه إبراهيم عليه السلام.

وتزوجَ وأنجبَ أبناءَه وهو في الأرض المقدسة.

وأبناؤُه الذكور اثنا عشر ولداً، نعرفُ منهم نبيَّ الله يوسف عليه الصلاة والسلام. لأنه مذكورٌ في القرآن والسنة، أما أسماءُ الأبناءِ الآخرين الأحد عشر، فلا نجزمُ بها، لعدمِ ورودِها في أحاديث صحيحة، ونتوقفُ في القولِ بها، رغم ورودِها في الإسرائيليات وفي أسفارِ العهد القديم.

وكانَ يعقوبُ عليه السلام مُقيماً مع أبنائه في «البدو»، كما وردَ في صريح القرآن.

إقامته أولاً في «البدو» في فلسطين:

فلما جمعَ اللّهُ بينه وبين ابنِه يوسف عليهما السلام، بعد أحداثٍ عديدةٍ مثيرة، قال له يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فيوسف عليه السلام يقررُ صراحةً أن اللّهَ جاءَ بأبويه وإخوتِه «من البدو».

ولا تقدمُ لنا الأحاديثُ الصحيحةُ تحديداً وبياناً لمنطقةِ البذْوِ التي جاءوا منها، ولهذا لا نملك تحديدها بالضبط.

وكلُّ ما يمكنُنا قولُه: كانوا يسكنون في منطقة «البدو» من الأرض المقدسة فلسطين. وهذه المنطقةُ تقعُ جنوب فلسطين، وهي المنطقةِ المعروفةِ الآن بمنطقة «النَّقب»، والواقعة جنوب وشرق بئر السبع.

فلعلَّ يعقوب عليه السلام كان يسكنُ في هذه المنطقة مع أبنائه، قبلَ انتقالِهم إلى مصر. ولعلهم كانوا يسكنون في منطقةٍ أُخرى، سكانُها بدو، وهي من مناطقِ البادية في الأرض المقدسة. والله أعلم.

ثم استقراره في مصر:

بقيَ يعقوب عليه السلام مُقيماً مع أبنائه في منطقة «البدو». وأثناءَ إقامته فيها وقعتْ أَحداثُ قصة ابنه يوسف عليه السلام، وسببتْ هذه الأحداثُ للأب يعقوب ما سببتْ من أحزان وآلام ومصائب ومآس، استعانَ عليها بالصبر والتوكل على الله، والرجاءِ بما عند الله، والأملِ بلقاءِ ابنه الأَثير لديه يوسف. وأثَّرَ حزنُه وألمه على عينيه، وابيضتْ عيناه من الحزن فهو كظيم.

وُوجهَ الأبُ المحزونُ الصابرُ بلوْمِ أبنائه وتقريعهم، وسوءِ كلامهم وتعبيرِهم معه، واتهامِهم له بالانحيازِ والظلمِ وعدم الإنصاف والعدل، مما زادَ في أحزانه وآلامه.

وجرتْ عدةُ أحداثٍ بينه وبين أبنائه، وقاموا بعدةِ سفرات إلى مصر، عندما أَصبحَ أَخوهم يوسف عزيزها وحاكمها، وهم لا يعلمون أنه هو. وانتهتْ هذه الأحداثُ بتعرفِهم على أَخيهم «العزيز»، واعتذارهم له.

وطلبَ أَخوهم يوسف منهم أخذَ قميصِه، وإلقاءَه على وجهِ أبيه المكلوم الحزين، ليعودَ له بصرُه، ثم العودة بهم جميعاً إلى يوسف.

وجاءت العائلةُ المؤمنةِ من جنوب فلسطين، واستقرتْ هناك عند

يوسف عليه السلام، ورفعَ يوسفُ أبويه على العرش، وخرَّ أَبواه وإخوته له سُجَّداً، وبذلك تحققت رؤياه التي رآها وهو صغير.

وسنعودُ إن شاء الله إلى هذه الأحداث عند كلامِنا على قصة يوسف عليه السلام.

وبعد ذلك توفيَ يعقوبُ عليه السلام في مصر، ولا نملكُ أدلةً على تحديدِ سنةِ وفاته، أو كيفيتها، أو مكانِ دفنه، فهذه من مبهمات قصته التي لا بيانَ لها.

[٦]

دين يعقوب هو الإسلام

كل نبي جاء بالإسلام:

إنَّ الإسلامَ هو دينُ الأنبياء والمرسلين جميعاً، فكلُّ نبي جاءَ بالإسلام، وطلبَ من قومه الدخولَ في الإسلام، وإحسانَ العبادة لله.

ولقد حرصَ القرآنُ على تأكيد هذه الحقيقة، في حديثِه عن إبراهيم، وعن إسحاق ويعقوب ويوسف، عليهم الصلاة والسلام.

ويبدو أنَّ السببَ في ذلك هو إبطالُ مزاعمِ اليهود والنصارى، الذين يزعمون أنهم على دينِ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ومع ذلك بَقوا على يهوديتهم أو نصرانيتهم، وكَفَروا بمحمد ﷺ وزعموا أنَّ إبراهيم ويعقوب كانوا يهوداً!

لقد جاءتْ آياتُ سورةِ البقرة صريحةً في تبرئةِ هؤلاءِ الأنبياء من تهمةِ اليهودية أو النصرانية، وتقريرِ حقيقةِ دينهم، وأنه الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ

حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٦].

وقد تكلَّمْنا عن ما يتعلق بإبراهيمَ عليه السلام في هذه الآيات، عندما عرَضْنا قصتَه من قبل، وسنتكلمُ الآن عن ما يتعلقُ بيعقوب في هذه الآيات.

إنها تقررُ أن الإسلامَ هو دينُ يعقوب عليه السلام، الذي عاشَ عليه، والذي مات عليه.

والإسلامُ دينُ يعقوب ـ ودينُ كل رسول ـ ليس هو الإسلام بالمعنى الخاص، الذي يطلَقُ على رسالةِ ودين محمد ﷺ، والذي نسخَ اللّهُ به الرسالات والشرائع السابقة.

إنما يُرادُ به الإسلام بالمعنى العام، وهو الخضوعُ والاستسلام لله، وإخضاعُ الآخرين وتعبيدُهم لله.

وكونُ دين يعقوب هو الإسلام، لا يمنعُ أن تكونَ له شريعةٌ خاصة به، طبَّقها على أولاده وقومه، لأن الله يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

نموذجان من شريعة يعقوب:

وقد أشارَ القرآنُ في قصة يوسف عليه السلام إلى نموذجٍ من شريعةِ يعقوب عليه السلام، فعندما أخذَ يوسفُ أخاه الصغير بتهمةِ سرقةِ صواع الملك، فوجئَ إخوتُه بذلك، فسألهم يوسف: ما حكمُ السارق

في شريعتكم؟ فقالوا: حُكْمُه الاسترقاق، أي: يُؤخذُ عبداً، ويسترقُّه صاحبُ المتاع المسروق.

قال تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٤ - ٧٥].

أي: ما جزاءُ السارق في شريعتكم يا أبناءَ النبي يعقوب؟

قالوا: جزاؤه في شريعتنا أنه يُؤخذُ رقيقاً مقابل ما سرق، ويسترقُّه صاحب المتاع المسروق: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾. هكذا نجزي الظالمين السارقين، وهكذا نعاقبهم.

ومرَّ معنا ذكْرُ نموذج آخرَ لشريعة يعقوب عليه السلام، عندما نذرَ لله أن يمتنعَ عن أحبِّ الطعام إليه، إنْ شفاه الله، فوفّى بنذْرِه، وامتنعَ عن أكل لحوم الإبل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ . .﴾.

فكان الوفاءُ بالنذر واجباً في شريعةِ يعقوب، وألزمَ اللّهُ أبناءَه وذريتَه بما التزمَ هو به، وحرَّمَ عليهم أكلَ لحوم الإبل، وهذا من شريعته أيضاً.

يعقوب يوصي بنيه بالإسلام:

الإسلامُ بالمعنى العام هو دينُ يعقوب عليه السلام إذن، وكان يعقوبُ حريصاً على تنشئةِ أبنائه على الإسلام، وإخبارِهم أن اللّهَ قد اصطفاه ورضيَه ديناً، وكان يوصيهم بالإسلام والثباتِ عليه، والحياةِ به والموت عليه.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: إبراهيمُ وصّى بَنيه وأولادَه وأحفادَه بالكلمة الطيبة، والعقيدة الصحيحة، ووصّى بها يعقوبُ بَنيه أيضاً. وقال كلٌّ منهما لبنيه: ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

يعقوب حريصٌ على دين أبنائه، وعلى التزامِهم بالإسلام ديناً، ولهذا يطلبُ منهم أن لا يموتوا إلا وهم مسلمون.

كان التفكيرُ في الإسلام هو الذي يُشغلُ بالَ يعقوب عليه السلام، وكان ثباتُ أبنائه على الإسلام هو الهاجسَ الذي يسيطرُ عليه دائماً، فكما أنه أَوصاهم بذلك، فقد أَرادَ أَنْ يطمئن عليهم وعلى إسلامهم، وهو يغادرُ هذه الحياةَ الدنيا.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ها هو يعقوبُ عليه السلام على فراش الموت، وكان وقتها عند يوسف في مصر، ويريدُ أَنْ يطمئنَّ على دينِ وإسلام وعبادةِ أبنائه، بعد وفاتِه، ولهذا جَمَعَهم، وطرحَ عليهم السؤالَ الذي يَشغلُ بالَه: يا أَبنائي ما تعبدون من بعدي! وأيَّ دين تلتزمون من بعدي؟

فيأتيه الجوابُ المطَمْئِنُ من أبنائه، وهذا هو الجوابُ المنطقي المتوقَّع، لأنه أَنشأهم على الإسلام، وربّاهم عليه، ووصاهم به، قالوا: سنعبدُ ربَّ العالمين وحدَه، فهو إلهنا، لأنه إلهك، وإلهُ الأنبياء من قبلك: جدُّك إبراهيم، وعمُّك إسماعيل، ووالدُك إسحاق، إنه إلهٌ واحد، لا شريكَ له.

ونحن مسلمونَ لله، مستسلمون لله، خاضعون لله، داخلون في دين الله، ملتزمون لطاعة الله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

لقد جاءتْ هذه الآياتُ في بيان حقيقةِ دين إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، في معرضِ نقاشِ اليهود والنصارى، ونفْيِ صلتهم بإبراهيم ويعقوب.

فالخطابُ في الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾

لهؤلاء اليهودِ والنصارى. يقولُ الله لهم: لماذا تزعمون أنّ يعقوبَ كان يهودياً أو نصرانياً؟ هل كنتم حاضِرين وشاهدين وسامعين آخرَ كلام قالَه يعقوب قبلَ أن يموت؟ إنكم لم تكونوا معه هناك، لأنكم لمْ تكونوا مولودين يومَها. لقد أَوصى بنيه بالإسلام ديناً، وقد قَبِلَ الأبناءُ وصيةَ الأب، وقالوا له: نعبدُ اللّهَ وحدَه ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

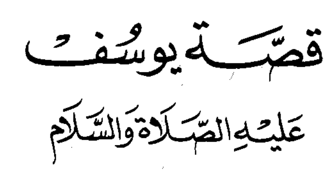
المسلمون هم الورثة الحقيقيون ليعقوب:

فإنْ زعموا أنَّ يعقوبَ ومَنْ معه من الأنبياء كانوا يهوداً أو نصارى، فقد كَذَبوا، لأنّ هؤلاء الأنبياءَ كانوا مسلمين لله. قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

والمسلمون هم وحدهم وارثوا يعقوب عليه السلام، لأنهم آمَنوا بما أُنزلَ عليه، وآمَنوا بما أُنزلَ على الرسل الآخرين، وآمَنوا بما أُنزلَ على محمد ﷺ، وقالوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

أما اليهودُ والنصارى فإن يعقوبَ عليه السلام بريءٌ منهم، ومِنْ كُفرهم وعنصريتهم!!!




قصة يوسف
عليه الصلاة والسلام

[١]
ذكر يوسف في القرآن

يوسف بن يعقوب سليل أنبياء كرام:

يوسفُ هو أحدُ أبناءِ يعقوب عليهما السلام، فقد سبقَ أنْ ذكَرْنا أنَّ اللَّهَ وهبَ ليعقوب اثني عشر ولداً ذكراً. ولم تُخبرنا مصادرُنا الموثوقة ـ القرآن والحديث الصحيح ـ إلاّ عن اسمِ واحدٍ منهم، وهو يوسف.

أما إخوتُه الآخرون، فلا نحاولُ تحديدَ أسمائهم، لعدمِ ورودها في الكتاب والسنة، ولا نَذهبُ إلى الإسرائيليات وأَسفارِ العهدِ القديم لنأخذَ أسماءَهم منها.

و«يوسف» اسمُ علم أعجمي، فهو ليس عربياً ولا مشتقاً، ولهذا لا نبحثُ عن مادةٍ لاشتقاقه، ولا عن معناه في العربية.

ويوسفُ هو النبيُّ من أولاد يعقوب، والراجحُ أنَّ إخوتَه الأحدَ عشرَ ليسوا أنبياء، وسنعودُ لهذه المسألة فيما بعد إن شاء الله.

ويوسفُ عليه السلام كريم، سليلُ أسرةٍ مبارَكة عريقة في الكرم.

روى البخاريُّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريمُ ابنِ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم: يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»(١).

وهذه شهادةٌ عظيمةٌ من رسول الله محمد ﷺ لهذه الأسرةِ العزيزة الكريمة المباركة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٨٢. انظر الأحاديث الصحيحة برقم: ١١٥. وقد سبق إيراد هذا الحديث وتخريجه.

فيوسفُ عليه السلام خِيار، وهو ابنُ الأَخيار، وقد كان الصحابةُ يعرفون هذا له ولآبائه.

وقد وقعتْ حادثةٌ معبرةٌ زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تؤكِّدُ هذه الحقيقة.

قال عليُّ بن رباح: استأذنَ رجلٌ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال: استأذِنوا لابنِ الأَخيار!!

فقال عمر: ائذنوا له.

فلما دخل، قالَ له عمر: مَنْ أَنت؟

قال: أنا فلان، ابن فلان، ابن فلان. وجعلَ يعدُّ رجالاً من أَشرافِ الجاهلية.

فقال له عمر: هل أنتَ يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؟

قال: لا.

قال: ذاكَ هو ابنُ الأَخيار! وأنتَ ابنُ الأَشرار!! لأنك تعدُّ عليَّ رجالَ أهلِ النار!!![1].

إنَّ عمرَ رضي الله عنه ينكر على ذلك الرجلِ زعْمَه أنه ابنُ الأَخيار، واعتزازَه بآبائه وأجداده الجاهليين الكفار، فكيف يكونون أَخياراً وهم كفارٌ ذاهبون إلى النار! إِنهم أَشرار!!

وابنُ الأَخيار هو سليلُ الأنبياء، الكريمُ ابن الكرام، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام.

مواضع ذكر يوسف في القرآن:

وقد وردَ ذكْرُ اسم يوسف في القرآن سبعاً وعشرين مرة. خمسٌ وعشرون منها في سورةِ يوسف، التي تحملُ اسمَه، والتي تفردتْ بذكْرِ قصته من أوَّلها إلى آخرها.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢:٣٤٧. وقال: صحيح على شرط مسلم. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٩.

وذُكر اسمُه مرةً في سورة الأنعام، ضمن ذكرِ أسماءِ مجموعةٍ من الأنبياء، الذين جاءوا من ذرية إبراهيم. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

وذُكرَ اسمُه مرةً في سورة غافر، وذلك في قصة «مؤمن آل فرعون» أَثناءَ دفاع ذلك الرجل عن موسى عليه السلام، ووقوفِه في وجه فرعون، حيث ذَكَّر قومَه بيوسف عليه السلام، الذي حكمهم فترةً من الزمن، وانتظروا موتَه بفارغ الصبر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤].

[٢]
لماذا قصة يوسف في سورة واحدة؟

قصةُ يوسف عليه السلام في القرآن فريدةٌ خاصةٌ متميزة، فلم تتفرقْ وتتوزَّعْ في عديدٍ من سور القرآن، كما هو الشأن في قصَص الأنبياء الآخرين، كنوح وإبراهيم وموسى وغيرِهم عليهم الصلاة والسلام.

ذُكرتْ قصةُ يوسف كلُّها في سورة يوسف.

وسورةُ يوسف كلُّها مكية، وقد بدأتْ آياتُ السورة بذكْرِ رؤيا رآها يوسف وهو صغير، ثم تسلسلت الأحداثُ له، واستمرت آياتُ السورة في عَرض الأحداث والمشاهد والمناظر، في تسلسلِها وتتابعِها، وخَتمت السورةُ القصةَ بذكر تأويل رؤيا يوسف في عالم الواقع.

جو نزول السورة في مكة:

وقبلَ أنْ نحاولَ تعليلَ حكمةِ ذكْرِ القصة في السورة الخاصة بها، نحاولُ الوقوفَ على جوِّ نزول السورة.

نزلتْ سورةُ يوسف في جوٍّ خاص، عاشَتْه الدعوةُ الإسلامية في مكة، وفترةٍ قاسية مرَّتْ بها الدعوةُ هناك.

وقد أَطلقَ سيد قطب على هذه الفترةِ العصيبة «الفترةَ الحرجة» وهي الفترةُ الواقعةُ ما بين حصارِ المسلمين في شِعْبِ أبي طالب، إلى بيعةِ العقبة الأولى ثم الثانية.

ففي هذه الفترةِ الحرجةِ ازدادَ إيذاءُ قريش للرسول ﷺ والمسلمين، وازدادَ حربُهم للدعوة، وأصبحت حركةُ الدعوة شبهَ متجمدة، ومرتْ مشاعرُ وأعصابُ المسلمين بكربٍ وضغط وضيق وانفعال، وصاروا يتساءلون: هل من مخرجٍ من هذه المحنة؟ وهل من زوالٍ لهذا الكَرْب؟ ومتى يأتي الفَرَج؟

وقد أنزلَ اللّهُ عدةَ سور من القرآن المكي في هذه الفترة، التي استمرتْ عدةَ سنوات، بهدفِ تقويةِ معنويات وعزائم المسلمين، ومؤانسةِ ومواساة الرسول ﷺ، ومواجهةِ أفكارِ وشبهاتِ وإيذاءاتِ الكفار، وكانت هذه السور تقدم للمسلمين الأملَ والزادَ واليقين.

من السور التي نزلتْ في هذه الفترة، وهذا الجوِّ المكروب، سور: الأنعام، ويونس، وهود، وإبراهيم، والحجر.

وكانت سورةُ يوسف نازلةً في هذه الفترة أيضاً[1].

ولعلَّ استحضارَ جوِّ نزولِ السورة في مكة، يساعدُ على بيان حكمةِ ذكْرِ قصة يوسف في سورة يوسف فقط، منْ بَدئها إلى نهايتها.

---

(١) انظر تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٤:١٩٤٩.

تحليلات رائعة لسيد قطب حول ذلك:

قال سيد قطب في تعريفِه بالسورة وجوِّ نزولها: «والسورةُ كلُّها لحمةٌ واحدة، عليها طابعُ القرآنِ المكي، واضحاً في موضوعها، وفي جوها، وفي ظلالها، وفي إيحاءاتها. بل إن عليها طابعَ هذه الفترة الحرجة الموحشة، بصفة خاصة.

ففي الوقت الذي كان رسولُ الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع، في جاهليةِ قريش ـ منذ عام الحُزْن ـ وتُعاني معه الجماعةُ المسلمة هذه الشدة، كان الله ـ سبحانه ـ يقصُّ على نبيه الكريم قصةَ أخ له كريم ـ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم صلوات اللّه وسلامه أجمعين ـ وهو يُعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات. . . . التي صبرَ عليها يوسف ـ عليه السلام ـ وزاولَ دعوتَه إلى الإسلام من خلالها، وخرجَ منها كلِّها خالصاً متجرداً. . . . آخرُ توجهاتِه وآخرُ اهتماماته. . . أنْ يتوفّاه اللّهُ مسلماً، وأن يُلحقَه بالصالحين. .

. . . فلا عجبَ أن تكون هذه السورة، بما احتوتْه من قصةِ ذلك النبيِ الكريم، ومن التعقيباتِ عليها بعد ذلك، مما يتنزل على رسول الله ﷺ والجماعةِ المسلمة معه في مكة، في هذه الفترة بالذات، تسليةً وتسرية، وتطميناً كذلك، وتثبيتاً للمطاردين المغتربين الموحشين.

لا بلْ إنَّ الخاطرَ ليذهبُ بي هذه اللحظة إلى الإحساسِ البعيد، بالإخراجِ من مكة، إلى دار أخرى، يكون فيها النصرُ والتمكين، مهما بَدا أن الخروجَ كان إكراهاً تحت التهديد! كما أُخرجَ يوسفُ من حضن أبويه، ليواجهَ هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولقد كان ذلك وهو يضعُ أقدامَه في مصر، في قصرِ العزيز. . حتى وهو ما يزال فتى، يُباعُ بيعَ الرقيق!

وما يَذهبُ بي الخاطر إليه اللحظة، يجعلني أتذوَّقُ مذاقاً خاصاً ـ أُشيرُ إليه ولا أملكُ التعبيرَ عنه ـ ذلك التعقيبُ الذي أعقب القصة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١١].

إنه الإيحاءُ بمجرى سنة الله، عندما يستيئسُ الرسل ـ كما استيأسَ يوسف في محنته الطويلة ـ والتلميحُ بالمخرجِ المكروه، الذي يَليه الفرج المرغوب!... الإيحاءُ والتلميحُ اللذان تدركُهما القلوبُ المؤمنة، وهي في مثلِ هذه الفترة تعيش، وفي جوِّها تتنفس، فتتذوقُ وتستشرف، وتلمحُ الإيحاءَ والتلميحَ من بعيد...

والسورةُ ذاتُ طابعٍ متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة... وهو طابعٌ متفرد في السوَر القرآنية جميعاً.

هذا الطابعُ الخاصُّ يتناسبُ مع طبيعة القصة، ويؤديها أداءً كاملاً. ذلك أَنها تبدأُ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلِها.. بحيث لا يناسبها أن تكونَ حلقةً منها أو جملةَ حلقات في سورة، وتكون بقيتُها في سورةٍ أخرى.

وهذا الطابعُ كفلَ لها الأَداءَ الكامل من جميع الوجوه، فوقَ تحقيقه للهدفِ الأصيل، الذي من أَجْلِه سيقت القصة، والتعقيبات التي تلَتْها...»[(١)].

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ باختصار.

لعلَّه لأجلِ هذه المعاني والحِكَمِ والتعليلات التي أَوردها سيد قطب، ذُكرت قصةُ يوسف كاملة في السورة، ولم تتفرقْ في عدةِ سور، والله أعلم.

[٣]
حلقات القصة ووحدات السورة

تقسيمها إلى وحدات وحلقات:

قلنا إنَّ سورة يوسف تكفلتْ بعرضِ قصة يوسف كاملة، من بَدئِها عندما رأى الرؤيا وهو صغير، إِلى نِهايتها عندما تحققت رؤياه فِعْلاً في عالم الواقع.

ويمكنُ تقسيمُ قصة يوسف إلى حلقاتٍ متسلسلة، ومحطاتٍ متتابعة، بينها ترابطٌ وتناسق وانسجام، هذه الحلقاتُ تحوي كلُّ واحدة منها عدداً من المشاهدِ والمناظر واللقطات.

كما يمكن تقسيمُ سورة يوسف إلى مجموعةٍ من الوحدات، كلُّ وحدة تضمُّ حلقةً من حلقات القصة، وكل وحدة تضمُّ عدداً من الدروس الفرعية.

ولسنا في معرضِ التفسيرِ التَّحْلِيلي التفصيلي أو الموضوعي لسورة يوسف، فهذا يحتاجُ إلى مجلدٌ خاص، مكانُه غيرَ هذا المكان، إنما سنتحدث عن وحداتِ السورة بإجمالٍ وإيجاز، وبما يتفقُ مع حديثنا عن قصة يوسف عليه السلام.

يمكنُ تقسيمُ السورة إلى مقدمةٍ ومجموعةِ وحدات، تضم كل وحدةٍ حلقةً من حلقات القصة، وخاتمة.

مقدمةُ السورة: الآيات: ١ ـ ٣. وهي تقررُ حقيقةَ آياتِ القرآن الكتاب المبين، الذي جعلَه اللّهُ قرآناً عربيَّ اللسان، وتصفُ قصصَ القرآن الذي قصه الله على رسوله محمد ﷺ بأنه أحسنُ القصص ـ ومنه

قصةُ يوسف المذكورة في هذه السورة ـ وتجعلُ إيرادِ القصة في القرآن دليلاً على نبوةِ محمد ﷺ.

الوحدة الأولى بستة مشاهد:

الوحدة الأولى: الآيات: ٤ ـ ٢٠.

هذه الوحدةُ تضمُّ الحلقةَ الأولى من قصة يوسف: منذُ أنْ أخبرَ والدَه برؤياه، عندما رأى سجودَ أحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر له، إِلى أنْ بيعَ عبداً رقيقاً في مصر.

والحلقةُ الأولى من قصته تقسم إِلى ستة مشاهد:

المشهد الأول: الآيات: ٤ ـ ٦. يضمُّ إِخبارَ يوسف لأبيه عن رؤياه، ونصيحةَ أَبيه يعقوب له أنْ لا يخبرَ إخوتَه برؤياه، لئلا يكيدوا له ويحقدوا عليه، واستشرافَ أبيه مستقبلَه الإيماني المشرق، وتذكيرَه له بنعمة الله على أبويه إبراهيم وإسحاق.

المشهد الثاني: الآيات: ٧ ـ ١٠. يسجلُ المشهدُ تآمرَ إخوةِ يوسف عليه، وزعْمِهم أن أباهم يعقوب يقدِّمُه مع أخيه عليهم، ولهذا لا بدَّ أنْ يتخلصوا منه، فاقترحَ بعضُ إخوته أنْ يقتلوه، وأَشارَ أَحدهم إلى التخلصِ منه بإلقائه في قعرِ بئرٍ على طريق التجار، ليأخذه التجارُ بعيداً إلى بلاد أخرى. وقد أخذوا بهذا الرأي.

المشهد الثالث: الآيات: ١١ ـ ١٤. يسجلُ المشهدُ مراودةَ الأبناء المتآمِرين لأبيهم حتى يأذنَ بذهابِ يوسف معهم، ومخادعتهم له، وادعائهم الحرصَ عليه وتحقيق مصلحته. ويُزيلون مخاوفَ يعقوب في تقصيرهم في يوسف، ويتعهَّدون إعادتَه له سالماً.. فيوافق يعقوب على ذهابه معهم.

المشهد الرابع: آية: ١٥. يسجلُ المشهدُ المعروض في هذه الآية لقطةً مثيرة، وهي التي نفَّذوا فيها المؤامرة، حيث أَلقوه في قعر البئر،

وتركوه فيها وحيداً، فآنسَه الله وواساه، وأَوحى له أنه سيأتيه الفرج والتمكين، وسيذكِّرُهم بهذه الجريمة التي اقترفوها معه.

المشهد الخامس: الآيات: ١٦ ـ ١٨. يسجلُ منظرَ الإخوة المتآمرين عندما عادوا إلى أبيهم باكين في وقت العشاء، وتبريرِهم ما جرى ليوسف، وادعائِهم أكل الذئب له، وإدراكِ يعقوب أنهم كاذبون، وأن يوسف في محنة، وتسليمه الأمر إلى الله.

المشهد السادس: الآيات: ١٩ ـ ٢٠. يسجلُ المشهدُ مجيءَ تجارٍ مسافرين، ومفاجأتهم برؤيا يوسف في البئر، وأخذَهم له معهم إلى مصر، وبيعَه هناك في مصر بثمن بخس دراهم معدودة.

وبهذا المشهد تنتهي الوحدةُ الأولى من وحدات السورة، وتنتهي الحلقةُ الأولى من حلقات قصة يوسف عليه السلام، حيث ينقلُه اللّهُ بحكمته من حضْنِ أبويه، ليباع رقيقاً في مصر، تمهيداً للحلقة الثانية في قصته العجيبة المثيرة.

الوحدة الثانية بثلاثة مشاهد:

الوحدة الثانية: الآيات: ٢١ ـ ٣٤.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الثانية من حلقات قصة يوسف عليه السلام. وهي إقامتُه في بيت العزيز، عبداً رقيقاً، وتوجُّهُ امرأة العزيز إليه بالمراودة والإغراء، والدعوةِ الصريحة إلى الفاحشة، واستعانتُها عليه بنسوة الطبقات المتحكمة في المدينة، ومواجهتُه كلَّ ذلك بالعفة والطهر والاستعصام.

ويمكن تقسيمُ هذه الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهد الأول: الآيات: ٢١ ـ ٢٢. يسجلُ هذا المشهدُ وصولَ يوسف عليه السلام إلى مصر، وشراءَ عزيز مصر وكبيرِ مسؤوليها له، وتحوُّلَه إلى غلام رقيق في بيت هذا المسؤول الكبير. حيثُ أَوصى العزيزُ امرأتَه بهذا الغلام، واستبشرَ فيه خيراً. وقد شبَّ يوسف في بيته،

وآتاه اللّهُ الحكمَ والعلم، ومكَّنَ له في الأرض، وجعلَ هذا كله خطوةً لتحقيقِ حكمته سبحانه في ما قدَّره ليوسف وبني إسرائيل من أمور. واللّهُ غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المشهد الثاني: الآيات: ٢٣ ـ ٢٩. يسجلُ هذا المشهدُ محنةً خطيرةً قاسيةً مرَّ بها يوسف عليه السلام، في بيتِ امرأة العزيز، وهي مراودةُ تلك المرأة له، ودعوتُها الصريحة لممارسة الفاحشة، حيث غلَّقت الأبواب، وقالت هيتَ لك، وهمت به.. لكنه نجحَ في تجاوزِ هذه المحنة، واستنجدَ بالله، واستعصمَ به، فعصمه الله وحماه، وقد مكرتْ به تلك المرأة، واتهمتْه أمامَ سيدها زوجها، وظهرتْ براءتُه من تهمة المراودة والهم بالفاحشة.

المشهد الثالث: الآيات: ٣٠ ـ ٣٤. يسجلُ هذا المشهدُ خبرَ انتشارِ مراودة امرأة العزيز ليوسف في أوساط الطبقة المتحكمة، ومؤامرةِ المرأة على تلك النساء، حيث فاجأتهن بيوسف، فبهرهن حسنه، وتوقفْنَ عن عذْلِها ولومها، وساعدْنَها على مراودته. عند ذلك صرحت بأنها لن تكفَّ عنه، وإن استمرَّ على إبائِه واستعصامه فستسجنه. فطلبَ يوسفُ السجنَ لينجوَ من هذا الجو الموبوء، فاستجابَ اللّهُ له طلبه..

الوحدة الثالثة بأربعة مشاهد:

الوحدة الثالثة: الآيات: ٣٥ ـ ٥٣.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الثالثة من قصة يوسف، التي تسجلُ المحنةَ الثالثةَ ـ والأخيرة ـ في حياة يوسف، وهي محنةُ سجْنِه ظلماً، حيث سجنوه بعدما ثبتتْ لهم براءتُه.

والتقى في السجن بسجينين آخرين فمارسَ معهما الدعوة، وعبَّرَ لكلٍّ منهما رؤياه، ورأى الملكُ رؤيا عجيبة، وعجزَ الكهنةُ عنده عن تعبيرها، فعبَّرَهَا له يوسف، وظهرتْ مواهبُ يوسف عند الملك، وأعادَ الملك محاكمته، وشهدت النسوةُ لصالحه، واعترفت امرأة العزيز

بمراودتها له، وأعلنت براءته.

وبذلك خرج من السجن بعدما ظهر للجميع براءتُه وعفتُه.

ويمكن تقسيم هذه الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهدُ الأول: الآيات: ٣٥ ـ ٤٢. يسجلُ لقطةَ إدخالِ يوسف السجن مظلوماً، بعدَ ما ثبتتْ لهم براءته. كما يسجلُ الحوارَ بينه وبين سجينين آخرين، وعرضَه عليهما دعوتَه، وتعريفَهما به وبدينه، ثم تعبيرُه رؤيا كلٍّ منهما، حيث صُلب أحدهما وقُتل، وخرجَ الآخرُ من السجن، وعاد إلى الملك، وطلبَ يوسف منه أنْ يَذكُرَ للملك قصته.

المشهد الثاني: الآيات: ٤٣ ـ ٤٥. يسجلُ الرؤيا التي رآها الملك، وعجْزَ رجاله وكَهَنتِهِ عن تأويلها وتعبيرها، وتذكُّرَ ذلك الرجل موهبة يوسف في تأويل الرؤيا، وذهابَه إليه.

المشهد الثالث: الآيات: ٤٦ ـ ٤٩. يسجلُ ذهابَ الرجل ليوسف في السجن، وتأويلَ يوسف الصائب لرؤيا الملك.

المشهد الرابع: الآيات: ٥٠ ـ ٥٣. يسجلُ إعجابَ الملك بمواهب يوسف، وطلبَه إليه، لكن يوسفَ طلبَ إعادةَ التحقيق في قضيته، ليخرج بريئاً وليس متهماً، وأعادَ الملك التحقيق، وسألَ أطرافَ القضية، فشهدت النساءُ له، واعترفت امرأةُ العزيز بأنها هي التي راودتْه عن نفسه.

الوحدة الرابعة بأربعة مشاهد:

الوحدة الرابعة: الآيات: ٥٤ ـ ٧٩.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الرابعة من قصة يوسف. وهي الحلقةُ التي تسجل مرحلةً جديدةٍ من قصة يوسف.

فالحلقاتُ الثلاث السابقةُ عرضت محنَ يوسف الثلاث، محنةُ التآمر والرق، ثم محنةُ الكيد والمراودة والإغراء، ثم محنةُ الاتهام والظلم والسجن.

وقد انتهت المرحلةُ الأولى ـ مرحلة المحن ـ بإعادةِ محاكمة يوسف أمام الملك، وشهادةِ النسوة وامرأة العزيز لصالحه.

وبهذا تبدأ المرحلةُ الثانية من حياة يوسف، مرحلةُ الرخاء والتمكين والنعم والخيرات.

تسجلُ الحلقةُ الرابعة من قصة يوسف، إخراجَه من السجن، وإكرامَ الملك له، وتولّيه أمورَ مصر وخزائنَ الأرض في السنوات الخمس عشر القادمة، وجعله «عزيز مصر».

وتسجلُ الحلقةُ قدومَ إخوته إلى «عزيز مصر» طلباً للطعام، ودخولَهم عليه، ومعرفتَه لهم دون أن يعرفوه، وقد طلبَ منهم إحضارَ أخٍ لهم من أبيهم، فأحضروا معهم أخاهم بعد تمنُّعِ أبيهم، وقد رتَّبَ يوسفُ مسألةَ إِبقاءِ أخيه عنده، بطريقة عجيبة علمه اللّهُ إياها، حيث أخذه بتهمةِ السرقة في الظاهر.

ويمكن تقسيمُ هذه الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهدُ الأول: الآيات: ٥٤ ـ ٥٧. يسجلُ خروجَ يوسف من السجن، وتكريمَ الملك له، وقولَه: إنك اليوم لدينا مكين أمين. عندها طلب يوسفُ أنْ يجعلَه على خزائن الأرض، لأنه حفيظ عليم. فَعَيَّنَهُ الملكُ في منصب «العزيز».

وبهذا حقَّق اللّهُ ليوسف ما قدَّره له من التمكين في الأرض، تمهيداً لهجرة أبويه وإخوتِه من فلسطين إلى مصر بعد ذلك.

المشهد الثاني: الآيات: ٥٨ ـ ٦٢. يسجلُ هذا المشهدُ منظر قدومَ إِخوةِ يوسف من فلسطين إلى مصر، في سنوات الجدب، طلباً للطعام، حيث دَخلوا على عزيز مصر ـ يوسف ـ وهم لا يتوقعون أن يكون يوسف. فأكرمهم ولم يعرفوه، وطلب منهم إِحضارَ أخيهم معهم في المرة القادمة، وإلا فلا كيلَ لهم عنده، فوعدوه أن يراودوا أباه.

المشهد الثالث: الآيات: ٦٣ ـ ٦٧. يسجلُ هذا المشهد عودةَ الرجال إلى أبيهم يعقوب، حيث أَخبروه بما جرى بينهم وبين عزيز مصر، وطلبَه منهم إحضارَ أخيهم معهم، فوافقَ أَبوهم على ذهابه معهم بعد تمنُّع، وبشروطٍ خاصة، حيث أعطوه على ذلك الموثق المؤكد. فطلبَ منهم أن لا يدخلوا من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة.

المشهد الرابع: الآيات: ٦٨ ـ ٧٩. يسجلُ هذا المشهدُ وصولَ الإخوة ـ ومعهم أخوهم الصغير ـ إلى يوسف. ويعرضُ هذا المشهدُ تدبيرَ يوسف العجيب ليحتفظ بأخيه، حيث جعلَ السقايةَ في رحل أخيه، دون أن يعلمَ أحدٌ بذلك، ثم فتشَ رجالَه واستخرجوها، فأخذَ أخاه حسب شريعة يعقوب بإقرار إخوته، وقد راودوه، وعرضوا عليه أن يأخذَ أحدهم مكانه، لكنه رفض ذلك.

الوحدة الخامسة بخمسة مشاهد:

الوحدة الخامسة: الآيات: ٨٠ ـ ١٠١.

تضمُّ هذه الوحدةُ الحلقةَ الخامسة ـ الأخيرة ـ من قصة يوسف. وهي عودةُ أهله إليه، واستقرارُهم معه في مصر، وإخبارُه أباه ـ بعد أن سجدوا له ـ بتأويلِ رؤياه.

ويمكن تقسيم الحلقة إلى المشاهد التالية:

المشهد الأول: الآيات: ٨٠ ـ ٨٢. يسجلُ منظرَ اجتماعِ إخوة يوسف بعد أخذِ أخيهم، وتشاورَهم فيما بينهم، وبقاءَ أخيهم الكبير في مصر، وذهابَهم إلى أبيهم، لإخباره بأخذِ ابنه رقيقاً بتهمة السرقة.

المشهد الثاني: الآيات: ٨٣ ـ ٨٧. يسجلُ إخبارَ الإخوة لأبيهم بقصةِ أخيهم، حيث تأثَّرَ يعقوب بهذا، وواجهه بصبرِه الجميل، وأملِه أن يجمعَ اللّهُ بينه وبين أولاده الغائبين، وقد لامَه أبناؤه وعنَّفوه على استمرار تذكُّرِه ليوسف. ولكنه أمرهم أن يعودوا إلى مصر باحثين عن يوسف وأخيه، يحدوه الأملُ بروحِ الله.

المشهد الثالث: الآيات: ٨٨ ـ ٩٣. يسجلُ المشهدُ عودةَ الإخوةِ الثالثة إلى مصر، حيث وَقفوا أمام العزيز، وأَعلنوا له أنه أصابهم الضر، فأشفقَ يوسفُ عليهم، وقررَ إِنهاءَ مشاهدِ ومناظر إخفاءِ الحقيقة عليهم، فكشفَ لهم عن هويته، وأخبرهم أنه يوسف، وتجاوزَ عن كلِّ ما فعلوه، وأعطاهم قميصه، وطلبَ منهم إلقاءَه على وجه أبيهم ليعودَ له بصره، وكلفهم أن يأتوا جميعاً إلى مصر.

المشهد الرابع: الآيات: ٩٤ ـ ٩٨. يسجلُ عودةَ الأبناء لأبيهم، ومعهم قميصُ أخيهم، ومفاجأتَه بالقميص، حيث أَلقوه على وجهه فرجعَ إليه بصره.

عندها أَعلنوا له خطأهم، فيما فعلوه في حقّه وحق يوسف، وطلبوا منه أن يستغفرَ لهم، فوعدهم بذلك.

المشهد الخامس: الآيات: ٩٩ ـ ١٠١. يسجلُ عودةَ الأهل جميعاً، ودخولَهم على يوسف، عزيزِ مصر، حيث سجدَ له أبواه وإخوتُه. وقد قصَّ يوسف على أبيه يعقوب قصتَه، وذكَّرَه برؤياه التي رآها وهو صغير. وها هي تتحققُ الآنَ في عالم الواقع.

وختمَ يوسفُ حلقاتِ ومشاهد ومناظر قصته التي انتهت بالتمكين له في الأرض، بأن توجَّه إلى الله، شاكراً له على إِنعامِه وفضله، وقد طلبَ من ربه أنْ يتوفّاه مسلماً، وأنْ يلحقَه بالصالحين.

وبعد هذه الوحداتِ الخمسة لسورة يوسف، تأتي خاتمةُ السورة، التي تضم الآيات: ١٠٢ ـ ١١١.

وتسجلُ آياتُ الخاتمة التعقيباتِ المناسبة، وتوظيفَ قصةِ يوسف المفصلة في السورةِ للدلالة على نبوة محمد ﷺ، وإثباتَ أن القرآن كلامُ الله. واستخراجَ الدروس منها للمسلمين للصبر والثبات، وتقديمَ الأمل لهم بالفرجِ والنصر والتمكين، وتجاوُزِ ما يمرونَ به من ضيقِ

وشدة، كما حصلَ مع يوسف عليه الصلاة والسلام[1].

قصة يوسف على مرحلتين:

والخلاصةُ أنَّ قصةَ يوسف تنقسمُ إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلةُ المحن والابتلاءات.

وتنقسمُ إلى ثلاث حلقات:

الحلقة الأولى: محنتُه وهو يواجهُ كيدَ وتآمرَ إخوته، حيث وضعوه في البئر.

وتنتهي هذه الحلقةُ بأخذِ القافلة له، وبيعِه عبداً لعزيز مصر، وبذلك انتقلَ من حضن والدَيْه إلى قصرِ العزيز، وغادرَ الأرضَ المقدسة إلى عاصمة مصر.

الحلقة الثانية: محنتُه في قصرِ عزيز مصر، حيث كان يعاني شعورَ الرقّ والعبودية، وهو الكريمُ سليلُ الكرماء.

وتصاعدتْ محنتُه في قصر العزيز، عندما واجَه شهوانيةَ امرأةِ العزيز، ومراودتَها له، ودعوتَها الصريحة إلى الفاحشة، ولكنه استعصمَ ولجأ إلى الله.

فاستعانتْ عليه بنسوةِ مسؤولي المدينة، ودعوتِه إلى الفاحشة، وواجَه هذا بالاستعصام، وبذلك انتصرَ على فتنة الشهوة، ونجحَ في تجاوز المحنة.

الحلقة الثالثة: محنتُه في إدخالِه السجن بضعَ سنين. حيث ظهرَ للقوم براءتُه، لكن كيفَ يُبَرِّءونه وهو العبد، ويُدينون امرأةَ العزيز؟ لا بدَّ أن يكون هو الضحية، وأنْ يُسجن، وهكذا دخلَ السجنَ مظلوماً.

---

(١) اعتمدنا تقسيم سيد قطب في الظلال لوحدات السورة وحلقات القصة، ومشاهد كل حلقة وموضوعاتها، ويراجع تقسيمه في تفسيره لسورة يوسف من الظلال.

وقد أَعانَه اللّهُ على تجاوزِ هذه المحنة الثالثة، والتعاملِ معها بالأمل والصبر والاحتساب، واليقينِ بما عند الله.

المرحلة الثانية: مرحلةُ التمكينِ والإنعام.

وتنقسمُ هذه المرحلة إلى حلقتين:

الحلقة الأولى: تولّيه منصبَ «عزيز مصر» ـ أعلى منصب في مصر بعد الملك ـ حيث قدرَ اللّهُ له أنْ يَخرجَ من السجن إلى القيادة والمسؤولية والتمكين في الأرض.

وقد تمكنَ يوسفُ أثناءَ حكمه من حسنِ إدارة مصر، ووضَعَ خطةً لإطعامِ أهلها وإطعامِ أهل البلاد المجاورة، طيلةَ سنوات الجدب والقحطِ السبع.

وقد تعرَّفَ على إخوتِه، عندما جاءوه طالبين الطعام، وطلبَ منهم إِحضارَ أخيه الصغير معهم.

الحلقة الثانية: فيها تفاصيلُ أحداثٍ ومشاهد تعامله مع إخوته، والتي انتهتْ بإتيانِ جميع أفراد أسرته إليه، وهجرتِهم من الأرض المقدسة إلى مصر، وبذلك تحققتْ رؤياه، وأخبرَ أباه بذلك.

وبذلكَ بدأتْ أحداثُ قصة بني إسرائيل في مصر، التي استمروا فيها حتى عادَ بهم موسى بعد ذلك من مصر إلى الأرض المقدسة، بعد عشراتِ السنين!

لقد نجحَ يوسفُ النبي الكريمُ عليه الصلاة والسلام في التعامل مع المرحلةِ الأولى من حياته وقصته، وتجاوزَ ابتلاءاتها ومحنَها الثلاث، كما نجحَ في التعامل مع المرحلةِ الثانية، واستخدَمَها في ذكر الله وشكره.

وسنتعاملُ مع قصته على أساسِ المراحل الخمسِ التي أشرْنا لها.

[٤]

الحلقة الأولى

يوسف يواجه كيد وتآمر إخوته

قلنا إنَّ اللَّهَ وهبَ ليعقوب عليه السلام اثني عشر ابناً ذكراً ـ هم أُصولُ بني إسرائيل ـ.

يعقوب يهتم بيوسف أكثر لنباهته:

وكان من أنبههِم وأذكاهم وأجملِهم ابنُه يوسف عليه السلام، وكان الوالدُ يعقوب يلاحظُ هذا من ابنه الصغير، فيُظهرُ له مزيداً من العنايةِ والرعاية، لكن ليس على حسابِ أبنائه الآخرين.

لكنَّ الأبناءَ الآخرين لم ينظروا إلى الموضوع بمنظارِ حُسنِ الظنِّ والتعليل، وإنما أَساءوا الحكمَ على أبيهم، فاتهموه بالانحياز إلى أخيهم الصغير، وأَساءوا النظرَ إلى أَخيهم، فعامَلوه بحقدٍ وكيد، بدلَ أنْ يعاملوه بحبٍّ ووُدّ.

وقد قدَّرَ اللّهُ ليوسفَ مستقبلاً عظيماً زاهراً، لا يعلمُ يوسفُ وأبوه عنه شيئاً، لأنه من عالَم الغيب، ولكن هذا المستقبلَ الزاهرَ يَعْبُرُه يوسفُ وسطَ سلسلةٍ من الابتلاءات والمحن، وسيُعين اللّهُ يوسفَ على عبورها وتجاوُزها، ليصلَ إلى ما بعدها.

وأرادَ اللّهُ أنْ يقدِّم ليوسف وهو صغير ومضةً منيرة، وإشارةً دالة، فكانت رؤياه.

يوسف يقص رؤياه على أبيه وأبوه يحذره:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤].

كان يوسف صغيراً، فرأى أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمر ساجدين له.

وهي رؤيا عجيبة مثيرة، فشيءٌ كبير أنْ يرى طفلٌ صغير الكواكبَ والشمس والقمر ساجدين بين يديه، وهو واقفٌ ينظر!

تأثَرَ يوسف بهذه الرؤيا، ولما أصبحَ قصَّها على أبيه، وانتظر ليسمعَ من أبيه تعبيرها وتأويلها، أو التعليقَ عليها.

ولما سمعَ يعقوبُ عليه السلام من ابنه رؤياه، تأكدتْ له نظرتُه السابقةُ إلى ابنه، وأحسَّ ـ وهو النبيُّ البصير ـ بالمستقبلِ المشرفِ لابنه، واستشرفَ هو هذا المستقبل، وفهمَ هذه الإشارةَ الخفية التي تقدمها الرؤيا، وعلم أن اللّهَ يُعدُّ ابنَه يوسف لأمرٍ عظيم.

ولا يَعرفُ يعقوب شيئاً عن هذا الأمرِ العظيم والمستقبل الباهر، لأن اللّهَ لم يخبرْه عنه، فهو من عالم الغيب، لكنْ تكفيه هذه الإشارة.

وربط يعقوب نظرَ ابنهِ الصبيِّ بهذا المستقبل غير المحدد، الذي تشيرُ له الرؤيا، وذكَّرَه بنعم الله على آبائه: إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب عليهم السلام، وهيَّأَه لاستقبالِ نعمِ اللّهِ عليه.

لكن يعقوبَ يعلمُ حقْدَ إخوته عليه، وسوءَ نظرتِهم له، ولو قص رؤياه الدالةَ عليهم، فسيزدادون له كيداً، وعليه حقداً. لذلك طلبَ منه أن لا يقصَّ رؤياه عليهم، بل يُخفيها عنهم، لعل كيدَهم وحقدَهم يخفّ.

هذه المعاني يُشير إليها قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾﴾.

وبهذا ينتهي المشهدُ الأولُ من هذه الحلقة. مشهدُ رؤيا يوسف، ومعرفة أبيه بها، وإدراكه لمغزاها، وربط نظر ابنه بها، وتحذيره من كيد إخوته له بسببها.

[٥]

البداية الحاقدة لبني إسرائيل

الإخوة يتهمون أباهم ويحقدون على أخيهم

المشهد الثاني في هذه الحلقة: «تآمُرُ إخوة يوسف عليه» تعرضُه هذه الآيات: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٠].

في قصة يوسف آيات وعبر:

لقد أخبرَنا اللّهُ أن قصةَ يوسف مع إخوته تتضمنُ آيات وعبراً ودروساً عديدة، للذين يسألونَ عن تفاصيلِ أحداثها وحلقاتها، والذين يَقفون أمامَ مشاهدِها ومناظرها.

وهذه دعوةٌ لنا لحسنِ إدراك أحداث قصةِ يوسفَ مع إخوته، واستنباطِ دروسها وعبرها، ومعرفةِ آياتها وإيحاءاتها.

لقد كان إخوةُ يوسف عليه السلام نموذجاً خاصاً بشرياً، في النظر إلى أخٍ صغير، والتعاملِ معه، كما كانوا نموذجاً خاصاً للأبناء الذين يتعاملون مع أَبيهم النبي بجلافةٍ وسوءٍ واتهام.

كانوا نموذجاً بشرياً للكيدِ والحقد، والمكر والتآمر، والحسدِ وسوء الظن، وخطأ النظر وضلال الحكم، والكذبِ والافتراء.

مَنْ هؤلاء؟ إنهم أصولُ وأجدادُ بني إسرائيل، الذين عُرِفوا بعد ذلك باسم اليهود!!

إخوة يوسف والبداية الحاقدة لليهود:

وفي هذا الحديث توجَدُ عدةُ دلالات وآيات، على الطبيعة الخاصة لهؤلاء اليهود، تلك الطبيعةُ التي تقومُ على الكيدِ والحقد والرذائل والنقائص.

إنَّ موقفَ هؤلاء الإخوةِ من أخيهم يمثل «البدايةَ الحاقدة» لهذا النموذجِ البشري الخاص، فإذا كان الأَجدادُ والأصولُ الإسرائيليون على هذه الدَرجةِ من الحقد والكيد على أخيهم، فكيف سيكون حقدُ وكيدُ ولؤمُ الأحفادِ القادمين من اليهود على غيرهم؟

كأنَّ هذا الحقدَ والكيدَ «جينات» وراثية، تنتقلُ إلى الأحفاد لتستقرَّ في نفوسهم وكيانهم، وتتغلغلَ في طبيعتهم.

ولا يُزيلُ هذه الرذائلَ والنقائصَ من نفوسهم إلا الصدقُ في الإيمان بالله، والإحسانُ في عبادة الله، والنجاحُ في التربية الإيمانية، وهذا لم يتحقق إلاّ في نماذجَ قليلةٍ من بني إسرائيل ـ أو اليهود ـ وهم الأنبياءُ فيهم، وأتباعُ الأنبياء الصادقون المخلصون، ومَنْ دخلَ منهم في الإسلام بعدَ بعثةِ محمد ﷺ.

إننا نستثني هذه النماذجَ القليلةَ المؤمنة من ذلك الحقدِ والكيد والتآمر، لإيمانهم واستقامتهم. أمّا الجمهورُ الكبيرُ من الإسرائيليين واليهود، فهم أكثرُ من أجدادهم وأصولهم كيداً وحقداً وتآمراً!!

سوء تفسيرهم لاهتمام أبيهم بيوسف:

إخوةُ يوسف الحاقدون يجلسون معاً يتآمرون، إنهم عشرةٌ كبار ـ باستثناءِ يوسف الصبي وأخيه الأصغر الغلام ـ، ولما ناقشوا مسألةَ أخيهم يوسف وأبيهم يعقوب ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

لقد أَساءوا تفسيرَ اهتمامِ أبيهم بأخويْهم الصغيريْن، حيثُ اعتبروا هذا انحيازاً من الأبِ لصغيريه، ومحبةً لهما، وإهمالاً منه لأَبنائه العشرةِ الكبار، وعدمَ محبةٍ منه لهم.

صحيحٌ أن يعقوبَ يُبدي اهتماماً أكثرَ بيوسف وأخيه، لحاجتهما إلى ذلك، فهما صغيران. أما الأبناءُ الكبارُ فقد كبروا وشَبّوا، ولهذا لا يحتاجون إلى مزيدٍ من العناية والرعاية، وإظهارِ المحبة والاهتمام.

وهذه ناحيةٌ إنسانية معروفة، فأيُّ أبٍ - ولو لم يكن نبياً - يهتمُّ بأولاده الصغار أكثر، ويُظهرُ لهم مزيداً من الحبِّ والرعاية.

ولقد قيلَ لامرأة: أي أولادك أحبُّ إليك؟

قالت: الصغيرُ حتى يكبر. والمريضُ حتى يشفى. والمسافرُ حتى يعود.

ولو بحثَ الإخوةُ المسألةَ على هذا الأساس، لخرجوا بهذه النتيجة، ولما اتهموا أَباهم، ولما حَقدوا على أَخيهم.

لكنهم استسلموا لوسوسةِ الشيطان، وصدَّقوا تعليلَه الشيطاني للموضوع! ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وأصدروا في تلك الجلسةِ حكمهم على أَبيهم، فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. والضلالُ الخطأُ والانحراف، وسوءُ التقدير والعمل.

مَنْ الذي وصفوه بالضلال المبين؟ إنه أَبوهم يعقوب، النبيُّ ابنُ الأنبياء!!!

قتل يوسف أو طرحه في الجب:

ولما بحثوا مسألةَ أَخيهم يوسف طرحوا رأيين:

الأول: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾. ومجردُ ورودِ خاطرِ قتلِ الأخ الصغير عند إخوةٍ له كبار، أمرٌ فظيعٌ خبيث.

لماذا يريدون قتلَ أخٍ صغير؟ لم يرتكبْ جريمةً ولا ذنباً!!

الثاني: ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾.

وهذا الرأيُ الثاني قريبٌ من الرأي الأول. فأخْذُ صبي صغير من حضن والديه وبيته، وإلقاؤه في أرض بعيدةٍ قَفْر، ليس فيها قريبٌ ولا معين، صورةٌ من صور قتلِه.

لكنَّ الحقدَ عندما يسيطرُ على عقل وقلب صاحبه، يغلقُ عليه كلَّ تفكير سليم، وتخطيطٍ مقبول!!

لماذا يقترحون قتلَ أَخيهم، أو إلقاءَه في أرضٍ بعيدة؟ عَلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

لقد زينَ لهم شيطانُهم أنَّ يوسفَ يحجبُ عنهم قلبَ أبيهم ووجْهَه، لأن أباهم مشغولٌ عنهم بحب يوسف، فلا يعطيهم فرصةً لحبهم أو النظرِ إليهم. ولذلك لا بد أن يُزيلوا هذا الحجاب، وإزالتُه بقتلِ يوسف، أو طرحِه في أرض بعيدة. إنهم بعد ذلك يتمكَّنون من وجه وقلب أبيهم، حيث يخلو لهم الأمر، ويشغرُ لهم الوجهُ والقلب، فيستمتعون به، على حساب يوسف!!

والأَعجبُ منهم هو تبريرُهم لجريمتهم الفظيعة، وتخطيطُهم للتوبة والاستقامة والصلاح بعد ارتكابها: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾!

كأنَّ شيطانَهم يقول لهم: اقتلوا أَخاكم الآن، أو اطرحوه أرضاً بعيدة. ولا تخافوا ولا تتحرَّجوا. فأنتم بهذا تريدون مصلحتكم، وتفعلون هذا ليخلوَ لكم وجه أبيكم.

وافْرِضوا أَنها جريمة، لا عليكم، إنكم سوفَ تتوبون بعدها، وتستقيمون وتصلحون، وعندها ستكونون قوماً صالحين. وما زالَ أمامكم مستقبلٌ ووقتٌ وزمان طويل، تحققون فيه الاستقامة والصلاح!

وهذه حيلةٌ ماكرة من حيل الشيطان، أوقعَ فيها هؤلاء الإخوةَ الحاقدين، ويوقعُ فيها أُناساً كثيرين آخرين، يزينُ لهم المعصية، ويقنعهم بإيجادِ التوبة بعد ارتكابِ المعصية، وليس هذا دعوةً منه للتوبة، لكنه استمرارٌ منه في تزيينِ المعصية!.

وقد سجلتْ آياتُ هذا المشهد تحرُّجَ أحدِ الإخوة العشرة المتآمرين، وعدمَ قبوله للرأييْن الفظيعيْن، بقتل يوسف أو طرحه في أرض بعيدة، ولهذا خاطبهم بقوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

مَنْ هو هذا القائل؟ لقد أَبهمتْه الآيةُ بقولها: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذ التنكير ﴿قَائِلٌ﴾ للإِبْهَام. حتى لا نخوضَ في تحديد اسمه، إنه أحدُ الإخوة العشرة، فقط!.

رفضَ اقتراحَ القتل، وقدَّمَ اقتراحاً آخر: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾.

و﴿غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: قعْرُ البئر التي لم تُطْوَ، ولم تُبْنَ بالحجارة. وغيابةُ الشيء: أسفلُه وقعْرُه.

والجُبُّ: البئرُ المحفورة في الأرض، وسُميت «جُبّاً» لأنها مأخوذةٌ من «الجَبّ» وهو القطع. حيث تُحفرُ الأرض، وتُقطعُ قَطْعاً، وتُشقُّ شقاً.

إنَّ غيابةَ الجب التي اتفقوا على إلقاءِ يوسف فيها هي قعْرُ تلك البئرِ المظلمةِ البعيدة.

ونفهمُ من قولِ الأخ المتحفِّظ: ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ تشكيكَهم في تصميمِهم على التخلُّص من يوسف، ودعوتَه لهم إلى التراجع عن ذلك، ويبدو أنه كان أعقلَ الإخوة، وأقلَّهم حقداً واندفاعاً، وأنه ما كان مصمماً على التخلصِ من أخيه، ولذلك كان وجودُه بينهم دافعاً لهم إلى اتخاذِ قرارٍ أقلَّ عنفاً وخطراً ـ مع أنه خطأ وباطل ـ.

[٦]

الإخوة يراودون أباهم لأخذ يوسف

المشهدُ الثالث من هذه الحلقة، تكفلتْ بعرضِه أربعُ آيات: هي

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14)﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤].

لقد اتفقَ الإخوةُ في المشهد السابق على التخلصِ من يوسف، وذلك بإلقائِه في قعرِ بئرٍ مظلم، على طريق القوافل.

والآن يريدون مراودةَ أبيهم يعقوب، ليأذنَ لهم بأخذِ يوسف معهم، ليذهبوا به بعيداً، وليتمكنوا من تنفيذِ مؤامرتهم ضده.

اتهموا أباهم بعدم ائتمانه لهم على يوسف:

كيف يُقنعون أَباهم بذلك؟ وكيف يتحايلون عليه ويخادعونه؟ ماذا يقولون له ليقنعوه؟

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾.

بدأوا كلامَهم مع أَبيهم بالهجومِ عليه، واتهامِه، وسوء ظنهم في تصرفاته. لم يكن يعقوب يرسلُ يوسف معهم في الماضي إلى المراعي. لأنه صغيرٌ قد لا يتحملُ مشقةَ الرعي، وصعودَ الجبال، ونزول الوديان، وملاحقةَ الغنم.

لم يُحسنوا ـ وهم الحاقدون ـ تعليلَ هذا الأمر، واعتبروه عدمَ ائتمانٍ منه لهم على أخيهم، بل تخوينَهم وشكاً فيهم. إنه لا يأْمَنُهم على أخيهم، ويخافُ أن يرسله معهم، لأنه يتوقعُ منهم الخطرَ عليه!

وليس الأمرُ على ما ظنّوه، وصورتْه لهم نفوسُهم الحاقدة.

ولقد أَرادوا بهذا الاتهام لأبيهم، أَن يسارعَ هو بنفيه، وأنْ يُظهرَ لهم عدمَ شكّه فيهم، وذلك ليزعزعوا تمسكَه بهم، ويوافقَ على إرساله معهم.

إظهارهم النصح والحفظ ليوسف:

وحتى يُزيلوا ما في قلبِ أبيهم من شك، أكَّدوا له نصحهم لأخيهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾.

إننا نريدُ مصلحتَه، وإننا ننصحُ له، ونريدُ أنْ يعيشَ معنا، في تنقلاتنا ورحلاتنا، ليتعلمَ ويستفيد.

وقد فسَّروا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ببيانِ أبعادِ نُصحهم له، فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

إننا نريدُ أنْ يخرجَ معنا، وأنْ يَنفَتِحَ على ما حوله، وأن يستمتعَ بالمناظرِ الجميلة، وبذلك يرتعُ ويلعب، ويلهو ويمرح.

وأَكَّدوا لأبيهم حرصَهم على أخيهم، ونصحَهم له، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

واجْمَعْ بين الجملتين اللتين أَكَّدوا بهما حرصهم على يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وأنت تعلمُ أن القومَ كانوا كاذبين في كل منهما، فانظرْ كذبَهم في كلامهم، وكذبَهم في تأكيدهم، وكذبَهم في كلامهم مع أبيهم النبي.

وقد ردَّ أبوهم يعقوب على اتهامهم له ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

ويعقوب يرسله معهم مكرهاً:

كأنَّه يقولُ لهم: إن عدمَ إرسالي يوسف معكم ليس تخويناً لكم، ولكنْ لعدمِ صبري على فراقِه، ولأنه صغير، لا يطيقُ مشقاتِ الرعي، وملاحقةَ الماشية: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾.

ثم صوَّرَ لهم خَشْيَتَهُ عليه، وخوفَه أن يأكله الذئب: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

إنكم سترعون الماشية، وتلاحقونها، وقد تغفلون عن أخيكم الصغير، ولا تنتبهون له، فيأتيه ذئبٌ مفترسٌ فيأكله.

وقد ذكَرَ لهم هذا ليزيلَ اتهامَهم له أوّلاً، ثم ليُبعدهم عن طلبِ إرسالِ يوسف معهم. ولو كانوا غيرَ متآمرين لأثناهم هذا الكلام، ولتراجعوا عن طلبهم.

لكنَّ القومَ متآمرون، فلا بدَّ أنْ يردّوا على أبيهم، وأن يُبعدوا الخطرَ الذي يتوقعه: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴿١٤﴾﴾.

كيف تخافُ أنْ يأكله الذئبُ وهو معنا؟ وكيف تتوقعُ أنْ نغفلَ عنه؟ إننا عصبةٌ قوية من الرجالِ الأشداءِ الأقوياء الحافظين، وهو أخونا، وسنكون حريصين عليه.

لئن وصلَ الذئبُ إليه من بيننا فسنكونُ خاسرين لكل شيء، فاشلين في كل شيء، لا نصلحُ لأيِّ شيء. ونحن لسنا هكذا، ولهذا أَبْعِدْ عن ذهنِك هذا الخاطر!!

[٧]

الإخوة ينفذون المؤامرة

المشهدُ الرابعُ الذي يبين تنفيذَ الإخوةِ لمؤامرتهم، وهذا في آيةٍ واحدة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: ١٥].

لقد استسلمَ أبوهم لهم مُكْرَهاً، ولم تتبدّدْ مخاوفه من ما ينتظر يوسف من أخطار، سيحصلُ ليوسف أمرٌ ما، لا يعرفُه يعقوب عليه السلام.

إلقاء يوسف في غيابة الجب:

وأخذَ الإخوةُ أخاهم الصغير، وذَهبوا به بعيداً، وابتعدوا عن أَبيهم وأهليهم، وساروا في طريقهم، لتَنْفيذِ مؤامرتهم.

وفي الطريق أَجمعوا من جديدٍ على إِلقاء يوسف في غيابة الجب: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

ونفَّذوا مؤامرتَهم، واختاروا بئراً مطوياً على طريقِ القوافل التجارية، المتنقلةِ من الشام إلى مصر، وجعلوا أَخاهم الصغيرَ فيه، وغيّبوه داخلَه: ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

إن القرآنَ لم يحددْ هذا البئرَ الذي أَلقوه فيه، ولم يحدد موقعَه ولا منطقتَه، ولم يحدد القريةَ أو المدينةَ القريبة منه، ولم يحدد المسافةَ بينه وبين منازلِ أهلهم وأبيهم. لأن تحديدَ كلِّ هذا لا يتفقُ مع منهجِ القرآن في عرض قصصه، ولا تتحققُ به العبرة. ونحنُ لا نخوض مع الخائضين في تحديدِ هذه المبهمات!.

ثم إن القرآنَ لم يفصِّلْ في مشهدِ إِلقائه في غيابة الجب، بل مَرَّ عليه مروراً سريعاً، في جملةٍ قصيرة: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

ويبدو أن الحكمةَ في ذلك هو أن هذا المشهدَ ليس من المناسب أن يُفَصَّلَ في القرآن!

إنه مشهدٌ مرفوض مستنكر، ويتضمنُ فعلاً شائناً مرفوضاً من القوم، ويتحدثُ عن لحظاتِ ضعفِ بشري، خَفَتَ فيه الحقُّ في قلوبهم وضمائرهم، وعلا صوتُ الباطل والشيطان، فلماذا يُفصِّلُ في تصوير هذا المرضِ والضعف والنقص؟ ولماذا تُعرضُ الجريمةُ عرضاً بطيئاً لقطةً لقطة؟

يُخشى أنْ يتأثرَ بهذا التفصيل بعضُ ضعاف الإيمان ومرضى

القلوب، ويقتدوا بهؤلاء القومِ في نقصِهم وضعفهم.

إنه مشهدٌ يستحقُّ أنْ يطوىٰ بسرعة، وأنْ يُمرَّ عليه بسرعة، وأنْ لا تتملّاه النفوس، ولهذا تَكفيه هذه الجملة: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

ويُهمنا هنا أنْ نعيشَ مع الطفلِ الصغير وهو يُلقىٰ في غيابةِ الجب، على أَيدي إخوانِه الناصحين الحافظين له. ما هي مشاعرُه وأفكاره، وهو يَرى هذا الكيدَ واللؤم من إخوانه؟ إنه طفلٌ بريء، لم يكن يتوقع هذا من إخوانه! فما هي الصدمةُ التي أُصيب بها؟ وما هو أَثرها على نفسِه وأعصابه ومشاعره؟.

ما أوحى الله به ليوسف وهو في البئر:

لقد تداركتْه رحمةُ الله وعنايته، ولم يتركْه اللّهُ مصدوماً مع تخيلاته، حتى لا تتحولَ هذه الصدمةُ إلى مرضٍ عصبي، وعقدة نفسية.

فتح اللّهُ له ـ وهو في قعرِ البئر المظلم، وإخوانُه المتآمرون واقفون على حافة البئر ـ بَصيصاً من الأملِ والفرج والنور: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ووحْيُ الله إليه المذكورُ هنا ليس وحيَ نبوة عن طريقِ جبريل عليه السلام، لأنه كان صغيراً، لم يُنبأْ وقتَها.

إنه إلهامٌ من الله له، أَلقاه في خاطره، وذلك كوحيِ الله إلى أمّ موسى، تعليماً لها كيف تتصرفُ لتبعد الخطرَ عن وليدِها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

وحيُ الله إليه وهو في غيابةِ الجبِّ بأن لا يتأثرَ ولا يُصدم، ولا يُحبط ولا ييأس، إنَّ الذي دفعَ إخوتَه إلى هذه الجريمة هو الشيطانُ ووساوسُه، وإنه الحقد والحسد.

إنهم يريدون التخلصَ منك، والوقوفَ في طريقك. وإنهم فاشلون في ذلك، عاجزون عنه، وأنت ستتجاوزُ هذه المحنة، وستَخرجُ من هذا المكان، وسيمكِّنُ اللّهُ لك في الأرض، وستكون أنجحَ منهم، وسيأتون إليك في المستقبل، وأنت أفضلُ وأعزُّ منهم، وستذكِّرُهم بهذه الجريمةِ التي يرتكبونها معك الآن، وستؤنِّبهم عليها، وهم لا يشعرونَ أن العزيزَ المسؤولَ الذي يقفون أمامه، هو أخوهم الصغير، الذي يُلقونه الآن في البئر، ويُريدونَ تحطيمَ مستقبله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أما كيفَ ومتى وأينَ يتحقق ذلك فلا عليك. لا تفكرْ فيه ولا في تفاصيله، فما عليكَ إلاَّ أنْ تسلِّمَ أمْرَك لله، الذي رسم لك مستقبلك، والذي ينقل خطواتِك لتحقيق ما قدر لك! وما عليك إلاّ أنْ تعيشَ على هذا الأمل والرجاء، وأنْ تنظرَ إليه في كل ما سيمرُّ بك من محن.

وهكذا نرى يوسف ـ الطفلَ الصغير ـ يكتوي بنارِ المحنة الأولى، ويتلقّاها وهو ما زال صغيراً، وهي محنةٌ ناتجة عن مؤامرة رسمها إخوتُه، أقربُ الناسِ إليه:

وَظُلْمُ ذَوي القُرْبى أَشَدُّ مَضاضَةً ... عَلى النَّفسِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

[٨]

المتآمرون يكذبون على أبيهم

بكاء المتآمرين وتلاعبهم في هذه العاطفة:

المشهد الخامس: عودةُ المتآمرين إلى أَبيهم وكذبُهم عليه، عَرَضه قولُه تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: ١٦ ـ ١٨].

لقد تأخَّرَ الإخوةُ إلى وقتِ العشاء، وعندها جاءوا أباهم باكين:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لماذا جاءوا عشاءً؟

وقتُ العشاء ينتشرُ فيه الظلام، ويُخفي الظلامُ ملامحَ وقسماتِ المتآمرِ الكاذب، وتنطلي حيلتُه على المستمعِ والمشاهد.

أما النهارُ والضياءُ فإنه كاشف، يكشفُ الملامحَ والقسمات، ويُظهرُ الزيفَ والكذب والافتراء.

ودخلوا على أَبيهم وقتَ العشاء وهم يبكون! يبكون على مَنْ؟ على أَخيهم الصغير الذي عادوا بدونه! وقد قَدَّموا لأبيهم في الصباح الوعودَ والتأكيدات بالمحافظةِ عليه!

إنَّ أَباهم عليه السلام لا يعلمُ ماذا فعلوا بيوسف عندما دخلوا عليه باكين، لأنه لا يعلمُ الغيب. أما نحنُ فقد علِمْنا من السياقِ القرآني ماذا فعلوا به.

ولهذا نتعجبُ مِن بكائهم، ومِن دموعهم الكاذبة، لقد تآمروا عليه، وارتكبوا معه أفظعَ جريمة. وها هم الآن يبكونَ عليه!!!.

إنَّ البكاءَ عاطفةٌ إنسانية، وإن الدموعَ مظهرٌ لهذه العاطفة، والأصلُ أن تكونَ العاطفةُ والدموعُ صادقة.

فلجوءُ الإخوةِ المتآمرين إلى البكاءِ والدموع لإخفاءِ جريمتهم، جريمةٌ جديدة يرتكبونها، تتضمنُ مزيداً من الكذبِ والتحايلِ والتحريف والتزوير، لأنهم يتلاعبونَ بالعواطفِ والمشاعر الإنسانية!

كذبهم في زعم أكل الذئب ليوسف:

وبعد كذبهم في بكائِهم ودموعهم، يَكذبون على أبيهم المفجوع في كلامِهم، حيث فوجئ بعدمِ عودةِ ابنه يوسف معهم، وأمامَ دهشته واستغرابه أَعلموه بوفاةِ ابنه، مما زادَ في صدمته: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

قالوا: يا أبانا، تركْنا الغنمَ والماشيةَ ترعى، وأَرَدنا أن نلعبَ ونمرح ونركض. فجمعْنا متاعَنا وأغراضَنا وأشياءنا، ووضَعْناها، ولأنَّ أَخانا يوسف صغير، لا يقدرُ على الجري والركض، ومتابعتِنا في السباق، فقد تركْناه عند متاعنا، وأجْلَسناه هناك.

ولما ذهبنا نتسابق، وقطَعْنا في السباق شوطاً بعيداً، جاءَ ذئبٌ مفترس، فانفردَ بيوسف وافترسَه وأكله، وفوجئنا نحنُ بذلك، وأَرَدْنا تخليصَه وإنقاذَه، لكنَّ الذئبَ كان أسبقَ منّا إليه، فلم نجد من يوسفَ إلا قميصَهُ، وعليه آثارُ الدماء، فأتيناك يا أبانا بهذا القميص: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾.

لقد كان تبريرُهم مرفوضاً، وحيلتُهم مكشوفة، وكذبُهم واضحاً، فلم يُحسنوا الكلامَ والتبرير!!

حذَّرهم أبوهم في الصباح من أكلِ الذئب له، فادَّعوا في المساءِ أنَّ الذئب قد أكله! لماذا لم يختلقوا كذبةً أخرى؟ قد تكونُ أدعى للقبول عند أبيهم وأهلهم!.

تسرَّعَ القومُ في ارتكابِ جريمتهم، وتسرَّعوا في كلامهم وادعائهم، وتسرَّعوا في اتهام الذئب، وتسرَّعوا في إحضار قميصه، بعد أنْ تسرعوا في تلطيخه بدماءٍ أخرى، غيرِ دماء يوسف!

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾. وقد وُصفَ الدمُ في الآية بأنه كَذِب، لأنَّ هذا الدمَ على القميص غيرُ حقيقي، فهو ليس دمَ يوسف، وإنما دمُ ذبيحٍ آخر، وهو يكشفُ كذب المتآمرين.

ولعلَّ القميصَ الذي أَحضروه كان سليماً غيرَ ممزق، ولعلَّ تلطيخَه بدماء الذبيحة كان متسَرِّعاً غيرَ متقن، ولعلَّ أباهم لاحظَ كل هذا، فوقفَ على كذبهم في كلامِهم وفي تبريرهم وفي فعلهم.

وقد أَدركوا أنَّ حيلتَهم لم تنطَلِ على أبيهم، فاستدركوا قائلين: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

إِننا نعلمُ أنك لا تصدقُنا في كلامنا، وأنك لا تطمئنُّ لما نقول، ولا تثقُ به، إنك تُكَذِّبنا وتتهمنا، لكن هذا ما عندنا!!.

يعقوب وصبره الجميل:

ماذا يفعلُ الأبُ المفجوعُ مع أبنائه المتآمرين الكاذبين؟ ماذا يفعلُ بعد أنْ فُجِعَ في ابنِه الأثيرِ عنده؟ وبعد أنْ فارقَه ليسيرَ في طريق الابتلاءات والمحن!

هل يفيده لومُ أبنائه؟ وهل ينفعُه عقابُه لهم؟ إنَّ ذلك لا يفيدُ الآن!

ما زادَ على أنْ قالَ لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. نفوسُكم مريضة، سيطرَ عليها الشيطان، وملأَها حِقداً على أخيكم يوسف، فزينتْ لكم هذه النفوسُ المريضةُ الحاقدةُ ارتكابَ أمرٍ منكر ضدَّ أخيكم، وحسَّنت لكم هذا المنكر، ويسَّرت لكم ارتكابَ الجريمة، وارتكبتم مع يوسف ما ارتكبتم.

هذا كلُّ ما قاله يعقوبُ لهم مما يتعلقُ بإذهاب يوسف، ثم توجَّه إلى الزاد، الذي يتزودُ به كلُّ مؤمنٍ بالله يُبتلىٰ بمكائدِ ومؤامراتِ أقربِ الناس إليه، إنه الصبر: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

لقد صبرَ يعقوب صبراً جميلاً على أبنائِه المتآمرين الحاقدين الكاذبين. وصبرَ صبراً جميلاً على فقْدِه لابنه الأثيرِ يوسف، وصبرَ صبراً جميلاً على ما سيواجهُه ابنُه حبيبُه من محنٍ وبلايا. وسيصبرُ صبراً جميلاً على أملِ اللقاء بابنه، وإنْ طال الزمان.

صبرُه جميل، بدون جزعٍ ولا إحباط، ولا يأسٍ ولا قنوط، ولا تذمرٍ ولا شكوى. وهذا هو سرُّ جمالِ هذا الصبر.

وسيستعين على كلِّ ذلك بالله، لأنه خيرُ معينٍ لعباده الصابرين المحتسبين: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وبهذا فقدَ يعقوبُ ابنَه الأثيرَ يوسف، فصبرَ وتجمَّلَ واحتمل، وأَمضى السنواتِ القادمة من عمره مع هؤلاء الأبناء المتآمرين، وكلُّه شوقٌ للقاء يوسف، وحزنٌ كبيرٌ على فقْده.

[٩]

يوسف عبد رقيق في مصر

المشهدُ السادس هو الأخيرُ في الحلقة الأولى من قصة يوسف: وهو إخراجُ طليعة القافلة يوسف من البئر، وبيعُه رقيقاً في مصر، وانتقالُه من الأَرض المقدسة إلى مصر.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٠].

ذهبَ الإخوةُ المتآمرون إلى أبيهم يعقوب، وتركوا يوسفَ في غَيابةِ الجب، مع أفكاره وخواطره، وانتهى المشهدُ السابق بكذبهم على أبيهم، وعدمِ تصديق أبيهم لهم، وصبرِه الجميل على ما يحدث، واستعانتهِ بالله.

أما هذه الآياتُ فإنها تَعرض لنا مشهدَ إنقاذِ يوسف، وإخراجِه من البئر، وأخذِه رقيقاً إلى مصر، وبيعِه هناك:

وارد القافلة يجد يوسف:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: والسيارةُ هي القافلة التي يسير رجالُها معاً، وينتقلون من بلدٍ إلى آخر، إما للتجارة، وإما لهدفٍ آخر.

وكان المسافرون يسافرون ويسيرون معاً، على طريقِ القوافل، ما

بين الشام ومصر. وكان الجُبُّ الذي أُلقيَ فيه يوسف على طريق القوافل، يمرُّ به السيارةُ المسافرون، ويأخذون حاجتَهم من مائه.

فلما كان يوسفُ في غَيابةِ الجُبِّ مرتْ سيارةٌ بالطريق، وكانت لها طليعةٌ متقدمة تَرِدُ الماء، وتهيِّءُ مكانَ النزول.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾: الواردُ هو الشخصُ الذي يسبقُ القافلة، فيرِدُ الماء، ويجهزُه. وقد أرسلوا هذا الواردَ الرائدَ إلى ذلك البئر.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾: وصلَ الرائدُ الواردُ البئر، وهو يظنُّ أن به الماءَ فقط، فأَدْلَى دلوَه في البئر، ليملأه بالماء، وهو لا يدري أنَّ هناك غلاماً في الداخل.

ورأى يوسفُ الدلوَ نازلاً، فلما وصله تعلقَ به، وهذه حركةٌ منطقية منه، لأن بها نجاتَه، وهو يريدُ التخلصَ مما هو فيه.

ورفعَ الواردُ دلْوَه، وهو يظنُّه ممتلئاً ماء، وكم كانت دهشتُه ومفاجأتُه عندما رأى الغلامَ متعلِّقاً بالدلو، فنطقَ فمُه بهذه العبارة: ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾.

لقد استبشرَ هذا الواردُ بالغلام الخارج مِن البئر، واعتبر هذا بشرى له، وسِرُّ بشراه بذلك أنه اعتبرَه كنزاً سيدرُّ عليه دخلاً ومالاً، وسيستفيدُ منه ربحاً وفيراً.

ويوحي سياقُ الآيات بأنه كان مع الرائد الواردِ مجموعةٌ من الرجال، وكان هؤلاء طليعةً للسيارة القافلة التي تضمُّ عدداً أكبر من التجار المسافرين.

أخذوا يوسف بضاعة مخفية إلى مصر:

كما يوحي سياقُ الآيات بأن رجالَ هذه الطليعة قد دُهشوا بهذا الغلامِ الخارج من البئر، ثم اتفقوا فيما بينهم على أخْذه معهم إلى مصر، لبيعِه هناك، واقتسامِ ثمنه بينهم.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: أَسَرّوه من الإسرار، وهو الإخفاء، أي: أخفوه. عَنْ مَنْ أَخفوه؟ لعلَّهم أخفوه عن إِخوانهم الآخرين المسافرين في القافلة، لأنهم لم يعثُروا عليه معهم، فلا يشاركونهم فيه!

اعتبرت الطليعةُ الاستكشافيةُ الغلامَ عبداً رقيقاً، لأنهم لا يعرفون أصْلَه ولا نسبه، وأخفوه معهم بضاعة، وجعلوه سلعةً مع سلعهم الأخرى، وبذلك حوَّلوه من إنسانٍ كريم إلى عبدٍ رقيق، مُعَدٌ للبيع كما يُباعُ أيُّ رقيق آخر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: إن اللّهَ مطلعٌ على عملِ هؤلاء الطليعة، كما هو مطلعٌ على عمل كل المخلوقين، وعالمٌ بهذا الإنسانِ الكريم الذي أسرّوه بضاعة.

إن اللّهَ يُعِدُّ هذا الغلامَ لأمر عظيم، وقدَّرَ أنْ يمرَّ بهذا الطريق المؤلم، طريقِ الاسترقاق والمحنة والابتلاء، ولله في خلقه شؤون، وهو العليمُ الحكيم!.

تابعت السيارةُ سيرَها، ويوسفُ الغلام بضاعةٌ مخفية مع تلك المجموعة، وقطعت المسافةَ ما بين أرضِ الشام وأرض مصر، ولا يعلمُ باقي أفرادِ القافلة شيئاً عن هذه البضاعة البشرية.

وباعوه رقيقاً في مصر:

ووصلت السيارةُ مصر، وسارعَ أفرادُ المجموعة بأخذ الغلام معهم، وبيعِه في عاصمة مصر عبداً رقيقاً: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

معنى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ باعوه.

وهناك فَرْقٌ بين فعلَيْ: «شرى» و«اشترى» في القرآن.

«شرى»: باع. يقال: فلان شرى كذا. أَي: باع كذا.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ

مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

أي: مِن الناس مَنْ يبيعُ نفسَه لله، طلباً لمرضاة الله.

أما «اشترى» فإنها تستعملُ في المشتري، الذي يأخذ السلعةَ المشتراة، ويتملكُها، ويدفعُ ثَمنها لبائعها.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١].

اشترى اللّهُ مِن الذي شَرى.

وهنا يقولُ الله عن هؤلاء البائعين للغلام: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ﴾، بينما يقولُ عن الطرفِ الآخر في هذه الصفقة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ...﴾.

وتخبرُنا الآيةُ أن التجارَ الذين باعوا يوسف في مصر كانوا متعجِّلين متسرِّعين، راغبين في سرعةِ التخلص منه، وكسبِ ثمنه، ولهذا باعوه في مصر بثمن بخس: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

إننا نستصحبُ أصلَ يوسف ونحن نقرأُ كلمات الآية، فهو غلامٌ كريم، سليلُ آباءٍ كرام، وأنبياءٍ عظام، ولكنه الآن في مصرَ يُباعُ بأرخص الأثمان!!

إنَّ كلَّ كلمة في الآية تشيرُ إلى زهدِ بائعيه فيه، وهوانِه عليهم.

لقد باعوه، بثمن، وهذا الثمنُ بخسٌ ناقص تافه، لا اعتبار له عندهم ولا قيمة. وهذا الثمنُ البخس القليل دراهم ـ والكلمة توحي بالهوان والانتقاص ـ وهذه الدراهمُ معدودةٌ عَدّاً، فمِن قلَّتها أنها معدودة، وليست موزونة.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾: لا قيمةَ له عندهم وهو الكريم، ولا تقديرَ له عندهم وهو المقدَّرُ المحترم، زهدوا فيه، ورغبوا في

التخلص منه، وأسرعوا في بيعه.

وهكذا بيعَ يوسفُ عليه السلام عبداً رقيقاً في مصر.

وبذلك ينتقلُ يوسفُ من حضن والديه، حيث كان يعيشُ عندهما معزَّزاً مُدلَّلاً محبوباً، ليعيش في مصر عبداً رقيقاً، وفتى غلاماً.

وبذلك ينتقلُ يوسفُ رغماً عنه، من الأرض المقدسة، إلى مصر، كما قدَّرَ اللّهُ له وهو العليم الحكيم، تمهيداً للمستقبل الكبير الذي يُعدُّه الله إليه.

لقد تجاوزَ يوسفُ المحنةَ الأولى، محنةَ حقْدِ إخوته عليه، وتآمُرِهم عليه، وأَنجاهُ الله من هذه المحنة المظلمة، ليدخل في محنةٍ أُخرى، مؤلمة له، وهي محنةُ الاسترقاق، حيث سيعيش رقيقاً في مصر، وهو الكريمُ الشريف.

وبذلك ينتقلُ سياقُ القرآن للحلقة الثانية من قصة يوسف، حيث سنشاهدُ مشاهدَ ومناظرَ هذه الحلقة وهي تجري هناك، ليتمَّ ما قدَّره اللّهُ في النهاية!!.

[١٠]

الحلقة الثانية

يوسف ينتصر على الإغراء والمراودة

انتهت الحلقةُ الأولى من قصةِ يوسف عليه السلام ـ بمشاهدها الستة ـ ونقلَ اللّهُ يوسفَ من الشام إلى مصر.

وما أن انتهتِ المحنةُ الأولى في حياة يوسف، وهي تآمُرُ إخوته عليه، حتى بدأَتْ محنتُه الثانية، لكنها في مصر هذه المرة، وفي بيتِ الذي اشتراه بالذات.

إنها محنةُ الاسترقاق، وما نتج عنها من فتنٍ متتابعة، تمثلتْ في إِعجابِ امرأة العزيز به، ومراودتِها له، ودعوتِها الصريحة له إلى

الفاحشة، واستعانتِها بنسوة المدينة.

ولكن يوسف واجه كلَّ هذه الفتن بثباتٍ وعفة وطهارة، واستعصم بالله، ورفضَ كلَّ الإغراءات والمراودات، وآثر السجن على أن يعيش في هذه الحياة الموبوءة.

وسنعيشُ مع آيات القرآن التي عَرَضتْ مشاهدَ ولقطاتِ هذه الحلقة.

وآيات هذه الحلقة هي: ٢١ ـ ٣٤.

وتنقسم هذه الحلقة إلى ثلاثة مشاهد.

[١١]

يوسف يستقر في بيت عزيز مصر

المشهدُ الأولُ الذي يصوِّرُ استقرارَ يوسف في بيت عزيز مصر، حيث توسَّمَ فيه العزيز خيراً، فأوصى به امرأته. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢١ ـ ٢٢].

يوسف في بيت عزيز مصر:

الذي اشترى يوسف في مصر هو «عزيزُ مصر» كما ستبين الآياتُ اللاحقةُ من القصة.

وقد توسمَ العزيزُ في هذا الفتى الخير، وأُعجبَ به، ولم يعامِلْه باعتباره عبداً أو رقيقاً، كباقي العبيد الذين عنده، إنما نظرَ له نظرةً خاصة، وله فيه فراسةٌ صادقة، وذكاءٌ لَمّاح. ولهذا أوصى امرأتَه به، قائلًا: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

طلبَ منها أنْ تكرمَ مثوى هذا الفتى، مبالغةً في إكرامه. والمثوى

من الثّوِيّ، وهو مكانُ المبيتِ والإقامة.

لقد طلبَ العزيزُ من امرأته إكرامَ الفتى إكراماً خاصاً، وكأنَّ هذا الإكرامَ ينتقلُ منه إلى مثواه ومكانِ إقامته.

ولقد أكرمت المرأةُ الفتى، لكن على طريقتِها الخاصة، القائمةِ على الفتنة والمراودة، ذلك الإكرامُ الذي لم يقصدْه زوجُها، ولم يقبله يوسفُ عليه السلام، وهو في الحقيقة ليس إكراماً!

لماذا طلبَ العزيزُ من امرأته إكرامَ يوسف؟ لقد رجا أَنْ ينفعهما، وأنْ يحصلَ لهما الخيرُ عن طريقه، كما أنه قد يتخذُه ولداً، وقد يتبناه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾.

وقد كانتْ فراسةُ العزيز في يوسف صائبة، ولهذا قال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: أَفْرَسُ الناسِ ثلاثة: العزيزُ حين قال لامرأته: أكرمي مثواه، عسى أنْ ينفعنا أو نتخذَه ولداً. والتي قالتْ لأَبيها عن موسى عليه السلام: يا أَبتِ استأجره. إن خير مَن استأجرتَ القويُّ الأمين. وأبو بكر الصديق حين تفرسَ في عمر فولاّه الخلافة، رضي الله عنهما[1].

وباستقرارِ يوسف عليه السلام في بيت العزيز معزَّزاً مكرَّماً يكون قد تجاوزَ أخطارَ الغربة، ووصل إلى مكانٍ آمن!!

ولهذا عقبت الآيةُ على هذا الاستقرارِ فقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

مكن الله ليوسف في بيت العزيز:

إن اللّهَ هو الذي مكّنَ ليوسف في الأرضِ الجديدة مصر، وهيَّأَ له أنْ يعيشَ في بيتِ مسؤولٍ كبيرٍ فيها، وذلك تمهيد لما سيأتي من أحداث وتطورات.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢: ٣٤٥ ـ ٣٤٦. وانظر الأحاديث الصحيحة: ١٨٣.

وسينتجُ عن تمكينِ الله ليوسفَ في بيت العزيز تعليمُ يوسف تأويلَ الأحاديث: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾.

سيكونُ ليوسف جهدٌ واضحٌ في تأويل الأحاديث، وتعبيرِ الرؤى، وسيكون لعلْمِه بذلك أثرٌ واضح في المكانة التي سيصلُ إليها.

وتشيرُ هذه الجملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ إلى أنَّ تقديرَ الله له القدومَ إلى مصر، والاستقرارَ في بيت العزيز، خطوةٌ على طريق تعليمِه تأويل الأحاديث، ولولا ما يخططُ اللّهُ له من علمٍ بتأويلِ الأحاديث لما أتى به إلى مصر.

وعندما نقرأُ هذه الجملةَ التعليليةَ لإقامة يوسف في بيتِ العزيز ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ نتذكرُ ما قالَه يعقوبُ لابنه يوسف ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عندما أخبره برؤياه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].

نتذكرُ هذا لنعلمَ أنَّ إقامتَه في مصر كانت تمهيداً لتعليمه تأويل الأحاديث، كما قدَّر الله.

وهذا هو الموطنُ المناسبُ لتقرير حقيقةٍ إيمانية، بالنسبة إلى نَفاذِ قَدَرِ الله، وتحقيق مشيئته: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ما شاءَ اللّهُ كان، وما أَراده الله فهو واقع، ولا يَقدرُ مخلوقٌ على منعه وإيقافه، ولا يستطيعُ مخلوقٌ مغالبةَ الله، لأنَّ اللّهَ فعالٌ لما يريد، وهو غالبٌ على أمره، منفذٌ لمشيئته.

ففي شأنِ يوسف عليه السلام، أرادَ الله ليوسفُ أمراً، ورتبَ له مستقبلاً، وأعدَّ له مهمة، وقدَّرَ من الأحداث لتحقيق ذلك.

وإِخوةُ يوسف لا يعلمون هذا، كلُّ ما عندهم هو حسدُ يوسف والحقدُ عليه، والتآمرُ والكيدُ ضده، للتخلصِ منه، ولهذا فعلوا به ما فعلوا.

وما درى أولئكَ المساكين أنَّ ما فعلوه ليوسف كان خطوةً لسيرِه في الطريقِ الذي قدَّره الله عليه، للوصولِ إلى المنزلة التي أعدَّها اللّهُ له. فما فعلوه في ظاهره ضرٌّ وأذى ومحنة، لكنه في النهايةِ منحةً وخدمةً قدَّموها له، وهم لا يشعرون!! وربَّ ضارةٍ نافعة!!!.

وبعدَ أنْ مكَّنَ الله ليوسف في بيتِ العزيز، حفظهُ ورعاه طيلةَ إقامته في ذلك البيت. وأمضى يوسفُ سنواتٍ في البيت، لا نعلمُ عدَدَها ولا مقدارها، فهذا من مبهماتِ القصة.

مضت السنواتُ ويوسفُ في بيت العزيز، حتى صار شابّاً جَلْداً قوياً، وحتى بلغَ أشدَّه، ونضجتْ شخصيتُه، واستقامَ كيانُه، كلُّ هذا وهو في حفظ الله ورعايته: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴿٢٢﴾﴾.

آتى الله يوسفَ حين بلغ الأشُدّ وهو في بيت العزيز الحكمَ والعلم، فكانَ حكيماً في تصرفاته، صائباً في أفعاله، عالماً في أقواله واختياراته، وبهذا صارَ صاحبَ شخصيةٍ متزنة وَقورة، مما زادَه قبولاً عند الآخرين، حيث زادوا له إعجاباً واحتراماً.

وقد كان مع الله وهو في بيت العزيز، ولهذا كان محسناً شاكراً لله، فكافأه اللّهُ على إحسانِه بالحكم والعلم. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

[١٢]

يوسف ينتصر على مراودة امرأة العزيز

يعرضُ المشهدُ الثاني من هذه الحلقة بعضَ ما جرى ليوسف من امرأةِ العزيز، وبعضَ ما قامت به من إغراءٍ ومراودةٍ له، وكيف ردَّ هو على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ

ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٩].

حفظ الله يوسف في بيت العزيز:

حتى نُحسنَ فهمَ هذه الآياتِ السبعة لا بدَّ أن نستحضرَ الآيات السابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

إن اللّهَ يحفظُ يوسفَ ويرعاه، وهو في بيتِ امرأةِ العزيز، فاللّهُ هو الذي مكَّنَ له في البيت، وقد آتاهُ اللّهُ الحكمَ والعلمَ عندما نضجَ وبلغَ أشدَّه، وهو محسنٌ فأثابه الله على إحسانه. وقد حفظهُ اللّهُ ورعاه وهو يتعرضُ لهذه الفتنة الطاغية، فتنةِ الشهوة، وإغراءِ ومراودة امرأة العزيز له.

لما نضجَ يوسفُ في بيت العزيز ابتُليَ بمحنةٍ شديدة، يسقطُ فيها كثيرٌ من الناس، وقَلَّ مَنْ يصمدُ أمام فتنةِ الشهوة، وقَلَّ مَنْ ينجحُ أمامَ الإغراء والمراودة، ويثبتُ على العفةِ والطهارة.

ومراودةُ امرأةِ العزيز ليوسف عجيبة، ولكنَّ يوسفَ استقبلها وابتُلي بها، بعدَ أنْ قطعَ شوطاً في طريق الخير، وبعدَ أن اتصفَ بصفاتِ

عظيمة، وملكَ مؤهلات خاصة، تمكَّنَ بها من تجاوزِ فتنةِ الشهوة والمراودة.

لقد أقبلَ يوسفُ على امتحان المراودةِ والشهوة أمامَ امرأة العزيز، بعد أنْ آتاهُ الله الحكمَ والعلم، وبعدَ أنْ كان محسناً واعياً ناضجاً، متزناً مستقيماً.

لا ننسى هذا ونحنُ نتدبرُ الآياتِ التي تعرضُ امتحانَ الفتنة له.

هذا شيء.

مراودات كثيرة من امرأة العزيز له:

وشيءٌ آخر، وهو أنَّ آياتِ هذا المشهد تعرضُ لنا آخرَ لقطاتِ المراودة، وليس أوَّلَها، تعرضُ لقطةَ إغلاقِ المرأة للأبواب، وقيامِها بأقصى ما تستطيعُ من تزيُّنٍ وفتنة وإغراء وإغواء، ودعوةِ يوسف الصريحة الجريئة الجاهرة إليها، وهجومِها عليه بعد تمنُّعه، لتجبرهُ على معاشرتِها!!

إنَّ هذه هي خاتمةُ المراودة وليست بدايتها.

لقد سبقت هذه الحركاتِ الجريئة من امرأة العزيز مراوداتٌ ومراوداتٌ ليوسف!!

إننا نعلمُ أنَّ يوسفَ قد أمضى صِباه وفتوَّتَه عندها في البيت، وها هو الآن شابٌّ قد بلغَ أشُدَّه. وهذا يعني أنه أمضى في البيت سنواتٍ وسنوات، قد تكون عشراً، وقد تكون خمس عشرة!!

وقد تعرَّضَ يوسفُ خلال هذه السنوات العديدة إلى مراودةٍ وإغراء امرأة العزيز، ولعلَّها بدأَتْها بالإشارةِ الموحية غير الصريحة، والتصرفاتِ اللافتة للنظر، من تبرجٍ وتزينٍ وحركة، وهذه الحركاتُ والتصرفاتُ كفيلةٌ بلفتِ نظرِ الراغبِ فيها، وإيقاظِ هاجس الشهوة عنده، وتنتهي باستجابته السريعةِ وممارسةِ الفاحشة.

لكن يوسفَ ليس من ذلك النوعِ المستجيب. صحيحٌ أنه كانَ يفهمُ عن تصرفاتِ امرأة العزيز مرادَها وقصدَها، وأنَّ هذه استمرتْ سنواتٍ وسنوات، وهو في كلِّ مرة يعرفُ ماذا تريدُ منه، ولو كان غيرُه مكانَه لاستجابَ لها منذُ البداية، ولمَا أحوجَها إلى كل ذلك.. لكنه يوسف، يوسفُ المتصفُ بالعلم والحكم، يوسفُ المحسن المخلص.

واجَهَ يوسفُ مراوداتِ امرأة العزيز السابقة التي استمرتْ سنواتٍ وسنوات بالترفُّعِ والعفةِ والاستعصام والإباء، مما زادَ تلك المرأةَ رغبةً فيه، وتهالكاً علَيه، ومراودةً وإغراءً له. كلُّ هذا وهو مترفعٌ مستعصم!!

هذا المعنى تقرره هذه الجملة: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

الآيةُ تنسبُ المراودةَ إليها وليس إليه، فهي التي راودَتْه عن نفسه، وليس هو الذي راودَها عن نفسها.

والمراودةُ في الآية من طرفٍ واحد، وليس من طرفين، لأنَّ المراودةَ منازعةُ الآخرِ لثنيه عن إرادتِه.

قال الإمام الراغب: «الرَّوْدُ: الترددُ في طلبِ الشيء برِفْق... والإرادةُ منقولةٌ من رادَ يَرود: إذا سعى في طلبِ شيء...

والمراودة: أنْ تُنازعَ غيرَك في الإرادة، فتريدُ غيرَ ما يريد، أَو ترودُ غيرَ ما يَرود. تقول: راودتُ فلاناً عن كذا...»[1].

وهذا يعني أنَّ المرأةَ لما راودتْ يوسفَ أرادتْ منازعتَه في إرادته، وثنيَه عنها، فإرادتُها غيرُ إرادتِه، لأنها أرادتْ منه الفاحشة والمعاشرة، وهو أَرادَ العفة والترفع، فنازعَتْه لتغييرِ إرادته!!.

دعوة المرأة الجريئة الجاهرة:

إِزاءَ تَرفُّعِ يوسفَ وإبائِه لم تجدْ تلك المرأةُ المندفعةُ الشهوانية أمامَها إلاّ دعوتَه الصريحة، وتجهيزَ الأمر، وتهيئةَ البيت، وإغلاقَ

---

(١) انظر المفردات: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

الأبواب. ولا ننسى أن هذه هي خاتمةُ مسلسلِ المراودة: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

إنها جريئةٌ راغبةٌ قاصدة، ولهذا غلَّقت الأبواب، وحركةُ إغلاقِ الأبواب هي الحركةُ الأخيرةُ في اللحظةِ الأخيرة، في هذا المسلسل.

وبعدَ تغليقِ الأبواب الدعوةُ السافرةُ الجاهرةُ للمعاشرة وممارسةِ الشهوة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

ومعنى: هيتَ لك: هلمَّ وأَقبِلْ وتعال، فقد تهيأْتُ لك، وتجهزْتُ لك، فعاشِرْني وجامِعْني.

لقد اضطرت المرأةُ الشهوانيةُ اضطراراً إلى هذا التصرف وهذه الدعوة، ولولا ترفُّعُ يوسف وإباؤه لما اضطرتْ إلى ذلك!

استعاذة يوسف بالله ربه:

وحتى هذا التصرف، وهذه الدعوة الغليظة منها، لم تزحزحْ يوسف، ولم تجعلْه يغيِّرُ موقفَه الطاهرَ العفيف، ولهذا ردَّ على دعوتها بقوله لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

لقد لجأَ يوسفُ إلى ربه، واستعاذَ به، واستعانَ به، فلا يعصمُه من هذا الموقفِ إلا الله، ولا يُنجِيه إلا الله، وقد كانَ اللَّهُ عند حسنِ ظنِّه، فأعانَه وأعاذَه، وحفظَه وعصمه، فلم يلبِّ دعوةَ المرأة!.

وقولُ يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ إخبارٌ منه عن إحسانِ اللّهِ إليه، وعليه أنْ يقابلَ إحسانَه بالشكر وليس بالمعصية.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾: الله ربي. فيوسفُ يخبرُ عن فعلِ الله ربِّه به. ولا يريدُ بكلمة «ربي» سيدَه عزيزَ مصر، زوجَ تلك المرأة ـ كما قال بعضُ المفسرين ـ فلا يليقُ بيوسفَ أنْ يقولَ عن عزيزِ مصر سيدِه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾، ولا يليقُ أنْ يجعلَه رباً له، أي سيداً له، مع جوازِ هذا في اللغة، لأنه عبدٌ رقيق في بيتِ سيده، والسيدُ هو ربُّ الأسرة.

لكن لا يليقُ بيوسفَ أنْ يقولَ ذلك. ولهذا نرجحُ أنْ يكونَ المرادُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾: اللّهُ ربي هو الذي هيَّأ لي المكانَ والمنزل، وهو الذي أحسنَ مثوايَ وإقامتي، وهو الذي أنعمَ عليَّ بهذه النعم.

وعليَّ مقابلَ هذا أنْ أقومَ بشكرِ الله على إنعامِه وإحسانه، ولا يجوزُ أنْ أقابلَ هذا بالمعاصي، إنْ فعلتُ ذلك أكون ظالماً، والظالمون لا يفلحون.

وهذا تبريرٌ إيمانيٌّ موضوعي منه لعدم ارتكاب الفاحشة، وهذا إقناعٌ منه لتلك المرأةِ المتهالكة كي ترتدعَ وتَرعوي. فإذا كان هذا تفكيرُه وهو الشابُ العزبُ غيرُ المتزوج، فلماذا لا يكونُ تفكيرُها هي، وهي المرأةُ المتزوجةُ وزوجُها عندها، يقضي لها حاجتَها، ويلبّي لها رغبتَها!!

ولكن لا ينفعُ هذا المنطقُ الموضوعي معها، لأنَّ الشهوةَ العارمةَ قد سيطرتْ على كيانها، وألغَتْ عقلَها وتفكيرَها، وأَعمتْ بصرَها، وملأتْ عليها حياتَها، وهمُّها الوحيد هو قضاءُ وَطَرِها من معشوقِها فتاها.

همت به همّ الفاحشة:

لهذا ردَّتْ على تبريرِ يوسف المقنع، وإبائِه المترفع، بحركةٍ شهوانية عنيفة، أخبرَ عنها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾.

همتْ به همَّ الفاحشة، وأرادتْ إكراهَه على معاشرتها، وأَقبلتْ عليه، وهجمتْ عليه، يحركُها سُعارُ الشهوة المجنون، الذي سيطرَ عليها، فأفقدَها إنسانيتَها وأنوثتَها وتحرجَها وتجملَها وحياءَها، وأصبحتْ كياناً متحركاً حيّاً من الشهوةِ العارمة، تريدُ فتاها الواقفَ أمامَها المتأبّيَ عليها، تريدُه بأيةِ وسيلة، ولو كانت وسيلةَ هجومها عليه هي، لتمارسَ الشهوةَ معه، أو قُلْ: لِتَعْتَدِي هي عليه وتغتصِبَهُ!!!

هذا هَمُّهَا هي وهو هَمٌّ شهوانيٌّ عارم مسعورٌ مجنون!

وقبلَ أنْ تكملَ آياتُ المشهد سردَ الحادثة، وقبلَ أنْ تبينَ ردةَ فعلِ الشابِّ المؤمنِ المترفعِ إزاءَ شهوانية المرأة وهَمِّها به، توقفتْ لحظةً لتبينَ المانعَ الذي منعَ يوسفَ من تلبيةِ رغبتها، وفعْلِ ما تريد.

يوسف ما هم بها لبرهان ربه:

لماذا لم يستجبْ يوسفُ لها؟ ولماذا لم يقابِلْ هَمَّها بهمٍّ مثْلِه على الأقل؟

إنَّ كلَّ ما حولَ الموضوع يدعوه إلى ذلك!!

إنه شابٌّ في عنفوان شبابه، وهو غيرُ متزوج، ونداءُ الجنس وأشواقُه وهتافُه كامنٌ في كيانِه وأحاسيسه!

ثم هي التي تراودُ وتُريد وتطلب، فلا معاناةَ من هذه الناحية، ثم هي سيدتُه وربةُ البيت، فلا يُلامُ من قِبَل الناس لو استجابَ لها! ثم هي قد رتبت الأمر، وأَحكمت الخطة، واختارت الوقتَ المناسب، الذي تأمنُ فيه قدومَ زوجِها أَوْ انكشافَ أمرها، وقد زادت الأمْرَ إِحكاماً فغلقت الأَبوابَ كلَّها، باباً وراء باب، فلا يصلُ أحدٌ إليهما في الداخل. وها هي تدعوه فاتنةً متبرجةً متزينة مغرية، تقول له: هيتَ لك!! وها هي تهمُّ به، وتُقبلُ عليه، وتهجمُ عليه!!

بعد هذا كلِّه لماذا لم يستجبْ لها، ولم يهمَّ بها.

تقدمُ الآيةُ التعليلَ الإيمانيَّ العظيم، الذي منعه من الهمِّ بها، إنه برهانُ ربه، فلولا برهانُ ربِّه لهمَّ بها: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: لولا وجودُ برهانِ ربِّه عندَه لهمَّ بها، فالذي منعه من الهم هو برهانُ ربه.

وبرهانُ ربه هو قوةُ الإيمان في قلبه، وقوةُ مراقبته لربه، ويقينُه أن اللّهَ يراه ويطلعُ عليه أينما كان، فكيفَ يستجيبُ لنداءِ الشهوة فيه مع

برهان ربه في قلبه؟ وكيف يرتكبُ الفاحشةَ وهو يوقنُ أن اللّهَ يراه؟

أيّهما أقوى نداءُ الشهوة أو هتافُ الإيمان والاعتصام؟ لا شكَّ أن الثاني هو الذي كان مسيطراً على كيانِ يوسف في لحظاتِ الامتحان الرهيبةِ الشديدة، فأَخْفَتَ نداءَ الشهوة، وأخرسَ إغراءَ الفاحشة!!.

الراجحُ أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جملتان منفصلتان:

الأولى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾. وهي تخبرُ عن همّ امرأةِ العزيز به همَّ الفاحشة، وهجومِها عليه، لتُكْرِهه على معاشرتها بالإكراه.

الثانية: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾. فالواو فيها حرفُ استئناف، وليسَت حرف عطف. وما بعدَها جملةٌ استئنافية شرطية جديدة.

وجملةُ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابُ الشرط ﴿لَوْلَآ﴾ مقدَّمٌ عليها. ويجوزُ تقديمُ جواب ﴿لَوْلَآ﴾ الشرطية عند فريقٍ من النحويين ـ بينما منعَ فريقٌ آخر من النحويين تقديمَه عليها ـ ونحن مع مَنْ يُجيز ذلك.

و﴿لَوْلَآ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجود. تقررُ امتناعَ وقوعِ جوابها لوجودِ فِعْلِها.

و﴿أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هي فعلُ الشرط.

وتقديرُ الجملةِ هكذا: لولا رؤيةُ يوسفَ برهانَ ربه لهمَّ بالمرأة هَمَّ الفاحشة واستجابَ لها.

إذن: همَّتْ هي به هَمَّ الفاحشة، وهذه إدانةٌ لها.

أما هو فإنه لم يهمَّ بها مطلقاً، ولم يَملْ إليها ولا إلى معاشرتها ولو قليلاً، وبقي مستعيذاً بالله، مستعصماً عفيفاً، والذي عصَمه هو الله، فيما قدَّمَ له من البرهان، وقوّى في قلبه من الإيمان!!

صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه:

وبعد أنْ نفتِ الآيةُ عن يوسف الهمَّ بامرأة العزيز، وَرَدَ فيها قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

إن اللّهَ صرفَ عن يوسف الهمَّ بامرأة العزيز، وأَخْفَتَ في كيانِه نوازعَ الجنس، وأبعدَ عن ذهنه التفكيرَ بارتكاب الفاحشة، وذلك ليصرفَ عنه السوءَ والفحشاء، ولينزهَهُ عن مقارفة الزنا والفاحشة، وليُبقيه طاهراً عفيفاً، لأنَّ هذا من لوازمِ النبوة، وهو سيبعثه نبياً، فلا بدَّ أنْ يحفظَه عن السوء والفحشاء حتى قبلَ النبوة.

ثم إنَّ الله كافأه بذلك، وصرفَ عنه السوءَ والفحشاء، لأنه من عبادِه المخلصين.

و﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ في الآية اسمُ مفعول، أي أنَّ اللّهَ هو الذي استخلَصَه واصطفاهُ من بينِ سائرِ الناس.

وطالَما أن اللّهَ استخلَصه، وجعَلَه من عباده المخلَصين، فلا بدَّ أنْ يستعصمَ ويستعيذَ بالله، ولا بدَّ أن يُنَزَّهَ عن الهمِّ بالمرأة، مجرّدَ هَمّ، ولا بدَّ أنْ ينتصرَ في هذا الامتحان الرهيب، الذي يرسبُ فيه كثيرٌ من الناس، ولا بدَّ أنْ يستعليَ على هذه الفتنة التي تصرعُ كثيراً من الناس.

ولقد انتهى مشهدُ الفتنةِ والمراودة والإغراء والدعوة الغليظة الجاهرة، بانتصارِ يوسف العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

محاولة يوسف مغادرة المكان:

ماذا بعدَ ذلك؟ ماذا سيفعلُ بعدما تأبّى وامتنع؟ التصرفُ المتوقَّعُ هو أنْ يغادرَ المكان، ويتركَ المرأةَ المتهالكة مع شهوتها وسُعارها.

توجَّهَ نحو الباب ليخرج، ولكنَّ البابَ مغلق، فقد سبقَ أنْ أغلقت هي الأبوابَ حتى لا يهرب معشوقُها، وحتى لا يفاجئها أحد.

ولما رأتْ تلك المرأةُ الهائجةُ إخفاقَها في خطتها، آلمها تأبِّي معشوقِها، وعدمُ قضاء وَطَرها، وها هو يوشكُ أنْ يَخرج، وبذلك تفوتُ الفرصة، التي قد لا تعود.

لا بدَّ أنْ تقومَ بآخرِ محاولةٍ هائجة لقضاءِ وطرها، وإِجباره على معاشرتها، إذنْ عليها أنْ تمنَعَه من الخروج.

هو متوجِّهٌ نحو الباب ليفتَحَه وينجو، وهي تسابقُه نحوَ الباب لتحولَ بينه وبين فتحه، وتعيدَه إليها... وبذلك استبقا الباب، كما في قوله: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾.

والمشهدُ بينهما هكذا: يوسفُ متوجِّهٌ نحو الباب ليفتَحه، وامرأةُ العزيز خلْفَه لتمسكَ به وتعيدَه، وهو يوشِكُ أنْ يصلَ البابَ ويفلتَ منها، فلم يبقَ أَمامها إلاَّ أنْ تجذبَه من قميصِه وهو أمامها، لتعيدَه إِليها.

أَهوتْ بيدِها على قميصه من الخلف، وجذَبَتْه بعنفٍ وقوة، وهو سائرٌ أمامها هارب، فأثَّرتْ قبضتُها على قميصه وقَدَّتْه، قَدَّتْه من الخلف، كما قال الله: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

وهكذا وصلا الباب: يوسفُ هارب، وهي خلْفَه تلاحِقُه، ويَدُها في قميصه، تَقُدُّه وتشطُرُه وتمزِّقُه.

المفاجأة بدخول سيدها:

وهنا تقعُ المفاجأةُ التي لم تتوقَّعْها هي. لقد جاءَ زوجُها، في غيرِ وقتِ مجيئهِ المعتاد، وها هو يلجُ المنزل، ويدخلُ الأبواب باباً باباً، وها هو يصلُ للبابِ الأخير، ويفاجَأُ هو بهذا المنظر.

كلٌّ منهما فوجئَ بالآخر، والضحيةُ هو يوسف الفتى العفيف.

الزوجةُ تفاجَأُ بزوجها واقفاً على الباب، يرى ما يحدثُ داخلَ الغرفة، ويضبطُها متلبسةً بهذا الوضع الغريب.

والزوجُ يفاجَأُ بزوجته، وهي تلحقُ بغلامِه يوسف، وتمسكُ بقميصِه من الخلف، وهي على حالةٍ خاصة من التزينِ والتكشفِ والإغراء.

وقد سُجلَ هذا المنظرُ العجيبُ المفاجئ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾.

ماذا تفعلُ المرأةُ المتآمرةُ بهذه المفاجأةِ المذهلة؟ هل تخرسُها وتشلُّ تفكيرَها؟

الجوابُ عندها جاهز، ويبدو أنها أَعدتْ لكل مفاجأة ما يناسبها، فإذا ما فوجئتْ بزوجها، فسوف تعرفُ ماذا تقول، وهذا مرتَّبٌ من قبل.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هل تدينُ نفسَها، وتعترفُ بجريمتها، وتقولُ الحقيقة، وتبرئُ الفتى العفيف؟ ما الذي يَدعوها إلى ذلك؟ وهي بدونِ إِيمانٍ أو أخلاق أو حياء!!

الحلُّ في اتهامِ يوسف، وليكنْ بعد ذلك ما يكون!!

اتهامها ليوسف وطلبها عقوبته:

تقولُ لزوجها: غلامُك هذا الذي أوصيْتني به، وأَمرتَني أن أُكرمَ مثواه، لم يُراعِ الإكرامَ والإحسان، وإنما طمعَ فيَّ، وراودني عن نفسي، وأَرادَ بي سوءاً، أَرادَ أنْ يعاشرني ويعتديَ علي، لكنّي أبيتُ وتمنَّعت!!

وأنتَ الآن يا زوجي جئتَ بالوقتِ المناسب! وأنا أُدافعُه وهو يهاجمني، فما عليكَ إلاّ أنْ تعاقبَه!

ما العقوبةُ التي تقترحُها له؟ هل هي قتلُه أو موتُه والتخلصُ منه؟

لو كانت صادقةً في اتهامها، ولو كانت عفيفةً معتدى عليها، لطلبتْ من زوجها قتْلَه، دفاعاً عن عرضِها وشرفِها!

لقد طلبتْ له عقوبةً مخففة، لا تَقضي عليه، وإنما تحفظُه إلى حين: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إنها عاشقةٌ محبةٌ له، لا تريدُ موتَه، ولهذا تقترحُ أنْ يوضعَ في السجن، أوْ أنْ يعذَّبَ عذاباً أليماً، لا يقضي عليه.

ويوسف يقول الحقيقة:

فوجئ يوسفُ العفيف باتهام المرأة له، الآن هي عفيفةٌ معتدى عليها!! وهو المعتدي الراغبُ في المعاشرة، الطالبُ للممارسة الفاحشة!!.

ما هذا الكيدُ العجيبُ من هذه المرأة الماكرة؟

ما كان ليوسفَ إلاّ أنْ يقولَ الحقيقة. قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾.

لقد دفعَ يوسفُ الاتهامَ عن نفسه، وأثبتَ المراودةَ لها، وهو صادقٌ فيما قال.

لم يُفصلْ يوسفُ لزوجها تفاصيلَ مراودتها له، التي استمرتْ أياماً وشهوراً وسنوات. كما لم يُفصلْ تفاصيلَ الحدث الجاهر الأخير، واكتفى بتكذيبها، وذكْرِ الحقيقة: هي راودَتْني عن نفسي!

ووقعَ العزيزُ في حيرة، فأمامَه اتهامان متناقضان، كلٌّ يتهمُ الآخرَ بأنه هو المراودُ المعتدي. فمن هو الصادقُ منهما يا تُرى؟ أهو زوجتُه، التي لا تحتاجُ إلى التفكيرِ في فتاها طالما زوجُها يقضي لها وطرها؟ أم هو الفتى النابه، الذي تفرَّسَ فيه، ولاحظَ عليه سيما الخير والصدق؟

ليس أمامَ العزيز إلاّ أنْ يعرضَ الأمر على واحدٍ من أهلها، وأنْ يستشيرَه، وأنْ يطلبَ منه الرأيَ والحكم..

الشاهد من أهلها وحكمه الحصيف:

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

جاءَ هذا الشاهدُ من أهلها، ونظرَ في الموضوع، وناقشَ اتهامَ كلٍّ منهما للآخر. ثم أصدرَ حكمه.

ويبدو ـ من خلال السياق ـ أنَّ الشاهدَ لم يشاهِدْ قميصَ يوسف المقدود، فلو شاهدَ مكانَ شَقِّه وقَدِّه لحكَمَ عليها من أولِ الأمر.

لقد كان هذا الشاهدُ حصيفاً ذكياً فَطِناً، وأَهْلاً للحكمِ والقضاء والشهادة.

قال: انظروا إلى قميصِ يوسف، من أَينَ تَمَّ شَقُّه وقَدُّه.

إنْ كان قميصُه قُدَّ وشُقَّ من الأمام، من جهةِ صدره، يكون هو المهاجمَ المعتدي عليها، وتكون هي المظلومةَ البريئةَ المعتدى عليها، فعندما يهاجمُها من الأمام ستردُّ هجومَه، وتدافعُ عن نفسها، وبذلك تكون قدْ قَدَّتْ قميصَه مِن قُبُل: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وإنْ كانَ الاحتمالُ الآخر، ورأيتم قميصَه قدَّ مِنَ الخلف، تكونُ هي المعتديةَ الطالبةَ له، المراودةَ له عن نفسه، ويكون هارباً منها، فتلحقَ به، وتجذبَ قميصه من الخلف وتشقَّه، عندها يكون صادقاً في براءته، وتكون هي كاذبة في اتهامها له: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أَصدرَ هذا الشاهدُ حكْمَه في القضية، وأَفتى في المسألة، وتركَ لهم هم التحقيقَ والنظر، وانطباقَ الأمرِ على القميص.

ولا نعرفُ عن هذا الشاهدِ الحصيفِ الحكيم إلا ما قاله اللّهُ عنه:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾. فكلُّ ما يقالُ عنه: إنه رجلٌ ذكيٌّ من أهلِ امرأةِ العزيز.

إنَّ كلَّ ما يتعلقُ به فهو من مبهماتِ القصص القرآني، فلا نملكُ تعيينَ اسمه، ولا تحديدَ عمره، ولا مدى قرابتِه للمرأة، ولا عملَه ووظيفتَه، ولا متى وكيف وأينَ أدْلى بالشهادة، وأصدرَ هذا الحكم، ولا نعرفُ هل كان قادماً مع العزيز إلى البيت، ففوجئَ بما فوجئَ به العزيز، أو رجعَ العزيزُ إليه، ليكون حَكَماً في المسألة.

كلُّ هذا من المبهماتِ التي لا نرى الخوضَ فيها، طالَما أنه لم يردْ لها بيانٌ في الأحاديثِ الصحيحة عن رسولِ الله عليه الصلاة والسلام، ولا يضرنا الجهل بها!

لقد كانَ الشاهدُ ذكياً لبقاً، يتمتعُ باللباقة والكَياسة، ولهذا بدأَ بافتراضِ صِدْقِها وكَذِبه، وذلك إنْ كانَ قميصُه قُدَّ مِن قُبُل، وهذا بدءٌ يتفقُ مع منزلة المرأة، إنها امرأةُ العزيز، المسؤولُ الأول في مصر، فهلْ من المناسبِ أنْ يقدِّمَ عليها غلامَها؟

امرأة العزيز هي المعتدية الكاذبة:

حققَ العزيزُ في المسألة على ضوءِ ما قررَه ذلك الشاهدُ الحَكَم، ونظرَ في القرينة القميص، وعرفَ أنَّ امرأتَه هي المراودة، وأن غلامَه عفيفٌ بريء: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

رأى العزيزُ قميصَ يوسف قُدَّ من دُبُر، فأيقنَ أن يوسفَ لم يراوِدْ امرأتَه ولم يهاجمها، بل هي التي راوَدَتْه، وأنه أرادَ إنقاذَ نفسه، فهربَ منها، فلحقتْ به، وقدَّتْ قميصَه من دُبُر.

ماذا سيفعلُ العزيزُ الآن، وقد أيقنَ أنَّ امرأتَه مجرمةٌ تنظرُ لغيره، وتبحثُ عن غيرِه، وتراوِدُ غيرَه عن نفسه، حتى وصلَ بها شَبَقُها إلى

مراودةِ فتاها عن نفسه؟

لو كان الأمرُ عندَ رجل آخر، وقفَ على هذه الجريمة من امرأته، لثارَ الدمُ في عروقِه، وانتقمَ لشرفه، وقتَلَها وغسلَ عارها!

العزيز ديوث وكلامه لها بارد:

لكن العزيزَ ـ المسؤولَ الأول في مصر، الذي يمثل ما يسمونَه بالطبقةِ الراقية الحاكمة ـ تعامَلَ مع الموضوع بأعصابٍ متجمدة، ودم بارد، فلا قيمةَ عنده للشرفِ والعِرْض، ولهذا لم يزدْ على أنْ قالَ لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾.

هذه الجملةُ الباردة، الصادرةُ عن إنسانٍ باردٍ دَيّوث، يتأكدُ من وجودِ الفاحشة في زوجته، فيمنحُها ما يشبهُ الوسام، ويقدمُ لها الثناء، ويشهدُ لها بأنها امرأةٌ فاتنة ماكرة، تقدرُ على الإغواءِ والفتنة والكيدِ والتآمر.

وجعلَ هذا الكيدَ والإغراءَ والإغواء عامّاً في كلّ بنات جنسها، وكأنَّه يقول لها: كُلكنَّ هكذا، يا بناتَ حواء، ذواتِ كيد عظيم، وفتنةٍ طاغية، ولهذا لا غرابةَ أنْ يصدرَ عنكِ هذا الكيدُ والإغواء، والفتنة والإغراء.

إنَّ هذا كلامُ رجلٍ ديّوث، يُثني على فتنةِ امرأته الماكرة، أخبرَنا عنه القرآن، ولم يعتمدْه أو يقرزه، ولهذا الأَوْلى أنْ لا يُعمَّمَ على جميع بناتِ حواء، والأَوْلى أن لا نعتبرَ هذه الجملةَ إدانةً لجميع النساء.

بعضُهم قد يعمِّم، ويقول: القرآنُ يقررُ أنّ كيدَ النساء عظيم، لأنه يقول؛ ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾.

إنَّ القرآنَ لم يعتمدْ هذا القولَ الصادرَ من عزيز مصر ولم يقرره، كلُّ ما في الأمرِ أنه وردَ في سياقِ إخبارِ القرآن عن هذا المشهد من قصة يوسف عليه السلام.

فالقرآنُ يخبرُ عن ردةِ فعل العزيز عندما علمَ ما علمَ من امرأته، ويفهمُ القارئ من الآياتِ استنكارَ واستهجانَ موقفِه القبيح.

كلُّ ما يهمُّ العزيزَ هو المظاهر، حتى لا تتأثَّرَ منزلتُه أو وظيفتُه في المجتمع ـ فهو المسؤولُ الأولُ في مصر كما قلْنا ـ ولهذا أَخشى ما يخشاه هو أن ينتشرَ الخبر، وأنْ يَذيعَ في أوساطِ الطبقة الراقية الحاكمة، ثم ينتقلَ إلى الناس ليكون حديثَ الشارع.

ولهذا نصحَ يوسفَ قائلاً: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾. أي: إِنْسَ يا يوسفُ الأمر، وأَعْرِضْ عنه، ولا تُعرهُ اهتماماً، وكأنه لم يحصلْ لك شيء.

أَعرِضْ عن هذا، فلا تُحدِّثْ به، ولا تُخبرْ به أحداً، حتى لا نفضح، وحتى لا يتكلمَ الناسُ عن بيتنا.

ثم توجَّهَ إلى امرأته قائلاً: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

ما أَبردَ هذا الوعظَ منه لامرأته، التي ثبتَ له جريمتُها. لقد أَخطأَتِ فيما فعلتِ مع يوسف، وارتكبتِ أَمراً خاطئاً، كان الأَوْلى أنْ لا تفعليه، ولهذا عليكِ بالاستغفارِ لهذا الذنب الذي صدرَ منك!!

هذا فقطْ ما تقوم به؟ هذا فقطْ ما تقولُه لها؟ هذا فقطْ ما تفعلُه؟.

هذه هي طبيعةُ ما يسمّى بالطبقةِ الحاكمة الراقية في القديم والحديث، وهذا هو موقفُ رجالها من فضائِحها التي تزكمُ روائحُها الأُنوف!!!

[١٣]

يوسف ينتصر على إغراء نسوة المدينة

انتهى المشهدُ الأولُ من مشاهدِ امتحانِ وابتلاءِ يوسف بفتنةِ الشهوة، بانتصارِه العظيم على مراودةِ المرأة وإِغرائِها، حيث استعصمَ

بالله، واستعاذَ به، فأعاذَه اللّهُ وعصمه، وعرفَ العزيزُ أنَّ امرأتَه هي الباغيةُ المتهالكة، وأنَّ يوسفَ عفيفٌ نظيفٌ طاهر.

ولكن العزيزَ لم يتخذْ إجراءاً رجولياً، وتعاملَ مع امرأته بدياثةٍ وبرودِ دَم، ولم يزدْ على أنْ قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

بقي يوسف في بيت العزيز وانتشرت الحكاية:

وبقيَ يوسفُ في بيتِ العزيز، عند امرأة العزيز المتهالكة عليه، العاشقةِ له، الحريصةِ على معاشرته، بقيَ في هذا المكان الموبوء، وهو كارهٌ للمكان وما فيه ومَنْ فيه.

ولم تبقَ حادثةُ المراودةِ الغليظة، ومحاولةُ اعتداءِ امرأة العزيز عليه، ضمنَ جدرانِ قصر العزيز، فقد تناقلَها الرجالُ والنساءُ والخدم، إلى باقي قصورِ الأمراء والمسؤولين، ثم انتقلتْ إلى بيوتِ المدينة وشوارعها، وصارتْ حديثَ الناسِ فيها ـ الكلّ يقول: امرأةُ العزيز تراودُ فتاها عن نفسه.

وصارتْ ألسنةُ نساءِ المدينة تتناقلُ الحكاية، ومعلومٌ أنَّ لأَخبارِ الفضائحِ الجنسية جاذبيةً خاصة عند النساء، يتناقلْنَها ويتداولْنَها..

وعلمت امرأةُ العزيز ما يُقالُ عنها، وعن فتاها يوسف، فلم ترعوِ ولم تتراجَعْ ولم تُنكر، وإنما قامتْ بمكرٍ جديد، ومؤامرةٍ خبيثة، ضحيتُها هو فتاها يوسف نفسه، وشهودُها نسوةُ المدينة أنفسهن.

وهنا يدخلُ يوسف في امتحانٍ جديد، قدَّمه أمامَ نسوةِ المدينة هذه المرة، ويتعلق بفتنةِ الشهوة، ومحنةِ الإغراءِ والمراودة.

وقد عَرضتْ آياتُ القرآن هذا المشهدَ الثالث والأخير من هذه الحلقة المثيرةِ من قصةِ يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا

عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣٤].

نسوة المدينة يعذلن امرأة العزيز:

بدأت الآياتُ بذكرِ ما قالتْه نسوةُ المدينة عن القصة: ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾.

نسوةُ المدينة هنَّ نساءُ الطبقةِ المترفة الحاكمة، اللواتي يجتمعْنَ ويتداولْنَ الحديث، وحديثُهن يدورُ حولَ الجنسِ والفضائحِ والشهوات، والمآكل والمشارب والملابس.

لقد استغربت نسوةُ المدينة قصةَ امرأةِ العزيز ـ زميلتِهن ـ مع فتاها يوسف، واستهجَنَّ تصرُّفَها معه، وقلْنَ: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾.

أخبرَنا السياقُ القرآنيُّ الآنَ أن هذه المرأةَ التي تراودُ يوسفَ هي امرأةُ العزيز، والعزيزُ هو المسؤولُ الأوَلُ في مصر ـ بعد الملِك ـ وبهذا عَرَفْنا أن الذي اشتراه واستقرَّ في بيته، هو عزيزُ مصر.

استنكرتْ نسوةُ المدينة مراودةَ امرأةِ العزيز لفتاها خادمِها عن نفسه، واستنكرتْ تدنّي نظرةِ المرأة، بحيث نزلَتْ إلى فتاها خادمها، وأحبَّتْهُ وعشقَتْه، ورغبتْ في معاشرته، وشغَفَها حباً، ولهذا هي في ضلالٍ مبين.

ومعنى قولهنّ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قد سيطرَ فتاها على قلبها، وملأَ حبُّه قلبَها.

وشِغافُ القلب هو غِشاؤُهُ الرقيق الذي يغلّفُه ويحيطُ به. وعندما يشغفُ يوسفُ امرأةَ العزيز حباً، تكونُ محبته قد اخترقتْ شِغافَ قلْبِها وغشاءَه، ووصلَتْ إلى قلبها من الداخل، فملأتْه وتمكنتْ منه، فتصيرُ هذه المرأة لا تفكرُ إلا في محبةِ فتاها، وتكون حريصةً على مراودتِه وإغوائه ومعاشرته.

لقد اعتبرت النسوةُ امرأةَ العزيز في ضلالٍ مبين، لأَنها أحبتْ فتاها، وطلبتْ معاشرته، وراودتْه عن نفسه، واعتبرتْ هذا نزولاً منها إلى مستوى متدَنٍّ من الحبِّ والعشق، فكيف تعشقُ امرأةٌ كبيرة في مثلِ منزلتها ومكانتِها غلامَها خادمَها؟

ولو أنَّ امرأةَ العزيز فُتنتْ برجلٍ كبير مسؤول في البلاد، وراودَتْه وأغرَتْه، وشغَفَها حباً، لكانتْ على صواب، وحسنِ نظرةٍ واختيار، في عُرفِ نسوةِ الطبقة الراقية المترفة.

وهكذا هي أَعرافُ المترفين والمترفات، وهذه هي أَذواقُهم، فلا تُعاب المرأةُ ولا تُذَمُّ ولا تُنتقد إذا بحثتْ عن عشيقٍ وخليل، تخادِنُه وتعاشره، على شرطِ أنْ يكون هذا العشيقُ أهْلاً لها، وفي مثلِ منزلتها. فإذا عشقَتْ إنساناً أَقلَّ منها وأَوضع، صارتْ مجالاً للذمِّ والعَيْب، وقالتْ عنها باقي النسوة المترفات، كما قالتْ نسوةُ المدينة عن امرأة العزيز: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾!!!

امرأة العزيز تمكر بنسوة المدينة:

ولما سمعت امرأةُ العزيز بما قالَتْه نسوةُ المدينة، من عَذْلِها ولَوْمِها وانتقادِها، أرادتْ أنْ تبرِّرَ لهن مراودتَها لفتاها، وأنْ تبيِّنَ لهن صوابَ حبِّها له، وأنها لم تضلّ ولم تخطئ عندما أحبَّته وعشقَتْه وراودَتْه.

وهداها مكْرُها وكيْدُها إلى حيلةٍ عجيبة، ومؤامرةٍ خبيثة: فقد دعتْهنَّ إلى حفلةٍ في بيتها، حفلةٍ صاخبةٍ، فيها ما فيها من اللهوِ والمرح، والمآكلِ والمشارب: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾: هيَّأَتْ لهنَّ الفُرُشَ والمساندَ والبُسُط، ورتبتْ لهنَّ جلسةً مريحة ناعمة.

ولما جلسنْ على الفُرُش، واتكأْنَ على المتكأ، قدمَتْ لهنَّ الصِّحافَ والصحون، التي توضَعُ فيها المآكل والفواكه.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فصارَ بيدِ كلٍّ واحدةٍ من النسوة سكين، لتستخدمه في تقشيرِ وتقطيعِ الفاكهة.

وهكذا استراحت النسوةُ في هذه الجلسةِ الناعمة، واستمتعْنَ بهذه المأدبة الحافلة، وانهمكْنَ في الأكلِ والملذات، وانشغلْنَ باستعمال السكاكين في التقشير والتقطيع.

دهشة النسوة وكلامهن عن يوسف:

وفجأةً أمرت المرأةُ فَتاها يوسفَ بالخروجِ عليهن!!

خرجَ يوسفُ على النسوة المنهمكات في استعمالِ السكاكين، ففوجِئْنَ به، وبهرتهنَّ طلعته، وسحرهنَّ جماله، ودهشْنَ منه وله، ونسينَ أنفسهنَّ وأيديهن وسكاكينهن..: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

معنى ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾: دهشْنَ له وبهتْنَ وفوجئن، ونظرنَ لهُ نظرةَ إكبارٍ وإعجاب وعشق وحب.

ولما بهرهنَّ جمالُه نسينَ أيديهنّ وسكاكينهن، وصارت السكاكينُ تتحركُ في أيديهن حركةً لا إرادية، حيث فقدنَ السيطرةَ على الأيدي والحركة والسكاكين، وانهمكْنَ في تملّي جمالِ يوسف، فعملت

السكاكينُ عملَها في أيديهن، وجرَّحَتْها وقطَّعَتْها.

ونزفت الدماءُ من أيديهنّ وهنَّ لا يشعرنَ بألمِ الجراح أو نزفِ الدماء، لأنهنّ مخدراتُ الأعصابِ والمشاعر، مشغولاتٌ بالجمال الباهر.

وتكلمنَ بعبارةٍ كلُّها دهشةٌ وانبهارٌ وإعجاب: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

بدأنَ بكلمةِ التنزيه لله: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ على اعتبار أنَّ اللَّهَ هو الذي خلقَ هذا الفتى الجميل، وهو قادرٌ على خلقِه بهذا الجمال، حكيمٌ في منحه هذا الجمالَ الساحرَ الباهرَ الفتان.

صحيحٌ أن النسوةَ كافراتٌ غيرُ مؤمنات بالله، لكنهنّ يعلمْنَ أن اللّهَ هو الخالق، فهو الذي خَلَقَ يوسفَ على هذا الجمال، فسبحانَ اللّهِ على جمال صنعه، وإتقانِ خلقه.

ثم أَتبعْنَ ذلك بأنَّ هذا الفتى الواقفَ أمامهنَّ ليس بشراً، فمقاييسُ جمالِه ليستْ على مقاييسِ جمال البشر، لقد فاقَ أكثرَ البشر جمالاً في جَماله وحُسنه، وما هو إلاّ مَلَكٌ كريمٌ كباقي الملائكة في جمالهم.

وقد شبهنَ يوسفَ بالملائكة في الجمال، لأنَّ الملائكةَ هي مضربُ الأَمثال في الجمال. فإذا أُريدَ تشبيهُ إنسانٍ بآخر في جمالِه شَبَّهوه بالملائكة.

يوسف أوتي شطر الحسن والجمال:

وتنزيهُ النسوةِ الكافرات لله في قولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ وتشبيهُهُنَّ يوسفَ بالملائكة في قولهن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليلٌ على أنهنَّ كنَّ يعرفْنَ الله، ويعرفنَ الملائكة، ويعرفنَ جمال الملائكة، رغم كفرهن، وأنهنَّ عرفْنَ ذلك إمّا بالفطرة، وإما بما وصلَ إليهن من مسائلِ الإيمان، عن طريق المؤمنين المقيمين في مصر، أو المترددين عليها!

ومن المعلومِ أنَّ يوسفَ عليه السلام كان باهرَ الجمال، وأنَّ اللّهَ قد خصَّه من الجمال بما لم يهَبْه لأحدٍ من قبل.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «أُعطِيَ يوسُفُ شَطْرَ الحُسْن»[1].

إن رسولَ الله ﷺ يخبرُنا في هذا الحديثِ أن اللّهَ قد أعطى يوسفَ عليه السلام نصفَ الحسن والجمال، الذي أَعطاهُ للناس، فنصْفُ الجمال مقسَّمٌ بين الناس، ونصْفُه الثاني ليوسفَ عليه السلام.

بعدما تأثرتْ نسوةُ المدينة بجمالِ يوسف، وكنَّ من قبلُ يعْذِلنَ امرأةَ العزيز فيه، أحسَّت المرأةُ الآنَ بالانتصار.

اعتراف امرأة العزيز لهن بالمراودة واستعصام يوسف:

لقد انتصرتْ عليهن، وبذلكَ أعلمتهنَّ أنهنَّ كنَّ مخطئاتٍ في عذْلِها ولومِها، فهي لم تخطئْ ولم تضلْ في محبتِها وعشقها لفتاها، ولو كانت أيُّ واحدة منهنَّ مكانَها لفعلتْ مثلَ فعلها.

وعبَّرتْ عن زهوِها وانتصارِها بقولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ فلماذا تَلُمْنني في محبتِه وعشقه، وها أنتنَّ قطعْتُنَّ أيديكن دهشاً عندما رأيتُنَّه؟ فكيف أفعلُ وأنا أعيشُ معه سنوات!!.

وهنا لا تجدُ امرأةُ العزيز تحرُّجاً ولا حياءً من الاعترافِ أمام النسوةِ المشدوهات المعْجَبات، فتقول: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ﴾.

تعترفُ أَنها هي التي راودَتْه عن نفسه، بمختلفِ الوسائل، طيلةَ السنوات الماضية، وأنها اضطرتْ أَمام إِبائِه وترفُّعِه المتكرر إلى دعوتِها الجاهرةِ المكشوفة بعدما غلقت الأَبواب، ومع ذلك أَصرّ على إِبائهِ.

---

(١) رواه البخاري برقم: ٧٥١٧. ومسلم برقم: ١٦٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٥٥ و١٨٠ و١٨١.

وتُقدمُ امرأةُ العزيز شهادةَ ليوسف في قولها: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾.

لقد أَبى يوسفُ دعوتَها، واستعلى على نوازعِ الشهوةِ المحرمة، وحافظَ على عفَّتِه وطهرِه، واعتصمَ بربه، وعاذَ به ولجأَ إِليه، فلم يستجبْ لها، ولم يهمَّ بها.

وتوحي صياغةُ الفعل الماضي: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ بمقدارِ الجهدِ والمعاناة والمجاهدة التي قام بها يوسف، حتى نجا ونجحَ وفاز. إنَّ الحروفَ الثلاثة في الفعل: الهمزة والسين والتاء تدلُّ على استحضارِه العصمة، وطلبِه لها، وقوةِ برهان ربه في قلبه، الذي عصمَه من الفاحشة!!

وبعد ذلك تصرُّ المرأةُ على رغبتِها في فتاها، وأنَّ ترفُّعَه وإباءَه واستعصامَه لم يقطعْ أملَها فيه، فتعترف أمامَ النسوة بدون تحرُّجٍ ولا حياء قائلة: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

وكأنها تقولُ لهن: لقد رفضَ دعوتي فيما مضى، وترفَّعَ واستعصم، وأنا ما زلْتُ راغبةً فيه، مشتاقةً إليه، وأنا مصرةٌ على ذلك، وسوفَ آمره أَمراً بمعاشرتي ومخالطتي، ويجبُ عليه أنْ ينفِّذَ أَمري!

وتُصدرُ تهديدَها ليوسف بأَنَّه إنْ أصرَّ على موقفِه المترفعِ فسوف يعاقَبُ ويُسجنُ ويُذَلُّ: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

أمام يوسف طريقان واختياره السجن:

ليس أمامَ يوسف إلاّ طريقان لا ثالثَ لهما:

إمّا أنْ يتجاوبَ مع رغباتِ امرأةِ العزيز، ويستجيبَ لها، ويَقبلَ إغراءَها وإغواءَها، ويعاشرها ويستمتعَ بها، وعندها تُفتحُ له أَبواب الدنيا ومتعُها وملذاتُها وخيراتُها، فيعيش مرفَّهاً مُنَعَّماً، لأنها امرأةُ المسؤولِ الأول في البلاد، وهي قادرةٌ على تقديمِ كل الخيراتِ له.

وإمّا أنْ يصرَّ على ترفعِه واستعصامِه، ويَثبتَ على موقفِه، ويترفَّعَ عن معاشرتها، ويحافظَ على عفَّتِه وطهارته، وعندها سيدفعُ الثمنَ غالياً،

حيث سيفقدُ كلَّ المزايا والمنافع، وسيحلُّ به البلاءُ والعذاب، والذلّ والصَّغار والهوان، حيث ستأمُرُ بسجْنِه، وهي قادرةٌ على ذلك، وعلى تلفيقِ أيةِ تهمةٍ له!!

يبدو هذانِ الخياران في قولِ امرأة العزيزِ للنساءِ على مسمعٍ من يوسف: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

كان يوسفُ حاضراً وسامِعاً ما قالَتْه نسوةُ المدينة عنه، وما قالَتْه امرأةُ العزيز عنه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

ولاحظَ يوسفُ انبهارَ النسوة وإعجابَهن وفتنتَهُن به، ورأى انحيازَهُنَّ إلى جانب امرأة العزيز، وإقرارَها على عشقِها له، وموافقتَها على تَصْمِيمِها على معاشرته، وإلاّ فالعقابُ والسجن والعذاب.

ووجدَ يوسفُ نفسه أمامَ مؤامرة كبيرة، ليست من امرأةِ العزيز وحدَها هذه المرة، بل من نساءِ المسؤولين الحاكمين في مصر، فكلهنَّ يشاركْنَ امرأةَ العزيز في العشقِ والافتتانِ والإغراءِ والمراودة، وكلهنَّ يدعونَه إلى المعاشرة وارتكابِ الفاحشة، وكلهنَّ يهددْنَه بالعقاب والسجن إنْ رفضَ دعوتهن.

فماذا يفعلُ يوسف؟ وأيَّ السبيليْن يختار؟ سبيلَ الشهوات والفواحش فالملذاتُ والمُتَع، أو سبيلَ العفةِ والطهارة فالسجنُ والعقاب؟

إنه لن يختارَ إلا السبيلَ الثاني، وهذا هو سِرُّ عظمتِه. ولهذا دعا ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

ويلجأ إلى الله ليحميه من إغرائهن:

وقد علمَ يوسفُ أنه أمامَ فتنةٍ طاغية، وكيدٍ كبير، صادرٍ عن مجموعةٍ من النساء المتنفذات، وأنه حتى الآن نجا منهن، لكنه يخشى

عدمَ الصمودِ والنجاة في المستقبل، فالمراودةُ مستمرة، والإغراءُ متتابع، ولهذا يلجأُ إلى الله طالِباً منه صرفَ كيدهن عنه، لأنه يخشى عدمَ الثبات، ويخشى السقوط والمخالفة وارتكابَ الفاحشة: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

يدعو يوسفُ ربَّه قائلاً: يا ربِّ لا يعصمُني من هذه الفتنة إلاّ أنت، ولا يُنجيني من كيدِ هذه النسوة إلا أَنت، وقد عصمْتَني فيما مضى وحفظْتَني عندما راودتْني امرأةُ العزيز، فلك الحمد والشكر.

وأَدعوكَ يا ربِّ أنْ تصرفَ عني كيدَ هؤلاء النسوة، كي تحفَظَني وتعصِمَني، فإنكَ إنْ لم تتداركْني بحفظِك، وإن لم تصرفْ عني كيدَهن وإغراءهن وفتنتَهن، فإني لن أثبت، وسوفَ أَصبو إِليهن، وأَميلُ إلى فتنتهن، وأَستجيبُ لدعوتهن، وبذلكَ أقعُ في الفاحشة، ويصيبُني الرجس، وإنْ فعلتُ ذلك سأكونُ من الجاهلين المنحرفين الساقطين!!

يا ربِّ فاحفظْني بحفظِك، واعصِمْني بعصمتك، واصرِفْ عني كيدَهن، وأَبْعِدْ عنّي فتنتهن، ولو كان ذلك لا يتحقَّقُ إلا بإدخالي السجن، فأنا أرحبُ بالسجنِ وأقبلُه، رغم مشقتِه وآلامِه، لكنه أهونُ من ميلي إليهن: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد سمعَ اللّهُ دعاءَ يوسف، فأدركَه بحفظِه ورعايته، واستجابَ له دعوتَه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

علمَ اللّهُ صدق يوسفَ في لجوئِه إليه، واستعاذتِه به، وفي ترفُّعِه عن الفواحش، وسمعَ اللّهُ دعاءَ يوسف وتضرُّعَه إِليه، وتفضيلَه السجن على الفواحش، لأن الله سميعٌ عليم.

وصرفَ اللّهُ عن وليِّه يوسف كيدَ امرأةِ العزيز، ومَنْ معها من نسوة المدينة، وأنقذَه من هذا الجوِّ الموبوء، الذي تعيشُ فيه النسوةُ الفاتناتُ الشهوانيات، وأخرجَه منه سالماً فائزاً، عَفيفاً نظيفاً طاهراً، ظافراً منتصراً.

والبديلُ هو السجن، فليكُنْ، لقد قالَها يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ..﴾.

وهكذا خرجَ يوسف من هذه المحنة، محنةِ الإغراء والفتنة والمراودةِ والشهوة، خرجَ منها ظافراً منتصراً، بفضْلِ الله وحفْظِه وعصمته.

خرجَ منها ليواجه محنةً أُخرى قاسيةً شديدة، في حلَقاتِ قصته المليئةِ بالمحن والابتلاءات، وسيقَ إلى السجن مُتَّهماً مظلوماً!!

وبهذا تنتهي الحلقةُ الثانيةُ من قصته، بمشاهدِها الثلاثة، تنتهي بانتصارِه على المراودة والإغراء، وثباتِه على العفة والطهارة.

[١٤]

الحلقة الثالثة

يوسف في السجن

انتقلَ يوسفُ عليه السلام في هذه الحلقةِ إلى آخرِ محنةٍ في حياته: محنةِ السجن، حيثُ أُدخلَ السجن مظلوماً.

وقد عشْنا في الحلقتين السابقتين من قصتِه مع المِحَن السابقة التي مَرَّ بها: محنةُ كيدِ إخوته له ووضعِه في البئر، ومحنة الاسترقاقِ في بيت عزيز مصر، ومحنةُ مراودةِ امرأة العزيز له، ومحنةُ مراودةِ نسوة المدينة له، حيث أَعانه اللّهُ على الانتصارِ في تلك المحن والابتلاءات كلها، فتجاوَزَها بأمانٍ ونجاح.

والآن.. وبعدما تأكدَ القومُ من براءةِ يوسف من مراودة امرأة العزيز، وبعدما أَيقنوا أنها هي المراودةُ له المعتديةُ عليه، فلا بدَّ لهم من تقديم ضحيةٍ لهذه الفضيحة!

هل تكونُ الضحية هي امرأةُ العزيز؟ وزوجُها الحاكمُ المتنفذُ في مصر! إنَّ هذا مستحيلٌ في عرفِ الجاهلية، وأحكامِها الجائرة!

لن يكون الضحيةُ إلاّ هذا الفتى الرقيق، فلْيسجنْ، ولْيحملْ هو مسؤوليةَ المراودة والاعتداء.. وبهذا أُدخلَ يوسف السجنَ مظلوماً.

وفي السجنِ كان معه سجينان آخران، أَنِسا به وارتاحا إليه، ورأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا، وطلبا من يوسف تعبيرَها، فعبَّرَها يوسف بعدما قَدَّمَ لهما نفسه، وعَرَّفَهما على عقيدته.

وقد صُلبَ أحدُهما، وأُفرجَ عن الآخر، حيث عادَ لخدمة الملك.

ورأى الملكُ رؤيا، أهَمَّتْه وأزعجَتْه، فطلبَ ممن حولَه تعبيرَها، لكنهم عجزوا، فذهبَ ذلك الرجلُ إلى يوسف في السجن، حيث عبَّرها له. وأُعجبَ الملكُ بتعبير يوسف، وطلبَ إحضارَه إليه، فاشترطَ يوسفُ إعادةَ محاكمته من جديد، وأُعيدت المحاكمة، وشَهدت النسوةُ ببراءته، واعترفت امرأةُ العزيز بأنها هي المراودة له، وأَنه كان عفيفاً صادقاً!!.

وتنقسمُ هذه الحلقةُ من قصته إلى أَربعةِ مشاهد: مشهدِ يوسف في السجن يؤولُ رؤيا السجينيْن، ومشهدِ حاشية الملك عاجزين عن تأويلِ رؤياه، ومشهدِ يوسف وهو يعبرُ رؤيا الملك، ومشهدِ إعادة محاكمة يوسف وشهادة النساء جميعاً ببراءته.

والآن إلى مشاهد هذه الحلقة بالتفصيل..

[١٥]

يوسف السجين يؤول رؤيا سجينين

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ

قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٣٥ ـ ٤٢].

أَسْلَمَنا المشهدُ الأخيرُ في الحلقة السابقة إلى تهديدِ امرأة العزيز ليوسف بالسجن، إنْ لم يستجبْ لها، ولم يفعلْ ما تأمره به من معاشرتها، واختيارِ يوسف للسجن على الفاحشة، وطلبِه من ربه أنْ يصرفَ عنه كيدَ النساء وإغراءَهن، وقد استجابَ اللّهُ له فصرفَ عنه كيدَ النساء، وقدَّرَ له أنْ يدخلَ السجن.

سجنوا يوسف بعد الآيات على براءته:

وتبدأ آياتُ هذا المشهد بتقريرِ حقيقة، وهي أنَّ القومَ الظالمين أَدخلوا يوسفَ السجنَ مظلوماً. قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأٓيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

لقد رأى القومُ الآياتِ والأدلةَ والبراهينَ على إدانةِ امرأة العزيز، وبراءةِ يوسف، فكلُّ ما حولَ الموضوع يشهدُ بذلك: شهادةُ الشاهد من أهلها، ونتيجةُ تحقيقِ زوجها، ومكانُ شقِّ قميص يوسف، واعترافُ المرأة أمام النسوة بصراحة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

ولكنَّ حديثَ امرأة العزيز مع فتاها قد ملأَ المدينة، وتناقلَتْهُ ألسنةُ

رجالِها ونسائها، وانتشرتْ فضيحةُ العزيز مسؤول مصر.

ولا بدَّ من إِنهاءِ الموضوع، ومعالجةِ القضية، لكن على أساسِ حفظِ سمعةِ بيت العزيز وامرأته، فلا بدَّ من تقديمِ ضحية، وتحميلِها المسؤولية، ولو كانت هذه الضحيةُ ليستْ مجرمة!

كانت الضحيةُ فتى المرأة، لأنه عبدٌ رقيق، ليستْ له قوةٌ مادية تَحميه، ولا طائفةٌ تتبناه، وسجنُه لا يؤثِّرُ في أوساط الطبقة الحاكمة!

إنه بريء، وقد ثبتَ للقوم براءته، لكن هذا لا يهم، فمنذُ متى كانتْ قوانينُ وأعرافُ وتشريعاتُ الجاهلية حريصةً على العدل؟ وعلى معاقبةِ المذنب وتبرئةِ البريء؟ المهمُّ عند تشريعاتِ الجاهلية ـ في القديم والحديث ـ حمايةُ «الملأ» المتحكمين!!

المسألةُ في قضية يوسف مع امرأة العزيز هكذا: ثبتَ بالأدلةِ القاطعة أنَّ امرأةَ العزيز هي التي راودَتْه عن نفسه، وقامتْ بإغرائه وفتنته، وهي التي اعتدَتْ عليه، وهمَّتْ به، وهجمَتْ عليه، لإجبارِهِ على معاشرتها، ولما هربَ لحقتْ به، وقدَّتْ قميصَه من دُبُر!!

وثبتَ بالأدلةِ القاطعة أنَّ يوسفَ لم يراود امرأةَ العزيز، ولم يعتَدِ عليها، ولم يهمَّ بها، وإنما أَبى وترفَّع واستعصم، وحافظ على عفته وطهارته.

وكان حكمُ القوم الجاهلين يتناقضُ مع هذه القناعةِ القانونية عندهم: تبرئةُ امرأة العزيز، ومنحُها وسامَ العفة والشرف. وإدانةُ فتاها، وإِثباتُ المراودة والاعتداء له هو، ولذلك لا بدَّ أنْ يُسجَنَ لهذه الجريمة!!

وهكذا كان، فقد سيقَ يوسفُ البريءُ من بيتِ العزيز الذي أَمضىٰ فيه سنواتٍ وسنوات، إِلى سجنهم المظلم، ليقضيَ فيه بضع سنين: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾.

يوسف موقوف وليس محكوماً في السجن:

وتوحي جملةُ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ بأنَّ القومَ الظالمين لم يصدروا عليه حكماً بالسجن مدةً محددة، أي: لم يحدِّدوا السنواتِ التي يُسجنُ فيها. وإنما أرادوا وضْعَه في السجن مدةً مفتوحة، تنتهي بانتهاءِ القضية عند الناس، فطالَما أنَّ الألسنةَ تتحدثُ بقضية امرأة العزيز مع فتاها فلا بدَّ أنْ يبقى يوسفُ في السجن، فإذا نسيَ الناسُ القضيةُ فلا مانعَ أنْ يَخرجَ من السجن بعد ذلك.

وهذا معناه أنْ يبقىٰ في السجن سنةً أو سنتين أو خمساً أو عشراً! ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى حين انتهاءِ الحديثِ في المسألة.

وباللغةِ المعاصرة: كان يوسف «موقوفاً» في السجن لحينِ موتِ القصة، وليس «محكوماً» بسنواتِ محددة.

إنَّ الظالمين الطغاةَ في العصر الحديث الذين يُكثرونَ من «توقيف» المعارضين في السجونِ سنواتِ طويلة، إنما يَقْتَدون بالظالمين السابقين الذين «أوْقَفوا» يوسف في السجن... حتى حين!!.

والإيقافُ أقسى وآلمُ وأشدُّ من الحكم، لأن المحكومَ بسنواتِ محددة يَعرفُ متى يخرج من السجن، أما الموقوف فلا يعرفُ متى يخرج، لأنَّ أَمْرَ إخراجِه محكومٌ بمزاجِ الظالمِ المتقلِّب!!!

وهكذا ينتقلُ يوسفُ إلى محنةٍ جديدة قاسية من قصتِه المثيرة، وهي محنةُ السجن، وما أَقسى السجن للمظلوم البريء!!.

فتيان سجينان يطلبان تأويل الرؤيا:

وعندما أُدخلَ يوسفُ السجن، دخلَ معه فَتَيان آخران سجينان، قادَهما قدَرُهما إلى الانتقالِ من خدمةِ الملك مع حاشيته إلى السجن، ولعلَّه غضبُ الملك عليهما في نزوةٍ من نزواتِ مزاجِه المتقلِّب.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾. وتوحي كلمةُ «فتَيان» بأنهما خادمان من الخدمِ الذين يعملونَ في حاشيةِ الملك. لأن كلمةَ «فتى» و«فتَيان»

و«فِتْيان» وردتْ في السورةِ هنا بمعنى الخادمِ العبدِ الرقيق.

وكلُّ ما يتعلقُ بالفتييْن السجينيْن مُبْهَم، فلا نعرفُ عن أمرهما شيئاً، لا نعرفُ اسمَ كلٍّ منهما، ولا وظيفتَه عند الملك قبلَ سجنه، ولا سببَ سجنه، لأنه لم تُذكَرْ تفاصيلُ ذلك في القرآن.

وتعاملَ يوسفُ مع صاحبيه السجينين بأخلاقِهِ الفطرِية السمحة، فأَحبّاه وأُعجبا به، ونشأَتْ بينه وبينهما صلةٌ وصحبة، وأنِسا به، وصار موضعَ ثقتهما.

وكثيراً ما يجمعُ السجنُ بين السجناء، وكثيراً ما تنشأُ بينهم صِلاتٌ قوية، لأَنهم يعيشون معاً طيلةَ اليوم، منقطعين عن عالَمِ ما وراءِ السجن، ويَقضون في ذلك سنواتٍ وسنوات.

وقدَّرَ اللّهُ أنْ يَرى كلُّ واحدٍ من السجينين رؤيا، فقامَ بقصِّها على صاحبِه وصديقِه يوسف، طالباً منه تأويلَها: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

رأى أحدُ السجينين نفسَه يعصرُ العنب، ويجعلُ منه الخمر، ثم يقدِّمُ هذا الخمرَ عصيراً مشروباً.

ورأى السجينُ الآخرُ نفسه يحملُ فوقَ رأسِه وعاءً فيه خبز، فتأتي الطيرُ وتأكلُ من هذا الخبز.

وطلبُ كلٍّ منهما مِنْ يوسف تأويلَ رؤياه: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقد عَلَّلا طَلَبهما منه تأويلَ الرؤيا بأنه محسن، ذو أَخلاقٍ حسنة، وتَصرفاتٍ حسنة، وسُلوكٍ حسن، ولذلك أَنِسا به لإحسانِه وصلاحه وتقواه.

وهكذا نَرى أنَّ السجنَ لم يؤثِّرْ في يوسفَ تأثيراً سلبياً، فلم

يجعلُه مكتئباً يائساً محبَطاً محطماً، وإنما بقي في سجنه على يقينِه وإيمانه، وحافظَ على إحسانه وصَلاحِه، ولم يفارقْه أملُه وهدوؤه واستبشاره وتعاملَ مع محنة السجن بصبرٍ وتجلُّد، فأحَبَّه السجناء من حوله، وأُعجبوا بإحسانِه، وعَرضوا مشكلاتِهم عليه.

ولما رأى يوسفُ لهفةَ السجينين على تأويلِ رؤياهما، طمأَنَهما على ذلك، وأخبرهما أنه سيقومُ بما يريدان، ويؤولُ رؤيا كلٍّ منهما عن قريب، لكنْ بعدَ أنْ يقدِّمَ لهما دعوةً ونصحاً وتذكيراً: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

قال لهما: أَنتما تعلمان أن الطعامَ يقدَّمُ لنا في السجن في مواعيدَ محددة، ونحن الآن في انتظارِ وجبةِ الطعام التالية، التي ستأتينا في وقتٍ محدَّد.

وسوفَ أعبرُ لكلٍّ منكما رؤياه التي قصَّها عليّ، قبلَ مجيء الطعامِ القادم، فيعرفُ ماذا سيجري له.

الضميرُ في قولهما له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ يعودُ على الرؤيا، وعَبّرا بالمذكّر، لأنهما أَرادا المنام أو الأَمْر، كأنهما قالا له: نبئْنا بتأويلِ ذلك الأمر، أو ذلكَ المنام.

وأجابَهما بنفس الصيغة: «نبأتكما بتأويله»: فالهاءُ هنا تعودُ على ما عادتْ عليه الهاءُ في الكلمة الأُولى. أي: نبأتكما بتأويل ذلك الأمر.

أما فاعل «يأتيكما» فإنه يعودُ على الطعام الذي يقَدَّمُ لهما.

والمعنى: سوفَ أُنبيءُ كُلًّا بتأويلِ رؤياه التي رآها، وأعبِّر له ذلك المنام، قبلَ أنْ يأتيكما الطعامُ في الوجبة التالية.

ولكنْ سأكلمكما بكلمةٍ قبلَ أنْ أعبِّرَ لكما الرؤيا، أعرِّفكما فيها عليَّ. وعلى أصلي وأَجدادي، وعلى ديني وإيماني، وعلى ربي ومعبودي، وأبينُ لكما ما عليه قومُكما من الكفر والضلال، وأَدعوكما إلى الحق..

يوسف قدّم البيان الدعوي لهما:

وقد عرضَ القرآنُ دعوتَه لهما الحصيفةَ اللطيفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾.

هذا هو «البيانُ الدعويُّ الإيماني» الذي قدَّمَه يوسفُ لهما في لُطفِ تعبير، وحُسنِ مدخل، وقُوةِ عرض، وعُمق تأثير، وقد قامَ يوسفُ بواجبه في الدعوة إلى توحيد الله، والتحذيرِ من الكفر به، رغمَ أنه مسجونٌ ظلماً، فكونُه في السجن لا يُعفيه من واجبِ الدعوةِ إلى الله!

وقد عرضَ يوسفُ لهما دعوتَه خَطوة خَطوة، بإتقانٍ وإِحْكام، وسار بهما معَه من فكرةٍ إلى فكرَة، ومن خطوةٍ إلى خطوة، بتسلسلٍ دعويٍّ موضوعي حكيم مقنع.

عرَّفَهما في بداية بيانِه الدعوي أنَّ علْمَه الواثقَ بتعبيرِ الرؤى، وتأويلِ الأحاديث هو هبةٌ ومنحةٌ من الله ربِّه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾. وأخبرهما أنّ ربَّه هو غيرُ ربِّهما هما. إنهما يعتبران الملكَ الذي يحكمُهما رباً، مع أنه مخلوقٌ مثلُهما، أمّا هو فإنَّ ربَّه هو اللّهُ رب العالمين.

وربُّهُ المنعمُ الكريمُ علّمهُ تأويلَ الرؤى، فلا بدَّ أنْ يؤمِنا بالله ربِّه، الذي علَّمه هذا العلمَ الرباني.

ثم أَخبرهما بما عليه قومُهما من كفرٍ بالله، وإنكارٍ للآخرة: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وكفرُهم بالله

وإنكارهم الآخرة هو الجريمةُ الكبرى التي أنتجتْ ما بعدَها من جرائم!

وبسببِ وقوفه على حقيقةِ ضلال القوم فقد تركَ ملّتَهم، وتخلّى عن باطِلهم، وترفَّعَ عن انحرافاتِهم. ولذلك غضبَ الملأُ منه، ولَفَّقوا له هذه التهمة، وأدخلوه السجنَ مظلوماً.

وبعدَ أنْ أوقفَهما على كفرِ قومِهما، وعلى براءتِه منهم قدَّمَ لهما ما هو عليه من الحق، وعرَّفَهما على نَسَبِه الإيماني الكريم: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

إنه سليلُ بيتِ نبوة، وإنَّ آباءَه أنبياءُ كرام، عليهم الصلاة والسلام، ولذلكَ اتبعَ ملتَهم الصحيحة، فإبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوب موحِّدون لله، وهو متابعٌ لهم في توحيدِ الله، وما كان لَهُ أَوْ لَهُم أنْ يشركوا بالله، كما يفعلُ هؤلاء القوم.

لقد عرفَ السجينان من يوسف أَنهما مَوْقفان متغايِران: قومُهما كفارٌ مشركون بالله، ولهذا هـمْ على باطل، ويوسفُ كآبائِه مؤمنٌ موحدٌ لله، ولهذا هو على حق.

الدين القيم في إفراد الله بالوحدانية والحكم والعبادة:

ويخطو يوسف بهما خطوةً جديدة في تفنيدِ الشرك بالله، والاستدلال على وحدانيةِ الله: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

وليس لهذا السؤالِ المنطقيِّ إلاّ جوابٌ واحدٌ موضوعي: إنَّ الإيمانَ باللّهِ الواحدِ القهار وحده، والدينونة له وحده، خيرٌ من الخضوع لأربابٍ متفرقين مختلفين متنازعين، لا يصلحُ أحدُهم أن يكون رباً، لأنَّ الكونَ له ربٌّ واحد، وهو اللّهُ وحده.

وينتقلُ بعد كلِّ هذا التمهيدِ إلى الكلامِ معهما مباشرة: ﴿مَا تَعْبُدُونَ

﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

وهذه الصراحةُ في بيانِ ما هما عليه من شركٍ بالله، ليعرفا حقيقةَ ما هُما عليه، ويميِّزا بين الحقِّ والباطل، ليكونَ هذا دافعاً لهما إلى تركِ الباطل الذي عليه القوم، واتباعِ الحقِّ الذي هو عليه!

ويختمُ يوسفُ بيانَه الدعويَّ الإيمانيَّ بتأصيلِ قضية الحكم، وربطِها بالعقيدة والعبادة وقصْرِها على اللّهِ وحده: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنها سلسلةٌ من الحقائقِ المنطقيةِ المتسلسلةِ المتتابعة بتناسقٍ موضوعيٍّ متدرج:

الحكمُ لا يكونُ إلا لله، ومَنْ جعلَ الحكمَ لغيرِ الله، فقد أشركَ بالله غيرَه.

والعبادةُ لا تكون إلا لله، العبادةُ بمفهومِها الواسع الشامل، التي تعني الخضوعَ المطلق.

وإِفرادُ الله بالحكم صورةٌ من صورِ إفرادِه بالعبادة، فاللّهُ وحده المعبود، يعني أن اللّهَ وحدَه هو الحاكم. كما يعني أنَّ الحكمَ عبادة، ومجالٌ من مجالاتها.

وهذا وحدَه هو الدينُ القيم، الدينُ المستقيمُ الصحيحُ المقبول عند الله، الدينُ الذي يقومُ على معادلةٍ ذاتِ طرفين: إِفرادُ الله بالعبادةِ يعني إِفرادَه وحده بالحكم، وهذا يعني أنّ من فعلَ ذلك كان على دينٍ قيِّم، ومَنْ لم يفعلْه فليس على دينٍ قيم، فهو جاهلٌ غيرُ عالم.

وبما أنَّ أكثرَ الناس لا يفهمون الدينَ هذا الفهم، فأكثرُ الناسِ جاهلون: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا قدَّمَ يوسفُ لصاحبيْه السجينيْن الحقَّ والباطل، والإيمانَ

والكفر، والهدى والضلال، والتوحيدَ والشرك، ببيانٍ دعوي مؤثر.

يوسف أوّل لهما الرؤيا:

وبعدما أنهى بيانَه الدعوي، وقبْلَ موعدِ حلولِ تقديمِ الطعام لهما، عبَّرَ لكلٍّ منهما رؤياه، كما وَعدهما من قبل.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴿٤١﴾﴾.

الذي رأى نفسَه يعصرُ خمراً، تأويلُ رؤياه أنَّ الملكَ سيعفو عنه، وسيخرجُ من السجن، وسيعودُ إلى خدمة الملك، وسيعملُ في حاشيةِ الملك من جديد، وسيكونُ ساقياً للملك، يقدمُ له الخمرَ ليشربَه: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾.

والمرادُ بالربِّ هنا الملك، لأنَّ القومَ كانوا مشركين بالله، يعتبرونَ ملكَهم رَبّاً، شريكاً لله في ربوبيتِه، ولهذا خاطبَ السجينَ على ما يعتقدُه، فقال عنه: ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾.

والآخرُ الذي رأى نفسَه يحملُ فوق رأسِه خبزاً تأكلُ الطيرُ منه، تأويلُ رؤياهُ أنه سيُحْكَمُ عليه بالقتلِ صلباً، حيث سَيُقتل، وتَزهقُ روحه، ويموت، وبعد ذلك سيعلَّقُ مصلوباً، وهو جثةٌ هامدة، وستوضعُ الجثةُ في مكان عام، وستأتي الطيرُ وتأكلُ من رأسه.

وبعدما أوَّلَ يوسفُ لكلٍّ منهما رؤياه، قال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾. أي: تمَّ تأويلُ الرؤيا، وتنفيذُ ما وعدْتُكما به، وبهذا عرفَ كلٌّ منهما ما سيكونُ أَمْره في المستقبل.

وبهذا فرحَ السجينُ الذي سيفرجُ عنه، ويئسَ السجينُ الآخرُ الذي سيصلَبُ وستأكلُ الطير من رأسه.

حكمة قول يوسف «اذكرني عند ربك» وتوجيهه:

بعد ذلك التفتَ يوسفُ إلى السجينِ الذي سيُفرجُ عنه، وسيَعودُ

إلى خدمةِ ربِّه الملك، ويعملُ في حاشيته، فطلَبَ منه أنْ يذكُرَه عند الملك. قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

أي: قالَ يوسفُ للسجين الذي اعتقدَ أنه سينجو، وسيَعودُ إلى خدمة الملك: اذكُرْني عند ربِّك الذي أنتَ ذاهبٌ لخدمته وملكك الذي ستسقيه خمراً!

وهذه الالتفاتةُ من يوسفَ طبيعيةٌ منطقية، فهو مسجونٌ ظلماً، وقد لفقَ له الملأُ تهمةً كاذبة، وتآمَروا عليه مؤامرةً خبيثة، وأُدخلَ السجنَ بدون محاكمةٍ أو محكمةٍ أو حكم، وها هو الآن في السجن، ولا يَدري كم سيمُرُّ عليه من السنوات وهو موقوفٌ ظلماً، ويَخشى أنْ ينساهُ المتآمرون في السجن، وأَنْ يتركوه فيه سنواتٍ وسنوات!

ولعلَّ الملكَ لم يكن يعلمُ تفاصيلَ قصةِ يوسف، ولعلَّها لم تصلْه على الحقيقة، ولعلَّ الملأَ المتنفذين المتآمرين قدَّموها له على غيرِ حقيقتها، ولعلَّهم مَوَّهوا على الملك، وأَخفوا الحقيقة عنه، فصوَّروا يوسف بأنه هو المعتدي على امرأةِ العزيز، وهي العفيفةُ الشريفةُ المعتدى عليها...

فأرادَ يوسفُ أنْ يوصِلَ الحقيقة إلى الملك، وأنْ يُطلِعَه على تفاصيلِ القضية كما وقعت فعلاً، وأَنْ يبينَ له أنه مظلومٌ، وأنه سُجنَ مظلوماً، وأنَّ المعتديةَ هي امرأةُ العزيز!

ومن هو الذي سيصلُ إلى الملك؟ إنه صاحبُه السجين الذي سيفرَجُ عنه، والذي عرفَ منه تفاصيلَ القضية، كما حصلت. ومعلومٌ أنَّ «ساقي الملك» سيكونُ مِن أَقربِ الناس إليه، لأنه صاحبُ خمرِهِ وشرابه، يقدِّمُه له متى يشاء. وبهذا يكونُ قادراً على مناجاته، وعلى الكلام معه، وعلى محادثتِه بما يُريد!!

لهذه الأسبابِ والاعتباراتِ طلبَ يوسفُ من صاحبه أنْ يذكُرَه عند

الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

المرادُ بالرب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ هو الملك، لأن هذا السجينَ كان يعتبرُه رباً له، شريكاً في الربوبية مع الله.

وهذه الالتفاتةُ من يوسف لا شيءَ فيها، ولا غُبارَ عليها، لما سبقَ أنْ بيّنّاه في توجيهِها، وهذا لا ينافي إِيمانَه بالله، واعتمادَه وتوكُّلَه عليه، وطلبَ الأمورِ منه.

كلُّ ما هناك أنَّ يوسفَ أرادَ أنْ يأخذَ بالأسبابِ المادية، مع توكُّلِه على الله المسبِّبِ والقادر والمريد.

وتحققتْ رؤيا كلِّ سجين كما أَوَّلَها له يوسف.

فأُخِذَ أَحدُهما وقُتل، وعُلِّقَ مصلوباً، وجاءت الطيرُ وأكلتْ من رأسه.

وأَفرجَ الملكُ عن السجين الآخر، ومنَحَه رضاه، وأعادَه إلى الخدمة، وصارَ يسقي ذلك الملكَ خمراً.

نسي الساقي صاحبه يوسف فنسوا يوسف في السجن:

وانغمسَ ذلكَ الرجلُ في حياةِ القصرِ المترفة من جديد، وأَقبلَ على مُتَعها ولذائذِها.. ونسيَ ماضيه ومحنتَه: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾. نسيَ السجنَ وما فيه، نسيَ صاحبَه السجينَ يوسف، الذي أَوَّلَ له رؤياه، والذي طلبَ منه أنْ يشرحَ تفاصيلَ قضيته للملك.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾: أي: أَنسى الشيطانُ السجينَ المفرجَ عنه تذكيرَ الملكِ ربَّه بقضية يوسف، فنسيَ يوسفَ وقضيتَه، ولم يقلْ للملكِ عنها شيئاً.

فالكلامُ في هذه الجملة عن السجينِ المفرجِ عنه، وليس عن يوسف ـ كما فَهِمَ بعضُ المفسرين خطأً ـ لأن الشيطانَ لا سلطانَ له على يوسف، وهو لا يُنسي يوسفَ ذكْرَ اللّهِ ربَّه، ولم يكن طلبُ

يوسف من صاحبه تذكيرَ الملك بقضيته نسياناً منه لله، واعتماداً منه على غيرِ الله.

إن الذي يتفقُ مع عصمةِ يوسف ونبوتِه وإيمانِه، ويتفقُ مع مشاهدِ القصة وحلقاتِها، هو جعلُ هذه الجملة: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ إخباراً عن ذلك السجين الذي أَنْسَتْهُ حياةُ القصر الجديدة كلَّ ما مضى، فلم يذكُرْ للملكِ قصةَ يوسف، ولم يُذَكِّرْه بإعادة المحاكمة!.

وماذا نتَجَ عن هذا النسيان؟ لقد نَسوا جميعاً يوسف في السجن، نسيَهُ الملك، ونسيَهُ العزيز، ونسيَهُ صاحبه الذي أُفرج عنه، ونسيَهُ رجالُ الدولة، وبذلك طالتْ مدةُ إيقافِه في السجن، كما قال الله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

إنَّ فاعل «لبث» المستترَ يعودُ على يوسف. أي: قضى يوسفُ في السجن موقوفاً بضعَ سنين.

وكلمة «بضع سنين» مجملةٌ غيرُ محددة. والبِضْعُ في اللغة يُطلقُ على العددِ من ثلاثة إلى تسعة.

ولا نَقْدرُ على تحديدِ عددِ السنوات التي قضاها يوسفُ في السجن، كلُ ما نقولُه هو ما قاله الله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

وإنَّ اللّهَ حكيمٌ فيما قدَّره من نسيانِ ذلك الرجلِ لقضيةِ يوسف، لأنَّه قدَّرَ مشاهدَ وأَحداثاً تالية، مبنيةً على بقاءِ يوسف في السجن، ولأنه لا يريدُ لوليِّه وحبيبِهِ يوسف أنْ يخرجَ من السجن بوساطةِ أحدِ رجال الملك، أو بعفوٍ خاصٍ من الملك، حتى لا يكونَ لأحدِ هؤلاء الكافرين مِنَّةٌ عليه، وحتى لا يُعرفَ عند الناس بأنه مجرمٌ مُعْتَدٍ، عَفا عنه الملك.

وإنما يريدُ اللّهُ له أنْ يخرجَ من السجن بعزتِه وكرامتِه، وعفتِه وطهارته، بعدما تُعادُ محاكمتُه، وبعدما يشهدُ الجميع له، ليخرجَ مرفوعَ الرأس، لا يحملُ مِنَّةَ ولا جميلاً إلا لله سبحانه وتعالى.

وأَمْضى يوسفُ ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ في سجنه، وهو مظلومٌ بريء، لكنه كان مع الله، صابِراً محتسباً!!

[١٦]

عجز الحاشية عن تأويل رؤيا الملك

بينما كان يوسفُ في السجن ـ وفي أواخرِ أيامِ سجنه ـ أَرى اللّهُ الملكَ رؤيا هامة، أَزعجت الملك، فطلبَ ممن حوله تعبيرَها، فلم يَقْدروا على ذلك.

وقد سجلتْ هذا المشهدَ ثلاثُ آيات من هذه الحلقةِ من قصة يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٥].

الملك يطلب تأويل رؤياه:

ونلاحظُ أنَّ الذي كان يحكمُ مصر في زمنِ يوسف كانَ يُلقَّبُ بالملك، وكان المسؤولُ التنفيذيُّ يلقبُ بالعزيز.

بينما كان لقبُ حاكمِ مصر زمنَ موسى عليه السلام فرعون.

ولعلَّ هذا يدلُّ على أنَّ حكامَ مصر زمنَ يوسف لم يكونوا من الفراعنة ـ الأسرة الحاكمة ـ ولم يكونوا من المصريين أهلِ البلاد الأصليين، ولعلَّهم كانوا من القبائلِ الغازية التي غزَتْ مصر قادمةً من جنوب بلاد الشام وشمالِ الجزيرة العربية، وكانوا من عدةِ قبائل عربية متحالفة، سَمّاهم المؤرخونَ الرُّعاة، أو «الهكسوس»، وقد حكموا مِصرَ

حوالي قرنين من الزمان، إلى أنْ طردَهم فرعون «أَحمس» وأَعادَ الحكمَ إلى الفراعنة، فيوسفُ عاش في مصر في عصرِ الهكسوس هؤلاء، وبما أنهم عربٌ فقد أَطلقوا على حكامِهم ألفاظاً عربية مثل: الملك والعزيز.

لقد رأى ملكُ مصرَ رؤيا هامة، اضطربَ لها وتوقَّعَ الخطرَ يصيبه أَو يصيبُ البلد. لقد رأى سبعَ بقراتٍ سمان، فهجمتْ عليها سبعُ بقراتٍ عجافٍ هزال ضعيفة، فأَكَلَتْها والتهمَتْها، وهذا منظر مزعج. ثمَّ رأى سبعَ سنبلاتٍ خضرٍ يانعة، ومعها سبعُ سنبلاتٍ يابسات. فما دلالةُ هذه الرؤيا الواقعية؟ وما تعبيرُها وتأويلُها؟

توجَّهَ الملكُ إلى الحاشية بما فيهم الكهنةُ والمنجمون والمسؤولون، وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

والملأُ هم القومُ المتنفذون الحاكمون، وهم رجالُ النظام من الموظفين والإِداريين والسياسيين والإِعلاميين والكهنة والسحرة، وسُمّوا «الملأ» لأنهم يشاركون في القيادة والقرار والحكم، ولأنهم يملأون عيونَ الجماهيرِ مهابةً وإجلالاً بسببِ مراكزهم ووظائفهم العليا.

ونعلمُ أنَّ ظاهرةَ «الملأ» ظاهرةٌ بارزةٌ ملحوظةٌ في القصص القرآني، موجودةٌ عند كلِّ قومٍ من أصحاب الباطل يواجِهون أصحابَ الحق.

قال الملكُ للملأ: أَفتوني أَيُّها الملأُ في رؤياي الخطيرة، وعَبِّروها لي، واذكروا بُعْدَها الواقعي، وتأويلَها العملي، إِن كنتم تَقدرون على تعبير الرؤيا، وتَعْبُرون صورتَها المنامية إلى نهايتِها العمليةِ الواقعية الحسية.

وسَمى تأويلَ الرؤيا عبوراً، لأنَّ المؤولَ عندما يُؤَوِّلُها فإنما يعبُرُ المنامَ إلى الواقع الذي يشيرُ إليه، وبذلك يصلُ ما بين الإشارةِ المنامية

وما بين النهايةِ الواقعية لها، وكأنه ينتقلُ من المنامِ إلى الواقع في المستقبلِ ليحدِّدَه.

الملأ يزعمون أنها أضغاث أحلام:

ردَّ الملأ على طلبه تعبيرَ الرؤيا بقولهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

لم يَقْدر الملأُ ورجالُ الحاشية على تأويلِ رؤيا الملك الخطيرة، أو لم يُريدوا تأويلَها، لأنها مزعجة، وتتحدثُ عن خطرٍ قادم، وسوف يقودُ تأويلُها إلى إزعاجِ الملك، وهم لا يريدون إقلاقَه وإزعاجَه، ولو كان فيه الحق، والحلُّ عندهم أنْ يُخفوا الحقائقَ عنه، ولو كان فيها مصلحةُ البلاد!.

أليستْ هذه طريقةُ البطانةِ والحاشيةِ التي عند الحكام في إخفاءِ الحقائقِ عنهم حتى لا يُزعجوهم؟!!

وَصَفَ الملأُ رؤيا الملك بأَنها أَضغاثُ أحلام، ولا علمَ لهم بتأويلِ الأحلام، ولهذا لا تأويلَ لها عندهم.

والأَضغاثُ جمعُ ضغث. وأَساسُ معنى الضغثِ هو مجموعةٌ من العيدانِ والحطبِ مع بعضِها البعض، كما قالَ اللّهُ لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

أي: خذْ بيدك غصنَ شجر، فيه مجموعةٌ من الأوراقِ والأغصانِ الصغيرة، فاضرب امرأتَك به ضربةً خفيفة، كي تبرَّ بيمينك، ولا تحنثَ فيه!

وأَضغاثُ الأحلام هي الأحلامُ المتداخلةُ المتجمعة، التي تجاورَتْ واختلطَتْ فيها بعضُ الحقائق ببعضِ الأباطيل، ودخلتْ فيها بعضُ الأوهام على بعضِ الرؤى فاختلطَتْ بها، وامتزجَتْ معها، وألْغَتْ ما فيها من حقائق.

وسَمّوا رؤيا الملك ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ لأن الأحلامَ تُطْلَقُ على ما يراه النائمُ في منامِه من مناماتٍ وأَوهام وأضغاث وكوابيس، مما لا رصيدَ له من عالم الواقع، ولا دلالةَ له على مستقبلٍ ما يحدثُ له.

وهم بهذا يَدْعون الملكَ إِلى أَنْ يصرفَ النظرَ عن هذه الأحلام، فلا دلالةَ لها، ولا تعبيرَ أو تأويلَ لها.

الساقي يتذكر يوسف:

هنا فوجئ ذلك الرجلُ «ساقي الملك» بعجْزِ الملأ عن تأويلِ رؤيا الملك، فتذكَّرَ صاحبه السجين «يوسف» بعدَ هذه السنين، وعِلْمَه بتأويلِ الرؤى، لأنه أَوَّلَ له رؤياه، وصحَّ تأويلُه، وها هو الآن يسقي الملك، فطلبَ من الملأ إِرسالَه إِلى يوسف، ليعبِّرَ له رؤيا الملك!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

قالَ اللّهُ عن هذا السجين الناجي من السجن، الخارجِ بعفو الملك: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

معنى «ادَّكَرَ»: تذكَّرَ بعدَ نسيان، تذكَّرَ يوسفَ في السجن، وعِلْمَه الصادقَ بتأويلِ الرؤى.

ومعنى ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد مجموعةٍ من السنين. وسُميث مجموعةُ السنين أمة، لأَنها مجتمعةٌ بعضُها مع بعض، يَجمعُ بينَها نِسيانُ ذلك السجين لقضيةِ يوسف، كما تجتمعُ مجموعةٌ من الأَفراد على أُمورٍ مشتركة بينها لتكونَ أُمةً موحدة.

فأُمةُ السنوات التي يجمعُها جامعٌ واحد ـ هو النسيانُ هنا ـ كأمةِ الناس التي تجمعُها قواسمُ مشتركةٌ فيما بينها!!

لقد كانَ هذا الرجلُ واثقاً أَنَّ تأويلَ رؤيا الملك عند يوسف، وأَنَّه وحدَه القادرُ على تأويلها، وذلك لِما جَرَّبَه من قبل، عندما أَوَّلَ له رؤياه، وصَدَقَ تأويلُه.

ولهذا خاطبَ قومَه بلهجةِ الواثقِ المطمئن: أَرسِلوني إِلى يوسف، فسوف آتيكُم بتأويلِه لرؤيا الملك!

وأَرسلوا الرجلَ إلى يوسف في السجن ليحضرَ لهم التأويل...

[١٧]

يوسف يؤول رؤيا الملك

جاءَ السجينُ الناجي - ساقي الملك الآن - إلى يوسف في السجن، وكلُّه أملٌ وثقةٌ أن يؤوِّل يوسفُ رؤيا الملك التي أشغلت الناس. وجرى بينهما ما قصَّته علينا هذه الآيات: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٦ ـ ٤٩].

يَعرضُ هذا المشهدُ من هذه الحلقة اللقطات ما قبلَ الأخيرة من محنةِ يوسف في السجن، حيثُ جاءه ساقي الملك وقصَّ عليه الرؤيا، وقام يوسف بتأويل رؤيا الملك، مع نصحهم كيفيةَ التصرف مع الشدةِ القادمة.

وسنقف مع آيات هذا المشهد قليلاً:

الساقي يطلب منه تأويل رؤيا الملك:

بدأ ساقي الملك كلامَه مع يوسف بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ووصفَه بصفة «الصّدّيق»، ومعناها عنده المبالغةَ في الصدق، فقد جرَّبَ الرجلُ يوسفَ في أكثرَ من مرة، فوجده صادقاً كثيرَ الصدق، صادقٌ في كلامه، وفي تأويله وأخباره، وفي سلوكه وتصرفاته، وفي صحبته وصداقته.

وصدّيقيّةُ يوسف كانت صفةً بارزة فيه، يراها ويلحظُها كلُّ مَنْ تعاملَ معه، فيزدادُ محبةً له وإعجاباً به، كما حصلَ مع ساقي الملك.

ونحن ندركُ أبعاداً أوسع لصديقيةِ يوسف مما أدركه ساقي الملكِ الكافر، إنها صدّيقيةٌ في عفتِه وطهارته، وترفُّعهِ عن الفواحش والمنكرات، وفي نجاحِه في الابتلاءات، وتجاوُزِه للمحن، واستعلائه على الفتن، وفي اتصاله بالله، وحُسنِ مراقبته له، وذكْرِه له، ويقينِه بما عنده، وتوكلِه عليه، وفي دعوتِه إلى الله، ونصحِه للآخرين، وفي صبره وتحمُّلِه، وفي إخلاصه وتجرده.

إنه «يوسف الصّدّيق» في كل ما تحملُه الكلمة من مَعانٍ وأبعادٍ وآفاق، عليه الصلاة والسلام.

ولما طلبَ الساقي من يوسف تأويلَ رؤيا الملك، أَعادَها عليه، بنفسِ الألفاظ التي نطقَ بها الملك، مقدِّماً فيها رؤياه، طالباً من الملأ فُتياه بها، ولهذا قال الساقي ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وإعادةُ الرؤيا بنفس الألفاظِ التي نطقَ بها الملك، ليكون التعبيرُ صحيحاً، وأيُّ تصرُّفٍ في الألفاظ بزيادة أو نقصان، قد يؤثرُ على استيعابِ المعبِّر لها، ومن ثم قد يؤثِّرُ على حسنِ تأويلها وتعبيرها، ولهذا كان الساقي أميناً في النقل، وفي تبليغِ الرسالة.

وقد أخبرَ يوسفَ أنه موفَدٌ إليه من قِبَل الملك والحاشية، وأنهم الآن بانتظاره، لمعرفةِ الجواب والتأويل، ليعلموا ما تشيرُ إليه هذه الرؤيا المثيرة من أحداثٍ قادمة، ليستعدّوا لها: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

يوسف يؤول رؤيا الملك:

ونذكِّرُ بأنَّ رؤيا الملك هكذا: سبعُ بقرات سمانٍ، تهجمُ عليها

سبعُ بقرات عجافٍ هزال فتأكلها. ثم سبعُ سنبلات خضرٍ يانعة، بجانب سبعِ سنبلاتٍ يابسات.

ما دلالةُ أكلِ السبع العجاف للسبع السمان؟ وما دلالةُ السنابل السبع الخضراء مع السبعِ اليابسات؟ وكيف اجتمعْنَ معاً؟

الأمرُ هيِّن عند يوسفَ عليه السلام، فإنَّ اللّهَ هو الذي علَّمه تأويل الأحاديث وتعبيرَ الرؤى.

ألم يقلْ له والدُه من قبلُ عند رؤياه الأولى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؟.

ألم يقل اللّهُ عنه عندما هيأَ له الإقامةَ في بيت العزيز: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾؟.

ألم يقلْ هو نفسه لصاحبيْه السجينيْن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾؟.

إن اللّهَ هو الذي علَّمه تأويلَ الأحاديث، وتعبيرَ الرؤى، فيجيء تأويله لها صحيحاً صادقاً، وتتحقق في عالم الواقع، كما أوَّل وعبَّر وأخبر، وهذا هو ما خصَّ اللهُ يوسفَ به، وجعله علامةً وآيةً على نبوته.

وهذه هي الرؤيا الثالثةُ والأخيرةُ في قصة يوسف: رؤياه سجودَ الأحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر له، ورؤيا السجينيْن في السجن، والآن رؤيا الملك حول البقرات والسنبلات!

والعجيبُ المفيدُ في تأويل يوسف لرؤيا الملك أنه لا يكتفي بمجرد تأويلِها، وذكْرِ ما تشيرُ له من أَحداثٍ قادمة. بل يقدمُ للملك والنظامِ النصائحَ النافعة، والتوجيهات السديدة، لحسنِ التصرف، ويضعُ لهم الخَطةَ المتكاملة لمواجهة الشدائد القادمة.

إنَّ رؤيا الملك تشيرُ إلى الوضع الزراعي والاقتصادي والمالي

خلالَ الخمسَ عشرة سنة القادمة! بما فيها من رخاء، ثم قحط، ثم غوث!

وإن اللّهَ الحكيم، الذي يفعلُ ما يشاء، قدْ قدَّرَ أن تمرَّ مصرُ بهذه الثلاثة خلال الخمسَ عشرة سنة القادمة: رخاء، ثم قحط، ثم غوث. وأوحى له بذلك في الرؤيا، رغمَ أنه ملكٌ كافر، كان يدَّعي الربوبية!

وهذا معناه أنَّ الرؤيا الصادقةَ ليست مقصورةً على الصالحين، فقد يَرى بعضُ الكفار رؤى صادقة، تَصدقُ على الواقع، وتكون إيحاءً لهم من الله رغم كفرهم، لحكمةٍ يريدُها الله سبحانه!

سبع سنوات غيث وزرع وسبع سنوات قحط ومحل:

عبَّر يوسفُ رؤيا الملك بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴿٤٩﴾﴾.

كان بإمكانِ يوسف أنْ يقول: إنَّ أمامَكم سبعُ سنواتِ غيثٍ وأمطار ومزروعات، ورخاء اقتصادي، ثم تأتي بعدها سبعُ سنواتٍ تمرون فيها بضائقة شديدة، حيث تنحبسُ الأمطار، وتصابون بالمحلِ والجدب والقحط، ثم تأتي السنةُ الخامسة عشرة بالغيث والغوث والمطر والرخاء!

كان بإمكانه أنْ يكتفيَ بذلك، فهذه هي دلالةُ الرؤيا، وهذا هو ما سألوه عنه، وهذا هو المطلوبُ منه.

ولكنَّ يوسفَ زادَ على ذلك بتقديم النصائح والإرشادات والتوجيهات للقوم لحسنِ التصرف والتخطيط لمواجهةِ المرحلة القادمة، وذلك ليُظهرَ لهم موهبتَه وخبرتَه وعلمه أوّلاً، ليعرفوا أهليتَه وفضْلَه، وبذلك تنتهي محنتهُ القاسية في السجن، وهذا ما فهمه عنه الملك، فقام باستدعائه، وأدّى ذلك إلى تسلمِه زمامَ الأمور.

ولم يفعلْ ذلك لمنفعته الشخصية، وإنما ليوظفَ خبرتَه وموهبته ومهارتَه في خدمة الناس، والخروجِ بهم من الخطر القادم، ليعرفوا قيمةَ النبوة، ويرغبوا في الإيمانِ بالله، والإقبالِ عليه!.

البقراتُ السبعُ السّمان في رؤيا الملك هي السنواتُ السبعُ الأولى، سنواتُ الأمطار والخصب والرخاء.

والبقراتُ السبعُ العجاف في الرؤيا هي السنواتُ السبعُ الثانية، التي تحملُ معها القحطَ والجدب والمحل.

وأكْلُ البقراتِ العجاف للسمان في الرؤيا هو ذهابُ المدخراتِ والأرصدة والوفرِ الاقتصادي، المجموعُ من سنوات الرخاء، واستهلاكُه في سنوات الجدب.

والسنبلاتُ السبعُ الخضر رَمزُ لسنوات الرخاء السبع الأولى، والسنبلاتُ السبع اليابسات ترمزُ لسنوات الجدب السبع التالية، التي يبقى فيها الحَبُّ في سنابله اليابسات!

يوسف خبير زراعي واقتصادي:

والسنةُ الخامسة عشرة التي تحملُ الغيثَ والغوث لم تردْ في رؤيا الملك، وإنما أَعلمَ اللّهُ بها يوسف، فأخبرهم عن ما سيجري فيها.

وكأنَّ رؤيا الملك تشيرُ إلى «خُطَّة سَبْعِيَّة» اقتصادية زراعية مالية، بجانبيها: الجانب الإيجابي والجانب السلبي!

أما كيفَ يتصرفون فيما هو مقبلٌ عليهم من أحداث، فقد دلَّهم يوسفُ على ذلك، وإذا به خبيرٌ اقتصادي وخبيرٌ زراعي، وخبيرٌ مالي، وخبيرٌ تمويني، وخبيرٌ في التخطيط، إضافةً إلى خبرتِه في تأويل الأحاديث وتعبيرِ الرؤى!

كيفَ يفعلُ القومُ في سنواتِ الرخاء السبع؟ وكيف يُحسنون الاستفادةَ منها للسنواتِ السبعِ التالية: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا

حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

عليكم أوّلاً أنْ تُحسنوا الاستفادة من سنواتِ الرخاء والخصب، وذلك بأنْ تستغلّوها في الزراعة، وتدأبوا في زراعةِ المحاصيل الزراعية، وتنشطوا في ذلك، وتوظّفوا كلَّ طاقاتكم وقدراتكم.

ومعنى «دَأَباً»: بجدٍّ واجتهادٍ ونشاط واستمرار، أي: تَدْأَبون دَأَباً، وتستمرّون استمراراً في الزراعة والحصاد، في المواسم الزراعية، طيلةَ هذه السنوات السبع.

وعندما تَجنون ما زرعْتُم، وتَحصدون الحبوبَ ذواتِ السنابل، كالقمح والشعير، فلا تدرسُوها، ولا تُخرجوا الحَبَّ من السنابل، بل أَبقوه فيها: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

إنَّ يوسفَ عليه السلام يقدمُ في هذه الجملة معلومةً علميةً رائعة، ويُرشدُ إلى أحسنِ طريقة لحفظ الحبوب، وهي إِبقاءُ الحبوب في السنابلِ لحين الحاجة إليها، فهذا يحفظُها من التسُّوس، لأن السوسَ لا يكون في الحبِّ الذي في السنابل اليابسة، فكلُّ حبَّةٍ محفوظة في وعائها من السنبلةِ لوحدها، وهذا الوعاءُ في السنبلة يحفظُها من باقي المؤثرات الجويةِ كالرطوبة والحرارة والرياح.

وكأنَّ يوسفَ في هذه النصيحةِ التخزينية، يقدمُ لنا خطةً لما يسمى الآن بصوامعِ الغلال في المستودعاتِ التموينية.

ويَدعو يوسفُ إلى ما يمكنُ أنْ يُسمى «تقنينَ» وترشيدَ الاستهلاك، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

أي: لا تُخرِجوا من السنابل المخزونة في المستودعات إلا مقدارَ حاجتكم للأكل، فتدرسونَ هذه السنابل بالتقسيط على شكل دفعات!

وعندما تنتهي السنواتُ السبعُ الخصبة تعقبُها سنواتٌ سبع شداد، تنحبس فيها الأمطار، وتتلفُ المزروعات، ويكون فيها الجدب والقحط: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ومعلومٌ أن سنواتِ الجدب والقحط تأتي على التوفير والرصيد والمخزون المالي والاقتصادي والزراعي والتمويني، ولهذا ستستفيدون مما وفَّرتموه في سنواتِ الخصب والرخاء.

وكأن هذه السنواتِ السبع المجدبة بقراتٌ عجافٌ هزالٌ يأكلْنَ ما سبقهنَّ من سنوات الخصبِ اللّواتي شُبِّهن بالبقرات السمان.

وعليكم أن تُحسنوا التقنينَ في هذه السنوات المجدبة الشداد، وأنْ لا تَستنزفوا المخزونَ الاحتياطي فيها، فعليكم استهلاكَه بتنظيم وتخطيطِ وتقسيط، وأنْ تُبقوا منه شيئاً للمستقبل، وتُحصنوه من التبذيرِ والإسراف؛ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

وإلى هنا ينتهي تأويلُ رؤيا الملك: سبعٌ بسبع، رخاءٌ يعقبه بلاء، وخصْبٌ يتلوه جَدْب!

وقد أعلمَ اللّهُ يوسفَ بما سيكون بعد ذلك، في السنة الخامسة عشرة، ليخبرَ الناسَ به، ولهذا قال لهم: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

الغوث في العام الخامس عشر:

لم يَرَ الملكُ ما يرمزُ لعامِ الغوث الخامس عشر، وأخبرَ اللّهُ يوسف به ليقدمَ الفرجَ للناس، وليعرفوا خلالَ حياتهم في سنوات الجدبِ والشدة أنها ستنقضي، وتزولُ شدتها، ويذهبُ قحطُها وجدبها، وسيعقبها عامُ رخاءٍ وغوث وغيث وأمطار.

أَخبرهم بذلك كي لا ييأَسوا ويقنطوا، وإنما لينتظروا ذلك الأملَ الآتي، بعد تلك الشدة، وليُحسنوا عُبورَ الشدة وتجاوزَها إلى الرخاء.

في العام الخامس عشر ـ وهو بدايةُ الدورة السبعية الثالثة ـ سيأتي اللّهُ بالأمطار غيثاً للبلاد والعباد، حيث سيغاثُ الناس، ويعودون للزراعةِ الدائبة المستمرة من جديد!

سيزرعونَ المزروعات ويحصدونَها، وستثمرُ أشجارهم الفواكهَ والثمار، وسيعيشون في رفاهيةٍ ورخاء، حيث سيأكلون الطعام، ويَعصرون الشراب ليشربوه، سيعصرونَ العنب خَمراً، والزيتون زيتاً: ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾.

وبهذا التأويلِ الصادقِ عبَّرَ يوسفُ رؤيا الملك، وأَتبعها بالنصائحِ والإرشاداتِ للتصرفِ في السنواتِ القادمة.

[١٨]

إعلان براءة يوسف

عادَ ساقي الملكِ من عند يوسف، وأخبرَ الملكَ ورجال الحاشية بتأويلِ الرؤيا، وما حدَّثه يوسفُ ـ بإعلام الله له ـ من أحداثِ خلال الخمسَ عشرة سِنة القادمة، وما قدَّمه يوسف لهم من نصائح..

إعجاب الملك بيوسف وطلب إحضاره:

وأُعجبَ الملكُ بتأويل يوسف، وطلبَ إحضارَه إليه، ولكنَّ يوسفَ رفضَ الخروجَ من السجن بعفوٍ ملكي، وطالبَ الملكَ بإعادة بحث القضية من جديد، فأعادَ الملكُ المحاكمة، وأتى بالشهود، فقدَّمت النسوةُ شهادتَهن ببراءةِ يوسف، واعترفت امرأةُ العزيز بأنها هي التي راودَتْه عن نفسه، وأنه عفيفٌ طاهر.

وهكذا ثبتتْ لهم براءةُ يوسف، وحكموا بأنه بريء، وبهذا تنتهي هذه المحنةُ الأخيرةُ في حياة يوسف، محنةُ السجن.. حيث ستأتي المنحُ والنعمُ والعطايا بعد ذلك...

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٣].

يبدو أنَّ الملكَ لم يكن يعلمُ تفاصيلَ قضية يوسف، ولا الأسبابَ المفصلة لسجنه، فلما أُعجبَ بتأويله للرؤيا، طلبَ إحضارَه إليه، وأَمر بالإفراج عنه، بعفوٍ ملكي: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾.

وقامَ رجالُ الحاشية بتنفيذِ إرادة الملك، فأَرسلوا أَحد الرجال المتنفِّذين إليه في سجنه، ليزفَّ إِليه البشرى، بشرى عفوِ الملك عنه، وطلبه المثولَ بين يديه، وانتهاءِ فترة السجن التي استمرتْ بضعَ سنين.

وهذا الرسولُ الذي بعثوه إِليه مبهمٌ في السياق القرآني، فلا نحاولُ تحديدَ اسمه أو وظيفته، ولا فائدةَ من ذلك، وكلُّ ما نقول: هو رسولٌ من طرف الملك إلى يوسف.

يوسف يطلب بحث القضية من جديد:

المهمُّ هو كيفيةُ استقبالِ يوسفَ للنبأ السارِّ المفرح، وردِّهِ على رسولِ الملك: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

قال يوسفُ لرسول الملك: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ارجعْ إلى ملكِك الذي تَدينُ له، وتعتبرُه رباً لك، وتخضعُ له ولقوانينِه وسلطانه، وتجعلُه شريكاً لرب العالمين في الربوبية!

ارجعْ إِلى ربِّك ملكك، واطلبْ منه أنْ يُعيدَ بحثَ قضيتي من جديد، وأنْ يُعيدَ المحاكمةَ من جديد، وأنْ يُحضرَ الشهودَ والمتَّهمات، وأنْ يسألَ النسوةَ لماذا قطَّعْنَ أيديهن في بيتِ امرأة العزيز، وأنْ يسألَ امرأةَ العزيز نفسَها. اطلبْ منه ذلك، واسأَلْه أنْ يفعلَ ذلك ليعرفَ أنني بريء، ويعرفَ كم أنا مظلوم.

أمّا أنا فإنّي أعلمُ كلَّ ذلك، لأنَّ الأحداث عشْتُها بنفسي، وربي عالم بكل شيء: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وإذا كان يوسفُ يقصدُ بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ ملكك، فإنه يقصدُ بقوله: ﴿رَبِّيٓ﴾ الله رب العالمين.

وهنا نقفُ على موقفٍ عجيبٍ عظيم ليوسف عليه السلام: لقد رفضَ الاستجابةَ لدعوةِ الملك بالخروج من السجن، بعفوٍ ملكي، ولم يتعجل الخروج، مع أنه مسجونٌ ظلماً، ومضى على سجنه بضعُ سنين، ومَنْ كان مثله يكون متلهِّفاً للخروج، فما أنْ تبدو أولُ إشارةٍ للخروج حتى يتعجل، هذا إنْ لم يَزجُ ويتوسَّطْ ويتشفَّعْ!

لماذا وقفَ يوسفُ هذا الموقف؟ ولماذا لم يُسارعْ بالخروج ثم يطلبُ إعادةَ المحاكمة وهو حرٌّ يعيش حريتَه؟.

تعليل موقف يوسف العجيب:

إن يوسفَ عليه السلام حصيفٌ ذكيٌّ ألمعيٌّ لَمّاح، ولقد فهمَ من إشارةِ الملك، وأَمْرِه بالإفراج عنه، والمجيء به عنده، أن الملكَ معجبٌ به، وأنه سيسندُ إليه بعضَ المراكزِ الإدارية العليا، وأنه ينتظرُه عهدٌ جديدٌ من التمكين!

فهمَ يوسفُ كلَّ هذا، لكن ما هو كلامُ الناسِ عنه؟ وما هو «ملفُّه» عندهم؟ وما هي سمعتُه بينهم؟

إن الناسَ لا يعرفون حقيقةَ قضيةِ يوسف، وقصتِه مع امرأة العزيز، ومع نسوة المدينة.

لقد شوَّهَ «الإعلامُ الرسميُّ» ـ الذي يشرفُ عليه عزيزُ مصر ـ سمعةَ يوسف، وقَدَّمه للناس بصورةِ الظالم المجرم، الذي لم يحسنْ إلى العزيز الذي أحسنَ إليه، وفتحَ له بيته، فقامَ بمراودةِ امرأته، وأرادَ انتهاكَ عِرْضَها والاعتداءَ عليها، ولو لم تدفعْه هي وتدافعْ عن عرضها لنالَ منها! فعلَ ذلك وهو عبدُها ورقيقها!

وقد عوقبَ لهذه الجريمةِ الأخلاقيةِ البشعة بالسجن، جزاءً على سوء فعله، وها قد مضى عليه في السجن بضعُ سنين.

هذه هي صورةُ يوسفَ وسمعتُه في الخارج، كما صوَّرها الإعلامُ الرسمي الجاهلي، ولعلَّ الملكَ عرفه بهذه الصورة المشوهة، كما قدَّمَها له الملأُ الجاهليون!

فهل يخرجُ للناس بهذه الصورةِ والسمعة؟ وهلْ يرضى أن يمنَّ عليه الملكُ بعفوه، وتجاوُزِه عن جريمته؟ وهل يقبلُ أنْ يُعْرَفَ عند الناس بأنه «طليقُ الملك»، إذ لولا إفراجُه عنه لأمضى في السجن سنينَ أُخرى!

وهلْ من المناسب أنْ يليَ المراكزَ الإدارية العليا، وهو بهذا الماضي الأسودِ كما يبدو عندَ الناس؟.

مع أنه في الحقيقةِ عفيفٌ نزيهٌ طاهر شريف، وهو المعتدىٰ عليه، وهو المظلومُ والبريء، وهو الذي سجنوه ظلماً وعدواناً!

إذن لا بدَّ من إعادةِ بحثِ القضية من جديد، والذي يبحثُها ويحقق فيها هو الملكُ نفسُه هذه المرة؛ ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

لا تناقض بين موقفه هذا وقوله: اذكرني عند ربك:

هل في تريُّثِ يوسفَ في الخروج من السجن، وطلبهِ إعادةَ بحث قضيته على يد الملك، تناقضٌ مع قوله قبلَ بضعِ سنين لساقي الملك قبيلَ الإفراج عنه: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؟؟.

إنَّ يوسفَ الذي قالَ للساقي المفرجِ عنه من قبل: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ هو يوسفُ نفسه، الذي يردُّ دعوةَ الملك للخروج بعد بضعِ سنوات فلا يخرج إلاّ بعدَ إظهارِ براءته!

ولا أَرى تعارضاً بين الموقفين!!

فلما قال قبلَ بضع سنين للساقي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، لم يُرِدْ أَنْ يخرجَ بعفوِ الملك، ولا أَنْ يَخرجَ وسمعتُه مشوهةٌ عند الناس، إنما أَرادَ أَنْ يعرفَ الملكُ قصته، وأَنْ يَطَّلعَ على «ملف» قضيته، وأن يحققَ في الأمر، فإنه إِنْ فعلَ ذلك فسوفَ يقفُ على براءة يوسف، وإدانةِ امرأة العزيز.

ولكنَّ الساقي نسي، والملكُ لم يطلعْ على القضية، والقومُ نسوا يوسف موقوفاً في السجن، ومضى عليه بضعُ سنين.

والآنَ جاءتْ فرصةٌ أُخرى لإعادةِ البحث في قضيته من جديد، فكيف يخرجُ يوسفُ دون إِعادةِ التحقيق وإِظهارِ البراءة؟

وَهَبْ أنَّ الساقيَ قبلَ بضعِ سنين تذكَّرَ يوسف، وذَكَرَ قضيتَه للملك، وطلبَ الملكُ إحضارَه، وأمرَ بالإفراج عنه، فهل سيسارعُ يوسفُ بالخروج ممتَنّاً للملكِ بعفوه؟ وهل يَرضى أَنْ تبقى سمعتُه مشوهةً عند الناس؟

ما أظنُّ أنه كان سيرضى بذلك، وأعتقدُ أنه كان سيتريّثُ ويتأنّى، وسيطلبُ إعادةَ التحقيق في المسألة.

إنه لا تناقضَ بين الموقفين، ولا تعارضَ بين القولين، لأنَّ يوسف الذي قال: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ هو يوسفُ الذي يقولُ الآن للرسول: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾.

ثناء الرسول على موقف يوسف:

ومع ذلك فقدْ أثنى رسولُ الله محمدٌ ﷺ على يوسف، لتريثِه في الخروجِ من السجن، واعتبرَ هذا مزيةً من مزاياه، وبيَّنَ أنه لو لبّى الدعوة وخرجَ من السجن، ثم طالبَ بالمحاكمة بعد ذلك، لما كان عليه في ذلك شيء. لكنه اختارَ الأَوْلى والأَفضل والأَسْمى والأَعْلى.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي

﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ ويرحمُ اللّهُ لوطاً، لقد كانَ يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثْتُ في السجن طولَ ما لبثَ يوسف لأجبتُ الداعي»[1].

وفي روايةٍ أخرى، فيها مزيدٌ من التوضيح أَخرجَها الطبرانيُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عجبْتُ لصبرِ أخي يوسف وكَرَمِه، واللّهُ يغفر له، حيث أُرسلَ إليه يُستفتىٰ في الرؤيا، ولو كنتُ أنا لم أفعلْ حتى أَخرج، وعجبتُ لصبْرِه وكرمه، والله يغفرُ له، أُتِيَ لِيَخرج، فلم يخرجْ حتى أخبرهم بعذْرِه، ولو كنتُ أنا لبادرْتُ الباب»[2].

وقد تكلمْنا عن معنى كلامِه عن إبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام أَثناءَ حديثِنا عن قصة كلٍّ منهما من قبل.

وبالنسبةِ ليوسف عليه السلام فإن الرسولَ محمداً ﷺ يُثني عليه لصبره، ويخبرُنا أنه لو كان مكانه، وسُجِنَ بضعَ سنين ظلماً، وجاءه الداعي يدعوه لمقابلةِ الملك، لأَجابَه وخرج فوراً، وبعد ذلك يطالبُ بإعادةِ التحقيق والمحاكمة.

ولهذا قال في الرواية الثانية: «ولو كنتُ أنا لبادرْتُ الباب». أي: لسارعْتُ بالخروج من باب السجن، عندما أَتتْني دعوةُ الملك.

لقد تريثَ يوسفُ عليه السلام لما سبق أَنْ قلنا، ولم يخرجْ إلاّ بعدَ إعلانِ براءته، وبذلك اختارَ الأسمى والأكمل والأفضل.

لما قالَ يوسفُ عليه السلامِ لرسولِ الملك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾، عادَ الرسولُ إلى الملك، وأخبره أنَّ يوسف يرفضُ أنْ يَخرجَ من السجن بهذه الصورة، لأنه

---

(1) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٧٢. ومسلم برقم: ١٥١. انظر الأحاديث الصحيحة: ١٨٧.

(2) أخرجه الطبراني برقم: ١٦٤٠. وانظر الأحاديث الصحيحة: ١٨٨.

مسجونٌ ظلماً، وهو بريءٌ مما اتهموه به، ولذا يريدُ إعادةَ بحثِ القضية من جديد!

الملك يتولى التحقيق في القضية:

ولعلَّ الملكَ فوجئَ بهذا الموقفِ من يوسف، إذ كيفَ يرفضُ سجينٌ عبدٌ رقيقٌ تلبيةَ دعوةِ الملك للقدوم إليه، والمثولِ بين يديه، وهو لم يطلب المقابلة، ولم يرجُ الخروج، إن الملكَ هو الذي يبادرُ بالدعوة، ويُعفيه من عَناءِ الطلبِ والرجاء والشفاعة، فكيف يرفضُ هذا السجينُ ذلك، ويطلبُ من الملكِ نفسه تولّي التحقيقِ في قضيته! مَن هو هذا السجين؟ وأي نوعٍ من الرجال هو؟.

ويبدو أنَّ الملكَ كان يتصفُ بالحكمة، وكان يَعرفُ تقديرَ الرجال، ويتأثرُ بمواقفهم الرجولية، ولهذا ازدادَ إعجاباً بيوسف عليه السلام، بسبب موقفِه الرجوليّ الإيماني العظيم.

اطَّلَعَ الملكُ على «ملفّ» قضية يوسف، وسأل عن تفاصيلِ ما جرى، وأعادَ التحقيق في الموضوع، واستدعى الشهود، واستجوبَ مَنْ كان لهم دورٌ في الحادثة.. وتولّى بنفسه هذه المهمة!

وأهمُّ طرفيْن في القضية: نسوةُ المدينة، وامرأةُ العزيز.

وقد طلبَ يوسفُ من الملك سؤالَهن بالذات: ﴿فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

أَحضرَ الملكُ النسوة، اللواتي حضرنَ مأدبةَ امرأة العزيز فيما مضى، وقلْنَ ما قلْنَ في جمال يوسف، وقطَّعن أيديهن دهشةً وإعجاباً، وسألَ الملكُ النسوةَ قائلاً: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾؟.

والخَطْبُ هو: الشأنُ والقصةُ والأَمْرُ الكبير، ويطلقُ على كلّ حادثةٍ كبيرة، وأمرٍ جَلَل، وتصرُّفٍ مثير.

ما قصتكنَّ مع يوسف؟ وما شأنكنَّ معه؟ ولماذا تصرفتُنَّ معه ذلك

التصرفَ المثير؟ وما الدافعُ لكنَّ إلى ذلك؟

الملك يدين النسوة ويشهدن ببراءة يوسف:

ونلاحظُ أن الملكَ قد أَسندَ للنسوة تهمةَ مراودة يوسف: ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

ويبدو أَنه بعد اطلاعِه على ملفِّ القضية قد خرجَ بنتيجة، وهي براءةُ يوسف من التهمةِ المسندة إليه، وإِثباتُ الجريمة للنسوة ولامرأة العزيز.

ولهذا لم يسأل النسوةَ عن الحادثة، لأنه عرف كلَّ شيء عنها، فلم يقلْ لهنّ: ما الذي فعله يوسفُ معكن؟ أو ما الذي جرى بينكنَّ وبينه؟

إنما وجَّه لهنَّ الاتهامَ الصريح: أنتنَّ راودتنَّ يوسفَ عن نفسه، وقد ثبتَ ذلك لدينا، فلماذا فعلتنَّ ذلك؟

ومن هذا نعلمُ أنَّ نسوةَ المدينة لما حضرنَ مأدبةَ امرأةِ العزيز وأُعجبنَ بيوسف، قمنَ بمراودتِه مراودةً جماعية، إضافةً إلى مراودة امرأة العزيز، ودعوْتَه إلى المعاشرة والفاحشة، ولهذا كان يوسفُ صريحاً عندما دعا اللّهَ قائلاً: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: مما تدعوني امرأةُ العزيز إليه.

ويبدو أنَّ نساءَ الطبقة الحاكمة عرفْنَ أن الملكَ قد وقفَ على الحقيقة، وأنَّ الجريمةَ صادرةٌ منهن، ولذلك وجَّه لهن اتهاماً صريحاً مباشراً، فلا مجالَ للمراوغة أو الإنكار، ولا بدَّ من ذكرِ الحقيقة.

ولهذا جاءَ جوابهنَّ على سؤال الملك صريحاً في إِثباتِ براءة يوسف: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾!

إنَّ يوسفَ بريءٌ من كل التهم الموجَّهةِ له، ولم يراوِدْ أَوْ يهمَّ أو يَعْتَدِ، ونحن نعلمُ أنه عفيفٌ شريف طاهر، وما علمْنا عليه مِن سوء ولا عدوان.

وكرَّرْنَ كلمةَ «حاش لله» التي يعلِنَّ فيها تنزيهَ الله.

فقد سبقَ أنْ نطقْنَ بهذه الكلمة متأثراتٍ بجمال يوسف: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

والآن يقلنَ نفسَ الكلمة تمهيداً لشهادتهن ببراءة يوسف: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

امرأة العزيز في اعتراف مثير:

وبعدما شهدت النسوةُ المراوداتُ ببراءة يوسف، تقدمت امرأةُ العزيز ـ الطرف الرئيسي في القضية ـ أمامَ الملك، وأعلنتْ باعترافٍ صريح مثير براءةَ يوسف وإدانةَ نفسها، ومَزجتْ ذلك الاعترافَ المثيرَ بإشاراتٍ وتلميحاتٍ مقصودة.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢) ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾!!!

لقد أَثَّرت السنوات التي قضاها يوسف في السجن في امرأة العزيز، وفي شخصيتها وفكرها، ويبدو أنها تأثرتْ كثيراً بيوسف عليه السلام، وتعدّى تأثُّرها بشخصه وجماله إلى تأثُّرها بدينه وإيمانه.

لقد عرفناها فيما مضى امرأةً شهوانيةً شَبِقة، متهالكةً على يوسف، حريصةً على قضاء وَطَرِها منه بأية وسيلة، كما عرفناها امرأةً ماكرة متآمرة، امرأة تجيدُ رسمَ المؤامرات وحبكَ المكائد، واتهامَ الآخرين..

أما الآن ـ وبعد هذهِ السنوات العديدة ـ فيبدو أنَّ التجربةَ قد صقلَتْها، وأنَّ حادثتَها مع يوسف قد أثَّرتْ جداً فيها.

من خلال سجلِّ اعترافها أمامَ الملك نرى أنَّ لهجتَها قد تغيرت، ومنطقَها قد تأثر، إنها ناضجةٌ واعية، وإنها موضوعية، وإنها ثقيلةٌ

رزينة، وإنها متواضعةٌ معترفة، وإنها مؤمنةٌ بالله، عارفةٌ لصفاته، وإنها حافظةٌ لودِّ يوسف...

قولها: الآن حصحص الحق أنا راودته وهو صادق:

تبدأ امرأةُ العزيز اعترافَها أمامَ الملك بقولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: آنَ الأوانُ أنْ أعترف، وأنْ أُظهرَ الحقَّ في هذه القضية، فطالما حرصْتُ على إخفاءِ الحقيقة عدةَ سنوات، ولكن لم أنجح، ولا بدَّ من أنْ يَظهرَ الحق، وعلى لساني، بعد كلِّ هذه الفترة.

و﴿حَصۡحَصَ﴾ مضاعفُ كلمة «حَصَّ» مثل: زلزل، وكفكف.

وأساسُ معنى «حص»: هو القطع.

قال الراغبُ في المفردات: «حَصَّه: قطعَ منه. إمّا بالمباشرة، وإمّا بالحُكم. وقيل: رجلٌ أَحَصّ: انقطعَ بعضُ شعره، والحِصَّة: القطعةُ من الشيء.

وحصحصَ الحق: وضحَ، وذلك بانكشافِ ما يغمرُه..»[1].

لقد كان الحقُّ مغموراً في قضية يوسف مع امرأةِ العزيز، وكمْ حرصتْ مع قومِها على إخفائِه سنوات عديدة، قضاها يوسفُ في السجن مظلوماً، ولكن مرور هذه السنوات لم يُمِت القضية، ولم يُغطِّ الحقيقة، فَهَا هي القضية تُبعثُ من جديد، وها هو الملكُ نفسه يتولّى التحقيقَ فيها، وقد فشلتْ هي وجماعتُها في التمويه والتزوير.

لم يبقَ أمامَها إلا أنْ تعترف، وأنْ تظهرَ الحقيقة، وأنْ تقطعَ الباطل، وأنْ تُنهي المسألة: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾.

وتتقدمُ المرأةُ إلى الملك بإدانةٍ صريحةٍ لنفسها، وتبرئةٍ صريحة

(١) المفردات للراغب الأصفهاني: ٢٣٧.

ليوسف: «أنا راودته عن نفسه. وإنه لمن الصادقين».

إنها ناضجةٌ وموضوعية، ولهذا تصرحُ بالحقيقة، وتتحملُ النتيجة والمسؤولية. أنا راودتُ يوسف عن نفسه. ولقد كان يوسفُ صادقاً عندما قالَ لزوجي لما دخلَ الباب: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾.

كان صادقاً عندما قالَها، ولقد كذَّبْتُه واتهمتُه، وقد مكرتُ به وتآمرتُ عليه، ولقد سجنْتُه عدةَ سنوات، محاولة إلقاءَ التهمة عليه، وتبرئةِ نفسي. والآن لا بدَّ من ذكْرِ الحقيقة: لقد كنتُ كاذبةً متآمرةً ماكرة، وقد كنت ظالمة، فأنا المراودةُ وهو البريء!!

ماذا يريدُ يوسفُ عليه السلام من إعادةِ بحث القضية أكثرَ من هذا الاعتراف؟ ماذا يريدُ من نسوةِ المدينة أكثر من هذا؟ وماذا يريدُ من امرأة العزيز أكثر من هذا؟

ليس أَقوى من الإقرار والاعتراف، فالاعترافُ سيدُ الأدلة، هذه النسوةُ تقرُّر وتعترف ببراءة يوسف، وها هي امرأةُ العزيز تقرُّ وتعترفُ بإدانة نفسها وبراءة يوسف.

لقد حققَ يوسفُ بصبره وتحمُّلِه وأَناتِه كلَّ ما يريد، وإنه لحصيفٌ ذكيٌّ ألمعيٌّ حقاً عليه الصلاة والسلام.

وتُتابعُ امرأةُ العزيز اعترافها أمام الملك، فتلتفتُ إلى يوسف عليه السلام، وتقولُ جملةً موجهة له، تبررُ بها اعترافَها الصريح، وإدانةَ نفسها وتبرئته.

لماذا فعلَتْ ذلك؟ لماذا أدانَتْ نفسها وبرأَتْ يوسف؟ تقول: لقد فعلْتُ ذلك من أجل يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

وكأنها تقول: أنا الآن أمامَ الملك، ويوسفُ الآن غائبٌ عني، فهو في السجن، وكان بإمكاني أنْ أكذبَ على الملك كما كذبْتُ على

زوجي، وأن أبرئَ نفسي وأتهمه هو. لكني لم أفعلْ ذلك، واعترفتُ بالحقيقة.

وكأنها تقول: قولوا ليوسف هذا، وأَخبِروه بكلامي، وأَعْلِموه أَني أدنتُ نفسي وشهدتُ لصالحه، ولا بدَّ أن يعلمَ يوسفُ أني لم أخنه بالغيب، فلم أشهدْ ضدَّه وهو غائبٌ عني، ولو فعلتُ ذلك لكنتُ خنته بالغيب!.

إيمانها بالله دفعها للاعتراف:

والذي دفعني إِلى عدمِ خيانة يوسف بالغيب، والشهادةِ لصالحه مع أنه غائبٌ عني في السجن هو علمي ويقيني بأن الله لا يَهدي كيدَ الخائنين.

وكأنها تقول: لقد خنتُ يوسفُ من قبل بالغيب والشهادة، وقد تآمرتُ عليه، وكِدْتُ ضده، وسجنته، ولكني لم أنجحْ في ذلك، لأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ولا أُريدُ أنْ أكررَ الخطأَ مرة ثانية.

إنها تريدُ أنْ يعرفَ يوسفُ هذا منها، ليقودَه هذا إِلى احترامِها وتقديرِ موقفها، فلئن كرهَها من قبلُ لإغرائها وشهوانيتها فقد حقَّ له ذلك، لكنها الآنَ تغيَّرَت، ولا بدَّ أنْ يعرفَ أنها تغيرت، وأنها الآن ناضجةٌ متزنةٌ موضوعية منصفة، وذلك ليحترمَها.

ونفهمُ من كلامها هذا أنَّ حبَّها ليوسف بقي، لم يتغيَّرْ ولم يُمْحَ من قلبها، لكن الذي تغيَّرَ هو نوعُ هذا الحب.

لقد كان حبُّها له في الماضي حُبّاً شهوانياً جسدياً، أُعجبتْ بجمالِ جسده، وأرادتْ مخالطتَه ومعاشرتَه.

أما الآن وبعد هذه السنواتِ العديدة، فقد نضجَتْ، ونضجَ حبُّها ليوسف معها، وتحوَّلَ من حبٍّ شهوانيٍّ جسدي إلى حبٍّ موضوعي فكري، أحبتْه الآن لعفَّتِه وطهارتِه، وأَحبَّتْه لدينه وإيمانه، وتأثرتْ بمواقفه.

ونلحظُ أنَّ حُبَّها الموضوعي لدينِ يوسف قد أثَّر فيها، فآمنَتْ بالله ربه، ودخلَتْ في دينه، وصارتْ مؤمنةً صالحة، كما يبدو من كلامها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ... إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وتختمُ امرأةُ العزيز اعترافَها أمام الملك بالتفاتِها إلى نفسها، وتسجيلِ إدانةٍ جديدة إلى نفسها: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾.

برأَتْ يوسفَ من التهمة، ولم تبرئْ نفسَها، وهذه موضوعيةٌ كبيرة منها!

وتفسرُ ما جرى منها فيما مضى من أنه «نزوةٌ» من نزواتِ نفسها، حيث تحكمتْ فيها نفسُها، وسيطرتْ عليها، فأمرتْها بالسوء والفحشاء، وإن النفسَ تأمرُ بالسوء، إلا إذا كانت نفساً مؤمنةً صالحة ناضجة، رحمها الله فأنضجها بالتربية!!

وتتوجَّهُ إلى الله بالاستغفارِ عن كلِّ ما جرى منها في قضية يوسف، وتندمُ على كل ما فعلت، من مراوداتٍ وإغراءات: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ونلحظُ المنطقَ الإيمانيَّ لهذه المرأة المؤمنة، التي بدأَتْ أمامَنا شهوانيةً شبقة متآمرة فاتنة، وانتهتْ مؤمنةً منصفةً موضوعية صالحة!!.

وهذا التغييرُ الإيجابيُّ في شخصية هذه المرأة، صورةٌ من صور نجاحِ يوسف عليه السلام في الدعوة، حيث نجحَ في الانتقال بهذه المرأةَ من سفحِ الشهواتِ الهابط، إلى قمةِ الإيمان والصلاح!!

وهكذا انتهى دور العزيز وامرأته:

ونلاحظُ أنَّ دورَ امرأة العزيز ـ ودورَ زوجها أيضاً ـ انتهى عند هذه النهاية في القصة، حسبَ العرضِ القرآني. فلا يحددُ السياقُ القرآني ما جرى لهما بعد ذلك.

كلُّ ما نعرفُه من خلال هذا السياق أن الملكَ قد عَزَلَ زوجَ هذه

المرأة من منصبه، وأَسندَه إلى يوسف، الذي صارَ يلقب بلقب «العزيز».

وهناك مبهماتٌ في شأن العزيز وامرأته، فلا نعرفُ اسمَ كلٍّ منهما، كما أن هناك مبهمات في نهاية هذه المرأة بعدما آمَنتْ، فلا نعرفُ هل تزوجتْ يوسف أم لا؟ وكيف قضتْ باقي عمرها! وعلينا أنْ نَبقى فقط مع العرضِ القرآني!!

[١٩]

الحلقة الرابعة

يوسف عزيز مصر

انتهت المحنُ التي قدَّرها اللَّهُ على يوسف عليه السلام، والتي كانت تمهيداً لمرحلةِ المنحِ والعطايا الربانية، والتي كانت إِعداداً له لهذه المرحلة.

ونحنُ من الآن وإلى آخرِ لقطاتِ قصته مع يوسف عليه السلام وهو يتعاملُ مع المنحِ والنعمِ بنجاح.

وقفنا في المشهدِ الرابعِ الأخير من الحلقة السابقة، عند طلبِ يوسف إعادةَ محاكمته لإظهارِ براءته، حيث تولَّى هذه المهمة الملكُ نفسُه، وسألَ النسوةَ فشهدنَ ببراءته، كما سألَ امرأةَ العزيز فشهدتْ ببراءته، وأقرَّتْ بمراودتِها له.

وبهذا وقفَ الجميع على براءة يوسف عليه السلام، وأنه كان مسجوناً ظلماً طيلةَ السنواتِ السابقة.

والآن سيخرجُ يوسفُ عليه السلام من السجن بهذه البراءة، ليمارسَ حياتَه الجديدة، ويعيشَ مرحلةَ التمكينِ والإنعام التي قدَّرَها اللّهُ له.

الحلقةُ الرابعةُ من قصةِ يوسف عليه السلام هي التي تتحدثُ عنه

بعدما صارَ في منصبِ «عزيز مصر»، حيث حكمَ البلاد، ورتَّبَ أوضاعَها، وأَدارَ اقتصادَها في سنوات الغيثِ والخصب، ثم في سنواتِ الجدبِ والقحط. وتخبرُ عن بدايةِ اتصال إخوتِه به، وهم لا يعرفونه، حيث طلبَ منهم إِحضارَ أخيهم معهم، وتمكنوا من إقناعِ أَبيهم بذلك، وأحضروه معهم، ودبَّرَ يوسفُ له ترتيباً خاصاً، حيث اتُّهِمَ بالسرقة في الظاهر، فأخذَه يوسفُ رقيقاً عنده، وحاولَ الإخوةُ استبدالَه بأحدهم، فرفضَ يوسفُ ذلك.

هذه هي المشاهدُ التي تعرضُها هذه الحلقة، وآياتُها من (٥٤) إلى (٧٩) من هذه السورة. وسنعيشُ مع هذه الآياتِ والمشاهدِ بعون الله.

[٢٠]

الملك يعيّن يوسف في منصب العزيز

المشهدُ الأولُ في هذه الحلقة أربع آيات: ٥٤ ـ ٥٧.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٧].

إعجاب الملك بيوسف لمواقفه وعلمه وإكرامه له:

أُعجبَ ملكُ مصر أولَ مرة بيوسف عليه السلام لما عبَّرَ له رؤياه، فطلبَ إِحضارَه لينعم عليه بالعفوِ والإفراج، وقال لحاشيته: ائتوني به.

ولكنَّ يوسفَ أبى الخروجَ على هذه الصورة، ولو كان بعفوِ ملكي، وإنما أَرادَ أَنْ يخرجَ بريئاً عفيفاً عزيزاً، ولهذا طلبَ من الملك نفسِه إعادةَ النظر في قضيته. فقامَ الملكُ بذلك، وشهدت النسوةُ ببراءة يوسف، واعترفت امرأةُ العزيز بالمراودة، وشهدنْ ببراءة يوسف عليه

السلام، وبهذا وقفَ الجميعُ على براءته.

ازدادَ إعجابُ الملك بيوسف عليه السلام لهذا الموقف، وعرفَ أنه «رجلُ المرحلةِ القادمة» المؤهَّلُ لقيادةِ البلاد، في سنوات الخصب ثم في سنواتِ الجدب.

ولذلك أمرَ الملكُ بالإفراج عن يوسف عليه السلام، وإحضارِه إليه: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾.

ونحسُّ في كلام الملك مزيداً من الإعجابِ بيوسف، ومزيداً من التكريم له، تمهيداً لتسليمه مقاليدَ الأمور.

لقد قال الملك: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ مرتين:

المرةُ الأولى: بعدما عبَّرَ له رؤياه، ونحسُّ في كلامه هناك رغبتَه في الإنعامِ عليه بالإفراج والعفوِ فقط!

المرة الثانية: بعد هذا الموقفِ الكبير ليوسف، فهو الآن لا يريده للعفوِ عنه فقط، ولكنه يريدُه ليستخلصَه لنفسه!!.

«لقد تبينتْ للملك براءةُ يوسف، وتبيَّنَ له معها علمُه في تفسيرِ الرؤيا، وحكمتُه في طلبِ تمحيصِ أمرِ النسوة. كذلك تبينتْ له كرامتُه وإباؤه، وهو لا يتهافتُ على الخروج من السجن، ولا يتهافتُ على لقاءِ الملك. وأي ملك؟ ملك مصر!

ولكن يقفُ وقفةَ الرجلِ الكريم، المتهم في سمعته، المسجونِ ظلماً، يطلبُ رفعَ الاتهام عن سمعته، قبلَ أنْ يطلبَ رفعَ السجنِ عن بدنه، ويطلبَ الكرامة لشخصِه ولدينه الذي يمثله، قبل أنْ يطلبَ الحظوةَ عند الملك.

كلُّ أولئكَ أوقعَ في نفس الملك احترامَ هذا الرجل وحبَّه، فقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾.

فهو لا يأتي به من السجن ليطلقَ سراحَه، ولا ليرى هذا الذي

يفسِّرُ الرؤى، ولا ليُسمعَه كلمةَ «الرضاء الملكي السامي!» فيطيرَ بها فرحاً...

كلا! إنما يطلبُه ليستخلصَه لنفسه، ويجعلَه بمكانِ المستشارِ والنجيِّ والصديق..

فيا ليتَ رجالاً يُمرِّغون كرامتَهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء، مطلقو السراح ـ فيضعوا النِّيرَ في أعناقهم بأيديهم، ويتهافَتوا على نظرةِ رضا وكلمةِ ثناء، وعلى حظوةِ الأَتباع، لا مكانة الأصفياء...

يا ليت رجالاً مِن هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصةَ يوسف، ليعرفوا أن الكرامةَ والإباء والاعتزاز، تدرُّ من الربح ـ حتى المادي ـ أضعافَ ما يدرهُ التمرغُ والتزلفُ والانحناء!!!»[1].

قالَ الملكُ لرجاله: أَحْضِروا لي يوسف، كيْ أستخلصَه لنفسي. وعرفَ رجالُه أنَّ يوسفَ سيكون معزّزاً مكرَّماً عند الملك.

ذَهبوا إلى يوسف في السجن، فأَخْرَجوه منه معزّزاً مكرماً، بعدَ أنْ مكثَ في سجنِه مظلوماً بضعَ سنين.

وخرجَ يوسفُ من السجن، ثم جاء إلى الملك، وقابلَه بعزةٍ وكرامةٍ وإباء، ونظرَ الملكُ إليه، فازدادَ إعجاباً به، ومحبةً له.

يوسف عند الملك مكين أمين:

وكلمَ يوسفُ الملكَ بعزة، ولاحظ الملكُ في كلام يوسف الصدقَ والجدية، فازدادَ إعجابُه به. وتأكدَ الملكُ أنَّ نظرتَه في يوسف في محلها، وأنه أهلٌ للتكريم والتفضيل، تأكَّدَ هذا عندما قابلَه يوسف، وتأكدَ أكثر عندما كلمه يوسف.

عندها أَخبر الملكُ يوسف بالأمان: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٥.

ونلحظُ في كلام الملك ليوسف كلَّ معاني التكريم، والتأكيدَ على التفضيل.

وكأنَّه يقول له: أنتَ بعد اليوم عندي، وأنت معزَّزٌ مكرَّم، فأنتَ منذ اليوم لستَ عبداً رقيقاً في بيت مسؤولٍ كبير، ولكنك أنتَ عندنا في تكريم، وأنت من رجالنا، وأنت من مسؤولي البلاد.

وأنت ﴿مَكِينٌ﴾ متمكِّنٌ من الحرية والمسؤولية، وهذه مكانتُك ومنزلتُك العالية العزيزة.

وأنت ﴿أَمِينٌ﴾، في أَمانٍ واطمئنان، لا تخشى بعد اليوم سجناً ولا اتهاماً، ولا ظلماً ولا عدواناً!!

ماذا كان ردُّ يوسفَ عليه السلام على هذا التكريم من ملك مصر؟

«إنه لم يسجدْ شكراً، كما يسجدُ رجالُ الحاشية، المتملِّقون للطواغيت! ولم يقل له: عشتَ يا مولاي، وأنا عبدُك الخاضع، أو خادمُك الأمين، كما يقولُ المتملِّقون للطواغيت! كلا إنما طالبَ بما يعتقدُ أنه قادرٌ على أنْ ينهضَ به من الأعباء، في الأزمةِ القادمة التي أَوَّلَ بها رؤيا الملك، خيراً مما ينهضُ بها أَحد في البلاد، وبما يعتقدُ أنه سيصونُ به أرواحاً من الموت، وبلاداً من الخراب، ومجتمعاً من الفتنة - فتنةِ الجوع - فكان قوياً في إدراكِه لحاجةِ الموقف إلى خبرتِه وكفايته وأمانته، قُوَّتَه في الاحتفاظِ بكرامته وإبائه..»[1].

طلب يوسف إدارة خزائن الأرض ومؤهلاته:

رَدَّ يوسفُ على تكريم الملك له قائلاً: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

طلبَ يوسفُ من الملك أَنْ يجعلَه على خزائن الأرض. أي: أنْ

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٠٥.

يكونَ مسؤولاً عن الخزائنِ والأموال، والزراعة والتموين، والاقتصاد والتخطيط، في المرحلة القادمة.

وأخبرَ الملكَ عن مؤهِّلَيْن من مؤهَّلاته لهذا المنصب: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

إنه حفيظ: يحفظُ الأمانةَ والعهد، ويحفظُ المسؤولية والمنصب، فيقومُ به خيرَ قيام، ويحفظُ المالَ والدخل فلا يضيعُه، ويحفظُ الزراعة فلا يبددها، ويحفظُ البلادَ فلا يضيعها، ويحفظُ الناسَ فلا يتركهم مع الجوع.

وإنه عليم: يملكُ من العلمِ والمعرفة والخبرة والكفاية، ما يعينه على أداءِ هذه المهمةِ الخطيرة.

إنَّ المهمةَ التي يُقدمُ عليها يوسف تتطلبُ ممن يليها أنْ يتمتعَ بالحفظِ والأمانة والعفة والنزاهة، وأنْ يتمتعَ بالعلم والخبرة والمعرفة والتخطيط، والأمران متوفران في يوسفَ عليه السلام على أتمِّ وجه.

وعندما نقفُ على طلبِ يوسف تولّي شؤون البلاد، فإننا نراه يقومُ بتضحيةٍ كبيرة، ليخدم الناس: «ولم يكن يوسفُ يطلبُ لشخصه وهو يَرى إِقبالَ الملك عليه، فيطلب أنْ يجعلَه على خزائن الأرض..

إنما كان حصيفاً في اختيارِ اللحظةِ التي يُستجابُ له فيها لينهضَ بالواجبِ المرهق الثقيل، ذي التبعةِ الضخمة، في أشدِّ أَوقاتِ الأزمة، وليكون مسؤولاً عن إِطعامِ شعبِ كامل، وشعوبِ كذلك تجاوره، طوالَ سبع سنوات، لا زرعَ فيها ولا ضرع.

لماذا طلب إدارة خزائن الأرض:

فليس هذا غُنماً يطلبه يوسفُ لنفسه. فإنَّ التكفلَ بإطعامِ شعبِ جائع، سبعَ سنوات متوالية، لا يقولُ أحدٌ إنه غنيمة. إنما هي تبعةٌ يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلِّفُهم رؤوسَهم، والجوعُ كافر، وقد

تمزقُ الجماهيرُ الجائعةُ أجسادهم في لحظاتِ الكفر والجنون..»[1].

أَرادَ يوسفُ عليه السلام أن يكون على خزائنِ الأرض، ليقدمَ خدمةً للناس، وليُحسنَ إدارةَ أُمورِ البلاد الاقتصادية والمالية، في سنواتِ المحنة القادمة.

أرادَ يوسفُ أنْ يستفيدَ من سنوات الخصب والغيث، وأنْ يستغلَّها أحسنَ استغلال، وأنْ يزرعَها دَأْباً واجتهاداً ونشاطاً، وأنْ يدخرَ الغلالَ المجموعة منها، لسنواتِ الجدب والقحط.

إِنه حفيظٌ يريد أنْ يحفظَ مواردَ سنواتِ الخصب والغيث لسنوات الجدب. وإِنه عليمٌ يعلمُ كيفيةَ إِنفاقِ الغِلال المدخرة بتقنينٍ وتخطيط.

وقد استجابَ الملكُ ليوسف، فجعله على خزائنِ الأرض، طيلةَ السنوات الخمس عشرة التالية. أي أَنه عزلَ الشخصَ الذي كان في منصب «عزيز مصر» ـ الذي راودت امرأتُه يوسف ـ وجعلَ يوسفَ مكانه في منصب «عزيز مصر».

كان يوسف مطلق اليد في الحكم وحكم بشرع الله:

وعندما وليَ يوسفُ منصبَ عزيز مصر لم يكن مجردَ تابع للملك، منفذٍ لشرعه ونظامه، ولكنه كان صاحبَ التصرف والكلمةَ والقرار، يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ في البلاد كما يشاء، وينفذُ من القوانين والتشريعات ما يشاء، بدونِ إِنكار أَو اعتراض، أَو إِبطال وإِلغاء من قِبَل الملك.

لقد أطلقَ الملكُ يدَ يوسف في الأمر، فكان يوسفُ هو الحاكمَ الفعليَّ في مصر، وبقي الملكُ مجردَ «رمز» في البلاد. ويبدو أن الملكَ كان يملكُ ولا يحكم، وأنَّ الحكمَ الفعلي كان بيدِ عزيز مصر.

---

(١) المرجع السابق ٤:٢٠٠٥.

ومما يدلُّ على هذا «غيابُ» الملك عن أَحداثِ ومشاهدِ القصة التالية، فلا نسمعُ له صوتاً، ولا نرى له تأثيراً، لقد عيَّنَ يوسفَ في منصبِ «عزيز مصر» ثم تَوارى في الظل، وكان الحكمُ والفعلُ والتصرفُ والقرارُ ليوسف عليه السلام.

والراجحُ أنَّ يوسفَ كان نبياً عندما ولي منصبَ العزيز، وهذا معناه أن يوسفَ كان يحكمُ البلادَ بشرع الله، ويديرُ الأُمورَ على منهاجِ الله، ولم يكن ينفذُ تشريعاتِ الملك وقوانينه، فهو نبي، والنبيُّ عندماَ يلي الأُمورَ لا يحكمُ بغيرِ شرع الله.

لا بدَّ أنْ يعرفَ هذا بعضُ دعاة الإسلام المعاصرين، الذين يُريدونَ أنْ يلوا الأُمورَ في الأنظمةِ والحكوماتِ غير الإسلامية، ويَرضونَ أنْ يكونوا «وزراء» عند حكام لا يحكمون بشرعِ الله، ويحاولون تبريرَ هذا العملِ الخاطئ بما فعلَه يوسف عليه السلام، حيث كان وزيراً عند ملكِ مصر الكافر.

لا بدَّ أنْ يَعرفوا الفرقَ بين فعلهم الخاطئ وبين فعلِ يوسف الصائب، فلو فعلوا ما فعلَ يوسف لجازَ فعلُهم، ولو أَطلقَ الحكامُ يدَهم في الحكم كما أَطلقَ الملك يد يوسف لجازَ فعلُهم، ولو سمحَ الحكامُ لهم تطبيقِ شرع الله والحكم بالإسلام، ولم يُلغُوا أحكامَهم بالإراداتِ والقراراتِ التي يصدرونها، لجازَ فعْلُهم.

وبما أنَّ الأمرَ ليس على هذه الصورة فإنَّ الفرقَ بعيدٌ بين فعْلِهم وبين فعل يوسف عليه السلام، ولا يجوزُ لهم الإقدامُ على ذلك الفعل الباطل، متعذرين بما قامَ به يوسفُ عليه السلام!!!

صارَ يوسفُ عليه السلام عزيزَ مصر، الحاكمَ الفعليَّ للبلاد، الذي سيديرُ شؤونَها في المرحلةِ الخطيرة القادمة.

مكن الله ليوسف تمكينين وحكمته في تسلسل الأحداث:

وقد عقبت الآياتُ على هذا بقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

إن اللّهَ هو الذي مكّنَ ليوسف عليه السلام في الأرض، بعلمِه وحكمتِه.

وقد سبقَ أنْ ذكرت الآياتُ تمكينَ الله ليوسف في الأرض، عندما استقرَّ في بيت العزيز، حيث قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ويدلُّنا هذا على أن اللّهَ مكّنَ ليوسف في الأرض تمكينيْن، الأولُ تمهيدٌ للثاني، ومرحلةٌ موصلةٌ إليه، ولذلك وردت عبارة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مرتين.

التمكينُ الأول: استقرارُ يوسف في بيتِ العزيز، وسينتجُ عنه ما عرفناه من متابعةِ الحلقات السابقة من قصته، من المحنِ والابتلاءات التي مَرَّ بها، وأعانه الله على النجاح فيها، ولهذا قال الله في التمكين الأول: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾.

التمكينُ الثاني: استقرارُ يوسف في منصب «عزيز مصر»، وهو ثمرةٌ للتمكين الأول، وسينتجُ عنه ما سنعرفه من قصته، حيث سيلتقي بإخوته، وسيجتمعُ بأهله، وستستقرُّ الأسرةُ كلُّها عنده في مصر، وبهذا سيتم تأويلُ رؤياه، ولهذا قال الله في التمكين الثاني: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾.

صارَ يوسفُ يتبوأُ من الأرض حيث يشاء، ويحكمُ فيها كما يشاء، وهذا بتمكينِ الله وعلمِه وحكمته سبحانه، وبهذا نقفُ على مظهرٍ من مظاهر حكمةِ الله في تقديرِ الأحداث وترتيبها، لتصلَ إلى نهايتِها التي قدَّرها الله.

فلو أنَّ يوسفَ عليه السلام بقي عند أبويْه في فلسطين فهلْ كان

سيصلُ إلى حكم مصر؟ ولو أنه خططَ مع أهله وإخوته - وهم رعاةٌ في البدو - للوصول إلى منصبِ «عزيز مصر» فهل كانوا سينجحون؟.

لقد أرادَ اللّهُ أنْ يصلَ يوسفُ عليهِ السلام إلى هذا المنصب بعلمه وحكمته، وأنْ يمكِّن له في الأرض، لكن وسطَ ذلك الطريق الآلام والمحن والابتلاءات والأحزان. وكان ما أراده الله!!.

منحَ اللّهُ يوسفَ عليه السلام في منصبه الجديد من رحمته ما شاء: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، وكان هذا جزاءً وثواباً دنيوياً من الله ليوسف في الدنيا، لإحسانِه وإيمانِه وعبادته وتقواه: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وإذا كان هذا الإنعامُ من الله على يوسف في الدنيا غامراً كبيراً، فكيف سيكون إنعامُه الجزيلُ الجميل عليه في الآخرة؟ لا شكَّ أنَّ أجرَ الآخرة أفضلُ وأعظمُ وأجلُّ من أجر الدنيا، للمؤمنين المتقين الصالحين: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

[٢١]

يوسف يلتقي بإخوته

يوسف ينقذ مصر وما حولها من المجاعة:

استلمَ يوسفُ عليه السلام منصبَ عزيزِ مصر، وتوارى الملكُ إلى الظل، وصارَ يوسفُ هو الحاكمَ الفعليَّ للبلاد.

أَدارَ يوسفُ الحفيظُ العليم البلادَ في سنوات الخصب والرخاء السبعة، واستفادَ من خصبِ هذه السنوات، وأقبلَ الشعبُ على الزراعة الدؤوبةِ كلَّ سنة، و«قَنَّنَ» يوسفُ الحصيفُ لهم ما يأكلونَه، ولم يستهلكْ إلا القليلَ من الغلال، ومعظمُ الحصادِ من الحبوب أبقاه في سنابله. وطبقَ عملياً ما قالَه في تأويل رؤيا الملك: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وامتلأتْ خزائنُ أرضِ مصر بالحبوب في سنابلها، ونفذَ يوسفُ العزيزُ عليه السلام خطةَ الإنقاذِ التي قدَّمَها من قبل.

ومضتْ سنواتُ الخصب، وأقبلتْ سنواتُ الجدبِ السبعة، ويوسفُ هو «عزيز مصر».

وأثَّرَ القحطُ والجدبُ على المزروعات فأهلكها، وأَصابَ الناسَ الجوعُ والفقر، وامتدَّ هذا الأثرُ السلبيُّ من مصر إلى البلادِ المجاورةِ لها.

وطبقَ يوسفُ عليه السلام خطتَه في الإنقاذ، و«قَنَّنَ» الاستهلاكَ في سنواتِ المجاعة، كما قال لَمّا عبرَ رؤيا الملك: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴿٤٨﴾﴾.

وأحسنَ المصريون التعاملَ مع سنوات المحنة، واجتازوا خطرَ الجدبِ والمجاعة، بفضل الله، ولحسنِ إدارةِ يوسف عزيز مصر.

وأنقذتْ مصرُ البلادَ المجاورة من خطرِ المجاعة، وصار الناس يأتونَ من تلك البلادِ إلى مصر، طلباً للحَبِّ والطعام.

ومن البلاد التي تأثرتْ بسنواتِ المجاعة فلسطين ـ كانت تسمى وقتها أرضَ كنعان ـ وكان الناس يأتونَ من فلسطين إلى مصر، يأخذون منها الحبوب.

وفي هذا الجوِّ قدمَ أولادُ يعقوب عليه السلام إلى مصر لهذه الغاية، ووصلوا مصر، ودخلوا على عزيزِ مصر، وطلبوا منه الطعام.

إخوة يوسف العشرة بين يديه ولم يعرفوه:

وقد عرضتْ هذه الآياتُ مشهدَ دخول هؤلاء على عزيزِ مصر!!

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٢].

لما دخلَ إخوةُ يوسف العشرةُ عليه عرفَهم، لأنهم إخوةٌ كبار، وهو يَعرفُهم لما كان مقيماً معهم في الأسرة.

ومعلومٌ أن ملامحَ الكبار لا تتغير، بينما تتغيرُ ملامحُ الصغار عندما يكبرون. وإنَّ الصغيرَ يعرفُ الكبير، وعندما يكبرُ الصغيرُ يبقى يعرفُ الكبير، أما الكبيرُ فإنه لا يكادُ يعرفُ الصغيرَ عندما يكبر!!

ولهذا عرفَ الكبيرُ الآن إخوتَه، لمعرفتِه لهم عندما كان صغيراً.

أما هم فلمْ يعرفوه، بل أَنكروه: ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، كلُّ ما يعرفونَه أنَّ الشخصَ الذي أمامَهم الآن هو عزيزُ مصر، وهم لا يعرفون اسمه ولا أصلَه ولا هويتَه.

هل من الممكن أن يتوقَّعوا أنَّ عزيزَ مصر الذي أمامهم الآن، هو أَخوهم يوسفُ الصغير، الذي أَلقوه في البئر قبلَ سنواتٍ وسنوات؟

إنَّ هذا الخاطرَ لم يَدُرْ بخلدِهم مطلقاً. وإلاّ فمن غيرِ المعقول في تخطيطِ البشر أنْ ينتقلَ يوسفُ من الجُبِّ إلى حكمِ مصر بعدَ سنوات.

ونقفُ هنا على مظهرٍ من حصافةِ يوسف وكياستِه عليه السلام، حيث لم يكشفْ لإخوتِه عن هويته، ولم يُعَرِّفْهم على نفسه، ولم يُذَكِّرْهم بجريمتِهم ضدَّه، ولم يقل لهم: أنتم الذين تآمرتم عليّ، وفعلْتُم بي كذا وكذا، جاءَ الآن دورُ الانتقام والثأرِ والقَصاص! ولم يأمُرْ بالقبضِ عليهم وسجنهم. ولو فعلَ ذلك بهم لما عاتَبه أو أدانَه أحد، لأنهم فَعلوا به ما فعلوا!!

لقد استعلى يوسفُ على آلامه وأحزانه وجراحه، وتخلصَ من

الحقد والتشفّي والانتقام، وأحسنَ إلى مَنْ أساءوا له.

تعاملَ يوسفُ عليه السلام مع إخوتِه بأخلاق النبوة، والأصْلُ أنْ يكونَ قد استقبلهم وأكرمهم، دونَ أنْ يُعَرِّفَهم على نفسه.

والأصلُ أنه جلسَ معهم، وحدَّثهم، وسألهم عن أنفسِهم وأهلِهم وبلادهم، وأنهم أنِسوا إليه، وحدَّثوه، وأخبروه عن أوضاعِ أهلهم.

يوسف يكرم إخوته ويطلب أخاه الصغير:

عرفَ منهم أنَّ لهم أخاً صغيراً، وهو أخٌ من أبيهم، غيرُ شقيقٍ لهم، وأنه أثيرٌ عند أبيه، وأنه لا يدعُه يخرجُ معهم، خوفاً عليه.

لما عرفَ هذا منهم أرادَ أنْ يُحضِروا أخاهم الصغير: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

يدلُّنا قولُ يوسف لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ على أنَّ أولادَ يعقوبَ عليه السلام ليسوا جميعاً إخوةً أشقاء، فمنهم أشقاء، ومنهم إخوةٌ لأَب، أي أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان له أكثرُ من امرأة.

ولا يهمُّنا تحديدُ عددِ نسائه، ولا تعيينُ أسمائهنّ، ولا توزيعُ أولادِه عليهنّ، فهذا من مبهماتِ قصةِ يوسف في القرآن.

ولا نعرفُ هل هذا الأخُ لهم من أبيهم هو أخٌ شقيقٌ ليوسف، أم هو أخٌ له من أبيه أيضاً!!

وقد بررَ يوسفُ لهم طلبَه أنْ يَرى أخاهم الصغير بأنه يوفي لهم الكيل، فهم الآن عشرة، وكلٌّ يأخذُ حملَ بعير، فإذا كانوا أحَدَ عشر أخاً فإنهم يُحَمّلون أحدَ عشر بعيراً حَبّاً، وهذا خيرٌ لهم، وهو يوفي لهم الكيل، ويُعطيهم حملَ أحدَ عشر بعيراً.

وطمأنَهم بأنَّ أخاهم الصغيرَ سيكونُ في أمانٍ في مصر، لأنهم سينزلون في ضيافته، وهو يكرمُهم في نُزُلِهم، لأنه خيرُ المنزلين المضيفين.

وبعدَ أنْ رغَّبهم بإِحضارِ أَخيهم، هددَهم بأَنَّهم إنْ لم يأتوا به، فلن يَجدوا الطعامَ ولا الكيل: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

لقد استخدمَ يوسفُ معهم أُسلوبَ الترغيبِ والإِقناع، وأسلوبَ التهديدِ والترهيب، لتقريرِ حقيقةِ إِحضارِ أَخيهم معهم.

لقد فوجئوا بطلبِ عزيزِ مصر، وفوجئوا أكثرَ بتهديدِه لهم، لأَنَّهم يعرفونَ صعوبةَ تنفيذه، فأَخوهم الصغيرُ أثيرٌ عند أَبيهم يعقوب عليه السلام، وأَبوهم لا يأتمنُهم عليه، بعد جريمتِهم ضدَّ يوسف. ولهذا أَجابوه قائلين: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

لقد استخدموا في محاولةِ إِقناعِ أَبيهم لفظَ «سنراود»، والمراودةُ مذكورةٌ في هذه السورة عدةَ مرات. وقد عَرَضْنا معناها من قبل، عندَ كلامِنا على مراودةِ امرأة العزيز ليوسف.

وقولُهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ يُشيرُ إلى مقدارِ ما سيبذلون من جهدٍ ومعاناةٍ في إِقناع أبيهم بإرسالِ أَخيهم الصغير معهم، لأنه سيمانعُ في ذلك، ويَخشى أنْ يكونَ مصيرُه كمصيرِ أَخيه يوسف.

لكنهم جادّون في المراودةِ والإِقناع، حَريصون على الإِتيان به، وذلك ليزدادوا حِملَ بعير، وقد أَظهروا ليوسفَ حرصَهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

وأَرادَ يوسفُ عليه السلام إغراءَهم بالعودةِ ومعهم أَخوهم، فأعادَ معهم بضاعتَهم، ضمنَ ما حمَّلَهم من الحبوب: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

كان الإخوةُ قد أَحضروا معهم بضاعةً من منتوجات أَراضيهم، ليشتروا بها القمحَ والحَبَّ من مصر، فأَمَرَ يوسفُ غلمانَه بدسِّ البضاعة التي أَحضروها بين الحبوب التي حَمَّلوا بها جمالَهم.

والهدفُ من ذلك هو أنْ يَعرفوا عند تفريغ أَحمالِ الجمال أَنهم لم يدفعوا ثمنَ الحبوب التي أَخذوها من العزيز، فها هو العزيزُ يُعيدُ لهم بضاعتَهم، ويُعطيهم الحبوبَ مجاناً، وهذا يدعوهم إِلى العودة إلى مصر، لأَخْذِ أَحمالٍ أُخرى.

ويبدو أَنَّ يوسفَ عليه السلام دفع ثمنَ الجمالِ العشرة التي حَمَّلَها لهم من حسابه، بعد أنْ أعادَ لهم بضاعتَهم ضمن الحبوب!! وأَرادَ إِكرامَ أهلِه بذلك!!!.

[٢٢]

بين إخوة يوسف وبين أبيهم

عودة الإخوة بالحبوب إلى أبيهم:

رجعَ الإخوةُ العشرةُ إِلى أُسرتهم، ومع كلٍّ منهم حملُ بعيرٍ من الحبوب، وكانوا معجَبين بحسن ضيافةِ عزيزِ مصر لهم، ولكنهم كانوا متأثِّرين لطلبه منهم إِحضارَ أَخيهم معهم، ويخشون أنْ لا يوافقَ أَبوهم على ذلك.

وما كانوا يعلمونَ أَنَّ عزيزَ مصر قدَّمَ لهم أَحمالَ جمالِهم من الحبوب مجاناً، وأنه لم يأخذْ أثمانَها، وأنه أمرَ بدسِّ الأثمانِ داخلَ الأحمال والرحال.

وَصلوا إِلى أَبيهم، وكانوا يفكّرون في طريقةِ إِقناعه بالموافقة على إِرسالِ أَخيهم معهم.

وقد عرضَتْ مشهدَ مراودتِهم لأَبيهم، وما جرى بينه وبينهم خمسُ آياتٍ من السورة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا

نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٨].

الأبناء يخبرون أباهم بطلب العزيز:

لما دخلَ الأبناءُ على أبيهم، سارَعوا بإخباره بالخبرِ المزعج: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

إنهم لم يُخْبِروا أباهم بحسنِ استقبالِ وإكرامِ العزيز لهم، فهذا لا قيمةَ له في نظرهم. إنما المهمُّ أنْ يضغطوا عليه نفسياً، ليأخذوا منه الموافقةَ على إرسالِ أخيهم.

يا أبانا: أنتَ تعلمُ أننا بحاجةٍ إلى الحُبوب والطعام، والآن أَحضرْنا أحمالَ جمالنا منها، لكن هذا لا يكفينا إلا مدةً يسيرة، وسنحتاجُ إلى العودة إلى مصرَ لإحضارِ الطعام، ولنْ يعطونا ما نريد.

لقد قابلْنا عزيزَ مصر، وطلبَ منّا إحضارَ أَخينا من أبينا معنا في المرةِ القادمة، وهدَّدَنا بأنه لن يعطينا ما نريد إنْ لم نحضِرْه معنا!

وأنت يا أبانا تعلمُ أننا بحاجةٍ إلى الكيلِ والطعام، لذلك نرجو منك أنْ ترسلَ معنا أخانا، وذلك حتى نُحضرَ الكيلَ الذي نريده.

ولا تخَفْ على أخينا الصغير منّا، فنحن حريصونَ عليه هذه المرة، ولنْ يحصلَ له معنا كما حصلَ ليوسف من قبل: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وهنا تذكَّرَ يعقوبُ عليه السلام ما قالَه الأَبناءُ من قبل، عندما أَرادوا أخذَ يوسف معهم، حيث قالوا له: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝١٢﴾.

ورغم هذه التأكيدات منهم لحفظِ يوسف فإنهم لم يحفظوه، والآن يقولون عن أخيهم الصغير: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

فهل سيُعيدون حادثةَ يوسف مع أخيهم الآخر؟ وهل يريدون أنْ يَفجعوا أَباهم في الأخِ الصغير كما فجعوه في يوسف من قبل؟.

الأبناء يتعهدون بحفظ أخيهم:

نرى أنَّ الإخوةَ صادقون هذه المرة عندما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾. ولم يكونوا متآمِرين على أخيهم الصغير، كما تآمَروا على يوسف. فعندما أكَّدوا لأَبيهم حرصَهم على يوسف، وحفظَهم له، كانوا كاذبين متآمرين. أما الآن فإنهم لم يطلبوا أَخْذَ أخيهم الصغير معهم، وإنما الذي طلبه عزيزُ مصر، وإلاّ فلا كيلَ لهم عنده.

ويبدو أنَّ حادثةَ يوسف قد أَثَّرتْ في نفوسهم، وأنهم قد تأثروا بعد غيابه بما فَعلوا به، وتألَّموا لِما أصابَ أباهم مِن حزنٍ عليه، وأنَّ هذا كلَّه قد ساعدَ على امتصاصِ ما في نفوسهم من حقدٍ وحسدٍ على يوسف وأخيه، كما أنَّ مرورَ هذه السنين والأَعوام، وتقدُّمَهم في العمر قد عملَ على نضوج شخصياتهم، وتمكُّنِ الإيمانِ في نفوسهم.

لقد شعرَ الإخوةُ بالذنب لِما فعلوه مع يوسف، فتابوا إلى الله، واستغفَروه وأَنابوا إليه، واللهُ غفور رحيم.

لهذا كلّه لم يحقدوا على أَخيهم الصغير، ولم يتآمَرُوا عليه، وكانوا صادقين مع أَبيهم عندما قالوا عن أَخيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا

نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وكانوا جادّين في حفظِه، حريصين على ذلك.

لكنَّ كلامَهم لأبيهم أثارَ في نفسه كوامِنَ الحزنِ على يوسف، والألَمَ لفراقه، وتذكَّرَ ما قالوه له سابقاً عندما أخذوا يوسف، وظنَّ أنهم سيعيدونَ الكَرَّةَ من جديد، فصارَحهم بقوله: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾؟

يقول لهم: لقد أَمنتكم مِن قبلُ على يوسف بناءً على تعهدكم، فلم تحافظوا عليه، فهل آمَنُكم الآنَ على الأخ الثاني؟ لقد جربتُكُم من قبل فكيف أثقُ بكم مرةً ثانية؟

وردَّ على تعهُّدِهم بحفظِ أخيهم بقوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. فاللّهُ هو الذي يحفظ، وأَنا أعتمدُ على حفظ الله، ولا أَعتمدُ على حفظكم.

وقد كان هذا الحوارُ بين يعقوب وبين أبنائه فورَ قدومِهم من السفر، وقبلَ أنْ يفكّوا أحمالَهم، ويروا أمتعتَهم، ولم يأخُذوا من أَبيهم موافقةً على إرسالِ أخيهم معهم، وبقيت هذه المسألةُ معلقة.

بعد ذلكَ فتحوا متاعهم، ففوجئوا: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾.

لما فتحوا المتاع، ونَظروا في الحبوب التي أَحضروها، فوجِئوا ببضاعتهم مع الحبوب، ولم يكن عندهم علْمٌ بأنَّ عزيز مصر - يوسف - قد أمرَ غلمانَه بوضعِ بضاعتهم وسطَ الحبوب! ولم يأخذْ منهم الثمن!

وقد فوجئَ أَبوهم أيضاً بردِّ البضاعة.

عندها اعتبروا إعادةَ البضاعة «ورقةَ» ضغطٍ أُخرى عليه، ليوافقَ على إرسال أخيهم معهم، فقالوا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾.

معنى قولهم: ﴿مَا نَبْغِى﴾: لا نظلمُ ولا نَدَّعي ولا نكذب، فقد نَفوا عن أنفسهم البغيَ والظلمَ عندما طلبوا إِرسالَ أخيهم معهم، فليس هذا طلبهم، بل طلبُ عزيز مصر.

وها هو العزيزُ قد أكرمهم، وأَعادَ لهم بضاعتهم، وأعطاهم الحبوبَ على حسابه مجاناً: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

وسيستخدمون هذه البضاعةَ في الشراء من جديد، ويَدفعونها ثمناً لأَحمالٍ جديدة، وكأَنَّ هذه البضاعةَ توفيرٌ لهم: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾.

ومعنى «نَمير»: نُحضرُ الزادَ لأهلنا. والميرةُ هي الزادُ الذي يَشتريه الإنسانُ ويقدِّمُه لأهله.

وسيأخذونَ أَخاهم معهم، وهم حريصونَ على حفظه ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾.

وذَهابُ أخيهم معهم يحققُ لهم كسباً جديداً: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

إِنهم عشرةُ إخوة، ويأخذون حملَ عشرة جمال، وهذا يسيرٌ قليل. أما عندما يأتي أَخوهم معهم، فسيكونون أَحدَ عشر رجلًا، وبهذا سيزدادون كيلَ وحملَ بعيرٍ جديد، وهذا خيرٌ للأسرةِ كلِّها.

ويدلُّنا هذا على أنَّ يوسفَ عليه السلام كان «يُقَنِّنُ» استهلاكَ الحبوب في سنواتِ الجدب، فكان يبيعُ كلَّ قادمٍ إلى مصر كيلَ بعير، ولا يزيدُ على ذلك.

إنَّ منطقَ الإِخوة مقنع، وكلامَهم واضح، ولهذا نجحوا في إِقناعِ أَبيهم بالموافقة على إِرسال أخيهم معهم، وليس أَمامه إلاّ الموافقة.

الأب يطلب منهم الموثق لحفظ أخيهم:

لكن موافقتَه كانت مشروطة: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

لم يكتفِ بمجردِ تعهُدِهم بحفظ أخيهم، كما في قضيةِ يوسف، وإنما أرادَ «الموثق». وهو اليمينُ المغلَّظ، والقسَمُ المؤكَّد بالله، ليكون هذا عهداً ملزِماً لهم، وموثِقاً يقيدُهم، كما يقيِّدُ القيدُ الماديُّ الإنسان.

قال لهم: لا بدَّ أنْ تُقسموا بالله أَمامي أيماناً مؤكَّدة مغلَّظة، أنْ تُحافظوا على أَخيكم الصغير، وأَنْ تُعيدوه لي سالماً، وأَنْ تأتوني به. إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بكم، وتفاجَأوا بحدَثٍ مفاجئ، ليسَ بالحسبان، فتعجزوا عن حفْظِه وإعادته، عندها لا تثريبَ عليكم.

فقولُه: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ استثناءٌ في اليمين والموثِق، وهذا الاستثناءُ ليعطيهم حريةَ الاختيار والحماية والحفظ، وهو استدراكٌ من أَبيهم، لأنه يعلمُ أنه قد تَجِدُّ وتحدثُ أمورٌ ليست في الحسبان، فأرادَ أنْ لا يُؤْثمهم بتكليفِهم بما لا يطاق!

وحلفَ الأَبناءُ العشرةُ الأَيمانَ المغلظة، وآتوا أَباهم الموثق: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وهكذا أخذَ الأبناءُ موافقةَ الأب على إرسالِ الأخِ معهم، بعدَ أنْ قدَّموا له اليمين مع الاستثناء، وهكذا تحققَ ما أَراده يوسفُ عليه السلام.

وقبلَ أنْ يتوجَّهَ الإخوةُ الأحد عشر إلى مصر، ومعهم بضاعتهم، قدَّمَ لهم أَبوهم نصيحة، تتعلقُ بكيفيةِ دخولهم مصر: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

عندما تَصِلون مصر، فلا تَدخلوا من بابٍ واحد، لأنكم أحد عشر أخاً. ولكن توزَّعوا على الأبواب، وادْخُلوا من أبواب متفرقة، بحيث تدخلُ كلُّ مجموعةٍ من باب.

ولا نقدرُ على تحديدِ الأبواب المتفرقة التي أَمرهم بدخولها، هل هي الطرقُ التي يدخلون مصر منها؟ أو هي أبوابُ سورِ المدينة عاصمة مصر؟ أو هي أبوابُ مقرِ حكمِ عزيز مصر؟. كما لا نقدرُ على تحديدِ

عدد هذه الأبواب المتفرقة: هل هي ثلاثةٌ أو أربعة أو أكثر. فكلُّ هذا من مبهماتِ التعبير القرآني!!

ولم يبينْ يعقوبُ لأبنائِه الحكمة التي أَرادها من هذه الوصية، إنما قدمَ لهم حقيقةً من حقائق الإيمان، فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾: لما أَوصيتُكم بهذه الوصية، وطلبتُ منكم الدخولَ من أبوابٍ متفرقة، فلا يعني هذا أنني أدفعُ عنكم قدرَ الله وأمره. إنما أخذتُ بالأسباب المادية، وقمتُ بالحذرِ المطلوب، لكنْ أخذي بالأسباب لا يوقِفُ قدرَ الله. فإنَّ اللَّهَ إنْ قدَّرَ وقوعَ الأذى والضررَ بكم، فلا بدَّ أنْ يقعَ رغمَ حذرِكم واحتياطِكم ودخولِكم من أبوابٍ متفرقة.

قصر الحكم على الله على لسان يوسف ويعقوب:

وبيَّنَ يعقوب عليه السلام في وصيته الإيمانيةِ لأبنائه أنَّ الحكمَ لله، وما على البشرِ إلاّ إحسانُ التوكلِ على الله، والرضا بحكمه، والتسليمِ لقضائه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

لقد وردتْ عبارة ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مرتيْن في قصة يوسف، وهي في كل مرةٍ واردةٌ في سياق خاص.

المرةُ الأولى: قالَها يوسف عليه السلام للسجينين معه في السجن، لمّا عَرَّفهما على الإيمان، وقدَّمَ لهما الدعوة: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩ ـ ٤٠].

لقد وردتْ هذه العبارةُ في سياقِ الخضوعِ لحكم الله وأمره وتشريعه، أي أنه لا حاكمَ إلا الله، هو الذي يحكُمُ ويشرِّعُ ويحلِّلُ ويحرِّم، وما على العباد إلا تنفيذُ حكم الله، والالتزامُ بشرعه، ليحققوا العبادة والعبودية لله، ويكونوا على الدين القيم الحق.

المرة الثانية: قالَها يعقوبُ لأبنائه وهو يطالبهم بالحذَرِ والأخذِ بالأسباب: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ﴾.

وردتْ هذه العبارةُ هنا في سياقِ الرضا بقدر الله، والاستسلامِ لقضائه، والإيمانِ بأن كل ما يصيب الإنسان فهو من الله، سواء كانَ هذا ضراً أو نفعاً. إنَّ ما أراده الله فهو كائن، وما قدَّره فهو واقع، ومهما أخذَ الإنسانُ من أسبابِ الحيطة والحذر فلنْ يدفعَ عنه قدرَ الله، فالأمْرُ أمرُ الله، والقضاءُ قضاؤُه، والحكمُ حكمُه.

وكأنَّ يعقوبَ يقول لأبنائه: أنا مؤمنٌ بقدرِ الله، راضٍ بقضائه، مستسلمٌ لحكمه، متوكلٌ عليه.

الحكمُ التشريعي لله، كما قرَّره يوسفُ عليه السلام.

والحكمُ القدري لله، كما قرَّره أبوه يعقوبُ عليه السلام.

بعد هذه الوصيةِ الحذرةِ من يعقوب لأبنائه، وبعد هذه الحقيقة الإيمانية التي قدَّمَها لهم، سارت القافلةُ من جنوب فلسطين إلى مصر، وكلُّ واحدٍ من الإخوة الأحد عشر معه بعيره، يحملُ بضاعتَه التي سيدفعُها ثمناً للحبوب!

حاجة يعقوب المبهمة في دخولهم من الأبواب المتفرقة:

ووصلت القافلةُ مصر، ودخلوا من الأبوابِ المتفرقة كما أَوصاهم أبوهم: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾.

إنَّ أخْذَ الأبناءِ بأسبابِ الحَذَر كما أوصاهم أبوهم عليه السلام لن

يدفعَ عنهم قدرَ الله، ولهذا عاد التأكيدُ على هذه الحقيقة: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

لقد أرادَ اللّهُ أنْ يبتليَ الأسرةَ ابتلاءً جديداً، وأنْ يُصابَ الأخُ الصغيرُ الحريصون عليه بمصيبةٍ قدَّرَها اللّهُ عليه، كما سنعرفُ من سياق القصة التالي، وحَذَرُ الإخوة، ودخولهم من أبوابٍ متفرقة ما أَغنى عنهم من الله شيئاً، وما دفعَ عنهم ما قدَّره الله عليهم!

أما السببُ الذي دفعَ يعقوب لأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة. فإنَّ القرآنَ يجعلُه من المبهمات، ويَدْعونا إلى عدمِ الخوضِ فيه، وعدمِ محاولةِ تحديده، فلا فائدةَ من الخوض في ذلكَ طالما أن النصوصَ المعتمدةَ عندنا لا تحددُه: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾.

هي حاجةٌ في نفس يعقوب، لم يخبرْ يعقوبُ أحداً بها، بل لم يخبرْ أبناءَه بها، وقد حققَ يعقوبُ ما في نفسه، وقضى حاجتَه، عندما نفَّذوا وصيتَه.

وإذا كان يعقوبُ لم يخبرْ أَحداً بهذه الحاجة فهل يقدرُ أحدٌ على علْمِ ما في نفسه، وتحديدِ حاجته، بعد مئاتِ السنين من وفاته؟ ومَن هو الذي يحترمُ نفسَه وعقْلَه، ويحترمُ النصَّ الذي أمامه: ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ ثم يحاولُ تحديدَ تلك الحاجة؟.

«فيم كانت هذه الوصية؟ لِمَ قال لهم أبوهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبوابٍ متفرقة؟

تَضربُ الرواياتُ والتفاسير في هذا، وتُبدي وتُعيد، بلا ضرورة، بل ضدَّ ما يقتضيه السياقُ القرآنيُّ الحكيم. فلو كان السياقُ يحبُّ أنْ يكشفَ عن السبب لقال. ولكنه فقط قال: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾. فينبغي أنْ يقفَ المفسرون عند ما أرادَه السياق، احتفاظاً بالجوِّ الذي أراده. والجوُّ يوحي بأنه كان يخشى شيئاً عليهم، ويَرى في

دخولِهم من أبوابٍ متفرقة اتقاءَ لهذا الشيء، مع تسليمِه بأنه لا يُغني عنهم من الله من شيء»[1].

[٢٣]

يوسف يأخذ أخاه بتهمة السرقة

لما دخلَ الإخوةُ على عزيز مصر، وقعتْ أحداثٌ مثيرة، لم يكونوا يتوقَّعونها، ولم يَحْسِبوا لها حساباً، بل فوجئوا بها مفاجأةً مدهشة.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٦٩ ـ ٧٩].

أكرمَ يوسفُ عليه السلام إخوتَه، وأحسنَ استقبالهم، في زيارتهم الثانية له، لا سيما أنَّ معهم أخوه الصغير الذي طلبَ إحضارَه.

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٠١٨.

تبدأُ آياتُ هذا المشهد بقول الله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يوسف يكشف هويته لأخيه:

وظاهرُ الآية أنَّ يوسفَ عليه السلام بدأ بالمعاملةِ الخاصة مع أَخيه فورَ استقباله له. فما أنْ دخلَ الإخوةُ الأحدَ عشر على يوسف حتى آوى إليه أخاه، واختصَّه من بين إخوتِه الآخرين، واجتمعَ به وحدَه في معزلٍ عنهم.

فعلَ ذلك ليصارحَه بالحقيقة، وليقولَ له: إنني أَنا أخوك، أنا يوسف الذي فعلَ إخوتُك بي ما فعلوا قبلَ سنوات، وها قد مَنَّ اللّهُ عليَّ وأكرمني، وجعلني حاكمَ مصر، وإخوتُك لا يعلمون أنني يوسفُ الذي أَلقوه في غيابة الجُبّ وهو صغير، ليتخلّصوا منه.

ولا شكَّ أنك علمتَ يا أَخي بقصتهم معي، ووقفْتَ على ما فعلوه بي، وإنني أَدعوك إلى أنْ تصفحَ عنهم كما صفحتُ أنا، فها أنا أكرمهم وأحسنُ استقبالَهم، وعليك أنْ تقتديَ أنتَ بي، فلا تبتئسْ بما كانوا يعملون.

قالَ يوسفُ هذا الكلام لأَخيه عند استقبالِه له مباشرة، بدليلِ صياغة الآية: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ...﴾.

إنَّ «لَمّا» حرفُ شرط. وفعلُ الشرط هو: ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وجوابُ الشرط هو: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾.

أي أنَّ يوسفَ آوى إليه أَخاه وقالَ له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ عندما دخلوا عليه مباشرة.

عرفَ الأخُ الصغير أنَّ عزيزَ مصر الذي أَمامه هو أخوه المفقودُ يوسف، فكتمَ هذا السرَّ عن باقي إخوته، واحتفظَ به لنفسه.

وأَمَرَ يوسفُ غلمانَه بتجهيزِ إخوتِه الأحدَ عشر، ووضعِ حِمْلِ حُبوبٍ على بعيرِ كلٍّ منهم.

يوسف يضع السقاية في رحل أخيه واتهامهم بالسرقة:

وذهبَ يوسفُ عليه السلام إلى رَحلِ أَخيه الصغير، ودونَ أنْ يراه أحدٌ من الغلمان أو الإخوة فتحَ الرّحل، ووضَعَ «السقايةَ» فيه، بين الحبوب، وأغلقَ الرحل، وأعادَه كما كان!!.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

و«السِقايةُ» هنا مبهمة مجملة، وهي «صُواعُ الملك» كما في الآيةِ التالية. فلا نعرفُ عنها إلاّ أنها صُواعُ الملك الذي كان يُستعملُ للسقاية، أو أَنها سِقايةٌ استُعملت فيما بعد صُواعاً للملك، لتكون مكيالاً يستعملُ في كيل الحبوب.

وكلمةُ «سقاية» توحي بأَنها إِناء، كان يُستعملُ في السّقاء، ويوضَعُ فيه الشراب، كما أَنها أَصبحتْ صواعاً للكيلِ فيما بعد.

المهمُّ أنَّ اللّهَ ألهمَ يوسفَ أنْ يقومَ بهذه الحركةِ المثيرة، ليترتبَ عليها ما سيكونُ بعد قليل.

لم يلاحِظْ أحدٌ ما جرى، ولم يشاهدِ الغلمانُ يوسفَ عندما فعلَ ما فعل، وأرادَ الغلمانُ أنْ يستخدموا السقايةَ للكيل، فبحثوا عنها فلم يجدوها، وفتَّشوا عنها فلم يعْثُروا عليها.

وفي هذا الوقتِ كان الإخوةُ الأحدَ عشر قد حَمّلوا جِمالَهم أحمالَها، وتأهَّبوا للعودةِ إلى أهلهم.

وفكَّرَ غلمانُ العزيز: أين السقاية؟ إِنها غيرُ موجودة، وفَتّشوا عنها فلم يعثُروا عليها، لقد سُرقَتْ إذن!.

مَن الذين سرقوها؟ مَن هم آخرُ أُناس أَخذوا أَحمالَهم؟ إنهم الإخوةُ الأحدَ عشر، المتأهِّبون للعودة! هم السارقون لصواع الملك!

ولا بدَّ أنْ يلحقوهم قبلَ أنْ يُغادروا!!

فنادى الغلمانُ الموظفون على الركبِ المغادرين، وفاجؤوهم بالاتهام: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: نادى المنادي، وأعلنَ اتهامَه الصريح، وقال ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

والعيرُ: هم القومُ التجارُ المسافرون معاً، والمرادُ بهم هنا الإخوةُ الأحد عشر!!

الحوار بين الإخوة والفتيات:

وفوجئَ الإِخوةُ الأبرياءُ بهذا الاتهام الصريح، فما كانوا يتوقَّعون أنْ يُتَّهموا بالسرقة، سرقةِ عزيز مصر الذي أكرمهم وأحسنَ إِليهم، وهُمْ مَنْ هم: إِنهم أولادُ نبي، وهم صالحون مؤمنون، فكيفَ يُتَّهمون بالسرقة؟

التفتوا نحوَ غلمانِ العزيز التفاتةً ملْؤُها الدهشةُ والصدمةُ والاستغراب: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

إِنَّ الجملةَ المعترضة في الآية: ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ تصوِّرُ لنا تصويراً حياً مؤثِّراً كلَّ علاماتِ ومعاني الانفعال والمفاجأة والاستغراب!

لقد كان الركبُ سائرين للخروجِ من المدينة، فلما سمعوا الاتهام من قِبَل المؤذن، عادوا مسرِعين إِلى الغلمان، وسألوهم: ماذا تفقدون؟ وما الذي تتهموننا بسرقته؟.

أَجابَهم الغلمان قائلين: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ التي كِلْنا لكم بها الحبوب، والتي سرقْتُموها وأخذْتُموها وأخفيْتُموها.

وتسيرُ الأحداثُ المثيرةُ بالتسلسل والتدرج، فيبدأ الغلمانُ الموظفون بالترغيبِ والحثِّ على تسليم المسروق، حيث أَعلنوا عن جائزةٍ ثمينةٍ لمن يُعيدُ صُواعَ الملك: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

إنهم يهيئونَ الفرصةَ لمن سرقَ صواعَ الملك للتراجع، وتسليمِ المسروق بإرادته، ويُرَغِّبونه بذلك، حيث سيعطونه حِمْلَ بعير من الحبوب. وهذا عَطاءٌ جزيلٌ كثير في مثلِ ذلك الظرفِ الخاص، الذي كان يعيشُه الناس، في سنوات الجدب!

وتكفلَ المؤذنُ زعيمُ الغلمان بأنْ يمنحَ حِملَ البعير لمن يسلِّمُه بقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾. ومعنى «زعيم» هنا: كفيل. أي: أنا الكفيلُ الزعيمُ بتقديم الجائزة، ولن نتراجعَ عنها.

ورغمَ أنَّ الجائزةَ ثمينة، لكنَّ الإخوةَ لم يقبلوها، لا لشيء إلاّ لأنهم ليسوا سارقين، فهم يوقِنون أنهم أَبرياءُ من التهمة!

ولهذا ردّوا على الغلمانِ في الحوارِ المدهش المثير: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴿٧٣﴾﴾.

حَلَفوا اليمينَ بالله بأنهم لم يسرقوا، وأَخبروا الغلمانَ الموظفين أنهم يعلمونَ عنهم الخير، فهم ضيوفُ العزيزِ في المرة الأولى، وفي هذه المرة، وقد أَكرمهم، لِما رأى فيهم من الخير.

وهم ما جاءوا ليفسدوا في أَرض مصر، ولا ليخرِّبوها، ولهذا لم يَسرقوا صواعَ الملك.

لقد عاملَهم العزيزُ وغلمانُه بالحسنى، وهم يردّون على الإحسانِ بالإحسان، ولا يُعقلُ أنْ يقابلوا إِحسانَ المصريّين إليهم بالإساءة والإفسادِ والسرقة!

ولقد كانَ الإخوةُ الأحدَ عشر صادقين في كلِّ كلمة قالوها: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾. لأنهم لا يعرفون ما الذي يحملُه أَحدهم في متاعِه.

لم ينفعْ أسلوبُ الحثِّ والترغيب مع القوم، ولهذا لجأَ الغلمانُ الفتيان إِلى الأُسلوب الآخر، أسلوبِ التفتيش والمحاكمة والعقوبة والقضاء.

فأوعزَ يوسفُ عليه السلام إلى فتيانه ليسألوا الرجال: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾؟.

اتفاق على عقوبة السارق بشريعة يعقوب:

أي: أنتم أَبناءُ نبي، ولا نعاقب السارقَ إلاّ على حسب شريعة أبيكم النبي، فما هي عقوبةُ السارق عندكم؟ كما علَّمكم أبوكم النبي. وإنْ كنتم كاذبين في دعواكم عدمَ السرقة، وثبتت السرقةُ عند أحدكم، فسوفَ نعاقبُه وفقَ شريعتكم لا وفقَ قوانيننا!

فأجابَ القومَ قائلين: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: عقوبةُ السارق في شريعةِ أبينا يعقوب النبي أنْ يأخذَ صاحبُ المتاع المسروق الشخصَ الذي سرق، ليكونَ عَبداً رقيقاً له مقابلَ ما سرقه.

ونَرضى أنْ تفتشونا، وأنْ تحاكمونا وفقَ شريعةِ أبينا، فمَنْ وجدتم صواعَ الملك في رَحله ومتاعه، فخذوه عبداً رقيقاً للملك، جزاءً له على سرقته.

وقد رضيَ الرجالُ بهذا لأَنَّهم يوقنون أَنهم بريئون، وأَنَّ أحداً منهم لم يسرقْ صواع الملك، ولهذا دَعَوْهُم إلى تفتيشِ الأمتعة، وكلُّهم ثقة وقناعة أنهم لنْ يَجِدوا الصواع عندهم!!

وما كان الرجالُ يتوقَّعون أنْ يكون صواعُ الملك في رَحل أَخيهم الصغير!

وكان هذا الحوارُ والكلامُ بين الإخوة الأَحَدَ عشر وبين فتيانِ يوسف عليه السلام وموظفيه، ويوسفُ عليه السلام يسمعُ ما يجري بين الفريقيْن، وهو مطمئنٌ إلى نجاح خطتِه التي رسمها، وما كان يعلمُ أحدٌ من البشرِ غيرُه أنَّ صواعَ الملك عند أخيه الصغير، وأنه سيُكتشف بعد قليل في رَحله، وأنه سيُؤخذ عبداً مقابله، ما كان أحدٌ من البشر يعلمُ

هذه الحقيقةَ العجيبةَ المدهشة.

يوسف يفتش ويستخرج السقاية من رحل أخيه:

وبعدَ أن اتفقَ الفريقان، ورضيا بتحكيمِ شريعة يعقوبَ الربانية بدأَ التفتيش، وقامَ يوسفُ نفسُه عليه السلام بعمليةِ التفتيش، فقامَ بحركةٍ ذكية، تدلُّ على حصافتِه وبُعدِ نظره، وتُبعدُ عنه أيَّ شبهة أو ريب. قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾.

قامَ يوسفُ بتفتيشِ أوعيتِهم وأمتعتِم ورحالِهم، إنه يعلمُ أنَّ السقايةَ في رحلِ أَخيه الصغير، لقد وضعَها هناك بيده، دونَ أنْ يشعرَ به أحد، فلماذا لم يهجمْ على رَحلِ أخيه فوراً، ويخرج السقايةَ منه؟

إنه لو فعلَ ذلك لما كان حصيفاً ولا أَلمعياً، حيث سيثير حولَه الشبهات، وقد يقولُ أحدُ الإخوة: هذه مؤامرةٌ ضدَّنا، وأنتم وضعتموها مُسبقاً.

وكلُّ مواقفِ وتصرفاتِ يوسف عليه السلام تدلُّ على تخطيطِه وبُعدِ نظره وحُسنِ تدبيره.

لقد بدأَ بتفتيشِ أوعيةِ الإخوة، واحداً واحداً، بتمهُّل وأَناة، وهو يُظهِرُ للمراقبين والمتابعين الدقةَ والحرص في التفتيش. والإخوةُ ينظرونَ له، وهم مطمئنون مرتاحون، بل هم شامتون لأنه لم يَجد السقايةَ في رِحالهم، فلماذا إِذن يتهمونَهم بالسرقة؟؟

وأخيراً وقعتِ المفاجأةُ المذهلة، التي فاجأت الفتيان أَوّلاً، ولكنها فاجأت الإخوةَ العشرة أكثر، فأذهلَتْهم وصدمَتْهم، وأَزالت صوابهم... فها هو يوسفُ يفتشُ متاعَ الأخ الصغير وها هو يُقلبُ المتاع.. ثم ها هو يُخرجُ السقايةَ من المتاع!!

إِذن السقايةُ في رَحل الأَخِ الصغير، إذنْ هذا الأَخُ الصغير سارق، فهو الذي سرقَ السقاية.

فوجئ الإخوةُ بما حصل، وانقلبتْ شماتَتُهم إلى دهشةٍ وصدمة، فها هو الأخُ الذي تعهّدوا لأبيهم بحفظه، وحلَفوا له الأَيمان أن يعيدوه سالماً، ها هو يُضبطُ متلبّساً بالسرقة. . والآن سينفَّذُ فيه الحكمُ الذي ارتضوا تنفيذَه على السارق، وسيعاقَبُ وفقَ شريعةِ أبيه، أي أنه سيؤخَذُ الآن عبداً للعزيز، ولن يعود معهم إلى أبيهم!

ما هذه المفاجآتُ المثيرةُ المذهلة، التي لم يكونوا يتوقعونها؟.

الله يثني على فعل يوسف وتوجيهه:

وتتركُ الآياتُ الإخوةَ وسطَ الدهشةِ والصدمة والانفعال لتقدمَ لنا تقريراً وتعقيباً عن حكمةِ الله من تقديرِ هذه الحادثة المثيرة. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

إن اللّهَ هو الذي كادَ ليوسفَ عليه السلام، وأَرشدَه إلى هذا التدبير الحكيم، ليتمَّ قدرُ الله في النهاية.

إنَّ قولَ الله عن ترتيبِ يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ثناءٌ من الله على يُوسف، ومدحٌ له لفعلته، وإِشارةٌ إلى أنه فعلها بإلهامٍ من الله، وهذا دليلُ أنه فعلَها بعد النبوة، وأنه كان على صوابٍ في فعلها.

إنَّ يوسفَ عليه السلام لم يتهمْ هو أَخاه بالسرقة، ليقالَ عنه: هو الذي وضعَ السقايةَ في رحْل أخيه، فكيف يتهمُه بالسرقة؟.

هو الذي وضعَ السقايةَ في رحْل أخيه، دون أنْ يعلمَ به أَحد، حتى مِن رجاله وفتيانه، وبعدَ ذلك وقفَ متفرجاً، يرقبُ تتابعَ لقطاتِ المشهدِ المثيرِ المفاجئ، دون أنْ يتدخلَ هو.

فتيانُه هم الذين فقدوا صواعَ الملك، وأحدُ فتيانِه هو الذي أَذَّن ونادى واتهمَ الرجالَ بالسرقة، وأحدُ فتيانه هو الذي وعدَ بجائزةِ حِمل

بعيرٍ لمن يُعيدُ الصواعَ المسروق، وتكفلَ بذلك، وأحدُ فتيانه هو الذي اتفقَ مع الرجال على أنْ يعاقَبَ السارقُ وفقَ شريعة يعقوب عليه السلام!!

كلُّ هذا ويوسفُ ينظرُ ويرقبُ ويتابع، دون أنْ يتدخلَ أو يتهمَ أو يحاكم أو يدين، وفي آخرِ لقطةٍ في المشهد المثير تقدمَ يوسفُ عليه السلام ليفتشَ أمتعةَ القوم، ويستخرجَ السقايةَ من رَحْل أخيه.

لقد كانَ يوسفُ على صوابٍ فيما فعل، ويَكفيه أنَّ اللّهَ أثنى عليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾.

ونقفُ لحظةً أمامَ تقديرِ الله ليوسف أنْ يأخذَ أخاه رفيقاً وفقَ شريعةِ أبيه، لا وفقَ قانونِ الملك: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

المرادُ بكلمة ﴿دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ هنا هو: نظامُ ملك مصر وشرعُه وقانونُه، الذي يحكمُ الشعبَ المصري على أساسه، فيَخضعُ الشعبُ المصري لهذا القانون، ويَدينون لهذا النظام، ويَلتزمون ذلك الشرع، ولهذا سُمي ﴿دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾.

لأنَّ أَساسَ معنى «الدين» هو الانقيادُ والخضوعُ والدينونة، لنظامٍ أو شرعٍ أو قانون أو حكم.

وهناك «دينان». أي: هناك: نظامان وشرعان وقانونان:

﴿دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾: أي نظامُه وشرعُه ومنهاجُه وقانونه الذي يحكمُ به الناس، سواء كان هذا الحاكمُ ملكاً أو رئيساً أو زعيماً، طالما نظامُه وشرعه يُناقضُ حكمَ الله. والخاضعون لهذا النظام يَدينونَ له، يقال عنهم: إنهم في دين الملك.

و«دين الله»: وهو نظامُه وشرعُه ومنهاجُه وحكمه، الذي أَنزله على رسله، وأَمر الناسَ أنْ يَدينوا ويخضعوا له، ويَعبدوا اللّهَ من خلال التزامه. والخاضعون لمنهاجِ الله وشرعه يُقال عنهم: إنهم في دينِ الله.

يوسف كان يحكم بشرع الله:

إنَّ اللّهَ لم يرضَ للنبيِّ يوسف عليه السلام أنْ يعاقبَ أَخاه وفقَ نظام الملك وشرعه ومنهاجِه، أي: وفقَ دينه الذي يَخضعُ الناسُ له به.

ولذلك ألهمَ اللّهُ فتيانَ يوسف أنْ يسألوا الإِخوةَ عن عقوبةِ السارق في شرعِ يعقوب النبي، أي: عقوبةِ السارق في «دين الله» الذي أنزلَه على يعقوب عليه السلام، وذلك ليعاقبَ يوسفُ أَخاه وفقَ دينِ الله وشرعِه.

وهذا يدلُّنا على أنَّ يوسفَ النبيَّ عليه السلام لما كانَ في منصب «عزيز مصر» معَيَّناً من قِبَل الملك، لم يكن مجردَ تابعٍ للملك، ولا منفِّذاً لنظام الملك، ولا حاكماً بشرعِه وقانونِه، وإنَّما كان يحكمُ بشرعِ الله، ويطبقُ على الناس حكمَ الله، وكان صاحبَ الكلمةِ والقرار في البلاد. ولا بد أَنْ يعرفَ هذا الذين يريدونَ أنْ يكونوا «وزراء» في حكوماتٍ لا تحكمُ بالإسلام، في بلاد المسلمين، مستدلِّين بما فعلَه يوسفُ عليه السلام، فأينَ فعلتُهم المردودةُ من حكمِ يوسف الصائبِ عليه السلام؟

وقد أثنى اللّهُ على حكمِ يوسف وتصرفِهِ وعلمه، وأخبرَ أنَّ اللّهَ رفعَه عنده درجاتٍ في العلم والفضل والمنزلة: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

ثم ذكرَ حقيقةً إيمانيةً حول علم الله الشامل المحيط بكل شيء، فمهما أُوتيَ يوسفُ من العلم، فعلْمُه محدودٌ قاصرٌ لأَنه من البشر، واللّهُ أعلمُ من كلِّ بشر: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وبعدما عرضتِ الآياتُ كيفيةَ تفتيشِ يوسف عليه السلام للأمتعة، انتقلتْ لتسجيلِ وتصويرِ أَثَرِ الدهشةِ على الإِخوة.

الإخوة يتهمون يوسف كذباً بالسرقة وهو صغير:

فبعدما فوجئوا بسرقةِ أَخيهم لصواع الملك لم يعرفوا ماذا يقولونَ لعزيزِ مصر، فاتَّهموا أخاً له آخرَ بالسرقة، وفوجئ يوسفُ بهذا الاتهامَ،

ومع هذا ضبطَ أعصابَه أمامَهم! قال تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

اتهموا أخاً بأنه سرقَ من قبل، وهم يَعنون بهذا يوسفَ نفسه، حيث زَعموا أنَّ هذا الأخَ الذي سرقَ الآن ليس هو أولَ سارق، فهناك سارقٌ آخر، هو أخٌ لهذا السارق.

أما هم فإنهم بَريئون من السرقة، لم يَسرقوا من قبل، ولم يَسرقوا الآن، ولهذا كانوا صادقين عندما نفوا عن أنفسهم تهمةَ السرقة.

إنَّ الذي دفعهم لاتهام أَخٍ سابق بالسرقة ـ وهو يوسف ـ هو حرجُهم بعدَ اكتشافِ الصواعَ في رَحْلِ أَخيهم، فماذا يقولون بعد كلِّ تأكيداتِهم السابقة بعدم السرقة، لم يَجدوا أمامَ الإحراجِ إلاّ اتهامَ أَخٍ آخرَ غائب!

وإنَّ الذي دفعَهم إلى اتهام يوسف هو استيقاظُ حقْدِهم عليه الآن، بسببِ الفضيحة التي حلَّت بهم!! وكأنهم يجعلونَ أَخاهم الصغيرَ مشاركاً ليوسف في التسببِ بكلِّ ما حلَّ بهم من مصائب.

اتَّهموا يوسفَ بأنه قد سرِقَ من قبل. أي أَنه سرقَ لما كان عند والديْه، قبلَ أَنْ يَضعوه في غَيابة الجُبّ. وكم كان عمره وقتها؟ ألم يكن غلاماً صغيراً؟ وكيفَ يسرقُ وهو غلام صغير؟ وممَّنْ يسرقُ هذا الغلامُ الصغير؟.

لقد أَخَذَ بعضُ المفسرين والإخباريين كلامَهم على ظاهره، واعتبروهم صادقين عندما قالوا عن يوسف: ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، وراحوا يبحثونَ في طفولةِ يوسف عن أمثلةٍ عملية تُثبتُ عليه السرقة!

ولم يَجدوا ذلك في حديثٍ صحيح صريح، فاعتمدوا الإسرائيلياتِ في ذلك، وهي متَّهَمة، وأَخذوا منها أمثلَةً على سرقةِ يوسف وهو صغير.

والأَوْلى أنْ ننزهَ يوسفَ عن السرقة حتى في طفولته، لأنَّ اللّهَ يعدُّه ليكونَ نبياً، واللّهُ يربّي النبيَّ تربيةً خاصة، ويَعصمه عصمةً خاصة!

الأَوْلى تكذيبُ القوم في اتهامهم هذا، تكذيبُهم نعم، فقد افتروا هذه الكذبةَ ليستُروا إِحراجَهم، ويَدفعوا التهمةَ عنهم. لقد كانوا كاذبين فيما قالوه! وليستْ هذه أولَ كِذْبةٍ تصدرُ عنهم!! أَلم يكذبوا على أبيهم النبيِّ يعقوب عليه السلام عدةَ مرات!.

الأَوْلى تكذيبُ القوم فيما زعموه، لا البحثُ في «ملفِّ» يوسف وهو صغير، للعثورِ على دليلِ اتهامٍ له، يصدقُهم فيما قالوه.

ثم إنَّ اللطيفَ في الأمر هو استقبالُ يوسفَ الحصيفِ عليه السلام لهذه التهمة، اتَّهموه بأنه سرق لما كان صغيراً، وهم لا يعلمون أنَّ عزيزَ مصر الجالسَ أمامهم هو يوسفُ نفسه، وأنه قد يُكذِّبهم.

كان بإمكانِ يوسفَ أنْ يردَّ على التهمة، وأنْ يبرئَ نفسه منها، وأنْ يُكذِّبهم فيما قالوا، وعندها سيعرفون أنهم واقفون أَمام يوسف، ولو فعلَ ذلك لفسدَ كلُّ ترتيبه وتدبيره وتخطيطه.

إذنْ عليه أنْ يتحمل، وأنْ يصبرَ على التهمة، وأنْ يضبطَ أعصابه، وأن يتصرفَ مع المسألة بكياسته وحصافته المعهودة، لهذا كظمَ غيظَهُ وأسرَّها في نفسه، ولم يعقب عليها: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾.

وكمْ من مرة استعلى فيها يوسفُ عليه السلام على آلامِه وأحزانه؟ وكم من مرة أُوذيَ واتُّهمَ فصبرَ واحتسب؟!!

لم يزدْ ـ أمامَ اتهامهم ـ على أنْ قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

أنتم إِخوةُ شرّ، ومكانكم هو الشر، وموقفُكم هو الشّر، ولا يعلمُ إلا اللّهُ حقيقةَ ما تزعمون، وتَدَّعون وتقولون!!

بهذا انتهى هذا المشهدُ المثير، وعرفَ الحاضرون أنَّ الأخَ الصغيرَ قد سرقَ صُواع الملك، وعرفَ الحاضرون حكمه، والعقوبةَ التي ستقعُ عليه: سيأخذُه عزيزُ مصر عبداً عنده مقابلَ ذلك المتاع المسروق.

الإخوة يسترحمون العزيز بأخذ أحدهم مكان الصغير:

وبهذا عرفَ الإخوةُ العشرة أن أخاهم الصغير سيتحولُ إلى عبد رقيقٍ عند عزيزِ مصر، عندَها تذكَّروا ما جرى بينهم وبين أبيهم، والموثقَ الذي أعطوه على أَنْ يَعودوا به، واستحضروا مقدارَ ما سيصيبُ أباهم من حزنٍ وألم، عندما يعلمُ بما جرى، وبأنه فقد ابنَه الثاني...

تذكَّروا كلَّ هذا فحاولوا محاولةً أخيرة مع عزيزِ مصر: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

استرحَموا العزيز، ورجَوه واستعطفوه، وخاطَبوا إحسانه وحُسنَ إكرامه لهم، وطلبوا منه أنْ يرحمَ أباه الشيخَ الكبير، الذي سيذوبُ همّاً وحزناً على فراقِ ابنه، وإنه قد لا يتحملُ سَماع مثلَ هذا الخبرِ المفجع!

وعَرضوا عليه عَرضاً رحيماً: أنْ يطلقَ سراح هذا الابنِ الأثيرِ عند أَبيه، وأنْ يأخذَ أحدَ الإخوة الكبارِ العشرة مكانه، وأنْ يكونَ عبداً عنده مكانه.

وكانوا صادقين في الاسترحام، جادّين في العرض.

لكنَّ العزيز ـ يوسف ـ رفَضَ هذا العرض قائلاً: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

ذكَرَ لهم العزيزُ العدل، وأَخبرهم بعدمِ ارتكابه للظلم، واستعاذَ بالله من الظلم. فلو أنه رضيَ أَنْ يأخذَ أحدهم عبداً مكانَ الأخِ الصغير لكان ظالماً، فما ذنبُ ذلك الأخِ الكبير ليكون عبداً؟ إنَّ العدالةَ تقتضي أنْ يُؤخذَ الذي وُجد المتاعُ عنده.

وإنّ التعبيرَ القرآني دقيق: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾.

لم يصرحْ يوسفُ بأن ذلك الأخَ الصغير سرق، لأنه ليسَ سارقاً في الحقيقة، ولو قال يوسف: لن نأخذَ إلاّ مَنْ سرق، لكان في هذا ظالماً للشاب.

ولهذا اختارَ جملةً تناسبُ الحالة: ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾. لقد وَجدوا صواعَ الملك في رَحل هذا الشاب، واستخرجوه، ثم عاقبوا الشاب. هذا كلٌ ما في الأمر.

وفشلَ الإخوةُ في الاسترحام والرجاء، وأصرَّ يوسفُ على أخذ الأخِ الذي وُجدَ المتاعُ عنده.

وهكذا احتفظَ يوسفُ بأَخيه الصغير، وغادرَ الإخوةُ العشرة المكان، ليفكّروا في الخطواتِ التالية.

وبهذا تنتهي هذه الحلقةُ من قصة يوسف عليه السلام، التي بدأَتْ عندما وليَ منصبَ عزيزِ مصر، وانتهتْ بأخذ أَخيه، وجمعِ شمله به، تمهيداً لجمعِ شملِ الأُسرة كلِّها، كما تعرضُه الحلقةُ التالية!!

[٢٤]

الحلقة الخامسة

جمع شمل أسرة يعقوب في مصر

يصلُ بنا السياقُ إلى الحلقةِ الخامسة ـ والأخيرة ـ في قصة يوسف عليه السلام، حيث سيلتقي يوسفُ بأسرته، وسيأتونَ إِليه في مصر، وسيجتمعُ شملُ الأسرة، وبذلك تتحقق رؤياه التي رآها وهو صغير.

لقد عرفْنا من الحلقةِ السابقة قدومَ إِخوة يوسفَ إِليه أولَ مرة، ثم قدومَهم إِليه ثاني مرة، ومعهم أَخوهم الصغير بناءً على طلبه، وعشْنا مسلسلَ الأَحداث المثيرة في تلك الحلقة، عندما اختلى يوسفُ بأخيه،

وعرَّفه على نفسه، ثم وضعَ صواعَ الملك في رَحله، ثم فتشَ رحْلَ كلِّ واحد من الإخوة، ثم وجدَ الصواعَ في رحلِ أخيه، فأخذه عبداً رقيقاً، وقد حاولَ الإخوةُ استبدالَ أحدهم بالأخ الصغير، لكن يوسفَ أبى، وأصرَّ على أخْذِ مَنْ وُجد المتاعُ في رحله. وبهذا يئسَ الإخوةُ من استرجاعِ أَخيه الصغير، فذهبوا يفكرون في الخطوات التالية.

هذا ما انتهتْ إليه الحلقةُ السابقة، بمشهدِها الأَخير.

وبهذا عرفْنا أَنَّ مشكلةَ «الغُرْبة» في أسرةِ يعقوب عليه السلام ـ الغربةِ بين الابنِ الغائب المفقود وباقي الأسرة ـ بدأتْ بالحل، وبداياتُ هذا الحل التقاءُ الأخوَيْن، تمهيداً لالتقاءِ باقي أفراد الأسرة.

التقى يوسفُ بأَخيه، وقال له: إِني أنا أخوك. وأَلهمَ اللّهُ يوسفَ طريقةً مثيرة للاحتفاظِ بأَخيه، بتهمةِ السرقة في الظاهر، وعقوبة الاسترقاق.

المهمُّ أنَّ الأخَ بقيَ عند يوسف، والآن ستعرضُ لنا مشاهدُ الحلقة الخامسة تسلسلَ الأحداث بعد ذلك، حتى تنتهيَ إلى قدومِ الأسرة كلِّها من فلسطين إِلى مصر، واستقرارِها عند يوسف، وجمْعِ شملِها هنا من جديد . . .

[٢٥]

اجتماع الإخوة: تشاور واتفاق

حاولَ الإخوةُ استرحامَ العزيزِ ليأخذَ أحدهم رقيقاً مكانَ أخيهم الصغير، المأخوذِ بتهمة السرقة، ولكنه أصرَّ على عدمِ الاستبدال، فلن يأخذَ إلاّ مَنْ وُجِد صواعُ الملك في رحله.

اجتماع الإخوة السري لتدارس الأمر:

وعندما يئسَ الإخوةُ من استرجاعِ أَخيهم، تركوا العزيز، وغادَروا قصْرَه، وعقدوا لهم اجتماعاً مغلقاً، وتشاوروا ماذا يفعلون، واتفقوا على خطةٍ للعمل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨٠ ـ ٨٢].

﴿فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾: يئسَ الإخوةُ العشرةُ من تخليصِ أَخيهم من عند العزيز، لأنَّ العزيزَ رفضَ كلَّ مقترحاتهم واسترحامهم، وأصرَّ على أَخذِ أَخيهم الصغير.

وأَساسُ «استيأسوا» هو: يَئِسوا. لكنَّ الهمزةَ والسينَ والتاءَ في الفعلِ للتّوكيد. ففِعْلُ «استيأسوا» أكثرُ تأكيداً على يأسهم من تخليصِ أَخيهم، من فعل «يئسوا».

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾: ذَهبوا إِلى لقاءٍ خاص، واجتماعٍ مغلق لهم، انعزلوا فيه عن الآخرين، فكان لقاؤُهم خالصاً لهم، لم يشارِكْهم فيه أحدٌ غيرُهم. وَجَلَسُوا يتناجون ويتشاورون ويتحادثون، ويفكِّرون في ماذا سيفعلون.

و«نَجِيّاً» حال منصوب. بمعنى: متناجين.

رأي أخيهم الكبير وبقاؤه في مصر:

وطُرحتْ في اللقاء مجموعةٌ من الآراء، وأَبرزت الآياتُ ما قاله الأخُ الكبير.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾: ونشيرُ هنا إِلى أَنَّ القرآنَ أَبهمَ اسمَ الأخِ الكبير، فلم يَذكر اسْمَه. إِنَّ اسمه معروف لهم، ومعلومٌ عند مَنْ كانوا حوله. لكن اللّهَ لم يخبرْنا عن اسمه. والأَوْلى أنْ نبقى مع السياق القرآني، وأن نسكتَ عن ما سكتَ عنه، وأن لا نحاول تبيينَ ما أَبهمه!

قال كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ

وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾؟.

ذكَّرهم بالعهدِ والميثاق الذي أَخذه عليهم أبوهم، عندما أَذِن لهم باصطحابِ أخيهم معهم. فكيف يعودون إِلى أَبيهم بدون أخيهم؟ وماذا سيقولون له عندما سيسألهم عنه؟؟

وذكَّرهم بأسبقيتِهم السابقة مع يوسف: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾. وكأنه يقولُ لهم: أنتم متَّهمون عند أبيكم، وهو شاكٌّ فيكم، لقد أخذتم يوسفَ من قبل وفرطتم فيه، والآنَ فقدتُمْ أَخاكم الآخر، رغمَ موثقِكم لأبيكم! فماذا ستفعلونَ مع أبيكم؟.

أَمّا أَنا فلا أقدرُ على مواجهةِ أبي بعد الذي جرى. ولهذا أنا باقٍ هنا؛ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ويبدو أنَّ هذا الأخَ الكبيرَ كان أنضجَ الإخوة، ولم يكن موافقاً لهم في كلِّ ما يعملون، فقد رأَينا له تحفُّظاً على اقتراحِهم بقتْل يوسف، حيث أشارَ عليهم بإلقائِه في غيابة الجب. والآن ـ وقد صارَ أنضجَ فكراً وعقلاً ـ يقررُ أنْ يبقى في أرض مصر، لا يبرحُها ولا يغادرُها، ينتظرُ الإذنَ من أبيه، أَو الحكمَ والفرجَ من الله، بأنْ يفرّجَ هذا الكرب.

وأمرَ الأخُ الكبيرُ إخوتَه التسعةَ بأخْذِ أَحمالهم وجِمالهم، والعودةِ إلى أبيهم، وإخبارِه بتفاصيلِ ما جرى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

هذا ما لقَّنه أَخوهم الكبيرُ لهم، ليقولوه إِلى أَبيهم.

يا أَبانا: لقد أَخذْنا أخانا الصغيرَ بناءً على طلبِ العزيز، وأَعطيناكَ موثِقاً بالمحافظةِ عليه، وإِعادتِه إِليك سالماً، وقد حرِصْنا على ذلك، لكننا فوجِئنا بما ليسَ في الحسبان.

يا أَبانا: إنَّ ابنَك سرق. فقد فَقَدوا صواعَ الملك، وشكّوا فينا، وفتّشوا أمتعتَنا، فاستخرجوا الصُّواعَ من متاعه، وعاقبوه وفقَ شريعتك، فأَخذوه عبداً للعزيز.

هذا ما جرى أمامَنا وأَمام الآخرين، ونحنُ ما شهدْنا إلاّ بما علمنا، وما كنّا للغيبِ حافظين.

إِننا لم نكن نعلمُ الغيبَ عندما أَعطيناكَ الموثقَ والعهدَ على أنْ نعيدَه سالماً، ولم نكن نعلمُ أَنه سيؤخَذُ رغماً عنا بجريرةِ السرقة. وهو الآن عندهم سارق، والحقيقةُ لا نجزمُ بها، فهلْ سرقَ فعلاً، أمْ أنَّ في الأمر لُغزاً مثيراً؟ لا ندري، فما كنا للغيب حافظين.

يا أَبانا: إِننا نعلم أنك تشكُّ في كلامنا، ولا تصدِّقُنا، بسببِ قضيةِ يوسف التي حصلتْ من قبل، فإنْ كنتَ مكذِّباً لنا فاسأل القرية التي كنا فيها، فكلُّ أهلِ المدينة ـ عاصمة مصر، مقرِّ العزيز ـ عرفوا بالقصة، ولو سألْتَ أهلَها لأجابوك بأنَّ ابنَك استُرِقَّ لأنه سرق. واسألْ أيضاً العيرَ التي أقبلْنا فيها، القافلة التجارية التي تزودتْ بالحبوب من مصرَ إلى بلاد الشام، فقد شاهدَ أفرادُها مسلسلَ الأحداث المثير هناك، وأُخذَ ابنُك بتهمةِ السرقة.

وإِنّا لصادقون يا أَبانا في كلامِنا في هذه المرة، ولم نكْذِب عليك.

وبهذا انتهى اجتماعُهم، بعد أنِ اتفقوا على هذا القول.

[٢٦]

حزن يعقوب وأمله باللقاء

الأَحداثُ حتى هذا المشهد مثيرة، فقد انقسمَ أَبناءُ يعقوب الاثنا عشر إِلى قسمين:

تسعةٌ عادوا إِلى أَبيهم، ليخبروه بالحقيقةِ المؤلمة المرة.

وثلاثةٌ غائبون:

يوسف: مفقودٌ منذ عدة سنوات، ولا تعرفُ أُسرتُه عنه شيئاً.

والأَخُ الصغير: أُخذَ بتهمةِ السرقة، وهو الآنَ رقيقٌ عند عزيزِ مصر.

والأَخُ الكبير: تألَّمَ لما جرى، واستحيا أنْ يواجِه أَباه، فأصرَّ على الإقامةِ في مصر، لمتابعةِ قضيةِ أَخيه المستَرَقّ، وبانتظارِ الإذن والتوجيهِ من أبيه.

هذه هي الصورةُ حتى الآن.

إخبار يعقوب بالمشكلة وحزنه:

وصلَ ركبُ الإخوةِ التسعةِ إلى المنزل، ولكَ أن تتصورَ مقدارَ الصدمةِ والذهول الذي حلَّ بيعقوبَ عندما شاهدَ المنظر.

وكأنه سألَهم: أنتم تسعة، فأين أَخواكم؟ أَين أَخوكم الصغير الذي تعهدتُم بحفظِه؟ وأين أخوكم الكبير؟ وماذا جرى له؟

وقد أَجابَ الأَبناءُ أَباهم على أَسئلته، وأَخبروه بما شاهدوهُ وسمعوهُ بالتفصيل. وعرفَ يعقوبُ الفاجعة، وفقْدَ أولادِه الثلاثة.

وقد سجلتْ آياتُ هذا المشهد ردَّ فعله. قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٣ ـ ٨٧].

لما سمعَ يعقوبُ قصةَ ابنِه الصغير، تذكَّرَ ما جرى لابنِه الآخر يوسف، قبلَ سنوات.

فعلقَ على كلامِ أبنائه، بنفسِ ما علَّقَ به على كلامِهم السابق حول يوسف.

فلما أخبروه سابقاً - كاذبين - أنَّ الذئبَ أكلَ يوسف، قال لهم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨].

والآنَ لما أخبروه بما حدثَ لابنِه الصغير، قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وكأنَّ يعقوبَ عليه السلام لم يطمئنّ إلى كلامِ أبنائه حولَ ما حدثَ لأخيهم الصغير، وكأنّه ظنّها مكيدةً لهم كمكيدتِهم ضدَّ يوسف من قبل، ولهذا أجابهم بما أجابهم به يوم يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾.

أي: زينتْ لكم فعلَ أمرٍ ما، وحملَتْكم على فعْلِه، وأنا لا أدري ما هو، وسأصبرُ على ما جرى صبراً جميلاً، حتى يأذنَ اللّهَ بالفرج.

والجديدُ هنا أنه عقَّبَ على كلامِه بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إنَّ الأملَ الآن يملأُ عليه مشاعرَه وكيانَه، إنَّ مرورَ السنوات الطويلة على فقْدِ يوسف وغيابِه، لم يجعَلْه يفقدُ الأملَ في حياته، وفي الاجتماع به، لأنَّ رؤياه وهو صغير، لا بدَّ أنْ تتحققَ وتتأولَ وهو كبير، إذَنْ هو موجود. لكن كيفَ وأين؟ لا يدري!!

كلُّه أملٌ ورجاءٌ بالله أنْ يجمَعه بأبنائه الثلاثة: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ﴾. الابن الأكبر، ويوسف، والابن الأصغر.

واللّهُ عليم، يعلمُ أماكنَهم وما جرى لهم، ويعلمُ متى يأتيني بهم جميعاً.

وهو حكيم: له حكمةٌ في كلِّ ما جرى لنا مِن محنٍ وابتلاءات ومصائب، فهي لم تحدثْ لنا هكذا مصادفة، وإنما وِفْقَ أمْرِ الله وإرادتِه وقدره، وبمقتضى حكمتِه سبحانه،ونحن نرضى بقدَرِ الله، وننتظرُ إدراكَ حكمته في ما جرى. وننتظرُ منه جمْعَنا مع الغائبين، حتى تزولَ هذه الكروب، وتجتمعَ الأسرةُ من جديد.

أثر كظم يعقوب لآلامه على عينيه:

وأثَّرَ الخبرُ الجديدُ عن غيابِ اثنين من الأبناء على الشيخ الكبير، الصابرِ المحتسب، وزادَ هذا في أحزانه وآلامِه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: قامَ يعقوبُ من عند أبنائه وأسرته، وتولّى عنهم، وتذكَّر يوسفَ وما جرى له، وأيقظتْ مشكلةُ ابنيْه الجديدة كوامنَ حزنِه على يوسف، وأطلقَها زفرةً حرّى، ونفثةً مكبوتة من صدره: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

إنه يتذكَّرُه، ويحزنُ له، ويأسفُ على فراقه، ولا يزيدُه مرورُ السنين على غيابه إلاّ مزيدَ أملٍ في حياتِه ووجودِه، ومزيدَ أملٍ في لقائه، ومزيدَ شوقٍ ولهفةٍ إليه. وكأنه بقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يريدُ أنْ يعجلَ بقطعِ المراحلِ وطيِّ المسافات الزمانية، ليلتقيَ به!!

ولقد كان يعقوبُ منفرداً بآلامِه وهمومِه وأحزانه، يكظمُها في أَعماقِ نفسه وشعوره وكيانه، فأثَّرَ هذا الكظمُ والتفردُ على أعصابِ عينيه، وغطى بياضُهما على سوادِهما، وأصبحَ ضعيفَ النظر: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

لم يشعرْ يعقوبُ بمشاركةِ مَنْ حوله له في همومِه وأَحزانه، وإذا بَثَّ أحدَهم هَمَّه، يجدُ عنده اللومَ والتقريع، ولهذا كان منفرداً بهذه الآلام، لا يكلمُ أبناءَه بما يعانيه ويعيشُه ويؤلمه، ولا يجدُ منهم مواسياً ولا مؤانساً ولا مشاركاً ولا متفهِّماً، ولذلك لم يجدْ لأَحزانه متنفَّساً ولا

نَفاذاً، فترتدّ هذه الأحزانُ إِلى مشاعرِه وأعصابه ونفسيته، فتزيدَه ألماً وحزناً، وعندما كان يكظمُها ويخزنُها في أَعصابه كانت تؤثّرُ على حواسّه وجسمه، فيزداد مرضاً وسقماً.

ولقد أدى كظْمُ آلامِه وعدمُ تنفيسِها إِلى أَضرارٍ على عينيه، فضعفَ بصرُه، وابيضّتْ عيناه.

ومعلومٌ أنّ كظمَ واختزانَ الآلام النفسية، وعدمَ بثّها إِلى أَخٍ مؤاخٍ مشارك، يؤدّي إِلى أَمراض عضوية، ويؤثّرُ على الحواسّ والبدن.

توقح الأبناء في ردهم على أبيهم:

ودليلُ أنّ أبناءَه كانوا غيرَ متجاوبين معه، ولا مشاركين له في همومِه، بل كانوا عاذلين لائمين، أَنهم لما سمعوا قولَه: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. ردّوا عليه بتوقُّحٍ وغلظةٍ وفجاجة: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

إنكَ لا تزالُ تذكرُ يوسف! ولا تفترُ ولا تتوقفُ عن ذكْرِ يوسف!! ولا تملّ من تذكُّر يوسف! وأنت موهومٌ حالمٌ متخيل! ما زلتَ تظنُ أنَّ يوسف حيّ! مع أنه ماتَ منذ سنوات، ولن يعود!! إِنْسَ يوسف، ولا تُتعبْ نفسَك باستمرارِ تذكُّره.

إنْ لم تكن واقعياً، وإِنْ لم تنْسَ يوسف، وإنْ بقيتَ دائمَ الذكْرِ له، فستكونُ حَرَضاً، وتمرضُ مرضاً ملازماً، سَيَقضي عليك، وستهلك وتبيد!

أَهكذا يخاطبُ الأَبناءُ الكبارُ أَباهم المفجوع؟ أَبهذا القُبحِ المستقبحِ يُخاطبونه؟ أبهذِه الغلظة والجَلافة يعاملونه؟.

لقد حقَّ له إِذنْ أَنْ يعتزلَهم، وأنْ لا يُخبرهم بما يعانيه، وأنْ يكظمَ أَحزانَه وآلامَه، ولو أَثّرتْ على أعصابِه وحواسّه!!

قالَ الإمامُ الراغبُ في معنى «كَظم»: «الكَظَم: مخرجُ النَّفَس:

والكُظُوم: انحباسُ النَّفَس. ويُعبَّرُ به عن السكوت. كقولهم: فلانٌ لا يتنفَّس إذا وُصفَ بالمبالغةِ في السكوت.

وكظْمُ الغيظ: حَبْسُه»[1].

فمعنى «كَظيم»: أَنه حبسَ آلامَه وأَحزانَه داخله، ولم يُخرجها، لعدمِ وجود مشاركين مواسين له.

وقالَ الإمامُ الراغب في معنى «حَرَض»: «الحَرَضُ: ما لا يُعْتَدُّ به، ولا خيرَ فيه. ولذلك يُقال لِما أَشرفَ على الهلاك: حَرِض.

قال الشاعر:

إِنـي امْـرُؤٌ نـابَـنـي هَـمٌّ فَـأَحْـرَضَـنـي ... حَتّى بَليتُ وَحَتّى شَفَّني السَّقَمُ»[2]

تَأَلَّمَ الأبُ المحزونُ لما سمعه من لومٍ وتقريعِ أبنائه، حيثُ لم يرحموا شيخوخَتَه، ولم يحترموا آلامَه، وبذلكَ ازدادتْ همومُه وأحزانُه، وازدادَ هو كظْماً وحبْساً واختزاناً لها.

يعقوب يشكو بثه وحزنه إلى الله:

وقد ردَّ الأبُ على عذْلِ ولوم أبنائه قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أَخبرهم أَنه لا يشكو همَّه ومصيبتَه وحزنَه لهم، لأنهم لا يشاركونَه ذلك، ولا يؤلِمُهم ما يؤلمه، ولا يَعْنِيهم ما يعنيه، فالأمرُ العظيمُ الشاقُّ بالنسبة له، هو تافهٌ حقيرٌ بالنسبة لهم، لا يستحقُّ حتى مجردَ التفكيرِ فيه!.

قال الراغب في معنى البَثّ: «أَصْلُ البثّ: التفريقُ وإِثارةُ الشيء، كبثِّ الريحِ التراب.

(١) المفردات: ٧١٢.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٨.

وبَثُّ النفس: ما انطوتْ عليه من الغمِّ والسر. يُقال: بَثَثْتُه، فانبثّ.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أي: غمّي الذي أَبثُّه عن كتمان»[1].

إِنني أكتمُ همّي وغمّي عنكم، لأنكم لا تشاركونني فيه، ولا أَشكو إلاّ إِلى الله، ولا أُخبرُ إِلاّ الله بهمّي وغمّي وبثّي وحزني.

وإِنني أعلمُ من الله ما لا تعلمون، فإِنني يحركُني شيءٌ ما في كياني، وهو من الله ربي، وهذا الشيءُ يملؤني يقيناً بأنَّ يوسفَ موجود. . .

«إنَّ هذا الواقعَ الظاهرَ الميئسَ من يوسف، وهذا المدى الطويلَ الذي يقطعُ الرجاءَ من حياته، فضْلاً على عودته إِلى أبيه، واستنكارَ بَنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمدِ الطويل، في هذا الواقع الثقيل. إنَّ هذا كلَّه لا يؤثّرُ شيئاً في شعورِ الرجل الصالح بربِّهِ. . فهو يعلمُ مِن حقيقةِ ربه ومِن شأنه، ما لا يعلمُ هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة، بذلكَ الواقعِ الصغيرِ المنظور!

وهذه قيمةُ الإِيمانِ بالله، ومعرفتِه سبحانه هذا اللونَ من المعرفة. . معرفةِ التجلّي والشّهود، ومُلابسةِ قدرتِه وقَدَره، وملامسةِ رحمتِه ورعايتِه، وإِدراكِ شأن الألوهيةِ مع العبيد الصالحين.

إنَّ هذه الكلمات: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تجلو هذه الحقيقةَ بما لا تملكُ كلماتُنا نحن أنْ تجلوها. وتَعرضُ مذاقاً يعرفُه مَنْ ذاقَ مثله، فيدركُ ماذا تعني هذه الكلماتُ في نفسِ العبد الصالح يعقوب. . .

والقلبُ الذي ذاقَ هذا المذاقَ لا تَبلغُ الشدائدُ منه ـ مهما بلغتْ ـ

(١) المرجع السابق: ١٠٨.

إلاّ أنْ يتعمقَ اللمسَ والمشاهدةَ والمذاق.

ولا نملكُ أَنْ نَزيد، ولكننا نحمدُ اللّهَ على فضْله في هذا. ونَدَعُ ما بيننا وبينه يعلمُه سبحانَه ويراه..!!!»[1].

يعقوب يأمر بنيه بالتحسس من يوسف وأخيه:

وبعدما أعلنَ يعقوبُ يقينَه بوجودِ يوسف وحياته، وبعدما أَوحى لأبنائِه بذلك، صارَحَهم بالبحثِ عن يوسف، وملأَهم أَمَلًا باللقاء به: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ﴾. وهي جمعُ «ابن»، وخاطَبهم بعاطفةِ الأُبوة الموجَّهة نحو البُنُوة. فرغمَ غلظتِهم معه، وسوءِ تعبيرِهم وخطابِهم له، لكنه يخاطبُهم بالرفقِ والمودة.

وقد أَمرهم بالعودةِ إِلى مصر، والبحثِ فيها عن يوسفَ وأَخيه: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

ومعنى التّحَسُّس: البحثُ بالحواس.

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي عن التحسسِ والفرقِ بينَه وبين التجسس: «قوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: تطَلَّبوه بحواسّكم. وتحسَّسَ في الخير، وتجَسَّسَ في الشر.

قال الحربي: معنى الحَسّ والجَسّ واحد، وهو التطلُّبُ بمعرفة»[2].

ويُقال: الجاسوس: صاحبُ سِرِّ الشرّ. والناموس: صاحبُ سِرِّ الخير.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٢٦.

(٢) عمدة الحفاظ للسمين ١: ٤٧٠.

وقال ثعلب: التجسّسُ ما طلَبْتَه لغيرك من معرفةِ أُمورِ الناس، والتحسّسُ ما طلبتَه لنفسك.

وقيل: أصلُ التجسُّسِ من الجَسّ، وهو مَسُّ العرق، وتَعَرُّفُ نبضِه ليَحكمَ به على الصحةِ والسقم، فالجسُّ أخصُّ من الحسّ، لأَنه تعرُّفُ ما لا يُدركُ بالحس»[1].

وإنَّ فعْلَ «تحسسوا» يدلُّ على البحثِ بحرصٍ وانتباه، مع تفاعُلِ النفسِ والمشاعر والحواس، والشعورِ بالأمل الكبير بالعثورِ على المطلوب.

وكأنَّ يعقوبَ عليه السلام يطلبُ منهم تشغيلَ كلِّ حواسِّهم في البحثِ عن يوسف وأَخيه في مصر، مع يقينهم بأَنهما موجودان فيها.

ويطلبُ يعقوبُ من أبنائه أنْ لا ييأَسوا من العثورِ على يوسف وأخيه، فإنّ هذا يأسٌ من رَوْحِ الله ورحمتِه وفرجه، ولا ييأَسُ من رَوْحِ الله وفرجِه إلاّ القومُ الكافرون!.

[٢٧]

بين يوسف وإخوته: تعارف وتسامح

توجَّهَ الإخوةُ التسعةُ من جنوب فلسطينَ إلى مصر للمرةِ الثالثة، ومعهم بعضُ البضائع ليشتروا بها حبوباً أُخرى.

أمل الإخوة بلقاء يوسف:

ولكنهم ذاهبون هذه المرة بمهمةٍ أكبرَ من التموين وشراء الحبوب، إنها مهمةُ البحث عن يوسفَ وأَخيه، وتنفيذِ ما كلَّفهم به أَبوهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

ذاهبون وكلُّهم أملٌ بلقاءِ يوسف وأَخيه، حيث غرسَ فيهم أَبوهم

---

(١) المرجع السابق ١:٣٧٦.

هذا الأمل، عندما قال لهم: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فهم الآن مُهَيَّؤونَ نفسياً وشعورياً للقاءِ يوسف، بل هم راغبون في لقائه، وسيتحسَّسون مصر وما فيها ليجدوه ويجتمعوا به.

ودخلوا مصر، واجتمعوا مع العزيز، الذي اجتمعوا معه مرتيْن من قبل، وكان بينهم ما عرضَته آياتُ هذا المشهد.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٨٨ ـ ٩٣].

تسجِّلُ آياتُ هذا المشهد اللقاءَ المثيرَ بين الإِخوة وبين يوسف!

فقد دَخلوا على العزيز، الذي دخلوا عليه مرتيْن من قبل، ونحن نعلمُ مَن هو العزيز في الحقيقة، إنه يوسف! أمّا هم فلا يعلمون. إنهم يدخلون عليه ويكلِّمونه، ولا يفكِّرون أن يكون هو يوسف، ولا يَضعون لهذا أدنى نسبةِ احتمال.

العزيز يوسف يتأثر ويحزن لما أصابهم:

والآن دخلوا عليه كما دخلوا عليه في المرتيْن السابقتيْن، لكنهم الآن يريدون التحسسَ من يوسف وأَخيه، ولعلهم يتحسَّسون عليهما عند العزيز، ولعلَّهم يسألونه عنهما.

أما العزيزُ فقد لاحظَ عليهم في هذه المرة ما آلَمه وأَحزنه، لقد أَثَّرت فيهم السفراتُ الثلاثة المتتابعة، كما أَثَّر فيهم الجدبُ والفقر، وهَدَّهم فَقْدُ أَخيهم الصغير، وإِبقاؤه عبداً، وتأَخُّرُ أَخيهم الكبير.

بدا كلُّ هذا على ملامحهم وأَشكالهم، وعلى كلماتِهم وتعبيراتهم، ولاحظَ يوسفُ هذا على إِخوته، وهو الحصيفُ البصير، فآلَمه وأَحزنه!

ولما كلَّموه أَحسَّ من كلامهم الانكسارَ والضعف، ولمّا استرحموه لمسَ فيهم مزيداً من المرارةِ والشكوى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

علمَ يوسفُ من كلامهم أَنَّ الضرّ قد بلغَ منهم ومِن أَهلهم ما بلغ، ضُرٌّ في الأَبدانِ والنفوس والحياة.

ونفدتْ بضائعُهم، وقلَّتْ أَموالُهم، والآن جاءوا «ببضاعة مزجاة» مخلوطةٍ رديئةٍ ليشتروا بها الحبوب، حيث لم تَبْقَ لهم بضاعةٌ جيدة ثمينة.

وهم الآنَ يَسترحمونَ العزيز ويَسْتَعْطِفُونَهُ، ويرجونه أنْ يقبلَ هذه البضاعةَ الرديئة، وأنْ يبيعَهم بها الحبوب، ولو لم تكن مناسبة: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

بعدَ أنْ لاحظَ يوسفُ على إِخوتِه كلَّ هذا، ولمسَ منهم كلَّ هذا، ووقفَ على مقدارِ الضرِّ الذي أَصاب أَهله، أَيقنَ أَنه آنَ الأوانُ أنْ يكشفَ لهم عن شخصيتِه الحقيقية، وأنْ يتوقفَ عن التخفّي وراءَ شخصيةِ العزيز!!

آنَ الأوانُ أنْ يفاجئَهم بالمفاجأةِ التي لا تخطرُ لهم على بال. إنَّ العزيزَ الذي حدَّثوه ويحدثونه، والذي استرحموه ويسترحمونه، والذي يقفونَ أَمامه الآن بكلِّ انكسارٍ وضعف، هو يوسف، يوسفُ الصغيرُ الذي تآمَروا عليه، وكادوا ضدَّه للتخلص منه. ها هو الآن عزيزُ مصر،

وحاكمُها الأوّل، وها هم الآنَ أمامَه على هذه الصورة!!

إِنها مفاجأةٌ مثيرةٌ مذهلة! لكن لا بدَّ أنْ يخبرَهم، لتنتهيَ رحلةُ آلامهم.

يوسف يعرفهم على نفسه:

وإنَّ يوسفَ حصيفٌ عليه السلام، فلمْ يشأْ أنْ يفاجئهم بقوله: أَنا يوسف أخوكم، حتى لا يصدِمَهم، بل ترفقَ بهم، وذهبَ بهم إِلى الماضي البعيد... قبلَ سنواتٍ وسنوات. فقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؟.

تذكَّروا مؤامرَتكم على يوسف وهو صغير، عندما فعلْتُم به ما فعلتم للتخلصِ منه، وكنتم جاهلين لَمّا قمتم بذلك الفعل، هل علمتم ذلك؟

وتذكَّروا في هذه اللحظات ذلك الماضي البعيد، لا سيما أَنهم الآنَ يتحسَّسون من يوسف وأَخباره، وأَنهم الآن على أملٍ كبيرٍ أنَّ يوسف حي، وأَنَّهُ في مصر، ولعلَّه في منصبٍ كبير في مصر، وهم في بحثٍ دائبٍ للتعرف عليه، وشوقٍ كبيرٍ للقاءِ به..

استحضَروا هذا الجو.. ثم سمعوا كلامَ العزيز بأُذُنٍ جديدة: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؟ إِنها الأُذُنُ المتحسسةُ التي تتسمَّعُ الكلامَ لعلَّها تسمعُ نبرةَ يوسف، ونظروا الآنَ إِلى ملامح العزيزِ بعينٍ جديدة، إِنها العينُ المتحسسة، التي تدققُ فيما ترى من الناس، لعلها ترى في أَحدهم ملامحَ يوسف!!

إِسمعوا: كأَنَّها نبرةُ يوسف! أُنظروا كأَنها ملامحُ يوسف، تحسَّسوا كأَنَّ هذا الذي أمامكم هو يوسفُ نفسه!!.

عندها سألوا العزيزَ وكلُّهم دهشةٌ ومفاجأةٌ وإثارةٌ وانبهار: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟.

وهو سؤالٌ يحملُ كلَّ معاني المفاجأة والدهشة: أَإِنَّكَ لأنت؟! أنتَ يوسف!! أنتَ عزيزُ مصر يوسف؟!

والآن تدركُ قلوبُهم وجوارحُهم وآذانُهم ظلالَ يوسفَ الصغير في ذلك الرجل الكبير..!.

وأسرعَ يوسفُ بالإجابةِ على سؤالهم ليريحَ أعصابهم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾.

وأَشارَ إلى أَخيه الذي أَخذه بتهمةِ السرقة، ليكون عبداً له في الظاهر، مع أنه معزَّزٌ مكرَّمٌ عند أَخيه، والآن يعلمونَ أَنه ليس عبداً للعزيز، ولكنه أَثيرٌ عند الأَخِ العزيز!

ويعلنُ لهم أَنَّ اللَّهَ مَنَّ عليه وعلى أَخيه: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ وهو يتقلبُ في مِنَنِ الله ونِعَمِه وعطاياه، بحيثُ أَوصلَه ربُّه إلى منصبِ الحاكمِ الأولِ لمصر!

نجاح يوسف بالتقوى والصبر والإحسان:

ويجعلُها يوسفُ الحصيفُ الذكيُّ مناسبةً لتقريرِ حقيقةٍ إيمانية، يعلِّلُ بها لإِخوته المشدوهين السببَ في إِنعام الله عليه، وفي إِيصالِه إِلى ما وصل إِليه، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

هذه هي القاعدةُ الإيمانيةُ الربانية التي قرَّرها يوسفُ عليه السلام، والتي علَّلَ بها سِرَّ توفيقه ونجاحِه.

لقد تحققتْ فيه صفاتٌ ثلاثة أَهَّلَتْه لنيلِ فضْلِ الله وإِنعامِه، وهي: التقوى، والصبر، والإحسان.

ولم تفارقْ هذه الصفاتُ الثلاثة يوسفَ في أيِّ مرحلةٍ من مراحل حياته، فصاحبَتْه هذه الصفات عندما كانَ في بيت العزيز، وعندما راودَتْه امرأةُ العزيز، وعندما راودَتْه نسوةُ المدينة، وعندما أُدخلَ السجن،

وعندما تعاملَ مع المساجين، وعندما دَعاهم إلى الله، وعندما قابلَ الملك، وعندما ولي منصبَ عزيزِ مصر، وعندما استلمَ اقتصادَ البلاد، وعندما تعاملَ مع إخوته، . . . كان في كلِّ هذه المراحل والمواقفِ تقيّاً صابراً محسناً، وقد كافأه اللّهُ على صبرِه وتقواه وإحسانه أحسنَ الجزاء في الدنيا، فصارَ في هذا المنصبِ الكبير: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

هذا في جانبِ يوسف الذي عرَّفَ إخوتَه على نفسه، وعلى سرِّ نجاحه.

يوسف يصفح عنهم بعد اعترافهم بالخطأ:

أمّا في جانبِ إخوته فإنَّ الموقفَ أَحرجَهم وأَخجلهم، حيث تذكَّروا ما فعلوه به وهو صغير، فشعروا بالندم.

ثم ها هم يقابلونَ يوسفَ عزيز مصر ثلاثَ مرات، وهو يعلمُ أَنهم إخوتُه، وأَنهم فعلوا به ما فعلوا، ومع ذلك كان يكرمُهم ويُحسنُ إليهم في كلِّ مرة، ولم يعاقبهم أَو يحاسبْهم أَو يعاتبْهم، لقد قابلَ إساءَتهم بالإحسان، وجهْلَهم بالحلم، فازدادوا خجلاً أَمامه.

عندها خاطَبوه قائلين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

اعترفوا له بأنَّ اللّهَ آثَره عليهم، وفضَّلَه عليهم، وأَعطاه ومنَحَه أكثرَ مما أَعطاهم ومنحهم، فهو أَفضلُ منهم عندَ الله، لِما يتمتعُ به من تقوى وصبرٍ وإحسانٍ وحلم وصفح.

كما اعترفوا أَمامَه بخطئهم، وأَقرّوا بذنبِهم وجريمتِهم، وأَعلنوا أنهم كانوا خاطئين في كلِّ ما فعلوه به، خاطِئين في كيدهم ومؤامرتهم وكذبهم و. . .

يكفي هذا الاعترافُ منهم ولهم، ولا داعي لتطويلِ المحاسبة

والمعاتبة، ولا داعي لتطويلِ اعترافهم وإقرارهم، ولا داعي لإجراءِ محاكمةٍ منه لهم، وفتحِ ملفاتِ التحقيق معهم، واستجوابهم على كلِّ ما فعلوه به.

إنَّ صفاتِ يوسف تأبىٰ عليه أنْ يفعلَ بإخوته هذا، ولهذا اكتفى منهم بالاعترافِ بخطئهم، ثم سارعَ إلى إنهاءِ الموقفِ المخجلِ المحرج الذي يقفونَه أمامه، فأعلنَ لهم تجاوُزَه عن كلِّ ما فعلوه به، وصفْحَه عنهم، وإغلاقَ ملفِّ الماضي بكلِّ ما فيه من آلامٍ وأحزان!!

قالَ لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾: لا لَوْمَ ولا تقريعَ ولا تأنيبَ عليكم اليوم، ولا تذكيرَ لكم بما فعلتموه بي بعد اليوم.

إنه في هذا يعلنُ لهم عفْوَه عنهم، ويَدْعوهم إلى فتحِ صفحةٍ جديدة للعلاقةِ به، تَخلو من الحقدِ والحسدِ واللؤم، والمكر والكيد والتآمر. وتحكمُها المحبةُ والمودة والأخوة.

إنه موقفٌ كريم، لا يقفُه إلاّ رجلٌ محسنٌ كريم، وإنه عفْوٌ وتسامحٌ وصفْح لا يقدرُ عليه إلاّ رجل حليمٌ متسامح.

ويُضيفُ يوسفُ إلى هذا أنْ يدعوَ اللّهَ لإخوتِه كي يغفرَ لهم، ويعفو عنهم: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

يوسف يطلب منهم إلقاء قميصه على وجه أبيه والقدوم بأهلهم:

وهكذا تمَّ التعارفُ بين يوسف عزيزِ مصر وبين إخوتِه، واجتمعَ شملُ الإخوةِ الاثني عشر في قصْرِ سيدِهم يوسف عزيز مصر.

وهنا تذكَّرَ يوسفُ أباه يعقوب عليهما السلام، وتذكَّر ما يُعانيه ويكابدُه أَبوه من الهمِّ والبثِّ والحزن والألم لفقْدِه ابنَه يوسف، وما يعيشُه من حسرةٍ لفقْدِ ابنيْه الآخريْن، فيسارع يوسفُ إلى تكليفِ إخوتِه

بالذهاب إلى الأسرة، وإنهاءِ مسلسلِ الابتلاءات والمصائب.

قال يوسف لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

لقد ذهبَ بصرُ يعقوبَ حزناً على يوسف عليهما السلام، وابيضّتْ عيناه لكظْمِه حزْنَه، وإنَّ يوسفَ يعلمُ هذا، لا نقولُ كيف يعلم، فإنَّ يوسفَ نبيٌّ عليه السلام، والنبيُّ يُعْلمه اللّهُ عن طريق الوحي أو الإلهام ما يُريد. لقد أخبرَ اللّهُ يوسفَ بما يعانيه والدُه من آلامٍ وأحزان، وما نتجَ عنها من ذهابِ بصره عليه السلام.

أمرَ يوسفُ إخوتَه بأخْذِ قميصه إلى الأُسرة، وهناك يُلقون القميصَ على وجْهِ أَبيه يعقوب، وعندها سيذهبُ عنه ما يجدُه من ألمٍ في عينيه، وسيعودُ له بصرُه أقوى مما كان!

وإنَّ اللّهَ أَخبرَ نبيَّه يوسف عليه السلام بأنَّ إِلقاءَ قميصِه على وجْهِ أبيه سيعيدُ له بصره، وأمَرَه أن يفعلَ ذلك.

ولقد كانتْ هذه معجزةً ربانية من الله سبحانه وتعالى، وإلاّ فما دخْلُ قميصِ الابن في إعادةِ بصر الأب؟ وما العلاجُ الذي في القميصِ لإِعادةِ البصر؟

إنَّ الأمْرَ ليس أَمراً مادياً، ولا يمكنُ أنْ يُعلَّلَ تعليلاً مادياً. لقدْ أرادَ اللّهُ أنْ يُعيدَ بصرَ الأب عن طريقِ قميصِ الابن! ولا بدَّ أنْ ننظرَ للموضوعِ من هذه الزاوية!!

ثم أَمر يوسفُ إِخوتَه بأنْ يرتحلوا بأهلِهم من جنوبِ فلسطين إلى مصر: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والمرادُ بالأهل: هم وأَبوهم وأُمهم، وزوجاتُهم وأَبناؤهم، وعبيدهم وخدمهم، ودوابهم ومواشيهم.

أي أنَّ الأسرةَ ستنتقلُ كلُّها من فلسطين إلى مصر، لتكونَ إقامتُها هناك.

ونلاحظُ أنَّ يوسفَ عليه السلام صار هو الآمر الناهي، وما على إخوته ـ وهم أكبرُ منه ـ إلاّ التنفيذ. أي: صارتْ قيادتُهم وإمرتُهم إلى يوسف عليه السلام، يوسفُ الذي نَفَسُوا عليه وهو صغير منزلتَه عند أبيه، ففعلوا به ما فعلوا، يوسفُ الآن بفضْلِ الله هو الأميرُ عليهم القائدُ لهم.

ولماذا لا يَخضعون له، وقد خَضعتْ له مصر وما حولَها، سنواتٍ وسنوات، فقامَ بالقيادةِ والمسؤولية خيرَ قيام، عليه الصلاة والسلام!

[٢٨]

الإخوة مع أبيهم: اعتراف واستغفار

كلَّفَ يوسفُ إخوتَه بالعودة إلى الأُسرة، ومعهم قميصُه لعودةِ بصر أَبيه، ثم القدوم بالجميعِ إلى مصر.

وسارَ موكبُ الإخوة عائداً إلى الأُسرة، ووقعتْ لهم أَحداثٌ ومفاجآت، وسارت الخطةُ كما رسَمها يوسفُ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٤ ـ ٩٨].

يعقوب يجد ريح يوسف:

لما كان ركبُ الإخوةِ الأحدَ عشر قريباً من إقامة الأسرة، في جنوب فلسطين، شَمَّ يعقوبُ رائحةَ يوسف!: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

ومعنى ﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾: انفصلت القافلةُ من طريق، ودخلتْ في طريقٍ آخر.

لقد كانَ الإخوةُ يركبون جِمالهم، سائرين في الطريقِ العام من مصرَ إلى فلسطين، وقبلَ أنْ يَقتربوا من مكانِ إقامةِ أهلهم تركوا الطريقَ التجاريَّ العام، وانفصلوا عنه، وفصَلوا إلى الطريق الآخر الموصِل إلى أهلهم.

ولا نَملكُ تحديدَ المكان الذي انفصلتْ عنه العير، وفصلتْ إلى الطريق الآخر.

المهمُّ أَنَّ يعقوبَ عليه السلام شَمَّ ريحَ يوسف، قبلَ أنْ يصلَ أَبناؤه ومعهم القميص. ولا نملكُ تحديدَ المكان الذي كانَ فيه الأبناء عندما وجدَ الأبُ ريحَ يوسف، ولا تحديدَ المسافةِ بين هذا المكانِ وبين يعقوب، عليه السلام!

المهمُّ أنَّ يعقوب، وجدَ ريحَ يوسف، وشمَّ رائحةَ قميصه، من ذلك المكان البعيد!

كان يعقوب كلُّه يقينٌ وأمل أنَّ يوسفَ حي، وأَنه في مكانٍ ما من هذه المنطقة، لأنَّ اللّهَ أَراه رؤيا وهو صغير، ولا بدَّ أنْ يتمَّ تأويلُ الرؤيا عندما يكبر، ولم يتمَّ تأويلُها حتى الآن.

إذن يوسفُ موجود. لكن أين مكانُ وجوده؟ وما هو عملُه؟ وما تفاصيلُ ما جرى له؟ إنَّ يعقوبَ لم يعلمْ هذا، لأنه غيبٌ بالنسبة له، وهو لا يعلمُ الغيب!

صحيحٌ أَنه نبي، لكن النبيَّ لا يعلمُ كلَّ شيء! وهو لا يعلمُ من الغيب إلاّ ما أَعلمه اللّهُ إياه، ولم يُعلمْه اللّهُ عن تفاصيلِ أَمْرِ ابنه يوسف.

وكان يعقوبُ يعيشُ على أَملِ اللقاء بيوسف، وكان هذا الأملُ يملأُ عليه حياتَه ومشاعره، ويَرى أن الأيامَ تقربُ هذا الأملَ إلى التحققِ الواقعي.

ولقد أَرسلَ أَولادَه إِلى مصر ليتحسَّسوا من يوسف وأَخيه، وهو يوقنُ أَنهم سيجدونه، وهو يتلهفُ على سماع أَخبارِ قدومهم، ومعهم النبأُ السارُّ بلقاء يوسف.

في هذا الجوِّ النفسيِّ الكبير وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسف، ولا نعرفُ كيفَ وجدَ هذه الريح، ولا كيفَ شَمَّها، فهذا هو إِلهامُ الله له.

وقد أَعلنَها يعقوب بصراحةٍ للناس الذين معه في المنزل ـ وهم ليسوا أَبناءَه لأَنَّهم في مصر، وقد يكونون أَحفادَه ـ فقال لهم: إني لأَجدُ ريحَ يوسف.

ولكنَّ يعقوبَ يعلمُ موقفَ هؤلاء منه، واستمرارَ لومِهم وتأنيبهم له، ولذلك استدركَ قائلاً: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

قالَ الإمام الراغب: «التَّفنيد: نِسبةُ الإنسانِ إِلى الفَنَد، وهو ضعفُ الرأي»[1].

أي: لولا أنْ تَنسِبوني إِلى ضعف الرأي، وإِلى الهرم والخَرَف، وتقولوا: لقد أصبحتَ شيخاً هَرِماً خَرِفاً، لا تعرفُ ما تقول، بل تَهذي هذياناً. فأَينَ أنتَ من يوسف؟ الذي ماتَ قبلَ سنوات عديدة، وأنتَ ما زلتَ تعيشُ على ذكراه، وتَهذي بشمِّك لريحه!!

لوم يعقوب والمفاجأة بحياة يوسف:

لقد كانَ يعقوبُ بكلامه هذا يعلمُ موقفَ أَهله، وما سيردّون به على كلامه، ولذلكَ سرعان ما ردّوا عليه: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

إِنهم ما زالوا يتوقَّحون على النبيِّ الكبير عليه السلام، ويُسيئونَ له القول، ويكلمونَه بغلظةٍ وشدة وقسوة، ولا يحترمونَ رأيَه، ولا يُراعون شعورَه.

---

(١) المفردات: ٦٤٦.

قالوا ليعقوب: واللّهِ إنك ما زلتَ تفكرُ في يوسف، وهذا ضلالٌ وخطأٌ منك، إنك لا تريدُ أنْ تصدِّقَ أنه مات منذ ذلك اليوم، وأنَّ الذئبَ قد أكله، وتقول: إنه حي، وإنه موجود. ألا تريدُ أن تتخلى عن هذا الهذيان؟ وتتركَ هذا الخطأَ الكبير؟ والضلالَ القديم!!

وبعدَ قليلٍ تقعُ المفاجأة، ويَثبتُ للقومِ أنَّ يعقوبَ ليس على ضلالِه القديم، بل هو على حقٍّ واضح، فيوسفُ حي، وها هم الركبُ المسافرون يَصِلون، ومعهم قميصُ يوسف، وها هو البشيرُ يُلقي قميصَ يوسف على وجهِ يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا...﴾.

وفوجِئَ أَهلُ يعقوب عليه السلام بقدومِ البشير يحملُ معه قميصَ يوسف، إذن يوسفُ عليه السلام حيّ، ويعقوبُ عليه السلام على حق، عندما كانَ يعيشُ على أملِ لقاء يوسف، ويخبرُهم دائماً عن حياته.

وسُميَ حاملُ قميصِ يوسف بشيراً: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ لأنه يحملُ معه البشارةَ العظيمةَ السارة ليعقوب، البشارةَ العمليةَ بوجود يوسف وحياته، البشارةَ المتمثلةَ بقميص يوسف.

وفوجِئَ أهلُ يعقوب جميعاً بتحقُّقِ المعجزة الربانية، كما أخبرَ يوسفُ إخوتَه عندها، لَمّا قال لهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

فما أنْ وَضعَ الأخُ الذي يحملُ القميص، البشارةَ التي معه ـ وهي القميص ـ على وجهِ أبيه يعقوب، حتى رجعَ له بصرُه على أفضلِ صورة: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

إنَّ عودةَ البصرِ ليعقوبَ معجزةٌ من الله، والذي أَعادَ له بصرَه هو الله، وقدَّرَ اللّهُ أنْ يكونَ قميصُ يوسف هو الأداةَ والسببَ الماديَّ المباشرَ في ذلك.

وفرحَ الأهلُ جميعاً بفرحتيْن عظيمتيْن:

فرحوا بوجودِ يوسف وحياته، والمكانةِ العظيمة التي وصلَها بأمر الله، إنَّ أَخاهم يوسفَ هو الحاكمُ الفعليُّ لمصر!

وفرحوا بعودةِ بصرِ أَبيهم يعقوب، وزوالِ المرض عنه، وانتهاءِ آلامه وأَحزانه بالعثورِ على يوسفَ عليه السلام.

يعقوب يذكرهم بما قاله لهم:

وفي هذا الجو من الفرحةِ والسرورِ قالَ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لقد سبقَ أن قالَ لهم هذه العبارة، عندما عَذَلوه ولاموه على استمرارِ تذكُّره ليوسف، وعندما أَعلن أَسفه على يوسف لَمّا علمَ بما جرى لابنه الصغير، فقالوا له: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

عندها قال لهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إِني أَعلمُ أنَّ يوسف حي، وأنتم لا توافقونَني على ذلك، وتلومونَني على هذا العلمِ والشعور، مع أَني أعلمُ من الله بشأن يوسف ما لا تعلمون.

والآن، وبعدَ أنْ عرفَ الجميعُ أنَّ يوسفَ موجود، وفي أعزّ مكانةٍ وأَعلى منصب، ما زادَ يعقوبُ على أنْ ذكَّرهم بما قالَه لهم من قبل: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لقد قلْتُ لكم من قبل: إِني أَعلم من الله ما لا تعلمون، وأعلمُ أنَّ يوسف موجود، وكنتم لا تصدقونَني، بل كنتم تفنِّدونني وتَعذلونني! فكيفَ بكم الآن؟ ما موقفُكم الآن بعدما عرفْتُم بحياة يوسف؟

الأبناء يعتذرون للأب:

بعد ذلك أَقبلَ الأَبناءُ على أبيهم معتذِرين عن كلِّ ما بدرَ منهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

تذكَّروا كلَّ أخطائِهم مع أبيهم، وعَلموا أَنهم السببُ في كلِّ ما حلَّ بأبيهم وأَخيهم وأُسرتِهم، منذ أنْ حَقدوا على يوسف. وتذكَّروا مسلسلَ الأَحداث المحزنة، التي كانوا هم السببَ فيها، حتى هذا المشهد.

تذكَّروا كلَّ هذا، فشعروا بتأنيبِ الضمير، وَعَرفوا أَنهم كانوا في ما فعلوا مذنبين مخطئين.

والآن اعترفوا بخطئِهم وذنبهم ومعصيتهم، فأَقبلوا على أَبيهم معتذِرين مقِرّين، وطلبوا منه أنْ يستغفرَ اللّهَ لهم، وأنْ يطلبَ من ربه أنْ يتجاوزَ عنهم: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

وهذا الموقفُ نفسه وقَفوه مع أَخيهم يوسف، عندما تعرَّفوا عليه في مصر، وهذا الطلبُ نفسُه طلَبوه من أَخيهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾.

ولقد عَرَفْنا أَنَّ أَخاهم يوسفَ عليه السلام عاملَهم بالصفح والتسامح، وسارعَ بالاستغفارِ لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

أَمّا أَبوهم يعقوب فلم يستجبْ لهم بسرعة، ولم يسارعْ بالاستغفارِ لهم كما فعلَ يوسف، وإِنما تمهَّلَ وسوَّف، وردَّ عليهم بقوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ويبدو أَنَّ السببَ هو عمقُ تأثُّرِه بما فعلوه به وبابنه، حيثُ تركتْ أفعالُهم في نفسه ومشاعرِه جرحاً عميقاً غائراً، كثيراً ما آلَمه وأَحزنه، وسبَّبَ له ما سبَّبَ من الهموم والمصائب.

ولهذا لا يستطيعُ أَنْ ينسى كلَّ هذا بسرعة، ولا أَنْ يصفوَ لهم - رَغْمَ أنهم أبناؤه - بسرعة!

صحيحٌ أنّه نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام، وأنَّ أخلاقَه نبويةٌ كريمةٌ عالية، وأنه أَسبقُ من غيره - لنبوَّته - في الصفحِ والعفو والتجاوز؛ لكنه لا يستطيعُ فعْلَ ذلك بسرعة، لأنه إنسانٌ ذو مشاعرَ وأَحاسيس، وقد عانى من أبنائِه وأَخطائِهم ما عانى، ومرَّتْ على آلامِه وأحزانِه التي سبَّبوها له سنواتٌ وسنوات! فهل يستطيعُ أنْ ينسى كلَّ هذا في دقائقَ معدودات؟؟

إِنه سوفَ يغفرُ ويصفح، وسوفَ يعفو ويسامح، وسوفَ يصفو ويسكن، لكن بعد فترة، وعند ذلك سيستغفرُ اللّهَ لهم.

من أَجلِ هذا المعنى «سَوَّفَ» في استغفاره، وأَرادَ منهم أنْ يُمهلوه قليلاً.

ولقد صفا يعقوب لأَبنائِه بعد ذلك، فصفحَ عنهم وسامحهم، ثم استغفرَ اللّهَ لهم، واستجابَ لطلبهم. وبذلك تجاوزَ عن ماضيهم، وتناسى أَفعالَهم، وتعاملَ معهم على أَساسٍ جديد، لأنهم فتحوا معه صفحةً جديدة، تخلّوا فيها عن نقائِصهم، وتركوا ذنوبَهم وأخطاءَهم، وسادتْ بينهم وبينَ يوسف روحُ المودةِ والمحبة والأخوة والتعاون.

ولا بدَّ أنْ نشيرَ هنا إلى الفرقِ ما بين يوسف وأَبيه يعقوب عليهما السلام، فيوسفُ كان أسرعَ استجابةً لطلبِ إِخوتِه، وأَسرعَ صفحاً وتسامحاً، رغمَ أَنه عانى من إخوته ما عانى، قد لا تقلُّ عن معاناة أبيه، فهما شخصيتان: شخصيةُ الأبِ المكلوم، وشخصيةُ الابن الأسرعِ صفحاً وتسامحاً، عليهما الصلاة والسلام!!

[٢٩]

استقرار الأسرة في مصر

ها قد اقتربتْ أَحداثُ قصةِ يوسف عليه السلام من نهايتها، وها هو تأويلُ رؤيا يوسف العمليُّ قد اقترب.

فلما عادَ بصرُ يعقوب إليه، تجهزت الأُسرةُ كلُّها للارتحال إلى مصر، تنفيذاً لأمْرِ يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

يعقوب يذهب بأهله إلى مصر:

أَخذَ يعقوبُ عليه السلام أهلَه جميعاً، أبناءَه وعائلاتهم، وخدمَهم وعبيدَهم، ودوابَّهم ومواشيهم، وأَموالَهم وأغراضهم... وسار الموكبُ الإيمانيُّ من جنوب فلسطين إلى مصر، ليستقروا جميعاً عند يوسفَ عزيز مصر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

وصلَ الموكبُ إلى مصر، ودخلوا جميعاً على يوسفَ عليه السلام، عزيزِ مصر وحاكمها الفعلي.

وقدمَ يعقوبُ وامرأتُه على ابنهما يوسف، وتخيَّلْ كيف سيكونُ اللقاءُ بين الابن وأَبيه، بعد غيابٍ قسري استمرَّ سنواتٍ عديدة، وكلُّ واحد منهما عنده من الشوقِ لِصَاحِبِه كما عندَ الآخر!

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩)﴾.

آوى يوسفُ أَباه وأُمَّه أَحسنَ إِيواء، وأَكرمهما أَحسنَ إكرام، وأَحلَّهما في أَعلى منزلة.

وهيأ لإخوتِه وأُسرتِه أفضلَ الأماكنِ للإقامة، وقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

وهكذا اجتمعَ شملُ الأسرة، لكن في مصر وليس في بلدِ النشأة فلسطين، وهكذا استقرَّ الأبُ والأمُّ والأبناءُ والعائلاتُ في مصر.. وهكذا ارتحلَ أَبناءُ يعقوب إِلى مصر، وهكذا كان بنو إِسرائيل في مصر، وهذه هي أولُ هجرةٍ لبني إِسرائيل، التي هي الحلقةُ الأُولى في مسلسل الهجرات، الذي صبغَ تاريخَهم كلَّه.

سجود الجميع ليوسف:

وبعدما زالَ عن الوالديْن والإخوةِ وعثاءُ السفر، واستقروا في مصر حولَ يوسف عزيزِ مصر، آنَ الأوانُ لتأويلِ رؤيا يوسف التي رآها وهو صغير: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

أَكرمَ يوسفُ أَباه وأمه، فرفعَهما وأَجلسهما على عرشِ الملك، وكُرسيِّ الوزارة، بينما وقفَ إِخوتُه الأحد عشر أَمامه.. وخرَّ الجميعُ ساجدين له: الأَبوان والإخوة.

سجدوا ليوسفَ عليه السلام، وهو أَمامَهم.

والظاهرُ أَنَّ سجودَهم بين يديْه كان سجوداً حقيقياً، وليس مجردَ انحناءٍ بين يديه، لأَنَّ معنى السجودِ المذكورِ في القرآن هو السجودُ المعروفُ على الأرض.

والدليلُ على هذا صياغةُ الجملة، حيث قالَ الله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾. فإِنَّ معنى فعْلِ «خَرَّ» أنه وقعَ على الأرض، وليس انحنى وهو واقف.

ولم يكن سجودُ الأبويْن والإخوةِ ليوسف سجودَ عبادة، لأنَّ سجود العبادة لا يكونُ إلاّ لله، إنما كان تكريماً منهم ليوسف.

ثم هم عندما سَجدوا ليوسفَ كانوا منفِّذين لأمْرِ الله، لأنَّ اللّهَ هو الذي أَمرهم بالسجود، فسجدوا، فهم في الحقيقةِ كانوا ساجدين لله، وما يوسفُ إلا بمثابةِ قبلةٍ لهم في السجودِ لله!.

وسجودُهم التكريميُّ ليوسف دليلُ أنَّ يوسفَ عليه السلام كان أَفضلَ منهم عند الله، وأعلى منزلة وأرفعَ مكانة، ولعلَّ سجودَ يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام دليلٌ على أفضليةِ الابنِ هنا على أَبيه!!!.

يوسف يتذكر شريط حياته أمام أبيه:

ولما انتهى مشهدُ سجودِهم بين يديه، أقبلَ يوسفُ على أَبيه قائلاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾.

عادت الذاكرةُ بيوسفَ عليه السلام إلى أيام طفولته، فتذكَّرَ الرؤيا التي أَراها اللّهُ له، وتذكَّرَ ما قالَه لِأَبيه، وقاله أبوه له.. تذكَّرَ هذا وهو الآن عزيزُ مصر. قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: ٤ ـ ٦].

تذكَّرَ يوسفُ الآن رؤياه، وما قالَه لأبيه، وما قال أبوه له.. ها هي أُمُّه الشمس، وها هو أَبوه القمر، وها هم إخوتُه الكواكبُ الأحد عشر.. ها هم الجميع ساجدون له. أليس هذا هو ما رآه وهو صغير. ولهذا ناسبَ أنْ يعلقَ يوسف على مشهدِ سجودهم له بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾.

إنَّ تأويلَ الرؤيا هو بيانُ نهايتها العملية، وبُعْدِها الواقعي، لأَنَّ

الرؤيا رمْزٌ نظري إلى حادثٍ عملي مستقبلي، ووَعْدٌ بوقوع ذلك الحادث في المستقبل.

وتأويلُ الرؤيا هو تحقيقُ هذا الوعدِ النظريِّ في صورةٍ عمليةٍ واقعية.

«هذا تأويل رؤياي» وحل العقدة الفنية:

وقصةُ يوسف عليه السلام بحلقاتِها ومشاهدها ولقطاتِها تقومُ على «عُقْدةٍ فنية» - بالتعبيرِ الأَدبي الروائي -. هذه العقدةُ الفنية تقومُ على رؤيا رآها طفلٌ صغير، ترمزُ إِلى مركزٍ عظيم سيكون له وهو كبير، ووعْدٌ بتحقيقِ هذا المستقبل له.

فتأتي حلقاتُ القصة ومشاهدُها لتحقيقِ ذلك الوعد، وتكون خطواتٌ مبرمجةٌ مقصودة لتأويلِ تلك الرؤيا. وكلُّ حلقةٍ أو لقطة، توظَّفُ لتكونَ خطوةً أو لبنةً في تأويلِ الرؤيا، وتحقيق الوعد.

وهكذا أوصلَ اللّهُ يوسف إِلى هذا المركز العظيم، وجاءَ أَبوه وإِخوتُه وسَجدوا بين يديه.

وهذا هو تأويلُ رؤياه التي رآها من قبل، قد جعلها اللّهُ حقاً، حيث انطبقتْ على عالمِ الواقع فعلاً، وهذه هي حقيقتُها.

وبذلك انحلت «العقدةُ الفنيةُ» للقصة، وانتهتْ هذه النهايةَ الإِيمانيةَ المبشِّرَةَ السعيدة، حيث وصلَ الجميعُ إِلى هذه النهاية السعيدة على دربِ الأحزان والآلام والمصائبِ والمحن والابتلاءات!.

حكمة الله في كل ما جرى للأسرة:

وبعدما أَشارَ يوسفُ إلى التأويلِ الفعلي لرؤياه، ذكرَ لأَبيه خلاصةَ قصته وفضلَ اللّهِ عليه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

يقولُ يوسف: اللّهُ عليم يعلمُ ما سيكون لنا، وهو حكيمٌ يقدرُ الأشياءَ التي تقعُ لنا بحكمته، وهو لطيفٌ في إيقاعِ هذه الأشياءَ بنا، يوقعُها بنا بلطْفِه، ويرحمُنا من خلالها برحمته، ويحسنُ إلينا فيها بإحسانِه!

صحيحٌ أنه وقعتْ لنا أحداثٌ مثيرة، وسِرْنا على طريق الأحزانِ والآلام والمحن، لكنَّ اللّهَ أوقعَها بنا بحكمته وعلمِه ولطفه ورحمتِه وإحسانِه.

لقد بدأَتْ قصتي بوساوسِ الشيطان ونزغاته التي ألقاها في صدور إخوتي، ففعلوا بي ما فعلوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾.

وقد نتجَ عن مؤامرتِهم ضدّي أنْ كنتُ في مصر، ووقعتْ لي فيها أَحداث، قضيتُها بإحسانِ الله بي وإنعامِه عليّ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى﴾!

ومن إحسانِ اللّهِ بي أنْ أَخرجني من السجن إلى كرسيّ الوزارة، ومنصب الولاية، أرفعِ منصبٍ في مصر.

وها أنتم الآن عندي بعد أنْ جاءَ اللّهُ بكم من جنوبِ فلسطين، من منطقة البدو: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

وها نحن نرى الآنَ تحقيقَ ما قدره الله، حققَه اللّهُ بلطفِه ورحمته، وعلمه وحكمه.

ولا ننسى أنَّ بدايةَ قصةِ يوسف أَشارتْ إلى علم الله وحكمته، حيث قالَ له أبوه يعقوب: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والآن في خاتمةِ القصة يعلنُها يوسفُ صريحة: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فيتناسقُ بدءُ القصةِ مع ختامها، وكأنَّ كلَّ حلقاتِ ومشاهدِ القصة

تجري في ظلالِ لطفِ الله وعلمه وحكمته.

وهكذا انتهتْ مشاهدُ قصةِ يوسف عليه السلام باستقرارِ الأسرة في مصر، وتتوقفُ روايةُ القصة عند هذه النهايةِ السعيدة.

دعاء ختامي ليوسف وهدفه:

وبقيتْ لقطةُ الختام، تخبرُ عن يوسفَ عليه السلام. قال تعالى: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

هذا دعاءٌ دعا بِه يوسفُ عليه السلام ربَّه، أعلنَ فيه تضرُّعَه وإِنابتَهُ إِلى الله، وأَظهرَ فيه هدفَه ورغبتَه في نيلِ ما عندَ الله.

وهذا الدعاءُ هو أفضلُ ختام فنيٍّ وديني لهذه القصة، لأنه يختصرُ أهمَّ الدروس المُسْتَخْلَصَةِ منها، وكأنَّ يوسفَ عليه السلام في دعائه هذا يُعَلِّمُ كلَّ مسلمٍ أنْ يتمثلَ هذا الدعاء، وأنْ يجعلَه هدفاً له، وأن يختمَ به حياتَه على هذه الأرض.

يقولُ يوسف عليه السلام مناجياً ربَّه متضرِّعاً إِليه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: أنعمتَ عليَّ يا ربِّ بنعمةِ الملكِ والمنزلة والجاه والسلطان، وَوَهَبْتَنِي من ذلك ما وهبْتني، وهي أعظمُ نعمِ الحياةِ الدنيا.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: كانت آيتي في تأويلِ الأحاديث، وتعبيرِ الرؤيا، وكانت سببَ وصولي إلى ما وصلتُ إِليه من المنصب الكبير، وهذا التعليمُ منك، وبفضلك.

ونلاحظُ أنَّ يوسفَ أسندَ العطاءَ إِلى الله، ونسبَ الفضْلَ إِليه، في أهمِّ نعمتين: نعمةِ المنصب والسلطان، ونعمةِ العلم والمعرفة.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أنتَ يا ربِّ قادرٌ على كلِّ شيء، خلقْتَ السموات والأرض..

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: اعتمادي يا ربّي عليك، وليس

على ما أَنا فيه من المنصب والسلطان، فأنتَ الناصرُ الذي ينصرني، وأنتَ المعين الذي يعينني!

«ربِّ إنـي لا أسألكَ سلطاناً ولا صحةً ولا مالاً.. ربِّ إني أسألُكَ ما هو أَبقى وأغنى فتوفَّني مسلماً، وأَلحِقْني بالصالحين.

وهكذا يتوارى الجاهُ والسلطان، وتتوارى فرحةُ اللقاء، واجتماعُ الأهل، ولمةُ الإخوان.

ويبدو المشهدُ الأخير، مشهدُ عبدٍ فَرْد، يبتهلُ إِلى ربِّه أنْ يحفظَ له إِسلامَه، حتى يتوفّاه إِليه، وأنْ يُلحقَه بالصالحين بين يديه..

إِنه النجاحُ المطلقُ في الامتحان الأَخير..»[1].

[٣٠]

مباحث ختامية حول قصة يوسف عليه السلام

قصة يوسف دليل على نبوة محمد:

وظَّفَ القرآنُ قصةَ يوسف عليه السلام دليلاً على نبوةِ محمدٍ ﷺ، وعلى أنَّ القرآنَ كلامُ الله. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقد جاءتْ هذه الآيةُ تعقيباً على قصةِ يوسفَ عليه السلام، فاعتبرت الآيةُ أحداثَ القصة من أَنباءِ الغيب وأَخباره، أخبرَ اللّهُ بها رسولَه محمداً ﷺ.

والملاحَظُ أنَّ بدايةَ السورة أَشارتْ إِلى هذا المعنى، حيثُ قال الله: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٠٣٠.

وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١ - ٣].

إنَّ اللّهَ هو الذي أنزلَ القرآنَ على رسولِه محمد ﷺ. وهو الذي قصَّ على رسولهِ في آيات هذا القرآن أحسنَ القصص، وأخبرَ رسولَه عن أحداثِ السابقين، بما كان غافلاً عنه من قبل، لأنه لم يتعلَّمْ ذلك على يدِ معلِّم، ولم يقرأه في كتاب.

أحداث القصة من أنباء الغيب ووجه دلالتها على النبوة:

ومن القصصِ الذي قصَّه اللّهُ على رسوله في القرآن، قصةُ نبيِّ الله يوسف عليه الصلاة والسلام، فهي نموذجٌ لأحسنِ القصص، وكان الرسولُ محمدٌ ﷺ غافِلاً عنها، غيرَ عالمٍ بتفصيلاتها وأحداثِها..

وأَحداثُ القصة من أَنْبَاءِ الغيب، وهذا يدعونا إلى أَنْ لا نأخذَ أَنباءَ الغيب التي فيها إلاّ من المصدرِ العلميِّ اليقيني الصحيح، وهذا محصورٌ في آياتِ القرآنِ الصريحة، والأحاديثِ الصحيحةِ لرسول الله ﷺ، وأنْ نكتفيَ بها، فلا نذهبُ إلى أيِّ مصدرٍ آخر.

ومعنى هذا أنْ نقفَ عند ما وقفَ عنه القرآنُ والحديثُ الصحيح، وأنْ لا نحاولَ تبيين ما أَبهم، ولا تفصيلَ ما أَجمل، ولا الحديثَ عن ما سكتَ عنه فيهما.

وتؤكِّدُ الآيات على مصدرِ القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

يقولُ الله لرسوله محمدٍ ﷺ: لولا أَننا أَوحيْنا إِليك في هذا القرآن أَنباءَ وأخبارَ وأحداثَ قصة يوسف، لما عرفْتَ أنتَ عنها شيئاً. لأنك ما كنتَ حياً عندما وقعتْ أَحداثُ القصة، وما كنتَ ساكناً عندهم، ولا متحركاً معهم، فكيفَ ستعرفُ تفاصيلَ قصتهم؟

ما كنتَ مع إخوةِ يوسف إِذْ أَجمعوا أَمرهم وهم يمكرون، عندما تآمروا على يوسفَ وهو صغير، ولا عندما اتفقوا على أنْ يَضعوه في غيابةِ الجب، ولا عندنا اتفقوا على الكذبِ على أَبيهم عندما عادوا مساءَ

يبكون. وما كنتَ لَدى أهلِ مصر وهم يمكرونَ بيوسف فتى امرأة العزيز، وما كنتَ لدى النسوةِ وهنَّ يتآمَرْن على يوسف، ولا لدى القوم وقد اتفقوا على سجنه، وما كنتَ لدى يوسف لما كان عزيزَ مصر، ومكرَ ودبَّرَ ليأخذَ أخاه...

ما كنتَ هناك معهم، وما كنتَ حاضراً تلك الأحداث. فكيف تتْلوها على الناسِ في آياتِ القرآن؟ إنَّ هذا دليلُ أَننا أَوحينا إليكَ هذا القرآن، وأَطلعْناك على تفاصيلِ تلك الأنباء!!.

وقد توقَّفَ عرضُ القصةِ في سورة يوسف عندَ جمعِ شمْلِ أسرةِ يعقوبَ في مصر، واستقرارِ أَبناء يعقوبَ جميعاً عند يوسف.

أمّا نبيُّ الله يعقوبُ عليه الصلاة والسلام، فظاهرُ الأَمرِ أَنه توفيَ في مصر، في حياةِ ابنه يوسف.

ولا نعرفُ تفاصيلَ وفاته، وكلُّ ما أَخبرنا عنه القرآنُ أنه أَوصى أَبناءَه بالإسلام، والحياةِ به، والموتِ عليه، وأنه لما كان على فراشِ الموتِ سأَلَ أَبناءه عن دينهم، واطمأَنَّ على حسن إِسلامهم.

هذا ما أَخبرتْنا عنه آياتُ من سورة البقرة. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣].

وقد تكلَّمْنا عن معاني ودلالاتِ هذه الآيات، عندما تحدَّثْنا عن قصةِ يعقوب عليه السلام.

ورود «الأسباط» في القرآن:

ومن الملاحَظِ أنَّ القرآنَ يتحدثُ عن «الأسباط»، عند ذكْرِه لأَسماءِ أَنبياءِ بني إِسرائيل.

وقد حملَ كثيرٌ من المفسرين «الأَسباط» على أبناءِ يعقوب الاثنيْ عشر، فاعتبروهم كلُّهم أَنبياء.

ذُكرتْ كلمةُ «الأَسباط» في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

وفـي قـولـه تـعـالـى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة: ١٤٠].

كما وردتْ كلمةُ «الأسباط» في سورةِ آل عمران، في نفسِ السياق. قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: ٨٤].

كما وردت «الأسباطُ» في سورة النساء، في نفسِ السياق أيضاً. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣].

إنَّ «الأسباطَ» مذكورون في هذه الآياتِ الأربعة كلِّها، ضمنَ نفس الأَنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

وهذا الذكْرُ جعلَ الكثيرين يعتبرون الأسباطَ هم أبناءَ يعقوب الاثني عشر.

فهل هذا صحيح؟ وهل إخوةُ يوسف أنبياء؟ وما معنى الأَسباط؟

إنَّ الذين يعتبرون إخوةَ يوسف أَنبياء يجعلون معنى الأسباط

الأَبناء، فهم أَسباطٌ ليعقوبَ لأَنهم أبناءٌ له من صلبه!

فهل الأسباطُ في اللغةِ هم الأبناء؟ وهل السِّبْطُ هو الابن؟

قال الإمام الراغب في معنى السِّبط: «أَصْلُ السِّبْط: انبساطٌ في سهولة... والسِّبْط: وَلَدُ الوَلد، كأنه امتدادُ الفروع. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي: قبائل. كل قبيلة من نسل رجل»[1].

وقال السمينُ الحلبي عن الأَسباط: «الأَسباطُ جمعُ سبط، وهم في بني إِسرائيل كالقبائل في العرب. وأَحسنُ منه ما قاله الأزهري: الأَسباطُ في ولد إسحاق، والقبائلُ في ولدِ إسماعيل، فعلوا ذلك تفرقةً بين أَولاد الآخرين، أَعني إسحاقَ وإسماعيل.

واشتقاقُ السِّبْط من الامتدادِ والتفريع، لأنَّ السبطَ وَلَدُ الولد، فكأنَّ النسبَ امتدَّ وانبسطَ وتفرَّع.

«... وقيل: اشتقاقُ الأَسباط من السبط، وهو الشجرةُ التي أَصْلُها واحد، وأغصانُها كثيرة.. واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ فتَرجَمَ الأَسباطَ بالأمم، فكلٌّ سبطٍ أُمة. وفي الحديث: الحسنُ والحسين سَبْطا رسولِ الله ﷺ.

قال المبرد: سألتُ ابنَ الأعرابي عن الأَسباط فقال: هم خاصةُ الولد. أي: هم أَولادُ الولد..»[2].

السِّبْطُ في اللغة إذن هو الشيءُ المنبسطُ الممتدُّ المتفرعُ عن الأصل، وهو يطلقُ على وَلَدِ الولَد، وليس على الولد نفسه.

ومعلومٌ عندنا أنَّ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما هما سَبْطا رسول الله ﷺ، وهما ابنان لابنتِه فاطمة رضي الله عنها.

---

(١) المفردات: ٣٩٤.

(٢) عمدة الحفاظ للسمين ٢: ١٩١.

إذن «الأسباطُ» المذكورون في القرآن، ليسوا أَبناءَ يعقوب عليه السلام، بل ذريتَه المتفرعةَ من أبنائه.

أسباط بني إسرائيل هم قبائلهم:

والأَسباطُ في بني إسرائيل كالقبائلِ في العرب، فهم بمعنى الأُمم، كما ورد في صريح القرآن.

قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

«أُمماً» في الآية منصوبة، لأَنها بدلٌ من «أسباطاً». أي: قطَّعْنا بني إسرائيل اثنتي عشرةَ أُمة. ولهذا فجَّرَ اللّهُ لهم من الحجر اثنتي عشرة عيناً، على عدد قبائلِهم وأَسباطِهم.

وإِذا كانت «الأسباط» بمعنى قبائل بني إِسرائيل، فإن الأسباطَ ليسوا أَنبياء، وإِنما ذكرهم الله ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء، على تقديرِ حذف مضاف. والتقدير: وأَنبياءُ أَسباطِ بني إِسرائيل.

أيْ: آمنّا بما أُنزل على الأَنبياء: إِبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأَنَّ اللهَ أخبرنا بأسمائهم أَنهم أنبياء، وآمنّا بالأَنبياء الآخرين الذين بعثهم الله إِلى أَسباط وقبائل بني إِسرائيل، ولم يخبرْنا اللّهُ عن أَسمائهم.

لقد بعثَ اللّهُ إِلى أَسباطِ بني إسرائيل أَنبياءَ كثيرين، لم يخبرْنا إِلاّ عن أَسماءِ قليلٍ منهم. كما قالَ تعالى عن الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾ [غافر: ٧٨].

الراجح عدم نبوة إخوة يوسف:

وإذا كان الأسباطُ ليسوا أنبياء، وإنما هم قبائلُ بني إِسرائيل الذين بعثَ اللّهُ لهم الأَنبياء، فلا بدَّ أنْ نبحثَ مسألةَ نبوة أبناءِ يعقوب عليه السلام.

الثابتُ في نبوةِ أَبناء يعقوب هو نبوةُ ابنِه يوسف عليهما السلام، فمنْ أنكرَ نبوتَه فقد كفر، لأَنَّ القرآنَ والسنةَ نصّا على نبوته.

أَمّا إِخوتُه الأَحدَ عشر فقد اختلفَ علماءُ المسلمين في نبوتهم، فمنهم مَنْ قال إِنهم أَنبياء، ومنهم من قال ليسوا بأنبياء.

بدايةً نقول: ليس في مصادرِنا الإِسلامية الموثوقة ـ القرآن والحديث ـ نصٌّ على نبوتهم، ولو وُجدَ ذلك لما اختلفَ المسلمون في نبوتهم!

ونقولُ أيضاً: كتاباتُ اليهود في العهدِ القديم على أنَّ كلَّ أَولادِ يعقوب الاثني عشر أَنبياء، لأَنهم أُصولُ وأَجدادُ بني إِسرائيل، فلا بدَّ أنْ ينصَّ أَحبارُ اليهودِ على نبوةِ أَجدادهم!!

ولعلَّه مِن هنا تسرَّبَ هذا القولُ إلى المسلمين، الذين كانوا يذهبون إِلى الإِسرائيلياتِ ورواياتِ العهد القديم، يأْخذونَ منها العلمَ والثقافة، مع أَنَّ الموقفَ الإِسلاميَّ الموضوعيَّ من الإِسرائيليات يرفض ذلك!

إِننا مع الذين يقولون إِن أَبناءَ يعقوبَ الأحد عشر ليسوا أَنبياء، فلا نثبتُ إلاّ نبوةَ ابنِه يوسف فقط عليه السلام.

والدليلُ على عدمِ نبوةِ إِخوته:

لا نُثبتُ النبوةَ لأحدٍ من السابقين إلاّ بآيةٍ صريحة من القرآن، أَو بحديثٍ صحيحٍ مرفوع عن رسول الله ﷺ.

فإذا لم نملكْ هذا الدليلَ اليقينيَّ في إِثباتِ نبوةِ مَن اختُلف في

نبوته من السابقين، وقلْنا إِنه نبي، فنخشى أنْ نقعَ في محظورٍ كبير، فنُثبتُ نبوةَ مَنْ ليس نبياً، فكما أنه لا يجوزُ نفيُ نبوةِ أحدِ الأنبياء، كذلك لا يَجوزُ الإضافةُ على الأَنبياء، وإِدخالُ ما ليس نبياً عليهم! فهل يجوزُ أنْ نؤمنَ بنبوةِ مَنْ ليس بنبي؟؟.

ثمّ إنَّ تصرفاتِ وأفعالَ إخوة يوسف لا يمكنُ أنْ تصدرَ عن أنبياء، ولو قَبْلَ أنْ يكونوا أنبياء.

ومن الجرائم الخطيرة لهم، التي تكلَّمْنا عنها فيما سبق: سوءُ كلامِهم مع أَبيهم النبيِّ يعقوب عليه السلام. فمرةً يقولون: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ومرةً يقولون له: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾. ومرةً يقولون له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾!!

فهل يقولُ مؤمنٌ صالحٌ هذا الكلام لأَبيه المؤمن؟ فكيفَ يقولُه مَنْ سيكونون أَنبياء لأبيهم؟

ومن جرائمهم: الكذب، فقد كَذَبوا على أَبيهم عندما اتهموا الذئبَ بأكْلِ يوسف، وكَذَبوا على يوسف ـ عزيز مصر ـ عندما قالوا له: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

فهل يكذبُ النبيُّ بعدَ النبوة؟ بل هل يكذبُ النبيُّ قبلَ النبوة؟.

ومن جرائمهم: الحقدُ واللؤمُ والكيدُ والتآمر، وهي أَمْرَاضٌ وانحرافاتٌ أخلاقية وعُقَدٌ نفسية، لا تصدرُ عن مَنْ سيكونون أَنبياء.

وتتنافى مع السماحةِ واليُسر والطيبة، الصفاتُ الملازمةُ للأنبياء قبلَ أنْ يكونوا أنبياء.

ومِن أَفظعِ جرائمهم: ما فعلوه بأَخيهم الصغير يوسف، فهلْ يفكرُ مَن سيكونون أَنبياء بقتْلِ أَخيهم الصغير؟ وإِذا ما استفظعوا القتلَ فهل يُلقونَه في البئر؟. ولولا رحمةُ الله التي أدركتْ يوسفَ الطفلَ في البئر لكان فيه موتُه وهلاكُه!

لهذه الجرائمِ التي صدرتْ عن إِخوةِ يوسف نقول: لم يكونوا أَنبياء!! ودَعْكَ من دعاوى ومزاعمِ أَحبار اليهود التي سجَّلوها في رواياتِ العهد القديم المحرفة!.

كلُّ ما نَقولُه عن إِخوة يوسف عليه السلام: كانوا في أَفعالهم الخاطئة التي سجلَتْها لهم آياتُ سورة يوسف عُصاةً مخطئين، ارتكبوا تلكَ الذنوبَ والآثام.

وبعد ذلكَ شعروا بتأنيبِ الضمير، فتابوا إِلى الله، وأَنابوا له، واستغفروا من ذنوبهم، بل طَلبوا من أَخيهم يوسفَ أَنْ يستغفرَ اللّهَ لهم، كما طلبوا هذا من أبيهم.

وبعدَ ذلك تابوا وأَنابوا، واستقاموا وأَصلحوا، فأَقصى ما وصلوا إِليه أَن يكونوا مؤمنين صالحين، وعابدين محسنين، وبهذا ختموا حياتَهم!!

مبهمات في ما جرى للأسرة بعد ذلك:

ومِن مبهماتِ خاتمةِ قصة يوسف عليه السلام في مصر، أَنَّ السياقَ القرآني وقفَ عند استقرارِ الأسرةِ كلِّها في مصر، عندَ يوسف عزيز مصر.

ولا نعرفُ ماذا جرى لهذه الأسرةِ بعد ذلك، لعدمِ وجودِ أَدلةٍ إسلاميةٍ يقينية نعتمدُ عليها.

ومن الأسئلةِ التي نتوقفُ في الإِجابةِ عليها، لأنَّ الإِجابةَ عليها تعيينٌ للمبهمات بدون دليل: أينَ استقرت الأُسرةُ في مصر؟ وماذا عملت الأُسرةُ بعد استقرارها؟ وكيفَ ومتى وأينَ توفِّي يعقوبُ عليه السلام؟ وكم سنةً عاش يعقوبُ في مصر؟

كما لا نَعْرِفُ كم سنةً بقي يوسف عليه السلام في منصبِ عزيزِ مصر، ولا ماذا كانتْ نهايةُ قصتهِ مع امرأةِ العزيز، وهل تزوجَها أو لا؟ ومَن هم أولاده؟ وكم عددُهم؟

ولا نعرفُ هل بقيَ يوسفُ في منصبِ عزيز مصر حتى تُوفي؟ أو تركَ المنصبَ قبلَ وفاتِه؟ وإذا كان كذلك فما هي أسبابُ تركه المنصب؟ وماذا جرى له بعدما تركَ المنصب.

وبالنسبةِ لنبوة يوسف عليه السلام ودعوتِه لأهل مصر، فلا نعرفُ تفاصيلَ دعوتِه الإيمانية للمصريين، ولا أثرَ دعوتِه فيهم، ولا مَنْ استجابَ لدعوتِه وآمَن، ولا مَنْ رفضَ الدعوةَ وأَصرَّ على كفره.

مبهمات في نهاية يوسف ووفاته:

كما أنَّ كلَّ ما يتعلقُ بوفاةِ يوسف عليه السلام من المبهمات: تحديدُ عمره عندَ الوفاة، بيانُ ملابساتِ الوفاة، تحديدُ زمانِ ومكانِ وكيفيةِ الوفاة، تحديدُ مكانِ القبر الذي دُفن فيه.

فقطْ هناك إشارةٌ قرآنية إلى وفاةِ يوسف عليه السلام، وهي ذاتُ إيحاءٍ خاص.

فلما بَعثَ اللّهُ موسى نبياً عليه السلام، وأَرسلَه إلى فرعون، وقامَ موسى بدعوةِ فرعونَ إلى الله تعالى، ورفضَ فرعونُ دعوتَه، وأرادَ قتْلَه، وقفَ رجلٌ مؤمن من آل فرعون، يدافعُ عن موسى عليه السلام، وقد ذَكَّرَهم هذا الرجلُ المؤمنُ بعهدِ يوسفَ عليه السلام، وعَبَّرَ عن وفاتِه بالهلاك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

ومما يمكنُ أنْ نستنتجَه من هذه الآية:

- إنَّ اللّهَ بعثَ يوسفَ عليه السلام نبياً رسولاً إلى المصريين.

لماذا التعبير عن وفاة يوسف بالهلاك؟:

- إنَّ يوسفَ قامَ بدعوةِ المصريين إلى الله، وإنه وظَّفَ منصبَه

الكبير «عزيز مصر» توظيفاً دعوياً.

- إنَّ يوسفَ قدمَ للمصريين الآياتِ البيناتِ على نبوته، والأدلةَ والبراهينَ على دعوته، ليصدِّقوه ويتابعوه.

- إنَّ المصريين كانوا يَعرفون أنَّ يوسفَ نبيٌّ رسول داعية.

- إنَّ المصريين لم يتجاوبوا معَ دعوته، ولمْ يَستجيبوا لها، إلاّ عددٌ قليل منهم - وهذا مفهومٌ ضمناً -: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

- إن المصريينَ سكتوا عن يوسف لأنه كانَ في منصبٍ تنفيذي كبير «عزيز مصر»، ومعلومٌ أنَّ الناسَ يسكتون عن الرجل الحاكمِ أثناءَ حكمه، وإنْ خالَفوه في رأيه وفكره.

- إنَّ المصريين كانوا ينتظرونَ وفاةَ يوسف بفارغ الصبر، بدليلِ أَنهم اعتبروهَا هلاكاً، ولهذا عبَّرَ لهم الرجُل المؤمن بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾. أي: إذا مات، والتعبيرُ عن الموتِ بالهلاك في هذا الموطن يشيرُ إلى هذا الإيحاء.

- إنَّ المصريين أَعلنوا معارَضتهم لدعوةِ يوسفَ عليه السلام بعدَ وفاتِه وهلاكه، فما أَنْ تُوفّيَ عليه السلام حتى قالوا: لنْ يبعثَ اللّهُ لنا من بعده رسولاً. وكأَنَّهم ارتاحوا، لأنَّهم تخلَّصوا مِنه ومِنْ دعوته!!

يوسف في السماء الثالثة ليلة المعراج:

نختمُ كلامَنا عن وفاةِ يوسف عليه السلام بما قالَه الرسولُ ﷺ عنه ليلةَ المعراج.. حيث روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صعصعة عن رسول الله ﷺ قال في حديث المعراجِ الطويل: «... فأَتَيْنا السماءَ الثالثة، قيل: مَنْ هذا؟ قيل: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقَدْ أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مَرْحباً به، ولَنِعْمَ المجيء جاء..

فأَتيتُ يوسفَ، فسلمتُ عليه. فقال: مَرْحباً بك من أخٍ ونبي..»[1].

لقد وضعَ اللّهُ عز وجل يوسفَ عليه السلام في السماء الثالثة، لاستقبالِ محمدٍ ﷺ، في عروجِه إلى السموات العُلا.

أمّا قبرُ يوسفَ في الأرض فهو مُبْهَمٌ غيرُ محدَّد. وجسْمُه فيه لا يَبلى، لأَنَّ الأرضَ لا تأكلُ أَجسادَ الأنبياء.

وبهذا نختمُ كلامَنا التحليليَّ عن قصةِ يوسف: الكريمِ ابنِ الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة: ٢٢.

قصّة
موسى وهارون
عليهما السّلام



مَدْخل لقصّة موسى ومراحل حياته

[١]

أحوال بني إسرائيل في مصر

تحدَّثْنا سابقاً عن هجرة بني إسرائيل إلى مصر، للإقامة عندَ يوسفَ عليه السلام.

بنو إسرائيل في مصر بعد يوسف:

وقد أَقاموا في مصر فترةً من الزمن، كانوا فيها معزَّزين مكرَّمين من قِبَلِ المصريّين. وقد تُوفيَ في هذه الفترة يعقوبُ ويوسفُ عليهما السلام، كما تُوفِّيَ باقي إخوةُ يوسف.

واستمرَّ بنو إسرائيل في التناسلِ والتكاثر في مصر، وجاءتْ منهم أَجيالٌ جديدة.

وحدثتْ في مصر حوادثُ جديدة، أدَّتْ إلى قيام الفراعنةِ باضطهادِ بني إسرائيل وتعذيبهم.

وهذه الفترةُ الزمنيةُ بين يوسف وموسى عليهما السلام، مسكوتٌ عنها في مصادرنا الإسلامية الموثوقة، المتمثلةِ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ الصحيحة.

وتُمثلُ هذه الفترة «حلقةً تاريخيةً مفقودة»، لا نستطيعُ الخوضَ فيها، ولا البحثَ في تفصيلاتِ أحداثها، لأننا لا نملكُ أَخباراً ومعلومات نعتمدُ عليها في ذلك!

وما جرى في هذه الفترة يعتبرُ عندنا من «مبهمات القرآن» التي لا نعلمُ عنها من مصادرنا الإسلامية شيئاً، ولهذا نتوقفُ في أَحداثها، ولا نرى الذهابَ إلى الإسرائيليات والأخذَ منها.

هذه الفترة من مبهمات القرآن:

لا نملكُ الإجابةَ على أسئلةٍ حول هذه الفترة، مثل: كم كانت المدةُ الزمنيةُ بين يوسف وبين موسى عليهما السلام؟ وفي أيِّ بقعةٍ في مصر كان بنو إِسرائيل يقيمون في هذه الفترة؟ وكم كان عددُ بني إِسرائيل؟ وما هي الأَعمالُ التي كانوا يقومون فيها؟ وكيف كانت نظرةُ المصريين إليهم؟ وما هي أَسبابُ كرهِ المصريين لهم؟ ومتى بدأتْ تتغيرُ نظرةُ المصريين إليهم؟ وما هي التغيراتُ السياسيةُ التي حدثتْ في مصر في هذه الفترة؟ ومَنْ كان يحكمُ مصرَ في هذه الفترة؟ وكم جيلاً كان بينَ يوسف وموسى عليهما السلام؟.

هذه أسئلةٌ نعتبرُ الإجابةَ عليها من مبهماتِ القرآن، ولهذا نتجاوزُها إلى ما هو أَنفعُ وأَجدى!!.

كلُّ ما يمكننا قولُه عن هذه الفترة: أَقام بنو إسرائيل في مصر، مدةً من الزمن، كانوا في أَمانٍ واطمئنان واحترام من قِبَلِ المصريين. ثم جدَّتْ أُمور، أَدت إلى سوءِ الصلة بينهم وبين المصريين، وتوترِ العلاقات بينهما. وبذلك انتهت فترةُ الأمانِ والاطمئنانِ لبني إسرائيل في مصر، وحلَّ محلَّها الاضطهادُ والتعذيبُ والابتلاء، واستمرَّ هذا إلى ما بعد بعثةِ موسى عليه السلام.

وقد أَشارتْ آياتُ القرآن إلى هذا التغيرِ السلبيِّ الذي أصابَ بني إِسرائيل في مصر، وذَكرتْ بعضَ صورِ العذاب الذي صَبَّه الفراعنةُ عليهم.

تغيير لقب الحاكم من ملك إلى فرعون:

ومما يلفتُ النظرَ أَنَّ آياتِ القرآن أَشارتْ إلى تغييرِ نظام الحكم

في مصر، من خلالِ إخبارِها عن حاكم مصر.

كان حاكمُ مصر زمن يوسف عليه السلام يلقَّبُ بالملك، كما مرَّ معنا في قصةِ يوسف، واستمرَّ يلقبُ بالملك فترةً بعد وفاةِ يوسف عليه السلام، ولا نعرفُ عددَ الملوك الذين حكموا مصرَ في هذه الفترة، كما أننا لا نعرفُ أسماءَ هؤلاء الملوك.

ولمّا أَخبرتْ آياتُ القرآن عن اضطهادِ بني إسرائيل بعد ذلك أَطلقتْ على حاكم مصرَ لقبَ «فرعون».

فما سِرُّ تغييرِ لقبِ حاكم مصر، من الملك إلى فرعون؟ هل هذا يعني ـ كما قال المؤرخون ـ طَرْدَ المصريين للذين استعمروهم من الخارج، والذين عُرِفوا باسم الرعاةِ أو الهكسوس، وهم قبائلُ عربية احتلتْ مصر، وقدمتْ من جنوبِ بلاد الشام، ودامَ حكمها لمصرَ عدةَ أجيال، ثم قام المصريون بثورةٍ وطنية بقيادة «أَحْمَسْ» أحدِ أفراد الأسرة الفرعونية الحاكمة من قبل، فطردوا الهكسوسَ العرب، وأَعادوا الحكمَ إلى الفراعنة؟[1].

هذا ما يقولُه المؤرخون، ونحن نتوقفُ في هذا الكلام، فلا نعتمدُه، ولا نرفضُه ونكذبه، والعلمُ عند الله!.

فإنْ صحَّ كلامُ هؤلاء المؤرخين، يكون بنو إسرائيل قد دخلوا مصر زمنَ حكمِ الهكسوس العرب، ويكون حكامُ مصر وقتَها ملوكاً عرباً، ويكون يوسفُ عليه السلام وزيراً للملك العربي الذي حكمَ مصر.

---

(١) صاغ الروائي، نجيب محفوظ، قصة ثورة الفراعنة على الهكسوس في كتابه «أحمس بطل الاستقلال».

ويكون هذا هو سِرَّ تكريمِ ملوك الهكسوس لبني إِسرائيل، على اعتبارِ أنَّ الفريقيْن جاءا من جنوب بلادِ الشام، وأَنهما ليسا من أهلِ البلاد الأصليين.

وإنْ صحَّ كلامُ هؤلاء المؤرخين، تكونُ ثورةُ الفراعنة بقيادة «أحمس» على الهكسوس، ثورةً على الإسرائيليين أيضاً، حيث اعتبروهم عملاءَ للمستعمرين الهكسوس. ويكون هذا هو سِرَّ اضطهادِ الفراعنة للإسرائيليين بعدَ طردِ الهكسوس!

هذا ما يقولُه المؤرخون، ونحن نتوقَّفُ فيه كما قلنا.

لكننا نقررُ أنَّ «المَلِكَ» كلمةٌ عربيةٌ أصيلة، ولعلَّ إِطلاقَها على حاكم مصر زمنَ يوسف عليه السلام، دليلٌ على أنَّ حكام مصر وقتها كانوا عرباً.

أما «فرعون» فإنها كلمةٌ أَعجمية، ولعلَّ إطلاقَها على حاكم مصر زمنَ اضطهادِ بني إسرائيل، دليلٌ على عودةِ حكْم مصر إلى الفراعنة! نذكُرُ هذا من بابِ الاحتمال، وليس من باب الْجزمِ واليقين. والله أعلم.

[٢]

فرعون والفراعنة والفرعونية

قلنا إِنَّ حاكمَ مصرَ زمنَ يوسفَ عليه السلام كان يلقَّبُ بالملك، بينما كان يلقَّبُ بفرعونَ بعد ذلك.

أيْ أَنَّ بني إِسرائيل كانوا معزَّزين مكرَّمين زمنَ ملوك مصر، لكنهم كانوا معذَّبين مضْطهدين زمنَ الفراعنة.

فرعون: لقب على من حكم مصر ومعناه في اللغة:

و«فرعون» لقبٌ أطلقَتْه آياتُ القرآن على كلِّ مَنْ حكَمَ مصرَ في تلك الفترة، ولا يكون اسماً لحاكمٍ معيَّن حكَمَ البلاد. والذي يحددُ

اسمَ حاكمِ البلاد معرفةُ الفترةِ التي حكمَ فيها.

مِن حكامِ مصرَ الذين لُقِّبوا بفرعون، كما قالَ المؤرخون: أحمس، ورمسيس، ومنبتاح، وأخناتون.

و«فرعون» كلمةٌ أَعجمية، ليستْ مشتقة.

قال الإمامُ الراغب في المفردات: «وفرعون: اسم أَعجمي. وقد اعتُبرتْ عرامَتُه، فقيل: تَفرعَنَ فلان: إذا تعاطى فعْلَ فرعون، كما يقال: أَبْلَسَ وتَبَلَّس. ومنه قيل للطغاة: الفراعنة والأبالسة»[1].

وقال عنه السمينُ الحلبي: «فرعون: اسم أَعجمي. يُقال: كلُّ مَنْ ملكَ مصرَ فهو فرعون.. كما أن كلَّ مَنْ ملكَ الرومَ فهو قيصر، ومَنْ ملكَ الفرسَ كسرى، وكلُّ مَنْ ملَكَ اليونان فهو بطليموس، وكلُّ مَنْ ملكَ الحبشَ فهو نجاشي، وكلُّ مَنْ ملكَ حمير فهو تُبَّع.

وقد تصرَّفَتْ فيه العرب، واشتقّوا منه فعلاً، فقالوا: تَفَرْعَنَ فلان: إذا فَعَلَ فعْلَ فرعون. وقالوا: هم الفراعنةُ للعتاة»[2].

ووردتْ كلمةُ «فرعون» أربعاً وسبعين مرةً في القرآن، أحياناً كانت تأتي كلمةُ «فرعون» لَقَباً على حاكم مصر، وأحياناً كانت تُضافُ لها كلمة «آل» أو «قوم». فتقول: آل فرعون، وقوم فرعون[3].

ولقد كانَ فرعونُ حاكماً ظالماً، وكان جَبّاراً طاغيةً مفسداً. وبلغَ مِن عُتُوِّه وتمرُّدِه وكفرِه أنه ادّعى الألوهية، وأنّه كان يقولُ لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

فرعون ادعى الألوهية والربوبية وسر خضوع قومه له:

سَجلتْ آياتُ القرآن هذه المظاهرَ لكفرِ فرعون، وادعائِه الألوهيةَ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٣٢.

(٢) عمدة الحفاظ للسمين ٣: ٢٦١.

(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي: ٥١٥ ـ ٥١٦.

والربوبية، عندما أبلغه موسى عليه السلام الدعوة.

أخبرَ القرآنُ عن ادعائِه الألوهية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

وأَخبرَ القرآنُ عن ادعائِه الربوبية في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ١٧ ـ ٢٥].

وأَخبرَ القرآنُ عن خضوعِ المصريين له، وقبولِهم دعواه الألوهيةَ والربوبية، وعبادتِهم له من دون الله. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وأَخبرَ القرآنُ عن تجبرِ فرعون وغطرسته، واستهانتِه بقومه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وعلَّلَ القرآنُ سرَّ استخذاءِ المصريين وذُلِّهم أمامَ فرعون، وطاعتِهم له، ورضاهم أنْ يستخفَّ بهم وبعقولِهم، إنَّ السّرَّ هو فسقُهم، ولو لم يكونوا فاسقين كافرين لما تفرعَنَ فرعونُ عليهم، ولما تكبرَ وتجبر، وطغى وبغى!! قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤].

هذه هي تصرفاتُ فرعون، وهي تصرفاتُ كلِّ الفراعنة الذين

حكموا مصرَ في تلك الفترة.

«الفرعونية» مرض نفسي يصيب القادة وأعراضه:

كان فرعونُ مُصاباً بمرضٍ نفسي، يُصيبُ القادةَ والحكام، عندما يبتعدونَ عن الله، ولا يَدينون بدين الحق، إِنه مرضُ «الفرعونية»!! وهو عقدةٌ نفسيةٌ تصيبُ فرعونَ وأمثالَه.

إِنّ هؤلاء يرونَ أنفسهم حكاماً مسؤولين، آمِرين ناهين، ويرونَ الآخرين أَذلّاء مستسلمين، فينسون أَنهم بشرٌ كباقي البشر، وأنَّ حكمَهم للآخرين فرصةٌ لخدمتِهم وتقديمِ الخير لهم، وعندما ينسونَ ذلك تُسَوِّلُ لهم نفوسُهم أنهم آلهةٌ وأرباب، فيَدْعون أَتْباعَهم وأقوامَهم إِلى تأليههم وعبادتِهم، ويتعاملون معهم بمنتهى درجاتِ الازدراءِ والاستخفافِ والاحتقار! فيقصمُهم الله، ويأخذُهم أخْذَ عزيز مقتدر.

هذا ما قالَه اللّهُ عن فرعونَ وأمثالِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

إنَّ «الفرعونيةَ» ظاهرةٌ مرضيةٌ خطيرة، تصيبُ أَصحابَها في كلِّ زمان ومكان. وإنَّ «فرعون» نموذجٌ مكرورٌ في تاريخ البشرية، يتمثلُ في كلِّ حاكمٍ يحكمُ قومه كما حكَمَ فرعونُ المصريين، بمنأى عن دين الله. وما أكثرَ «الفَراعين» في القديمِ والحديث!!

[٣]

اضطهاد فرعون لبني إسرائيل

من أسباب اضطهاد بني إسرائيل:

لما انتقلَ الحكمُ في مصرَ من الهكسوسِ إِلى الفراعنة، قامَ فرعونُ

باضطهادِ بني إسرائيل وتعذيبهم، ولعلَّ الفراعنة اعتبروا الإسرائيليين أعواناً للهكسوس المستعمرين الغزاة، ولهذا صَبّوا غضبَهم عليهم.

ونسيَ الفراعنةُ فضْلَ يوسفَ عليه السلام، عندما وَلِيَ أَمْرَهم وحكمَ مصر في أَزمةٍ اقتصاديةٍ حادة، تمثلتْ بسبعِ سَنواتٍ عجافٍ ماحلة، وخرجَ بالبلاد من هذه الأزمةِ بسلامٍ وأمان.

وكان بنو إِسرائيل في مصرَ مؤمنين بالله، موحِّدين له، بينما كان المصريون كافرين مشركين بالله، يَعبدون الأَوثانَ والأصنام، ويَعتبرون فرعونَ نفسَه إِلهاً، وهذا من أَسبابِ العداوةِ بين الفريقيْن، فريقِ الإسرائيليينَ المؤمنينَ بالله العابدين له، وفريقِ المصريين المشركين بالله، العابدين لفرعون!

مظاهر فساد حكم فرعون:

وقد أَشارتْ آياتُ القرآن إِلى مظاهرِ فسادِ حكم فرعون، وذَكرتْ نماذجَ من اضطهادِه وتعذيبِه لبني إِسرائيل.

قال الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

تُلَخِّصُ هذه الآيةُ مظاهرَ فسادِ فرعون في حكمه، وهي:

١ ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ومعنى ﴿عَلَا﴾: تكبَّر وتجبَّر، وانتفشَ وتبختر، وقادَه هذا العلوُّ إِلى الاستكبارِ واستعبادِ الآخرين وإِذلالِهم.

علوُّ فرعونَ في الأرض هو إِصابتُه بأَعراضِ مرضِ «الفرعونية»، فلما رأى نفسه حاكماً نسيَ أنه مخلوقٌ عبدٌ عاجز، ونسيَ أن اللّهَ ابتلاه بالحكم ليخدمَ قومَه ويُسعدَهم، فانتفشتْ نفسُه، ورأى نفسَه إِلهاً، فتألَّهَ ودعا قومَه إِلى عبادتِه!

ولا يمكنُ أنْ يكونَ الحاكمُ صالحاً مصلحاً إِذا عَلا في الأرض،

لأنَّ العلوَّ في الأرض هو أَساسُ فسادِ وإِفسادِ أيِّ حاكم.

وإِنَّ العلوَّ في الأرض هو الصفةُ العامةُ لكلِّ قومٍ كافرين، يُمَكِّنُ اللّهُ لهم في الأرض، ولكلِّ حاكمٍ يحكمُ قومَه بعيداً عن منهج الله. ولهذا أَخبرَ اللّهُ عن علوِّ بني إِسرائيل وإِفسادهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

٢ - ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾:

هذا هو المظهرُ الثاني لفسادِ حكْمِ فرعون، وهو نتيجةٌ لعلوِّه في الأرض.

قسَّمَ فرعونُ أهلَ مصرَ إِلى شيعٍ وجماعاتٍ وأحزاب، مختلفةٍ متعارضة، وحرصَ على التفريقِ بينهم، فمنهم المؤيِّدون له، المقرَّبون عنده، كالملأ والوزراءِ والسحرة، ومنهم المعارِضون المخالفون له، الذين أَبعدَهم وأَقْصاهم وأَهملهم، ومنهم المعادون له، الذين اضطهدَهم وعذَّبهم كبني إِسرائيل.

جعلَ فرعونُ أهلَ مصر شيعاً ليتحكَّم بهم، وفقَ القاعدةِ الفرعونيةِ التي يطبقُّها كلُّ حاكمٍ مستبدٍ متفرعن: «فَرِّقْ تَسُدْ»!

إِنَّ الأصلَ في الحاكم هو أَنْ يجمعَ بين المحكومين، وأَنْ يؤلِّفَ بين قلوبهم، لا أَنْ يفرقَ بينهم، ويجعلَهم شيعاً وأحزاباً متفرقين.

٣ - ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾:

نتجَ عن تقسيمِ فرعون المحكومين إِلى شيع وأحزاب، أنه قرَّبَ المؤيدين والموالين، وأَقصى المخالفين المعارضين، واستضعفَ طائفةً منهم وأَهانَهم، واحتقرَهم وأذلَّهم.

وإهانةُ الحاكمِ لطائفةٍ من شعبه، واستضعافُه لهم، طريقةٌ فرعونيةٌ في الحكم.

٤ - ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾:

هذه خطوةٌ تاليةٌ ناتجةٌ عن استضعافِ فرعون لطائفةٍ من شعبه، حيث كان يأمرُ بتذبيحِ وتقتيلِ أبناء هذه الطائفة الذكور، ويقضي عليهم، بينما كان يترك نساءَ هذه الطائفة يعشْنَ حياتهنَّ بذلةٍ ومهانة، لا معيلَ لهنَّ من الرجال.

كيفَ يأمرُ فرعونُ بذبحِ وقتلِ أبناءِ طائفةٍ من شعبه؟ مع أنه مطالَبٌ بالحرصِ عليهم، وحفظِ دمائهم! وماذا يستفيد فرعون إذا قضى على رجالِ طائفةٍ من شعبه؟ وهل يشرفُه أنْ يحكمَ مجموعةً من النساء المستضعَفات؟ إنه المنطقُ الفرعونيُّ العجيب!

٥ - ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

هذه هي النتيجةُ الحتميةُ لحكم فرعون، التي توصِلُ لها كلُّ المراحلِ والمظاهرِ السابقة. ما هي الصفةُ المناسبةُ لحكْم حاكم متفرعن، عَلا في الأرض، وجعلَ شعبَه شِيَعاً مختلفة، واستبعدَ المخالفين، واستضعفَ طائفةً منهم، وذبَّحَ أبناءها الذكور، واستحيا بناتها النساء؟ ما هو الوصفُ الملائمُ لهذا الحكم؟ إنه الفسادُ والتخريب!

وماذا يقالُ عن الحاكم الذي يرتكبُ هذه الممارسات؟ إنه لا يكونُ إلاّ حاكماً مفسِداً مُخرِّباً. ولهذا قالَ اللّهُ عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

هذه المظاهرُ الخمسةُ لحكم فرعون، هي نفسُها مظاهرُ حكْمِ أيِّ حاكمٍ متفرعنٍ مستبد، يسيرُ على خُطا فرعون، ويَقْتدي به، ويُصابُ بأعراضِ مرضِ الفرعونية، ويحكمُ شعبَه بعيداً عن منهجِ الله.

والمقصودُ بقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بنو إسرائيل، الذين كان فرعونُ يستعبدُهم ويضطهدُهم، فيقتل أبناءهم الذكور، ويُبقي على حياةِ بناتهم الإناث.

تذكير بني إسرائيل بنعمة نجاتهم من فرعون:

وقد أَشارتْ آياتُ القرآن إلى هذهِ الطريقةِ الفرعونية العجيبة في التعذيب، وذلك في سياقِ تذكيرِ بني إسرائيل بنعمِ اللّهِ عليهم في تخليصِهم من فرعون وتعذيبه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٤١].

الآيتان في سورتي البقرةِ والأعراف تتحدثانِ عن نفس الموضوع، وتُخبِرَانِ عن طريقة فرعون في تعذيبِ بني إسرائيل، لكن بينهما فروقٌ في الصياغة، وهذا ردٌّ على مَنْ يزعمُ التكرارَ في القرآن.

نلاحظُ الفرقَ في التعبير عن النجاة، حيث قالتْ سورةُ البقرة ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾، وقالت سورةُ الأعراف ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾.

كما نلاحظُ الفرقَ في التعبير عن ذبحِ الأَبناء، حيث قالت سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وقالت سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾.

وليس هذا موطن بيانِ الحكمةِ من الاختلاف في التعبير، وتوجيهِ هذا المتشابه اللفظي من القرآن!!

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يصبّون عليكم العذاب. و«السَّوْمُ» هو الرعيُ. تقول: هذه إِبِلٌ سائمة، لأنها ترعى العشب.

والتعبيرُ عن إيقاعِ العذاب بالسومِ يوحي بشدةِ واستمرارِ هذا العذاب، وكأنَّ العذابَ تَحَوَّلَ إلى وجباتِ طعامٍ دائم يأكلونه، كما تأكلُ الماشيةُ العشب!

وقد ذَكّرَ موسى عليه السلام قومَه بنعمةِ تخليصِهم من عذاب فرعون وآله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٦].

[٤]

موسى وهارون وفرعون وبنو إسرائيل

إحصائية قرآنية

قصةُ موسى عليه السلام من أكثرِ القَصص وروداً في القرآن، سواء قصته مع فرعون، أو قصته مع بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، فلا تكادُ تخلو سورةٌ من السورِ الطويلة أو المتوسطة من قصته.

وقبلَ الدخولِ مع تفاصيلِ قصته عليه الصلاة والسلام، نحبُّ أنْ نقومَ بإحصائيةٍ قرآنية لمرّاتِ ومواضعِ ذكْرِ قصته.

المفرداتُ التي تتعلقُ بقصة موسى خمسة، هي: موسى، هارون، فرعون، بنو إسرائيل، اليهود.

وفيما يلي قائمةٌ بعددِ مراتِ إيرادِ كلِّ مفردةٍ منها، والسورِ التي وردَتْ فيها، وعددِ ورودها.

السور التي ذكر فيها موسى وهارون:

١ ـ موسى في القرآن:

ذُكِرَ موسى عليه السلام في القرآن مائةً وستاً وثلاثين مرة، موزعة على السور كما يلي:

١ ـ سورة البقرة: ثلاث عشرة مرة.
٢ ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.
٣ ـ سورة النساء: ثلاث مرات.
٤ ـ سورة المائدة: ثلاث مرات.
٥ ـ سورة الأنعام: ثلاث مرات.
٦ ـ سورة الأعراف: إحدى وعشرين مرة.

٧ ـ سورة يونس: ثماني مرات.
٨ ـ سورة هود: ثلاث مرات.
٩ ـ سورة إبراهيم: ثلاث مرات.
١٠ ـ سورة الإسراء: ثلاث مرات.
١١ ـ سورة الكهف: مرتان.
١٢ ـ سورة مريم: مرة واحدة.
١٣ ـ سورة طه: سبع عشرة مرة.
١٤ ـ سورة الأنبياء: مرة واحدة.
١٥ ـ سورة الحج: مرة واحدة.
١٦ ـ سورة المؤمنون: مرتان.
١٧ ـ سورة الفرقان: مرة واحدة.
١٨ ـ سورة الشعراء: ثماني مرات.
١٩ ـ سورة النمل: ثلاث مرات.
٢٠ ـ سورة القصص: ثماني عشرة مرة.
٢١ ـ سورة العنكبوت: مرة واحدة.
٢٢ ـ سورة السجدة: مرة واحدة.
٢٣ ـ سورة الأحزاب: مرتان.
٢٤ ـ سورة الصافات: مرتان.
٢٥ ـ سورة غافر: خمس مرات.
٢٦ ـ سورة فصلت: مرة واحدة.
٢٧ ـ سورة الشورى: مرة واحدة.
٢٨ ـ سورة الزخرف: مرة واحدة.
٢٩ ـ سورة الأحقاف: مرتان.
٣٠ ـ سورة الذاريات: مرة واحدة.
٣١ ـ سورة النجم: مرة واحدة.
٣٢ ـ سورة الصف: مرة واحدة.
٣٣ ـ سورة النازعات: مرة واحدة.
٣٤ ـ سورة الأعلى: مرة واحدة.

والسورُ التي وردَ ذكْرُ موسى عليه السلام فيها أكثر من غيرها، حسبَ الترتيبِ التالي:

الأولى: سورة الأعراف: إحدى وعشرين مرة.

الثانية: سورة القصص: ثماني عشرة مرة.

الثالثة: سورة طه: سبع عشرة مرة.

الرابعة: سورة البقرة: ثلاث عشرة مرة.

الخامسة: سورة يونس: ثماني مرات.

السادسة: سورة الشعراء: ثماني مرات.

٢ ـ هارون في القرآن:

ذُكِرَ اسمُ هارون عليه السلام في القرآن تسعَ عشرةَ مرة، موزعةً على السور التالية:

١ ـ سورة البقرة: مرة واحدة.
٢ ـ سورة النساء: مرة واحدة.
٣ ـ سورة الأنعام: مرة واحدة.
٤ ـ سورة الأعراف: مرتان.

٥ ـ سورة يونس: مرة واحدة.

٦ ـ سورة مريم: مرتان.

٧ ـ سورة طه: أربع مرات.

٨ ـ سورة الأنبياء: مرة واحدة.

٩ ـ سورة المؤمنون: مرة واحدة.

١٠ ـ سورة الفرقان: مرة واحدة.

١١ ـ سورة الشعراء: مرتان.

١٢ ـ سورة القصص: مرة واحدة.

١٣ ـ سورة الصافات: مرتان.

السور التي ذكر فيها اسم فرعون:

٣ ـ فرعون في القرآن:

وَرَدَ اسمُ فرعون عليه اللعنة في القرآن أربعاً وسبعين مرة، موزعةً كما يلي:

١ ـ سورة البقرة: مرتان.

٢ ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.

٣ ـ سورة الأعراف: تسع مرات.

٤ ـ سورة الأنفال: ثلاث مرات.

٥ ـ سورة يونس: ست مرات.

٦ ـ سورة هود: ثلاث مرات.

٧ ـ سورة إبراهيم: مرة واحدة.

٨ ـ سورة الإسراء: مرتان.

٩ ـ سورة طه: خمس مرات.

١٠ ـ سورة المؤمنون: مرة واحدة.

١١ ـ سورة الشعراء: ست مرات.

١٢ ـ سورة النمل: مرة واحدة.

١٣ ـ سورة القصص: ثماني مرات.

١٤ ـ سورة العنكبوت: مرة واحدة.

١٥ ـ سورة ص: مرة واحدة.

١٦ ـ سورة غافر: تسع مرات.

١٧ ـ سورة الزخرف: مرتان.

١٨ ـ سورة الدخان: مرتان.

١٩ ـ سورة ق: مرة واحدة.

٢٠ ـ سورة الذاريات: مرة واحدة.

٢١ ـ سورة القمر: مرة واحدة.

٢٢ ـ سورة التحريم: مرتان.

٢٣ ـ سورة الحاقة: مرة واحدة.

٢٤ ـ سورة المزمل: مرتان.

٢٥ ـ سورة النازعات: مرة واحدة.

٢٦ ـ سورة البروج: مرة واحدة.

٢٧ ـ سورة الفجر: مرة واحدة.

وأكثرُ السورِ التي ذُكِرَ فرعونُ فيها هي:

الأولى: سورة الأعراف: تسع مرات.

الثانية: سورة غافر: تسع مرات.

الثالثة: سورة القصص: ثماني مرات.

الرابعة: سورة يونس: ست مرات.

الخامسة: سورة الشعراء: ست مرات.

السور التي ذكر فيها بنو إسرائيل واليهود:

٤ ـ بنو إسرائيل واليهود في القرآن:

وَرَدَتْ كلمةُ بني إسرائيل في القرآن إِحدى وأربعين مرة، موزعةً كما يلي:

١ ـ سورة البقرة: ست مرات.
٢ ـ سورة آل عمران: مرتان.
٣ ـ سورة الأعراف: أربع مرات.
٤ ـ سورة يونس: ثلاث مرات.
٥ ـ سورة الإسراء: أربع مرات.
٦ ـ سورة طه: ثلاث مرات.
٧ ـ سورة الشعراء: أربع مرات.
٨ ـ سورة النمل: مرة واحدة.
٩ ـ سورة السجدة: مرة واحدة.
١٠ ـ سورة غافر: مرة واحدة.
١١ ـ سورة الزخرف: مرة واحدة.
١٢ ـ سورة الدخان: مرة واحدة.
١٣ ـ سورة الجاثية: مرة واحدة.
١٤ ـ سورة الأحقاف: مرة واحدة.
١٥ ـ سورة الصف: مرتان.

أما كلمةُ اليهود فقد وردَتْ في القرآن تسعَ مرات فقط، في السور التالية:

١ ـ سورة البقرة: ثلاث مرات.
٢ ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.
٣ ـ سورة المائدة: أربع مرات.
٤ ـ سورة التوبة: مرة واحدة.

وهذه السورُ الأربعةُ كلُّها سورٌ مدنية.

بهذه الإحصائيةِ القرآنيةِ نعرفُ أنَّ أكثرَ السورِ حديثاً عن موسى عليه السلام هي سور: البقرة، والأعراف، ويونس، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر، والنازعات.

أما السورُ التي عرضَتْ لقطاتٍ سريعةً من قصته فهي سور: النساء، والمائدة، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والأنبياء، والمؤمنون،

والأحزاب، والصافات، والزخرف، والذاريات، والصف.

وباقي السورِ اكتفتْ بذكْرِ اسمِه فقط، وهي سور: آل عمران، والأنعام، والكهف، ومريم، والحج، والفرقان، والعنكبوت، والسجدة، وفصلت، والشورى، والأحقاف، والنجم، والأعلى.

ومجموعُ السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة. وبهذا نعرفُ أنَّ قصةَ موسى من أكثرِ القَصص وروداً في القرآن.

[٥]
مراحل حياة موسى عليه السلام

بعدَ الاطلاعِ على قصةِ موسى عليه السلام في القرآن، ومحاولةِ ترتيبِ أَحداثِها تَرتَيباً زمنياً، حسبَ حدوثها، فإنهُ يمكنُ أنْ نقسِّمَ حياته إِلى المراحلِ التالية:

المرحلة الأولى: حياةُ موسى عليه السلام من الميلادِ إلى البعثة:

تتحدثُ عن أَجواءِ ولادته، وتُعَرِّفُ بنَسَبه وأُسرته، وتَعرضُ رحلتَه في التابوت من حضْنِ أُمه إِلى قصر فرعون، وتَبَنّي امرأةِ فرعون ثم زوجِها له، وحكمةَ الله في إعادته إِلى أُمّه لترضعَه على حسابِ فرعون، وطفولةِ موسى في قصر فرعون.

ثم تُشيرُ إِلى نشأته على القوةِ والنخوةِ والشجاعة، وتَعرضُ للحادث الذي جرى له عندما قَتَلَ القبطي، وتآمُرِ الملأ من آل فرعون عليه، وخروجه من مصرَ إلى أرض مدين.

وتُبَينُ لنا حياتَه في مدين حوالي عشر سنوات، حيث رعى الغنمَ عند الرجلِ الصالح هناك، وتزوَّجَ ابنتَه مقابلَ ذلك.

وتَعرضُ لنا قصة موسى عليه السلام وقد عادَ بأهلِهِ من مدين إلى مصر، ومناجاةَ الله له عند جبلَ الطور، وإِخبارَه بأنّه اصطفاه نبياً،

وتكليفَه بالذهابِ إلى فرعون، وإعطاءَه العصا واليدَ آيتين له.

المرحلة الثانية: موسى وهارون أمامَ فرعون:

تتحدثُ عن تنفيذِ موسى لأَمْرِ الله تعالى، وذهابِه مع أَخيه هارون عليه السلام إِلى فرعون، وإِخبارِه أنهما نبيّان، بعثَهما الله له.

وتُفصِّلُ هذه المرحلةُ المواجهاتِ بين موسى عليه السلام وبين فرعون: حيثُ قابلَه أَوَّلَ مرة، وأَخبرَه بمهمته، وقَدَّمَ له العصا واليد آية، ورَدَّ فرعونُ على ذلك باتهامه بالسحر، واستشارَ فرعونُ الملأَ فيه، فأَشاروا عليه بجمعِ السحرة ليتحدَّوه ويَغلبوه، ولكنَّ الأَمْرَ انقلبَ ضدَّ فرعون، حيثُ استَبانَ الحقُّ للسحرة، فآمَنوا بموسى عليه السلام، فهدَّدَهم فرعونُ بالتعذيب.

وقد أَرادَ فرعونُ قَتْلَ موسى عليه السلام، فتصدّى له رجلٌ مؤمنٌ من آله، هو «مؤمنُ آل فرعون»، وتولّى الدفاعَ عن موسى عليه السلام، وخاطبَ القومَ خطاباً دعوياً إِيمانياً، فَنَّدَ فيه دعاوى فرعون، ودَعاهم إِلى الدخولِ في دين موسى عليه السلام.

وكلَّفَ فرعونُ وزيرَه هامان ببناءِ الصرحِ العالي ليبحثَ عن إِله موسى، ودعا فرعونُ شعبَه إِلى تأْليهه هو، باعتبارِه هو إِلههم وربَّهم.

وامتحنَ اللّهُ آل فرعون بعدةِ امتحانات وابتلاءات، حيثُ أَخذهم بالعذابِ والمَحْلِ ونَقْصِ الثمرات، وأَرسلَ عليهم الطوفانَ والجراد والقُمَّلَ والضفادعَ والدم. ومع ذلك لم يؤمنوا، وأَصَرُّوا على كفرِهم ومتابعتِهم لمعبودهم فرعون.

وبهذا انتهتْ مهمةُ موسى عليه السلام عند فرعون وملئِه، فلا هم آمَنوا، ولا أَرسلوا معه بني إسرائيل، ولا رَفعوا عنهم الاضطهادَ والتعذيب، بل زادَ تعذيبُهم لهم وقتْلُهم لأولادهم.

وبهذا تنتهي المرحلةُ الثانيةُ من حياة موسى عليه السلام.

المرحلة الثالثة: خروجُ موسى ببني إسرائيل وغرقُ فرعون وجنده:

تتحدثُ عن اللقطاتِ الأَخيرة من المواجهةِ بين موسى عليه السلام وبين فرعون وملئِه، حيثُ أَمره اللّهُ أنْ يَخرجَ ببني إسرائيل ليلاً من مصر، ولما خرجوا لَحِقَ بهم فرعونُ وملؤُه، واستنفرَ جيشَه للقضاءِ عليهم، ولما وَصلوا البحرَ أَمَرَ اللّهُ موسى أنْ يضربَ البحرَ بعصاه، فأَوقفَ لهم الماء، وشَقَّ لهم طريقاً يَبَساً آمناً، فساروا فيه ونجوا جميعاً، ولحقَ بهم فرعونُ وجنودُه، ولما صاروا وسطَ الطريقِ أَطبقَ اللّهُ عليهم الماء، فغرقوا جميعاً، وجَرى حوارٌ بين فرعون ومَلَكِ الموت في اللحظاتِ الأخيرة من عمره، وأَلقى اللّهُ جثته على الشاطئ، ليكونَ لمن خلفه آية.

وبهذا تنتهي المرحلةُ الثالثة، بخروجِه مع بني إِسرائيل من مصرَ إلى سيناء.

المرحلة الرابعة: موسى مع بني إسرائيل في سيناء:

تتحدثُ هذه المرحلةُ عن الأَحداثِ التي جرتْ لبني إسرائيل وهم في سيناء، بعدما أَنجاهم اللّهُ من الغَرق ومن فرعون، فتخبرُ عن طلبهم من موسى إِلهاً صنماً ليعبدوه، وعن ذهابِ موسى إِلى جبل الطور ليناجي ربَّه، حيث أَنزلَ عليه أَلواحَ التوراة، وعن فتنةِ السامريِّ لبني إسرائيل أَثناء غيبته، حيث عبدوا العجلَ الجَسَدَ الذي له خُوار. وعن حادثةِ السبعين رجلاً من بني إسرائيل عند جبل الطور، حيثُ رفعَ اللّهُ الجبلَ فوقَ رؤوسهم.

وتخبرُ هذه المرحلةُ عن نِعَمِ اللّهِ التي أَنعمَ بها على بني إسرائيل، مثل الغمامِ والمَنِّ والسَّلوى وتفجيرِ الاثني عشر عيناً، وتسجِّلُ بعضَ مخالفَاتِ بني إسرائيل ومعاصيهم، وإيذائهم لموسى عليه السلام.

وتختمُ هذه المرحلةُ بمشهدِ تيه بني إسرائيل في سيناء، بعدَ أَنْ جَبُنوا عن دخولِ الأرض المقدسة، وقتالِ الآخرين، فعاقَبهم اللّهُ

بالحرمانِ والتيهِ والتشرد في الصحراء.

خاتمة قصة موسى عليه السلام:

نتحدث فيها عن قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، حيث تتحدثُ الآياتُ عن سببِ توجُّهِ موسى إلى الخضر، وعن مفاجآتٍ مثيرة جَرَتْ له في الطريق، ثم تَعرضُ الحوارَ الذي جرى بينه وبين الخضر، عليهما السلام، وتُرينا ثلاثةَ أفعالٍ وتصرفاتٍ مثيرةً قام بها الخضر، ثم تفسِّرُ لنا تلكَ الأفعالَ الثلاثة.

ثم نتكلم عن وفاتِه ودفْنِه ومكانِ قبره، ثم نتحدثُ عن بني إسرائيل بعده.

ونختمُ كلامَنا عن قصتِه بالحديث عن هيئته وجسمه وشكله، ثم بالحديثِ عن ما جَرى بينه وبين رسولنا محمد ﷺ في عالم الغيب، وعن ما جرى بينه وبين أَبينا آدم عليه السلام، وعن بعضِ فضائله ومزاياه عليه الصلاة والسلام.

وفي المباحثِ التالية تفصيلُ القولِ عن مراحلِ حياته، وتطوراتِ الأَحداثِ المثيرةِ في زمانه، وسنأخذُ المعلوماتِ حولَها من مصادرنا الإسلامية اليقينية، وهي آياتُ القرآن الصريحة، وأَحاديثُ الرسول ﷺ المرفوعةُ الصحيحة.

ونستمد العون في كل ذلك من الله المعين.





المرحلة الأولى
موسى من الولادة إلى النبوة

[١]
الأجواء التي ولد فيها موسى

تعريف بأسرة موسى عليه السلام:

موسى عليه الصلاة والسلام هو: «موسى بن عمران». والدليلُ على أنَّ اسمَ أَبيه عمرانُ ما رواه مسلمٌ وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ قال: «مررْتُ ليلةَ أُسريَ على موسى بن عمران عليه السلام...»(١).

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن عن بعضِ أَفرادِ أُسرة موسى:

فأَبوه عمران كان رجلاً مؤمناً.

وأُمه كانت امرأةً صالحةً مؤمنة موقنة، تحدثت الآياتُ عنها عندما تكلمتْ عن ولادةِ موسى. ولا تخبرُنا مصادرُنا اليقينية عن اسمِ أُمه.

وأُخته كانت فتاةً صالحة، وكانتْ ذكيةً فطنة، من خلالِ متابعتِها لرحلةِ أَخيها الصغيرِ في التابوت.

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة في قصص الأنبياء رقم: ١٨٢.

وأخوه هارونُ صالحٌ فصيح، أفصحُ من أخيه موسى، ولا ندري أَوُلِدَ قبله أم وُلِدَ بعده، وكلامُ القرآن عنه قليل.

هؤلاء أفرادُ أسرة موسى الذين ذكرهم الله لنا في القرآن.

و«موسى» اسمُ علمٍ أعجمي، لا يهمُّنا معناه باللغة المصرية القديمة، ولكن يهمُّنا أنْ نقررَ أنه ليس عربياً ولا مشتقاً، وهكذا اسمُ أخيه هارون عليه السلام، فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقٍ لهذين الاسمين: موسى وهارون.

وقد أخبرَنا اللّهُ في القرآن عن الأجواءِ التي وُلِدَ فيها موسى عليه السلام، وعن أهمِّ ما جرى له بعد ولادته، حتى تَبنّاه فرعون، وأعاده اللّهُ إلى أُمه. وهذا الإخبارُ في سورةِ طه، وفي سورة القصص.

الآيات حول ولادة موسى:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ...﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا

رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص: ١ ـ ١٣].

لقد بدأَتْ آياتُ سورةِ القصص برسْمِ الأَجواءِ الخاصة التي وُلِدَ فيها موسى عليه السلام.

بدأتْ آياتُ السورةِ بتقريرِ حقيقةٍ يقينيةٍ بالنسبة للقرآن، وهو أَنه كلامُ الله تعالى، بلسانٍ عربيٍ مبين، مكوَّنٍ من حروفٍ عربية، هي: طا. سين. ميم. وأشباهها، ولهذا قال: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾.

قصة موسى دليل على النبوة وعلى المصدر الرباني للقرآن:

ثم وَظَّفت الآياتُ ذكْرَ قصةِ موسى مع فرعون دليلاً على نبوة محمد ﷺ، فاللّهُ هو الذي يتلو على نبيه قصةَ موسى وفرعون: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ تدلُّ على التبعيض، وهذا معناهُ أَنَّ اللّهَ أَخبرنا في القرآن ببعضِ قصةِ موسى وفرعون، وهي المعلوماتُ والمشاهدُ واللقطاتُ التي يعلمُ اللّهُ أنها تحققُ العبرةَ والعظة.

فالقرآنُ لم يفصِّل القولَ في تفاصيلِ وجزئياتِ قصة موسى عليه السلام، بل إِنَّ ما عرضَه منها قليلٌ بالقياسِ إِلى ما لم يعرضْه، وهو

«بعضٌ» وجزءٌ من جسمِ القصة الكبير!

وشبهُ جملةِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في قوله: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ معناها: الصحةُ والصواب.

البقاء مع القرآن في حديثه عن القصة:

وهي توحي بطبيعةِ القصة القرآنية، فما ذكَرَهُ اللّهُ في القرآن من معلوماتِ قصة موسى عليه السلام هو الحقُّ والصدقُ والصحةُ والصواب، وَقعتْ وحصلتْ وحدثتْ في عالمِ الواقع كما أخبر الله. وعلى المؤمنِ أَنْ يصدِّقَ ويثقَ ويؤمنَ بها كما ورَدَتْ في القرآن، وأن لا يشكَّ في أيِّ خبرٍ أو جزئيةٍ منها.

وقوله: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ دعوةٌ لكلِّ مؤمن إلى الاكتفاءِ بالمقدار المعروض من القصة في القرآن، والوقوفِ أمامه بتدبُّرٍ وتحليلٍ واعتبار. وعدم الذهاب إلى مصادرَ أُخرى غيرِ موثوقة ولا يقينية، كالإسرائيليات والأساطير، بهدفِ استكمالِ المعلومات والأَخبارِ غيرِ المذكورة في القرآن منها، لأَنها ليستْ حقاً ولا صدقاً، فالحقُّ في القصة هو ما وردَ في آيات القرآن، وفيما صحَّ من أَحاديثِ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام.

فساد حكم فرعون:

ولَخصت السورةُ مظاهرَ فسادِ حكم فرعون، تمهيداً لرسم الأَجواءِ التي وُلد فيها موسى عليه السلام، فقالت: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾.

فهو مُستَغْلٍ متكبِّرٌ في الأرض، وقد فَرَّق شعبَه وجعلَهم شيعاً وأحزاباً، فقرَّبَ الموالين، واضطهدَ المخالفين، واستضعفَ الإسرائيليين، لأنهم ليسوا من قومه، ولا على دينه، وهو بهذا مفسدٌ مخربٌ مدمر، وقد فصَّلْنا القولَ في مظاهر فساد حكم فرعون من خلال هذه الآية قبلَ قليل.

يهمُّنا أنْ نُشير إلى أنَّ اضطهادَ فرعون لبني إسرائيل كان بقتْلِ وذبْحِ أبنائهم، واستحياءِ واستعبادِ نسائهم.

إنّ ما فعلَه فرعون ببني إسرائيل كان بلاءً عظيماً، كما قال الله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

ما أراده فرعون ببني إسرائيل وما أراده الله لهم:

أَرادَ فرعونُ استعبادَ بني إسرائيل، وأَرادَ أنْ يُبقيهم عبيداً له ولقومه، يخدمونَهم ويَعملون لهم، وأَرادَ أنْ لا يكون لهم وجودٌ ولا كيان ولا تمكين، ولذلك كان يُذَبِّحُ أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

هذا ما أَراده فرعونُ المستبدُّ بهذا الشعبِ المستضعف، فما الذي أَرادَه اللّهُ له.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

أَرادَ اللّهُ أَنْ يَمُنَّ على بني إسرائيل المستضعفين عند فرعون، ويحوّلَهم من حالةِ الاستضعاف في الأرض على يدِ فرعون وآله، إلى حالةِ التمكينِ في الأرض، ليكونوا أئمةً وقادةً للآخرين، يقودونهم إلى الخير، ويَؤُمّونَهم في الدين، ويكونوا وارثين، يَرثونَ فرعونَ وآله وقومَه.

أَخبرت الآياتُ عن بني إسرائيل تحتَ اضطهادِ فرعون بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ . .﴾.

وأَخبرتْ عن وضعِهم الجديد، بعدما يحقّقُ اللّهُ إرادتَه فيهم، بأنهم سيكونون أئمةً وارثين، وأنَّ اللّهَ سيمكّنُ لهم في الأرض: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . .﴾.

وإذا أرادَ اللّهُ أمراً، وأرادَ فرعونُ أمراً آخر، فلا يكون ولا يتحققُ إلاّ ما أَراده الله، وسيعجزُ فرعونُ عن تحقيقِ إرادته، لأَنها لا تقفُ قوةٌ أَمامَ قوة الله، ولا ينجحُ أَيُّ مخلوقٍ في تحدّي الله!!.

هذه هي الأَجواءُ التي وُلد فيها موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وهي أَجواءُ الاضطهادِ والاستعباد والتعذيب.

وموسى الجنينُ في بطن أمه، تنتظرُه سكاكينُ آلِ فرعون لذبحه، فما أَنْ يولَدَ ويَرى النور حتى يسارعوا إليه، ويأْخذوه من حضنِ أُمه، ويقوموا بذبحه!!.

فلننظرْ كيفَ سيدبرُ اللّهُ الأَحداثَ ويرتبها، وكيفَ سيحقِّقُ إِرادتَه في حفظِ موسى ورعايته، وكيف سيُنجيهِ من الخطر الفرعوني المحدِقِ به!!.

[٢]

موسى من حضن أمه إلى قصر فرعون

أُمُّ موسى عليه السلام امرأةٌ مؤمنةٌ صالحة. أَنجبتْ قبلَه أختاً له، تكبرُه بأَعوام عديدة، بدليلِ أَنها كانتْ فطنةً ذكية، تراقبُ تابوتَه بحكمة، وتشُير على آلِ فرعون بمرضعٍ لأَخيها.

كيف ستحمي أم موسى وليدها؟:

ولما اقتربتْ ساعةُ ولادةِ موسى سيطرَ القلقُ على أُمّه، فهي لا تعرفُ جنسَ الجنين الذي في بطنها، فإنْ كان أُنثى فلا مشكلةَ بعد ولادتها، لأنَّ فرعونَ كان يستحيي بنات الإسرائيليات. أَمّا إنْ كان ذكراً فإنها المشكلةُ الكبرى، لأنَّ سكاكين جَزّاري فرعون بانتظاره لتذبحَه، وهي عاجزةٌ عن حمايته أو الدفاعِ عنه، فماذا تفعلُ إسرائيليةٌ ضعيفةٌ أمامَ بطش آل وجنود فرعون؟

وسلَّمت المرأةُ المؤمنةُ أمرها لله، وتوكلتْ عليه، وآمنتْ بقدره وقضائه.

معنى وحي الله إلى أم موسى:

وأَوحى اللّهُ لها بكيفيةِ التصرفِ لإنقاذِ حياة الوليد، فهي قد وَضَعَتْ، والمولودُ ذَكر، واللّهُ سينجيه.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

ما معنى وحي الله إلى أم موسى؟

لم تكنْ أُمُّ موسى نبيّة، كما لم تكن أُمُّ عيسى نبية، فلم يجعل الله نبيةً من النساء، وإنما قَصَرَ النبوةَ على الرجال. وقد وردَ هذا صراحة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ [النحل: ٤٣].

وحيُ الله إلى أنبيائه عن طريقِ جبريل أمين الوحي عليه الصلاة والسلام، أمّا وحْيُ الله إلى أُم موسى فلم يكن عن طريقِ جبريل عليه السلام، وإنما عن طريقِ الإلهام الفطري.

فمعنى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾: أَلْهَمْنا أُمَّ موسى إلهاماً فطرياً، بأَنْ قَذَفْنا هذا الأَمْرَ إلى فطرتها ومشاعرها وكيانها وأَحاسيسها، وأَرشدْناها إلى كيفيةِ التصرف لإنقاذِ ابنها الوليد.

وقد وردَ الوحيُ في القرآن بمعنى الإلهامِ الفطريِّ للإنسان، ووردَ بمعنى الإلهامِ الغريزيِّ للحيوان، ووردَ بمعنى الإشارةِ والرمز، ووردَ بمعنى التكليفِ والأمر، ووردَ بمعنى إرسال جبريل إلى أحد أنبياء الله، وليس هذا موضع تفصيل القول في هذه المسألة.

تلقَّتْ أُمُّ موسى هذه الإشارةَ الربّانية، بفطرتها ومشاعرها وأحاسيسها، واطمأنت إليها، وعملت بمقتضاها.

أم موسى ترضع وليدها ثم تقذفه في اليم:

كان وحْيُ الله إلى أمّ موسى ما يلي:

١ ـ أنْ تقومَ بإرضاعِ موسى فورَ ولادته: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾. وأمْرُ الله لها بإرضاعِ الوليد يشيرُ إلى أهميةِ الرضاعة له، وبالذات ما يسمّى بحليبِ «اللِّباء»، وهو الحليبُ المتجمعُ في ثدي الأم أثناء الحمل، والذي يقومُ المولودُ برضعه لحظةَ ولادته، وهو مليءٌ بالعناصرِ الغذائيةِ المتكاملةِ المتجانسة.

والأفضلُ والأكملُ أنْ يرضعَ المولودُ من أمه عامين كاملين، لينموَ نموّاً متكاملاً، جسمياً ونفسياً وشعورياً! ويا ليتَ نساءَ هذا الزمان يعرفْنَ هذا المعنى في إرضاع أولادهن!

٢ ـ أَنْ تجهزَ له تابوتاً خشبياً على مقاسِه، لتضَعه فيه عند الخطر. قال تعالى في سورة طه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾. وقال في سورة القصص: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

إنَّ سورةَ طه تفصِّلُ في هذه الجزئية إجمالَ سورة القصص، ففي سورة القصص ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، وفي سورة طه: ﴿ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

تُبينُ سورةُ القصص أنَّ اللّهَ أَمَرَ أُمَّ موسى أنْ تقومَ بفعلين:

الأول: قذفُ الوليد في التابوت، بعدَ أنْ تجهزَه وتُعِدَّه له. والتابوتُ صندوقٌ خشبي خاص.

الثاني: قذفُ التابوتِ في اليمّ ـ وهو البحر أو النهر ـ. التابوت الذي يحوي الوليد.

ولا تهتمُّ ولا تفكرُ بابنها بعد ذلك، فإنَّ اللّهَ سيحفظُه ويرعاه، ويُنجيه من سكاكينِ آل فرعون، بالطريقةِ التي يَختارها سبحانه وتعالى.

ونُلاحظُ أنَّ فعل «اقذفيه» يُلقي ظلَّ الشدة، لأنَّ «جَرْسَ» فِعْل

«قَذَفَ» يُلقي هذا الظل، ويُعطي هذا المعنى. فهي تقذفُ ابنَها الوليد في التابوت قَذْفاً، ولا تضعُه وَضْعاً، ثم تَقذفُ التابوت في اليمِّ قذفاً أيضاً.

ذكر التابوت مرتين في القرآن:

ومن لطائفِ القرآن أنَّ التابوتَ في القرآن لم يَرِدْ إلاّ مرتين فقط. والمرتان في قصةِ بني إسرائيل.

المرة الأولى: هنا أثناءَ الحديثِ عن ولادة موسى عليه السلام، وحفظِ اللّهِ له، عندما سارَ التابوتُ به إلى قصر فرعون.

المرة الثانية: في الحديثِ عن مُلك الملكِ «طالوت» على بني إسرائيل أثناءَ حُكْم «القُضاة» لهم، ومرورِهم بفترةِ ذلٍّ شديد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ..﴾ [البقرة: ٢٤٨].

فقد اعترضَ بنو إسرائيل على مُلك طالوت، فأخبرَهم نبيُّهم أنَّ اللّهَ هو الذي اختارَ لهم طالوتَ ملكاً، والدليلُ على ذلك أن الملائكةَ ستحملُ التابوت الذي سلَبه منهم أعداؤُهم، وتأتيهم به، وهذا التابوتُ المقدسُ فيه بقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآلُ هارون.

وإذا كان «التابوت» عندَ الناس يُستعملُ وسيلةً لحمل الجنائز، وأداةً لحفظِ الأموات، فإن اللّهَ الحكيمَ قد اختارَ هذا التابوتَ وسيلةً لحفظِ الوليدِ الصغير موسى عليه السلام.

أَوحى اللّهُ إلى أُمِّ موسى أنْ ترضعَ ابنها، وإذا خافَتْ عليه أنْ تُخرجه من بيتها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ..﴾.

الله ينهى أم موسى عن الخوف والحزن عليه:

إنَّ اللّهَ حكيمٌ في تقديرِه وتدبيره، فمعلومٌ أنَّ الإنسانَ إذا خاف على عزيزٍ لديه فإنه يتمسَّكُ به، ويضمه إليه، ويبالغُ في حمايته

وحفظه، أمّا أمُّ موسى فإنها مأمورةٌ بأن تتخلصَ من ابنها عندما تخافُ عليه! ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾.

وينهى اللّهُ أمَّ موسى عن الخوف على مستقبل ابنها، الذي حملَه اليمُّ وسحبَهُ بعيداً عنها، كما ينهاها عن الحزنِ على فراقه.

عليها أنْ لا تخافَ وأنْ لا تحزنَ لأنَّ اللّهَ هو الذي سيتكفلُ بحفظِ ورعايةِ هذا الوليد.

وأَخبرَها اللّهُ بالمحطةِ الأَخيرة في رحلةِ هذا الوليد في التابوت، فإنَّ اليمَّ سيأخذُه بعيداً، وسيلقيه بالساحل! ساحلِ قصر فرعون! حيث سيتناولُه فرعون، عدوُّه اللدود الذي يبحثُ عنه ليقتله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ...﴾.

ولمّا أَوحى اللّهُ إِلى أُمِّ موسى بهذا الوحي، وأَخبرَها أنه سيوصلُ ابنَها إِلى عدوِّه فرعون، طمأَنَها اللّهُ عليه، فعدوُّه فرعونُ سيعجز عن قتله، وسيعيدُه الله إليها، وليس هذا فقط، بل إن اللّهَ سيحفظُه إلى أنْ يكبر، حيث سيجعلُه رسولاً بعد ذلك: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

في الآية أمران ونهيان وبشارتان ونادرة الأصمعي:

وهناك لطيفةٌ قرآنيةٌ في وحيِ الله إلى أُمِّ موسى، الذي سجَّلَه قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

فعندَما نمعنُ النظرَ في تركيبِ هذه الآية، فسوف نرى أَنها جمعتْ بين أمريْن ونهييْن وبشارتيْن! جمعتْ بينهما بتناسقٍ بليغ!!

الأَمْران: في فعلي الأمر: «أرضعيه»، و: «ألقيه».

والنَّهيان: في «لا» الناهية الداخلةِ على الفعليْن: «لا تخافي»، و«لا تحزني».

والبشارتان: في اسمي الفاعل: «رادّوه» و: «جاعلوه».

أَمرها اللّهُ أن ترضعَ ابنها، ثم أَمرها أنْ تلقيه في اليم.

ونهاها الله عن الخوف والحزن عليه.

وبشَّرها بأنه سيعيدُه إليها، وسيجعلهُ من المرسلين.

إن هذا التركيبَ البيانيَّ البليغ، الذي نَسَّقَ بين الأمرين والنهيين والبشارتين مظهرٌ من مظاهرِ إِعجازِ القرآن.

ومما يتعلقُ بهذا الموضوع طريفةٌ ممتعة، أوردَها الإِخباريُّ الأَديبُ عبدُ الملك بنُ قَريب الأَصمعي، صاحب «الأصمعيات».

قال الأصمعي: بينما كنتُ في إِحدى رحلاتي في الجزيرة العربية، وقفتُ أَمامَ خيمة، وكان في الخيمةِ فتاةٌ عربيةٌ صغيرةُ السن، فسمعْتُها تُنشدُ هذيْن البيتين من الشعر:

أَسْتَغْفِرُ اللّهَ لِذَنْبي كُلِّهِ   قَبَّلْتُ إِنساناً بِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلَ الغَزالِ ناعِماً في دَلِّهِ   فانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

فقلتُ لها: قاتلك الله، ما أفصحك!!

فقالت لي: وهل يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

حيثُ جمعَ في آيةٍ واحدة بين أمريْن ونهييْن وبشارتيْن[1]!

ونَفَّذَتْ أُمُّ موسى ما أَمرها الله به، فوضعَتْ وليدَها في التابوت، ثم وَضعت التابوت في اليم، ونَظرتْ إِليه، وهو يحملُه اليمُّ بعيداً عنها، وغابَ التابوتُ عن عينيها، وهي تعلمُ إِلى أينَ يذهبُ به اليم، سيذهبُ به إلى عدوِّه: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٣: ٢٥٢.

أم موسى تكلف أخته بمراقبة سير تابوته:

وحتى تطمئنَّ الأمُّ على مصيرِ ابنها، فقد كلَّفتْ أُختَه أنْ تراقبَه وتتابعَ سيرَه. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١].

و﴿قُصِّيهِ﴾: فعلُ أمرٍ من القَصّ، والقَصُّ بمعنى اقتصاصِ الأثر، فمعنى قولها لابنتها: ﴿قُصِّيهِ﴾: قُصّي أَثَره، وراقِبي سيره، وتابِعي رحلته، وانظري ما الذي يحصلُ له.

ونَفَّذت البنتُ أمْرَ أُمِّها بحكمةٍ وفطنةٍ وذكاء، فقد كانت لبيبةً حكيمة. قال تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنها ستراقبُ سيرَ أَخيها في التابوت، دونَ أنْ تُلفت لها أنظارَ الراصدين والمراقبين والمتابعين من آلِ فرعون وجنوده.

فلو شاهدَها هؤلاء الراصدون وهي تُراقبُ التابوتَ وترصده، فسوف يشكّون فيها وفيه، وسيمسكون بطرفِ الخيط، وسيتابعون البحثَ والتحري، ليصلوا إلى أمه، وسيعرفون أنَّ هذا مولودٌ إسرائيليٌّ لأُسرةٍ إسرائيلية، وعندها سيقتلونه، وبذلك تفسدُ الخطة كلُّها.

فلا بدَّ أنْ تتصرفَ هذه الفتاةُ بحكمةٍ وفطنة، لقد كانت تراقبُ سيرَ التابوت بطريقةٍ خفية، فالتابوتُ يسيرُ على وجه الماء، وهي تسيرُ على شاطئ اليم، ولا تنظرُ إلى ذلك التابوت، وإنما كانت تنظرُ إلى الجانب الآخر، فلو رآها أَحَدُ الراصدين لما شكَّ فيها، ولما رَبطَ بين سيرها وبين سير التابوت، ولظنَّ أنها فتاةٌ تسير في طريقها إلى أمرٍ ما.

ذكاء الأخت في مراقبته عن جنب:

وكانت الفتاةُ الذكيةُ تنظرُ إلى التابوت بطريقةٍ خفية، دونَ أَنْ يَشعرَ بها المراقبون، هذه الطريقةُ الخفيةُ سجلَها قولُه تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ . .﴾.

وكأنها كانتْ تنظرُ إليه بجانبِ عينها، وطرفِ عينها، نظرةً خفيةً بعيدة، وكانت بعيدةً عنه، حتى لا تُثيرَ الشبهة.

فكلمةُ ﴿جُنُبٍ﴾ في الآية تتضمنُ المعنيين: جانبَ وطرفَ العين، وبُعْدَ الأختِ عن تابوت أخيها.

ولهذا قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿عَن جُنُبٍ﴾: عن جانب. وقال تلميذه مجاهد رحمه الله: ﴿عَن جُنُبٍ﴾: عن بُعْد[1].

ونَرى أن كلاً منهما ذَكَرَ جُزءاً من معنى ﴿جُنُبٍ﴾ وكلامه صحيح، لكن لا بدّ من الجمع بينهما، حيث تدل ﴿جُنُبٍ﴾ على معنى جانبِ العين وطرفها، وابتعادِ البنت عن أخيها.

وتابعت الأختُ مراقبةَ تابوتِ أخيها، وبقيتْ أُم موسى تفكرُ فيه في بيتها.

قلق أم موسى بعد خروج تابوت الوليد:

صحيحٌ أنَّ أمَّ موسى مؤمنةٌ بالله، مصدقةٌ بوعده، وقد طمأَنها اللّهُ على مصيرِ ابنها، ونهاها عن الخوفِ والحزن عليه، وقد أيقنتْ بكلِّ هذا، ولكنها إنسانةٌ بشر، يتدسَّسُ إليها الشيطان أَحياناً بوساوسه ونزغاته، فتصاب بالضعف أحياناً، وتهجم عليها الهواجس والشكوك والأفكار والخواطر، فتدفعها وتجاهد نفسها لتتخلص منها، بعدَ أن تصيبها وتؤثرَ بها لحظات سريعة.

وقد سجَّلَ حالتَها بعد سحبِ اليمِّ لتابوتِ ابنها وخروج أخته لتراقبه، قولُه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

تُشيرُ هذه الآيةُ إلى حالةِ أُمِّ موسى ونفسيتها، بعدما غادرها وليدُها، فكأنَّ الخواطرَ والهواجسَ غَزَتْها، فشكَّتْ في تصرفها وفعلها. وكأنها كانت تقولُ لنفسها: ماذا فعلْتُ بابني؟ وكيفَ ألقيتُه في اليم؟

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٦٨.

وهل هذا كان بوحيٍ من الله حقاً؟ أم كان بوساوسِ الشيطان؟ وهل هناك امرأةٌ عاقلةٌ تُلقي ابنَها في البحر؟ ومَنْ يضمنُ لي أنَّ البحرَ لا يغرقُه؟ إنني أنا الجانية! جنيْتُ على وليدي وعلى نفسي! أنا القاتلة! قتلْتُ ابني!

لقد سيطرتْ عليها هذه الهواجسُ والظنون، حتى كادَتْ أنْ تخرجَ إلى الشارع، لتُبديَ بالأمرِ وتظهرَه، وتقول: ابني!! ابحثوا لي عن ابني! وضعْتُه في التابوت وهو هناك في البحر! أَعيدوا لي ابني! أنا القاتلةُ قتلْتُ ابني!

الله يربط على فؤادها:

لقد كان قلبُها مشغولاً بموسى، وأصبح فؤادها فارغاً. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ..﴾.

كان فؤادُها مشغولاً بموسى، مَلِيئاً بالتفكير في موسى، مَلأَ موسى عليها قلبَها وفؤادَها ومشاعرَها وخواطرَها وأفكارها. وبذلك كان فؤادُها فارغاً من غير موسى، لا مجالَ فيه لغير موسى.

أيْ أَنها من شدةِ اهتمامها وتفكيرها في موسى نسيتْ كلَّ شيء غيرَ موسى، نسيتْ نفسَها ومَنْ حولها، فليس عندها إلاّ موسى.

ومن شدةِ اهتمامها بموسى أَنها ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، وتُظهرُ أمره، وتعلنُ للناس أنه ابنها، وتطلبُ منهم أنْ يُعيدوه إليها.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: كان فؤادُها فارغاً من كلِّ شيء من أُمور الدنيا، إلاّ من موسى. فكادَتْ من شدةِ وَجْدِها وحزنها وأَسَفها أنْ تُظهرَ أنه ذهبَ لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أنَّ الله صبَّرَها وثبَّتَها(١).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٦٨.

ملأَ اللّهُ قلبَ أُمِّ موسى إيماناً ويقيناً، وهدوءاً وسكينة، ثم ربطَ على قلبها الممتلئ من كلِّ هذه المعاني العظيمة، لئلا يتسرَّبَ منه شيء منها، فاطمأَنَّتْ على وليدِها، وعلى راحتِه وحياته، وهدأَتْ وسكنت واستقرت: و﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أما تابوتُ موسى فقد أَمَرَ اللّهُ اليمَّ أنْ يحمَله إلى قصر فرعون! وهكذا سارَ التابوتُ على وجْهِ الماء، وأختُ موسى تقصُّه وتنظرُ إليه ﴿عَن جُنُبٍ﴾. وتوقَّفَ التابوتُ أمام قصر فرعون، ليحملَه أهلُ القصر، ويُدْخِلوه إلى فرعون!!.

وهكذا قدَّرَ اللّهُ الأُمورَ والأحداث، مبالغةً في المكر بفرعون، والسخرية منه!

إنَّ فرعونَ قد وظَّفَ رجالَه للبحثِ عن الوليدِ ليقتلوه، ولو وَجدوه في حضنِ أُمه لقتلوه، وما يستطيعُ أحدٌ في البيت حمايتَه أو الدفاعَ عنه.

الله يمكر بفرعون عندما ساق له الوليد في التابوت:

ويريدُ اللّهُ أنْ يبينَ لفرعونَ المتغطرسِ ضعفَه وعجزه، ولذلك ساقَ له الوليدَ وحيداً، ليس معه حمايةٌ بشرية وكأنَّه يقول لفرعون: أنتَ تبحثُ عن الوليد لقتلِه، لا تُتعبْ نفسَكَ بالبحثِ عنه، فها هو قد جئْنا به إليك، وها هو ابنُ ساعات فقط، لكنك لن تستطيعَ قتله، لأنه بحفظِنا ورعايتنا، فأنتَ تريدُ قتْلَه، ونحنُ نريدُ أن يعيش، وإرادتُك معطلةٌ أَمامَ إرادتنا ومشيئتنا.

وقد أَشارَ إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩].

فاليمُّ سَلَّمَ الوليدَ إلى عدوِّه اللدودِ فرعون، بأمر الله، ليُري اللّهُ فرعونَ عجزَه عن قتلِ الوليد.

[٣]

فرعون يتبنى موسى بطلب من امرأته

توقَّفَ تابوتُ موسى أمامَ قصرِ فرعون، وفقَ ترتيبِ الله وحكمتِه، وشاهدَ أُناسٌ من آلِ فرعونَ التابوتَ راسياً على شاطئ اليم، وحملوا التابوتَ إلى داخلِ القصر. قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٩].

إدخال موسى إلى امرأة فرعون:

وكانت امرأةُ فرعونَ داخلَ القصر، فلما رأت التابوتَ أَمرتْ بفتحه، وفوجئتْ بالوليدِ موسى ـ ابنِ الساعات ـ داخلَ التابوت، وأُعجبتْ به، وقذفَ اللَّهُ حبَّه في قلبها، ليحققَ قَدَرَه وإرادَته سبحانه.

أَحبت امرأةُ فرعون موسى الوليد ـ الذي لم يمضِ من عمره إلا ساعات معدودة ـ واعتبرتْه هديةً لها، ورغبتْ في أنْ تتبناه، وأنْ تتخذَه ولداً لها.

وذهبَ بعضُ الإخباريين إلى تحديدِ اسم امرأة فرعون، وإلى سببِ رغبتها في تبنّيه، وقالوا إنها المرأةُ المؤمنةُ آسيةُ بنتُ مزاحم، التي أثنى عليها اللَّهُ في القرآن، وأَثنى عليها رسولُ الله ﷺ.

أَثنى اللّهُ عليها في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

وامرأةُ فرعون في الآية مبهمة، وقد بيَّنَ رسولُ الله ﷺ اسمها، عندما أَشارَ إلى إيمانها وفضلها.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أَبي موسى الأشعري رضي الله

عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كَمُلَ من الرجالِ كثير، ولم يكملْ من النساءِ إلا مريمُ ابنةُ عمران، وآسيةُ امرأةُ فرعون، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنت محمد، وفضْلُ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعام»[1].

آسيةُ ابنةُ مزاحم امرأةٌ مؤمنةٌ صالحة، كملتْ في إيمانِها وعقْلِها، وهي من أفضلِ نساءِ العالمين، بشهادةِ رسول الله ﷺ، وهي امرأةُ فرعون، وهذا كلُّه لا شكَّ فيه.

لكن من هو فرعونُ الذي تزوَّجَها؟ وكيف تزوَّجَها؟ هل هو فرعونُ الذي وُلِدَ موسى في عهده؟ أم هو فرعونٌ آخرَ قبلَه؟ أم فرعونٌ آخرَ بعدَه؟.

أسئلة بشأن امرأة فرعون ليس عليها جواب يقيني:

إننا نعلمُ أنَّ «فرعون» ليس اسماً لملكٍ معينٍ حكَمَ مصر، وإنما هو لقبٌ لكلِّ مَنْ حَكَمَ مصر، في فترةِ حكم الفراعنة، وهذا اللقبُ ينطبقُ على ملوكٍ عديدين من الفراعنة، لكلٍّ منهم اسمٌ خاص، ويجمعُهم لقبُ فرعون.

فامرأةُ أيِّ واحدٍ منهم هي؟ لا نملكُ تحديدَ اسم زوجها.

ثم إنَّ اسمَها عربي «آسية بنت مزاحم»، وأَسماءُ ملوك الفراعنة فرعونية، مثل: رعمسيس، ومنبتاح، وأخناتون... فهل هي قريبةُ زوجِها، أم هي عربية تزوَّجَها فرعون؟ لا نملكُ تحديدَ ذلك أيضاً!

وهل آسيةُ بنتُ مزاحم هي التي استقبلتْ موسى الوليد، وأحبته وتبنَّتْه؟ لا نملكُ تحديدَ ذلك أيضاً!

وهل بقيتْ آسيةُ بنت مزاحم حيةً حتى عاد موسى من مدين نبياً رسولاً، فآمنتْ به واتبعَتْه؟ أم ماتتْ قبلَ عودته؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١١. ومسلم: ٢٤٣١. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٦.

وهل ماتتْ آسيةُ امرأة فرعون موتاً عادياً؟ أم قَتَلَها فرعون؟ وكيف؟ لا نملكُ على هذا جواباً علمياً.

ولماذا تبنَّت امرأةُ فرعون ـ آسيةُ أو غيرها ـ موسى الوليد؟ هل كانت عقيماً لا تُنجب؟ أم كان لها أولاد ولكنها أحبَّتْ أنْ تتبنّاه؟ لا نملكُ على هذا دليلاً يقينياً.

هذه الأسئلةُ وغيرُها بَحَثَ فيها الإِخباريون، وحاولوا تقديمَ إجاباتٍ عليها، واختلفتْ إجاباتُهم، وتعددتْ آراؤهم، ولم يعتمدوا في ذلك على أدلةٍ علميةٍ يقينية، مأخوذة من الآيات الصريحة، أو الأحاديث المرفوعة الصحيحة، وإنما أَخذوها من رواياتِ المؤرخين وإِسرائيلياتِ بني إِسرائيل.

وبما أَننا لا نعتمدُ إلاّ على الآياتِ الصريحة والأحاديث المرفوعة الصحيحة، في إِثباتِ أَحداثِ القصص القرآني، فإننا لا نخوض في هذه الأسئلة، ولا نحاولُ الإجابةَ عليها، ونعتبرُها من «مبهمات القصص القرآني».

موسى قرة عين لامرأة فرعون:

كلُّ ما نقول به هو ما أَخبرتْ عنه آياتُ القرآن: رأت امرأةُ فرعون موسى الوليد، وقذفَ اللّهُ حبَّه في قلبها، فأَحبتْه ورغبتْ في تبنّيه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٩].

حَملتْ امرأةُ فرعون الوليد، وقدَّمَتْه إلى زوجها، وقالتْ له: يا فرعونُ هذا الوليدُ قرةُ عينٍ لي ولك.

وقُرَّةُ العين: سرورُها وسعادتُها، عندما تشاهد ما تحب، ويَستمتعُ صاحبُها بما يريد.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى قرة العين: «القُرُّ يقتضي السكون.

وقَرَّتْ عينُ فلان: إذا سُرَّتْ. وقيلَ لمن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عين. قيلَ: أَصْلُه من القُرِّ أي البرد.

قيل: معناه: بَرَدَتْ عَيْنُه فَصَحَّتْ.

وقيل: بل لأنَّ للسرورَ دمعةٌ باردة قارة، وللحزنِ دمعةٌ حارة، ولذلك يُقالُ فيمن يُدعى عليه: أَسْخَنَ اللّهُ عينَه.

وقيل: هو من القَرار. والمعنى: أَعطاهُ اللّهُ ما تسكُنُ به عينه، فلا تطمحُ إِلى غيره[1].

والخلاصةُ أَنَّ قُرَّةَ عينِ الإنسان بالشيء سعادتُها وسرورُها، فعندما يحبُّه ويسكنُ إليه ويرغبُ فيه، ويُسَرُّ به، يقال: قَرَّتْ عينُه به.

إنَّ امرأَةَ فرعون تُرَغِّبُ زوجَها في المحافظة على موسى، ولهذا تقول له: هذا الوليدُ الجميلُ البريء قرةُ عينٍ لي ولك، ستقرُّ به عيونُنا.

امرأة فرعون تنهى عن قتل موسى وتزين لزوجها تبنيه:

ويبدو أَنهم شكّوا في أهلِ الوليد ونَسَبه، ويبدو أَنّهم ظنّوه إسرائيلياً، ويبدو أَنهم فكّروا في قتله، أو أَنهم أَرادوا قتلَه، فنهَتْهُم امرأةُ فرعون عن ذلك.

والذي يدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

فلما سمعَ القومُ كلامَ امرأةِ فرعون توقَّفوا عن قتله، لأنهم تابِعون لفرعون منفِّذُون لأوامره، وكلامُ امرأته كلامُه، ورغبتُها رغبتُه، وقرارُها قرارُه. فلما قالت لهم: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، فكأنَّ فرعونَ هو الذي قالَ لهم: لا تقتلوه!!.

واستمرَّتْ امرأةُ فرعون في ترغيبِ زوجِها في الاحتفاظِ بالوليد، فقالت له: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

---

(١) المفردات: ٦٦٣.

إنها تزيِّنُ لفرعونَ تبنّي الوليد، وتطلبُ منه الاحتفاظَ به، فهم يريدون أنْ يتخذوه ولداً، وعندما يشبُّ ويكبرُ في بيتهم ويكون رجلاً، فسوف ينفعُهم.

وليس معنى هذا أَنهما لا يُنجبان الأولاد، فأرادَتْ تبنّيه، فقد يكون لهما أولاد، ولكنها أحبَّت الوليد ورغبتْ في تبنّيه. وقد تكون هي عقيماً، لكن لفرعون زوجاتٌ غيرها، أَنجبنَ منه أولاداً!!

ويبدو أنَّ فرعونَ لم يتردَّدْ في تنفيذِ رغبة امرأته، فاتخذَ قرارَه بتبنّي الوليدِ الصغير والاحتفاظِ به وإِبقائِه في القصر عند امرأته، ليكونَ قرةَ عينٍ لهما.

وهذا هو تقديرُ الله سبحانه بحكمته، ليحققَ إِرادتَه ومشيئَته، فهو الذي قذفَ محبتَه في قلبِ امرأة فرعون، أَمَرَ قلْبَ تلك المرأة أنْ يحبَّ هذا الوليد، وما يملكُ قلبُها إلاّ تنفيذَ أمْرِ الله، لأنه جنديٌّ من جنود الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وأشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وجملةُ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ تُلقي ظلاًّ طيّباً رفيعاً، فكأَنَّ محبةَ الله تحوَّلَتْ إلى شيءٍ مادي مجسم، أشبه ما يكونُ بغطاءٍ دافىءِ، وهذا الغطاءُ يلقىٰ على موسى الوليد الصغير إلقاءً، غطاءٌ مصنوعٌ من مادةٍ رقيقةٍ شفافة اسمها «محبة الله».

هذه المحبةُ الدافئةُ أَلقاها اللّهُ على موسى الوليد إلقاءً، في قصرِ فرعونَ المتألّه الطاغية، فكانت تعويضاً له عن حنانِ حضنِ أُمّه الدافىءِ، الذي حُرِمَ منه إلى حين، وكانت سبباً في حمايته وحفظه ونجاتِه من خطر فرعون وزبانيته وجزّاريه.

هذه المحبةُ التي أَلقاها اللّهُ عليه هي حنانُ امرأة فرعون وشفقتُها عليه ورأفتُها به!

وهكذا صارَ الوليدُ آمناً في قصر فرعون، بعدما تبنّاه فرعونُ وامرأتُه، وهما لا يعرفان شيئاً عنه، وآلُ فرعون وجنودُه لا يعرفون شيئاً عنه، لا يَعرفون أهلَه، ولا أصلَه.

فرعون وآله يربون موسى فصار لهم عدواً وحزناً:

لم يتوقّعْ فرعونُ ولا آلُه أن يكونَ هذا الوليدُ إسرائيلياً، وأنْ يكونَ من المواليدِ الذين يبحثون عنهم ليقتلوهم!

لا يَدري فرعونُ المتألّه أنْ يكونَ هذا المولودُ الذي تبنّاه هو عدوَّه اللدود، وأنه سيكون هلاكُه على يديه.

ومن سخريةِ الله ومكرِه بفرعون أنه أَلهمه تبنّي عدوّه، وأَلهم آلَه تربيةَ عدوهم!

ولهذا علّقت الآياتُ على تبنّي فرعونَ للوليد بقولها: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: ٨ ـ ٩].

احتفظوا به ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يَشعرونَ بالذي يفعلونَه، ولا يَعرفون مَن الذي يَحتفظون به ويُحافظون عليه، ولو كانوا يَشعرون بذلك ويعلمونَ أصْلَ وأهلَ ذلك الوليد لسارعوا بقتله، ولكنها حكمةُ الله العليم الحكيم!

لقد نتجَ عن تبنّي فرعونَ وهامان وجنودِهما لهذا الوليدِ أَنه صارَ لهم عدوٌّ وحزنٌ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وهذه اللامُ في ﴿لِيَكُونَ﴾ هي التي يسمّيها علماءُ النحو «لامَ العاقبة»، وهي التي يكونُ ما بعدَها عاقبةً ونتيجةً لما قبلَها، و«لام العاقبة» تدخلُ على الفعلِ المضارع، ويكونُ المضارعُ منصوباً بأَنْ المضمرةِ بعدها.

ومعنى الآية: إنَّ نتيجةَ وعاقبةَ تربيةِ فرعون وآله لموسى أنه صارَ لهم عدو وحزن، بدلَ أنْ يكونَ قرةَ عينٍ لهم.

وكانوا بذلك خاطئين: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ إنهم خاطئون لأَنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا يَعرفونَ عاقبةَ ما يفعلون، ولا يَعرفون مَن الذي به يَحتفظون! ولكنها حكمةُ اللّهِ العليمِ الحكيم.

[٤]

نشأة موسى في قصر فرعون

استجابَ فرعونُ لرغبةِ امرأته، وأَصدرَ أَمره بتبنّي الوليدِ الصغير موسى، وضَمَّه إِلى أهلِ بيته.

وكانت أختُ موسى الفطنةُ الذكيةُ تراقبُه عن بُعْد، وتتابعُ أَحداثَ أَخيها عن جُنُب.

كيف سيعيد الله موسى إلى أمه؟:

ولقد كانَ من وحي الله إِلى أُمّ موسى أَنه سيعيدُ ابنَها موسى إِليها، ولكن كيفَ سيكونُ ذلك؟ إنَّ آلَ فرعون لا يعرفون أهلَ الوليدِ الذي تبنّاه فرعون، بينما هم يَعرفون أَنَّ عمرانَ وزوجَه ـ والدَ موسى وأُمّه ـ إسرائيليان. فكيف سيعيدُ اللّهُ الطفلَ الرضيعَ إِلى ثديِ أمه وحضْنِها دون أنْ يكتشفوا الصلةَ بين الطفل والأم؟

لو أنَّ الأمْرَ تُرِكَ إِلى تخطيطِ البشرِ فسوف يَعجزونَ عن إِعادتِه إِلى أُمّه دونَ أنْ ينكشفَ الأمر، ويعرفَ آلُ فرعون نَسَبَهُ وأَصْلَه الإسرائيلي.

لكنَّ اللّهَ سبحانه وتعالى قَدَّرَ الأمْرَ بعلمه وحكمته، واختارَ لعودته إِلى أُمّه وسيلةً لا تَخطرُ على بالِ أَحدٍ من البشر.

هذه الوسيلةُ الربانيةُ المعجزةُ مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ...﴾.

فما معنى هذه الجملةِ من الآية؟ وما هي تلكَ الوسيلةُ الربانية؟

المراضعُ هي النساءُ اللواتي يُرضعْنَ الأطفالَ في سنِّ الرِّضاع، وهي جمع، مفردُه «مرضع».

تشيرُ هذه الجملةُ القرآنيةُ إلى معجزةٍ ربانية باهرة! فلمّا تبنّى فرعونُ وامرأتُه الوليدَ موسى، صارَ في عرفِ الناس ابناً لفرعون، وامرأةُ فرعونَ ليستْ مرضعاً ولا مرضعة، فليس في ثديها حليبٌ للوليد، والوليدُ بحاجةٍ إلى غذاء، وغذاؤُه في الساعات الأولى من عمره هو الحليب، والمصدرُ الوحيدُ للحليب ـ في ذلك الوقت ـ هو النساءُ المراضع، والوليدُ المحتاجُ إلى الحليب هو ابنُ فرعون ـ بالتبني ـ وشَرَفٌ عظيمٌ لأيِّ امرأةٍ مرضعٍ أنْ تُرضِعَ ابنَ فرعون!

امتناع موسى الرضيع عن النساء المراضع:

فما أنْ علمت النساءُ أنَّ ابنَ فرعون بحاجةٍ إلى رَضَاع، حتى سارعت المراضعُ منهنَّ بتقديمِ خدماتهن وحليبهن له، وتطوعْنَ لإرضاعه.

ولكن المفاجأةَ هي أَنَّ الرضيعَ لم يقبلْ مرضعةً منهن، فما أن تأتيَ إحداهن، وتُلقمَه ثَدْيَها، حتى يرفضَ الرضاعةَ منه، فعل هذا بالأولى والثانيةِ والثالثة... وهكذا.

لماذا رفضَ المراضعَ جميعاً؟ لأنَّ اللّهَ أَمره بذلك، وما كان من شفتيْه الصغيرتيْن إلاّ تنفيذُ الأمر!!.

هذه المعجزةُ الربانيةُ هي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾.

والمعنى: حَرَّمَ اللّهُ عليه الرضاعَ من أيِّ مرضع، فرفضَ الوليد أَثْدَاءَ جميعِ المراضع. وفعلَ اللّهُ ذلك ليعيدَه إلى أُمه في اللحظةِ المناسبة.

وعبرت الآيةُ عن الامتناع بالتحريم.

قال الراغب الأصفهاني: «الحرام: الممنوعُ منه، إمّا بتسخيرٍ إلهي، وإمّا بشري، وإمّا بمنعٍ قهري، وإمّا بمنعٍ من جهةِ العقل أو من جهةِ الشرع، أو من جهةِ من يُرْتَسَمُ أَمْرُه..

والتحريم في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ تحريمٌ بتسخير[1].

أي أنَّ اللّهَ منعَ شفتيْ موسى من قَبولِ ثَدْيِ أيِّ امرأة مرضع، وعبرت الآيةُ عن هذا المنعِ التسخيريِّ بلفظ: ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ لأنَّ التحريمَ هو المنع.

وفوجئَ آلُ فرعون بهذا الموقف المثير. وليدٌ لم يمضِ على ولادته ساعات، يرفضُ أنْ يرضعَ من أيِّ مرضعة، وكأنه يبحثُ عن مرضعةٍ معينة! وهل يفرقُ وليدٌ ابن ساعات بين مرضعة ومرضعة؟ وهل تفرقُ شفتاه بين ثَدي وثَدي؟

المعهودُ عند الناسِ أنَّ الطفلَ الرضيعَ يرضعُ من أيِّ امرأة مرضع، وتَقبلُ شفتاه أيَّ ثدي، وإذا جاعَ امتصَّ حليبَ الثدي بنهم! فلماذا هذا الوليدُ الرضيعُ لا يفعلُ ذلك؟

إنها إرادةُ الله، وإنه تقديرُ الله الحكيم سبحانه، وإنَّ شفتي الرضيعِ جنديٌّ من جنود الله، جعلَهما اللّهُ وسيلةً ربانيةً لتحقيق إرادته.

وقد مَرَّ مَعَنا فيما مضى جنودٌ آخرون من جنود الله، حقَّقَ اللّهُ بهم حكمتَه:

- التابوتُ جنديٌّ من جنود الله، حفظَ اللّهُ فيه موسى.
- واليمُّ جنديٌّ من جنود الله، حملَ التابوتَ إلى قصر فرعون.
- وقلبُ امرأةِ فرعون جنديٌّ من جنود الله، خفقَ بالحب لموسى.

---

(١) المفردات: ٢٢٩.

- والآن شفتا موسى جنديٌّ من جنودِ الله، ترفضان جميعَ الأثداءِ من النساء المراضع، وتَطلبان ثَدْيَ الأم!

ما الذي حصلَ بعدما رفضتْ شفتاه جميعَ الأَثْداء؟

فرعون وآله حريصون على حياة موسى:

خافَ فرعونُ وآلُه عليه، لأنَّ حياتَه في خطر، وهو مُعَرَّضٌ للموت، وإذا بقي الرضيع «مُضْرِباً» عن الرضاعة فسوفَ يموت! وهم يخشون عليه الموت! ولا يريدونَ له أنْ يَموت!!

يا سبحانَ الله! ما أعظمَ حكمةَ الله!! وما أَروعَ تدبيرَ الله!!!.

فرعونُ الذي كانَ بالأمس حريصاً على قتل موسى، هو نفسُه اليومَ حريصٌ على حياة موسى!

وآلُ فرعون الذين كانوا بالأمسِ حريصين على ذبحِ موسى، هم اليومَ حريصون على إنقاذِ حياة موسى!!.

الكلُّ الآن منهمكٌ مشغولٌ مفكِّر، كيف ينقذُ حياةَ هذا الرضيع المضربِ عن الرضاعة! الكلُّ يهمُّهُ أمْرُ موسى الرضيع! الكلُّ مستعدٌّ لبذلِ كلِّ ما يستطيعُ ليعيشَ هذا الرضيعُ الصغير!

لقد «وَظَّفَ» اللّهُ الحكيمُ فرعونَ وآلَه لخدمة موسى الرضيع، وسخَّرهم لبذلِ جهدِهم لإنقاذِ حياته. وموسى الآن بينهم ينالُ كلَّ رعايةٍ واهتمام!

فلو بقيَ في حضنِ أُمّه الإسرائيلية فهل سينالُ هذا؟ ولو بقيَ في حضنِ أُمّه فهل سيهتمُّ به كلُّ هؤلاء؟

إنه تقديرُ وتدبيرُ اللّهِ الحكيم الخبير، وإنها سخريةُ اللّهِ بفرعونَ المتألّه، ليريه جهلَه وقصرَ نظره، فَها هو الآن حريصٌ كلَّ الحرص على إنقاذِ حياة عدوِّه اللدودِ الرضيع، المضربِ عن الرضاعة!.

تدخل أخت موسى الذكية في اللحظة المناسبة:

وكانت أختُ موسى اللبيبةُ الذكيةُ تراقبُ كلَّ شيء، بفطنةٍ ووعي، وكانتْ مع المتجمعين حولَ أخيها، وشاهدت امتناعَه عن جميعِ المراضع، ولاحظتْ تلهُّفَ فرعونَ وامرأتِه وآلِه على أخيها، واهتمامَهم به، وحرصَهم على إنقاذِ حياته.

هنا تدخلتْ في اللحظةِ المناسبة، وعرضَتْ عليهم خدماتِها، لإنقاذِ حياةِ ابن فرعون - بالتبنّي - وأخبرتْهم أنها تعرفُ مرضعاً سيقبَلُ الرضيعُ ثديَها.

قال تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه: ٤٠].

قالتْ لفرعونَ وآلِه: هل أدلكُم على أهلِ بيت، فيه امرأةٌ مرضع، سيقبلُ الرضاعةَ منها، وسيكفلهُ أهلُ البيت كلُّهم، وسيكونون حريصين عليه، ناصحين له؟

ولماذا لا يقبلُ فرعونُ وآلُه هذا العرض من تلك الفتاة؟ أَليسوا حريصين على إنقاذِ حياة الرضيع؟ وعندها هي الحل. وهم لا يشكّون فيها، ولا في أهلِ البيت الذي ستدلُّهم عليه!

إحضار أم موسى لإرضاعه:

قبلَ فرعونُ وآلُه عرضَ الفتاة، ودلَّتْهم على أهلِ بيتٍ يكفلونَ الرضيع وهم له ناصحون. وما درى المساكين أنَّ أهلَ البيت هم أهلُ الرضيع، هم أَبوه وأُمُّه وإِخوتُه! إنهم فعلاً مساكين سذَّجٌ أَمامَ تدبيرِ الله وتقديره وحكمته!

واستدعوا أُمَّ موسى، وهم لا يعرفون أَنها أُمه، ودخلتْ عليهم،

وتصرفتْ هي أيضاً بحكمةٍ وفطنة، فلم تهجمْ عليه بحنانِ الأم وشوقِها ولهفتها، ولم تَقُمْ بتقبيله واحتضانِه والبكاءِ شوقاً إليه، ولم تسمحْ لمشاعرها أنْ تكشفَ حقيقتَها.

تصرفَتْ وكأنّها لا تعرفُ هذا الرضيع، وعاملَتْه باعتبارِهِ طفلاً كأيِّ طفل، حملَتْه، وألقمَتْه ثديَها. ونظرَ فرعونُ وآلُه إليه، وفوجئوا: هذا الذي أَضربَ عن جميعِ النساء، ورفضَ جميعَ الأثداء، هو نفسُه يَقبلُ ثديَ هذه المرأة، ويرضَعُ منها بسكونٍ وطمأنينة، وها هو يخلدُ إلى النوم بعدما رضعَ الوجبةَ المشبعة!

نام في هذا الحضنِ الدافئ، واطمأَنَّ إلى هذا الحنانِ الصادق، وكأنَّه عرفَ أن هذه المرأة هي أُمُّه التي أنجبتْه، وهم لا يعرفون أَنها أمُّه، ولذلك سكنَ إليها، ونامَ في حضنها!!

فرحَ فرعونُ وآلُه بهذه النهاية السعيدة، حيث زالَ الخطرُ عن الرضيع، واطمأنوا على حياته.

فرعون يعيّن أم موسى مرضعاً له:

وعَيَّنَ فرعونُ أُمَّ موسى مرضعاً له، وفقَ حكمةِ الله وتقديره وتدبيره، وحملت الأمُّ ابنَها، وذهبتْ به إلى بيتها، وصارت ترضعُه حليبَها وحنانَها، وتأخذُ أُجرتَها على ذلك من فرعون.

وبذلكَ تحققَ وعدُ الله لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾. حيث ردّه اللّهُ إليها بطريقةٍ ربانية لا تخطرُ على بالِ بشر، وهي امتناعُ موسى عن الرضاعةِ من أيِّ مرضع، حتى جاءوا له بأمِّه وهم لا يشعرون.

وبهذا المعنى وردَ قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

ردَّ اللّهُ موسى إلى أمه، وأَرضعتْه حليبَها وحنانَها، وأَخذَ الطفلُ حاجتَه منها، بقرارٍ من فرعون. وبذلك قرَّتْ عينُها، وحققَتْ سرورَها

وسعادتَها، حيث جمعَ اللّهُ بينَها وبين ابنها، وزالتْ عنها مشاعرُ الحزن والأسى، عندما فارقَها لفترةٍ قصيرة.

وبذلك زادَ إيمانُ هذه المرأة المؤمنة بالله، وزادَ يقينُها بتحقيقِ وعْدِ الله، وزادَ تسليمُها لأمر الله، وتعمَّقَ علمُها بقدرة الله وحكمته.

أمّا فرعونُ وآلُه فقد كانوا جاهلين، لا يَعرفون ماذا يفعلون، ولا يُدركونَ حقيقةَ الأحداثِ التي تجري.

ونُشيرُ إلى الجانبِ الإيجابي في ثناءِ الله على أمِّ موسى، ووصْفِها بالعلم في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

وهذا في مقابلِ الجانب السلبي، عندما نفى عن فرعون وآله العلم، في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد امتنَّ اللّهُ على موسى عليه السلام، عندما ذكَّرَه بهذا التدبيرِ والتقدير، وهذه المنةِ والنعمة، وكان ذلك عندما ناجاهُ على جبل الطور، وكلَّفَه بالذهابِ إلى فرعون، حيث قال له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [طه: ٣٧].

وقال له: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . .﴾ [طه: ٤٠].

لماذا التأكيد على عودته لأمه بأسلوبين قرآنيين؟:

ونلاحظُ أنَّ القرآنَ أكَّدَ على تحقيقِ وعْدِ الله لأُمِّ موسى بإعادةِ ابنها إليها، واستخدَمَ في ذلك أسلوبيْن:

أُسلوبُ الإخبارِ في سورة القصص: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . . .﴾.

وأُسلوبُ الخطابِ المباشر في سورة طه: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . .﴾.

ولعلَّ هذا التأكيدَ بسببِ أَهميةِ الموضوع، وللإشارةِ إلى المعجزة الربانية في تدبيرِ وتقدير إِعادتِه إلى أمه، وسخريةِ الله بفرعونَ المتألّه، حيث دفعَه دفعاً إِلى اتخاذ قرارِه بإعادةِ الطفلِ إلى أمه. والتذكير بأَنَّ التخطيطَ البشريَّ عاجزٌ عن إعادةِ موسى إِلى أمه بدونِ كشف حقيقته.

«قرة العين» لأم موسى وامرأة فرعون، وحرمان فرعون منها:

ونلاحظُ أيضاً تكرارَ الحديثِ عن «قرةِ العين» في الحديثِ عن هذه المرحلةِ المثيرةِ الخطيرة، من حياة موسى عليه السلام:

- فلما شاهدت امرأةُ فرعون الوليد، خاطبتْ زوجَها قائلة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾.
- وأَخبرَ اللّهُ أنه أَعادَ موسى إِلى أمه: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ..﴾.
- ولما خاطبَ موسى على جبلِ الطور، ذكَّرَه بذلك، وأَخبره أنه أَرجعَه إلى أمه: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ..﴾.

وفعلاً قَرَّتْ عينُ أُمِّ موسى بإعادةِ ابنِها إِليها، وزالَ عنها الحزن، وكان موسى قرةَ عينٍ لامرأة فرعون المؤمنة ـ على ما ذهبَ إِليه بعضُ المفسرين والإِخباريين ـ لأَنها آمنتْ به، ونالت السعادةَ والسرور.

ولكنَّ موسى لم يكن قرةَ عينٍ لفرعون، لأَنَّ فرعونَ رفضَ الإيمان، فخسرَ السعادةَ والسرور، لقد كان موسى سبباً في موتِ فرعون وهلاكه.

إنَّ قرةَ العين لا تكونُ إِلا بالإيمان، ولا تتحققُ إلاّ بالتسليمِ لله، وكلُّ مَنْ آمنَ بالله، وتوكَّلَ عليه، ووثقَ بوعده، ورضيَ بقضائه، فقد حققَ السرورَ والسعادة، والرضا واليقين، والهدوء والطمأنينة.

والكافرُ محرومٌ من هذه النعم الغامرة لكفره، وبذلك لا تقرُّ عينُه، ولا تهدأُ نفسُه.

لذلك كانَ موسى قرةَ عينٍ لأمه ولامرأةِ فرعون، ولم يكن كذلك لفرعونَ نفسِه!

سكوت عن مصير أبوي موسى وأخته بعد ذلك:

أَنهى موسى رضاعَه عند أُمِّه، ولما كَبُرَ أُعيدَ إلى فرعون، لينشأَ في قصره، ويقضي فتوَّتَه وشبابَه فيه.

وسكتتْ مصادرُنا اليقينية - الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة - عن والدَيْ موسى بعدما عادَ إلى فرعون.

فأبوه «عمران» لم نعلمْ عنه شيئاً أَساساً.

وأُخْتُه اللبيبةُ الذكية، انتهى دورُها عندما اقترحَتْ على فرعونَ وآلِه الاتيانَ بمرضعٍ له، حيث أَتَتْ بأمها، ولا نعرفُ عنها شيئاً بعد ذلك.

وأُمُّه انتهى دورُها بانتهاءِ حضانتِها له، وإرضاعه ثم فطامِه، وإِعادته إلى فرعون، ولا نعرفُ عنها شيئاً بعد ذلك.

أَما موسى فقد نشأَ في قصرِ فرعون، وأَمضى السنواتِ الأُولى من عمره فيه، وكان معروفاً عندَ رجالِ القصر وعند آلِ فرعون وعندَ الناس الآخرين بأنه «ابنُ فرعون» - بالتبنّي - وكانوا يعاملونَه على هذا الأساس.

ولا يتحدثُ القرآنُ عن طفولةِ وشبابِ موسى في قصر فرعون، إلا في آيةٍ مبهمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤].

حياة القصر لم تفسد موسى لأن الله اصطفه لنفسه:

واللافتُ للنظرِ أنَّ حياةَ القصر لم تُفْسِد الشابَّ موسى - ابنَ فرعون بالتبني - كما أنَّ ظلمَ وطغيانَ فرعون لم يمتدّ إلى متبنّاهُ موسى، ولو كانَ غيرُ موسى يقضي فتوَّتَه وشبابَه في هذه الأجواء لانعكستْ على عقليتِه ونفسيته وسلوكه، وكان فاسداً مفسداً، طاغياً ظالماً، شهوانياً دنيوياً! وكم تُفسدُ حياةُ القصور الناسَ الذين يعيشونها!!!

أما موسى فقد بقيَ في مناعةٍ وحصانة، وذلك بسببِ حفْظِ الله ورعايته له. ومَنْ حفظَهُ اللّهُ ورعاه، فإنه ينجو من الأَخطارِ والانحرافات.

نَشَّأَ اللّهُ موسى تنشئةً خاصة، وربّاه في قصرِ فرعون تربيةً خاصة، وعصَمَه في القصر من آفاتِ وأمراضِ وانحرافاتِ القصر، وصَنَعَه على عينه، واصطَنَعَه لنفسه.

وهذا هو صريحُ آياتِ القرآن، فقد قالَ اللّهُ لموسى عليه السلام عندما ناجاه على جبل الطور: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩].

وقال له: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١].

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنه عَبَّرَ عن رعايةِ اللّهِ لموسى بلفظِ الصناعةِ والاصطناع.

قال الراغبُ الأصفهاني عن الصنع: «الصُّنْعُ إجادَةُ الفعل. فكلُّ صُنْعٍ فعل، وليس كلُّ فعْلٍ صنعاً. ولا يُنْسَبُ الصنعُ إلى الحيوانات والجمادات.

.. والاصطناع: المبالغةُ في إصلاحِ الشيء، قال تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾.

وهذا إشارةٌ إلى نحوِ ما قالَه بعضُ الحكماء: «إنَّ اللّهَ إذا أَحَبَّ عبداً تفقَّده، كما يتفقَّدُ الصديقُ صديقَه..»[١].

صنعَ اللّهُ موسى على عينه، وأَدامَ عليه رعايتَه وعنايتَه، وعصمه في قصرِ فرعون، ونشأَ عند أعتى كافر نشأةً إيمانية. نشأَ رجلاً ربانياً، واتَّصفَ بالصفاتِ الكريمة، والأخلاق الحميدة.

موسى عندما بلغ أشده واستوى:

وامتدَّ العمرُ بموسى وهو في هذا الاصطناع الرباني، حتى بلَغَ أَشُدَّه واستوى، عند ذلك آتاهُ اللّهُ الحكمَ والعلم: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ..﴾.

---

(١) المفردات: ٤٩٣.

قال الإمام الراغب عن بلوغ الأَشُدِّ: «الشَّدُّ: العَقْدُ القوي. يقال: شددْتُ الشيء: قَوَّيْتُ عَقْدَه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: ١٥] ففيهِ تنبيهُ أنَّ الإنسانَ إذا بلَغ هذا القدرَ يَتقَوّى خلُقُه الذي هو عليه، فلا يكادُ يزايلُه بعدَ ذلك. وما أحسنَ ما نَبَّهَ له الشاعرُ حيث يقول:

إذا المَرْءُ وافى الأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ ... لَـهُ دونَ ما يَـهـوىٰ حَـيـاءٌ ولاَ سِـتْـرُ
فَدَعْهُ وَلا تَنْفَسْ عَلَيْهِ الذي مَضىٰ ... وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الحَياةِ لَهُ العُمْرُ[1]

لقد بلَغَ موسى أَشُدَّه في قصر فرعون واستوى. ومعنى «استوى» استقامَتْ حياتُه، واعتدلَتْ شخصيتُه، واستقرّتْ صفاتُه وأخلاقُه، وتميزَ كيانُه، وعُرفَ بين الناس بأنه ليس مثلَ فرعون، ولا مثلَ آلِ فرعون ورجالِ القصر. عُرِفَ بين الناس بأخلاقِه وصفاتِه، عُرِفَ بينهم بعزتِه وكرامته، وسماحتِه ونخوته، وعدلِه وبرِّه، وعلمِه وحكمته.

عند ذلك صارَ مؤهَّلاً لتلقّي كرمِ الله عليه، فآتاهُ اللّهُ العلمَ والحكمة، فَحَلَّ العلمُ والحكمةُ على شخصيتِهِ السوية، وكيانِه المستقيم، وتعامَلَ مع الآخرين بمنطقِ العلم والحكمة، وكانَ محبوباً بينهم، وملجأً للضعفاء والمظلومين منهم، يَفزعون إليه، ويحتمون به.

فهو من الجانبِ الرسمي، ربيبُ القصرِ ومُتَبَنّى فرعون، وبذلك حققَ الحمايةَ الرسمية والأمنية. وهو من الجانبِ الإنساني عالمٌ حكيم، ومحسنٌ كريم، وقد استخدمَ الجانبَ الرسميَّ لتحقيقِ الجانبِ الإنساني، وَوَظَّفَ صلتَه بفرعونَ وآلِه لخدمةِ الآخرين، وبالذات الإسرائيليين المظلومين من قبل الفراعنة!

وهذا هو تدبيرُ الله وتقديرُه، إنه هو العليمُ الحكيم.

---

(١) المفردات: ٤٤٧.

[٥]

موسى يقتل القبطي ويذهب إلى مدين

وقفْنا في كلامِنا السابقِ عند نشأةِ موسى عليه السلام في قصر فرعون، حيثُ صنعهُ اللّهُ فيه على عينِه، ونَشَّأه بيديه، فنشَأَ نشأَةً إيمانية، وآتاهُ اللّهُ الحكمَ والعلم، وهذا هو ما أَشارَ له قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ . .﴾.

وقد سكتَ القرآنُ والحديثُ الصحيحُ عن الفترةِ ما بين طفولة موسى وشبابِه في قصر فرعون، حيث وقفَتْ بنا الآياتُ من سورة طهِ وسورة القصص عندَ إِعادتِه إلى أمه، وقدَّمَتْه لنا آياتُ سورة القصصِ التاليةُ بعدما بلغَ أشدَّه واستوى، وبعدما منحه اللّهُ الحكمَ والعلم.

موسى يمضي شبابه في قصر فرعون:

فالفترةُ ما بين طفولتِه وشبابه لا نعرفُ عنها شيئاً، وهذه «فجوةٌ» فنيةٌ مقصودة، في عرْضِ القرآنِ لقصته عليه السلام.

وبعدما صارَ موسى شاباً صالحاً ربانياً، كان يساعدُ الآخرين، وينصرُ المظلومين، ويواجه الظالمين، وكان محباً للمؤمنين، مبغضاً للكافرين.

ولقد تعرَّفَ على أصله الإسرائيلي، وعرفَ قصتَه مع فرعون، وكيف تبنّاه فرعون، ثم أَعاده إلى أمه.

وعايشَ ظلمَ الفراعنة لقومه بني إسرائيل، وآلَمَه هذا الظلم، وزادَ في كراهيته لآلِ فرعون الظالمين، وانحيازِه إلى شيعتِه الإسرائيليين.

حدثَ بعدَ ذلك حادث، لم يقصدْه موسى ولم يُرِدْه، أدّى إلى قتلِه لرجلٍ قبطي، ونتجَ عن ذلك خروجُه من مصرَ إلى مدين.

هذا الحادث لم يَرِدْ إلاّ في سورة القصص.

قال الله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا

رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص: ١٥ ـ ٢٢].

موسى يشهد عراكاً بين إسرائيلي وقبطي:

وخلاصةُ هذا الحادث أنّ موسى عليه الصلاة والسلام دخلَ المدينة ـ التي هي مقرُّ فرعون وعاصمةُ مصر ـ وكان أهلُها في بيوتهم، ولا يكادَ يكونُ أحدٌ في الشوارع، وهذا قد يكونُ وقتَ الظهيرة، عندما يأوي الناسُ إلى بيوتهم، يَقيلون ويَرتاحون فيها، ويهربون من حَرِّ شمسِ الظهيرة، وقد يكونُ هذا في الليل، عندما يذهبُ الناسُ إلى بيوتهم، ليخلدوا إلى النوم، هذه هي الغفلةُ المذكورة في الآية: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

وسارَ موسى في شارعٍ من شوارع المدينة العاصمة، ولم يكن فيها أحد، لأنَّ الناسَ في البيوت..

وبعدما سارَ مسافةً رأى فجأةً رجلين: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ..﴾.

إنَّ موسى إسرائيلي مؤمن، وإنه يعلمُ أنَّ الإسرائيليين كانوا في

مصرَ مظلومين مضطهدين، وكان الفراعنةُ يُذلّونهم ويَظلمونهم. وما كان يرضى عن ذلك، فكثيراً ما كان يتدخلُ لنجدةِ الإسرائيليين المظلومين، والوقوفِ أمامَ الفراعنة الظالمين، وقد عَرَفَ منه الإسرائيليون ذلك، وكثيراً ما كانوا يستنجدون به ويستغيثونه.

ولقد فوجئَ موسى بالرجلين يقتتلان وحْدَهما، في ذلك الشارع المهجور، والناسُ في بيوتهم. ونظرَ فيهما ليتعرَّفَ عليهما. لقد كان أَحَدُهما إسرائيلياً ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾. أي: من قوم موسى وهم بنو إسرائيل. وكان الآخرُ قبطياً فرعونياً ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

وهذا هو المشهدُ المكرورُ في شوارعِ وأحياءِ وبيوت المدينة، فكثيراً ما تقعُ المناوشاتُ بين الإسرائيليّين المظلومين، وبين الفراعنةِ الظالمين.

الإسرائيلي يستغيث بموسى:

واقتربَ موسى من الرجلين المتقاتلين، وشاهدَ الإسرائيليُّ موسى قادماً، وتذكَّرَ أعمالَه السابقة في نصرةِ المظلومين، والوقوفِ أمام الظالمين، والدفاعِ عن الإسرائيليين على وجه الخصوص. ويبدو أنَّ هذا الإسرائيليَّ كان مظلوماً، والقبطيَّ كان ظالماً.

استفادَ الإسرائيليُّ من هذه السجيةِ الكريمةِ عند موسى، فاستغاثَه واستنجدَ به واستنصره، ليساعدَه على القبطي، ويدفعَ عدوانَ القبطي عليه: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ . .﴾.

والتعبيرُ بالاستغاثةِ في الآية مقصودٌ ومراد، فهذا الإسرائيليُّ مظلومٌ في موقفٍ ضعيف، ولهذا وجدَ موسى فرجاً وغوثاً، فاستغاثه استغاثة، ليخلِّصَه من ذلك الظلم، كما يستغيثُ الموشكُ على الغرق بمن ينقذُه من الغرق.

سمعَ موسى استغاثةَ الإسرائيلي المظلوم، وتذكَّرَ ما يلاقيه شيعتُه الإسرائيليون من ظلمٍ وإذلالٍ وعدوان على أيدي أعدائه الفراعنة، وهذا

مثالٌ صارخٌ على ذلك، وهو ذو نخوةٍ ونَجدة ومروءة، وما كانَ له أن يتخلَّفَ عن النجدة، أو يتوقفَ عن المساعدة.

موسى يقتل القبطي بوكزة:

توجَّه موسى نحوَ الرجلين، ودونَ أن يكلِّمهما أو يسألَهما أو يحققَ معهما، وجَّهَ يدَه نحو القبطي المعتدي: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ..﴾.

قالَ الإمام الراغب: «الوَكْزُ: الطعنُ، والدفعُ، والضربُ بجميع الكف..»[1].

والوكْزُ لم يَرِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

فالوكْزُ هو الضربُ بمجمعِ اليد، وذلك بأنْ يضمَّ الضاربُ أَصابعَه نحو الداخل، ويوجِّهَ قبضتَه إلى خصمه، ويضربَه ضربةً أشبهُ ما تكونُ بضربات الملاكمة في هذا العصر.

وكانت وكزةُ موسى قاتلةً للقبطي، وكانت ضربتُه قاضيةً قضتْ عليه.

إنَّ الأعمارَ والآجالَ بيد الله، وما أَعمالُ البشر إلا أسبابٌ ماديةٌ ظاهرة، فاللّهُ هو الذي قدَّرَ إنهاءَ حياةِ القبطي في تلك اللحظة، وجعلَ وكزةَ وضربةَ موسى له سبباً مباشراً لموته.

لم يقصدْ موسى قتلَ القبطي، ولم يخطِّطْ ذلك ولم يتعمَّدْه، وهو لم يظلمْه ولم يعتَدِ عليه. كلُّ ما أراده موسى هو أنْ يردعَه عن الإسرائيليِّ المظلوم، ويوقفَ عدوانَه عليه، وما وَكْزُه وضَرْبُه له إلا وسيلةٌ لذلك، والوكزةُ لا تقتلُ رجلاً في الغالب، لكنها إرادةُ الله وحكمتُه، التي أَنهتْ عمرَ القبطيِّ بوكزةِ موسى له، وذلك ليحققَ اللّهُ إرادتَه في ترتيبِ وتدبيرِ الأحداث التالية، كما قدرها الله سبحانه.

---

(١) المفردات: ٨٨٢.

المهمُّ أنَّ موسى قتلَ القبطيَّ الفرعوني، ونصر أَخاه الإسرائيلي!!.

وبعدما قَتَلَه شعرَ بتسرُّعِه في فعلِه، وفعْلِه ما لا يناسبُ له، ففعَلَ خلافَ ما هو أَوْلى، ولذلك شعرَ بندمه فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وموسى في هذه المرحلةِ لم يكنْ نبياً، لأَنَّ نبوَّته وبعثتَه جاءتْ بعد ذلك، ولكنه كان في حفظِ اللّهِ ورعايتِه وعنايته، ومعنى هذا أَنه لم يكن مخطئاً ولا مذنباً ولا جانياً في قتْلِه للقبطي، لأنَّ الراجحَ عندنا أَنَّ الأَنبياءَ معصومون عن الذنبِ والمعصيةِ والخطأ والجناية قبلَ النبوة وبعْدَها.

كلُّ ما في الأمرِ أَنهم قد يقولون قولاً، أَو يعملون عملاً، يكون خلافَ ما هو الأَوْلى، ولا يكون خطأً أو معصية، فيرشدُهم اللّهُ إِلى ما هو أَوْلى، عندما يعاتبُهم على ذلك.

مسوغات ومبررات قتل موسى للقبطي:

ومن هذا البابِ قتْلُ موسى للقبطي، لقد كان قتْلُه له صواباً، ولم يكن في ذلك مذنباً ولا مخطئاً ولا معتدياً.

ومبرراتُ ومسوِّغاتُ صوابِ فعلِه هي:

١ ـ إنَّ القبطيَّ فرعونيٌّ ظالمٌ كافر، وردُّ عدوانِ الظالم المعتدي مطلوب، وصاحبُه يُمْدَحُ على فعله.

٢ ـ إنَّ المعتدىٰ عليه إسرائيليٌّ مظلوم مؤمن، ونصرةُ المظلوم مطلوبة، فكيفَ إذا كان هذا المظلومُ مؤمناً قريباً للمستغاثِ به؟.

٣ ـ إنَّ الإسرائيليَّ قد استنجدَ بموسى واستغاثَ به واستصرخَه، وطلَبَ منه إنقاذَه ونجدتَه، وكيف لا ينجدُه موسى ولا يغيثُه؟

٤ ـ دخلَ موسى بينهما ليردعَ المعتدي عن عدوانه، ويفضَّ الاشتباك، ويُنهي الاقتتال. وحتى لما وَكَزَ القبطيَّ كانت وكزتُه لهذا

الهدف، وهو هدفٌ نبيلٌ مطلوب.

٥ ـ لم يقصد موسى قتلَ القبطي، ولم يتعمَّده، ولكنَّ اللّهَ جعلَ انتهاءَ أجلِه بوكزةِ موسى له، ولا يُلامُ على موتِ إنسانٍ تسبَّبَ في موته، دونَ أنْ يقصدَ ذلك أو يتعمَّدَه.

لماذا اعتبر موسى الحادث من عمل الشيطان:

فإذا كان الأمرُ كذلك فلماذا ندمَ موسى على قتلِ القبطي؟ ولماذا اعتبرَ قتلَه من عملِ الشيطانِ العدوِّ المضلِّ المبين؟

إنه ندِمَ على تَسرُّعِه، ومهما كانت مبرراتُ فعْلِه، فقد كان خلافَ ما هو أَوْلى، إنه قَتْل! وهذا لا يناسبُ وضْعَ موسى وظرْفَه في ذلك.

وهو بهذا الاعتبارِ من عملِ الشيطانِ العدوِّ المضلِّ المبين، فالشيطانُ هو الذي يَدعو الناسَ إلى أنْ يعتديَ بعضُهم على بعض، وأنْ يقاتلَ بعضُهم بعضاً، ويقتلَ بعضُهم بعضاً، ولولا نزغاتُ الشيطان ووساوسه وأَوامره لما قَتَلَ شخصٌ شخصاً آخر.

وليس معنى هذا أنَّ الشيطانَ هو الذي دَعا موسى إلى قَتْلِ القبطي، فموسى أَرادَ أَنْ يقررَ قاعدةً عامةً في القتل، وذلك عندما قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وهذه القاعدةُ لا تنطبقُ على فعْلِ موسى، فلم يكن قتْلُه للقبطيِّ بسبب وساوسِ الشيطان له، لأنَّ اللّهَ اصطَنَعَه وصنَعَه على عينه، وهو يُعدُّه ليكون نبياً، والشيطانُ لا سلطانَ له على الأنبياء، لا قبلَ النبوة، ولا بعدها، فهم محفوظون منه بحفظ الله لهم!

ومن أَسبابِ ندمِ موسى على قتْلِ القبطي أنه فكَّرَ في عواقبِ ونتائج ذلك، وفي ما سيجرُّه الفعلُ عليه.

فقد انتهى الحدث، وغادرَ موسى أَرضَ الاشتباك، كما غادرَها الإسرائيلي، وخلَّفا وراءَهما جثةَ القبطيِّ القتيل.

ومن المتوقَّع أنْ ينشطَ رجالُ فرعون في البحثِ والتحرّي، لمعرفةِ القاتل، ولكن يبحثونَ مع مَنْ؟ ويسألون مَنْ؟ لقد وقعت الحادثةُ على حينِ غفلةٍ من أهلِ المدينة، حيث كانوا في بيوتهم، ولا يَعرفُ عنها إلاّ رجلان: موسى والإسرائيلي!

توجيه استغفار موسى:

أَمضى موسى ليلَتَه مفكِّراً فيما فَعَل، ومتوقِّعاً العواقبَ السيئةَ الناتجةَ عنه، وحمدَ اللّهَ على عدمِ القبضِ عليه متلبساً بحادثة القتل، وإنعامِه عليه بنجاتِه حتى هذه اللحظة، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ولا بدَّ أنْ نفهمَ قولَه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ من خلالِ مقامِ موسى الخاص، فاللّهُ يُعِدُّه ليكون نبياً، وكلامُه هذا مرتبطٌ بمقامِ النبوة، الذي وضعهُ اللّهُ فيه فيما بعد.

ليسَ اعترافُه بالظلم لنفسه كاعترافِ أحدِنا بظلمِه لنفسه، وليس استغفاره كاستغفار أَحدِنا لذنوبه، وليس مغفرةُ الله له كمغفرةِ اللّهِ لأَحدنا!

لقد قالَ موسى هذه العبارةَ من شعورِه بالندم على ما فعل، ومن إقرارِه بأنه فعَلَ خلافَ ما هو أَولى، وشعورِه بالتقصيرِ في حقِّ الله. فليس ظلمُه لنفسِه ظلماً حقيقياً، قائماً على التجاوز والتعدي، وليس استغفارُه بسببِ ذنبٍ حقيقيٍّ ارتكبه. إنما قال ذلك من باب ذكْرِه لله.

ومن هذا البابِ أيضاً قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

فليسَ هذا اعترافاً منه بأنه كان ظهيراً للمجرمين عندما قتَلَ القبطيَّ ونصرَ الإسرائيلي، لم يكن الإسرائيليُّ مجرماً، ولم يكن موسى مسانداً ومعاوناً للمجرمين. فقد كان على صوابٍ في نجدتِه للإسرائيلي، ودفْعِه لعدوانِ القبطيِّ عليه.

إِنما اعترفَ بنعمةِ الله عليه، في عدم مشاهدةِ أَحدٍ حادثةَ القتل، وهذه النعمةُ تتطلبُ من موسى شكراً خالصاً لله، ومن مظاهر هذا الشكر العملية أنْ لا يكونَ مظاهراً مساعداً للمجرمين، وهذه قاعدةٌ عامة يقررها موسى عليه السلام، ولا يَلزمُ من هذا التقريرِ أنه خالَفَها هو عندما نصرَ الإسرائيليَّ وقتَلَ القبطي!!.

خوف موسى في الصباح واستنجاد الإسرائيلي به:

أَصبحَ موسى، وذهبَ إِلى وسطِ المدينة وشوارعها، وكان في حالةِ خوفٍ شديد. عبَّرَ عن حالتِهِ قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

كان خوفُ موسى طبيعياً، لا يُلامُ عليه، وليس بسببِ جبنٍ أو ضعفٍ أو خَور، لقد قَتَلَ رجلاً قبطياً، وهذه الفعلةُ خطيرة، قد تُسببُ له القتل، وأَشجعُ الناسِ يخافُ عندما يَقتلُ آخر.

وكان موسى في الصباح «يترقَّب» في المدينة، أي كان حذراً يتلفتُ يمنةً ويسرة، يَخشى أنْ يَعرفَ أحدٌ أَنه هو القاتل، وبذلك يأخذُه جنودُ فرعون ويقتلونه.

وبينما كان موسى يَسيرُ في المدينة على هذهِ الهيئة، من الخوفِ والترقبِ والحذرِ والخشية، إِذا به يُشاهدُ الإسرائيليَّ الذي نصرَه بالأمسِ مشتبكاً في عِراكٍ مع قبطيٍّ جديد. فلما رآه الإسرائيليُّ سُرَّ بذلك، لأنه سيحسمُ له خلافَه مع القبطيِّ الجديدِ بضربتِهِ القاضية! أَليس هذا ما فعلَهُ بالقبطيِّ بالأمس؟

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: استنجد به، وطلب منه أن يخلصه من غريمه، واستصرخه لينقذه

عَبَّرَ القرآنُ عن استنجادِ الإسرائيليِّ به بأَلفاظٍ ثلاثة: «استغاثه» و«استنصره» و«يستصرخه».

إِنه الاستنصارُ والاستصراخ، وإِنها الاستغاثة.

وجَرْسُ الأفعالِ الثلاثة وحروفُها، تدلُّ على الحالة التي كانَ يمرُّ بها ذلك الإسرائيلي، من ظلمِ وعدوانِ القبطيِّيْن عليه، مما دَعاهُ إلى أنْ يستنجدَ بموسى ويستنصرَه ويستصرخَه.

لم يرتحْ موسى لاستنجادِ الإسرائيليِّ به في المرة الثانية، ولم يتفاعَل معه كما فعل في المرة الأولى، ولهذا علَّقَ عليه قائلاً له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾.

والمعنى: إنك أيها الإسرائيليُّ صاحبُ إشكالات، وإنك حريصٌ على الغواية، فما تخرجُ من مشكلةٍ إلا لتدخلَ في مشكلةٍ أُخرى، فبالأمس خلَّصْتُك من مشكلةٍ مع قبطي، واليومَ ها أنتَ مع مشكلةٍ أُخرى مع قبطيٍّ آخر. فلماذا هذه الغوايةُ منك؟

ومعَ أنَّ موسى لم يرضَ مشكلةَ الإسرائيلي الجديدة، إلا أَنه لم يَجِدْ أَمامَه إلا إنجادَه وإنقاذَه ونصرَه، فهو إسرائيليٌّ من شيعته، عانى ما عانى من ظلمِ وإذلالِ الفراعنة.

الإسرائيلي يذيع سر قتيل الأمس وعلم آل فرعون بذلك:

وتوجَّهَ موسى لخصْمِه الفرعوني ليبطشَ به: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

سمعَ الإسرائيليُّ كلامَ موسى له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، وفهِمَ من ذلك ذمَّ موسى له، ثم رأى الإسرائيليُّ موسى قادماً إليه، فلم يظنّ أَنه قادمٌ للبطشِ بغريمه القبطي، وإنما ظنَّ أنه قادمٌ لقتلِه هو، والبطشِ به هو، لأَنه سبق أن قال له: إنك لغوي مبين.

وهذا الإسرائيليُّ يعرفُ قوةَ موسى من حادثةِ الأمس، فقدْ قتلَ القبطيَّ بوكْزةٍ من مجمعِ يده!! ولذلك خافَ أنْ يقتُلَه.

وبسببِ خوفِ الإسرائيليِّ على نفسه من موسى، قال له: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

لقد أَذاعَ هذا الإسرائيليُّ الخائفُ السر، وكَشَفَ لُغزَ حادثةِ الأمس! إذنْ موسى هو الذي قَتَلَ القبطيَّ بالأمس!

جَعَلَ الإسرائيليُّ بخوفِه وغبائِه المشكلةَ بينه وبين موسى، الذي جاءَ بناءً على استنجادِه به، ونسيَ مشكلتَه مع القبطي، وَوَصَفَ موسى بأنه جبارٌ في الأرض، وليس مصلحاً فيها، فبالأَمسِ قَتَلَ القبطي، واليوم يُريدُ أن يقتلَه هو!!

تركَ الإسرائيليُّ القبطيَّ، ووجَّه كلامَه ولومَه لموسى.

سمعَ القبطيُّ الخبرَ المثير، إِذنْ موسى هو قاتلُ القبطيِّ بالأمس. وذهبَ القبطيُّ مسرِعاً إِلى آل فرعون، وقَدَّمَ لهم حَلَّ لُغزِ حادثةِ الأمس.

وفوجئَ القومُ بالخبر. إذنْ موسى هو القاتل! موسى ربيبُ فرعون، الذي عاشَ في قصره، وأمضىٰ عنده سنواتِ عمره، لم ينسَ أصْلَه الإسرائيلي، فلما حانتْ أولُ فرصةٍ انحازَ إِلى إسرائيليٍّ وقتلَ قبطياً.

وأَخبروا فرعون فوراً، وفوجئَ فرعونُ بما يَسمع، ودعا الملأَ من آله إِلى اجتماعٍ عاجل، ليتدارسوا القضية، ويفكِّروا في كيفيةِ قتلِ موسى.

وموسى لا يَعرفُ أنَّ سِرَّ حادثةِ الأمس قد انكشف، ولا يَعرفُ أنَّ فرعونَ سيصدرُ أَمْرَه باعتقالِه وقتله، لكنه كان يسيرُ في المدينة خائفاً يترقب.

إخبار الرجل موسى بالخطر المحدق به:

وبينما كان يسيرُ على هذه الحالةِ جاءه رجلٌ يسعى ليحذِّرَهُ من الخطر القادم: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

هذا الرجلُ مُبْهَم، لا تذكُرُ المصادرُ الصحيحةُ اسمَه ولا مركزه،

ولا تُبينُ كيفَ عرفَ اجتماعَ وائتمارَ الملأ من قوم فرعون بموسى، فهل كانَ واحداً من الملأ المقربين، ولما دُعِيَ إلى الاجتماع آثَرَ أَنْ يسارعَ بتحذيرِ موسى من الخطر؟ أم علمَ من أحدِ المدعوّين بذلك؟

لا تَعنينا معرفةُ اسمِه، ولا تحديدُ مركزِه وصلته بملأ فرعون، لأنه لا بيانَ لذلك في مصادرِنا اليقينية الصحيحة. بل إنَّ القرآنَ يَدعونا إلى عدمِ الخوضِ في ذلك، حيث قال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾.

﴿رَجُلٌ﴾ بهذا التنكير، الدالِّ على الإبهام، ولو أرادَ اللّهُ تبيينَه لبيَّنَه، ولكنَّه يدعونا إلى الاعتبار بموقفه، مع إِبهامِ اسمه ومركزه.

والتعبيرُ بالرجولةِ في هذا المقامِ لتكريم الرجل والإشادةِ به والثناءِ عليه، لأَنه وقفَ موقفاً بطولياً إيمانياً، حيثُ غامَرَ واقتحمَ الخطر، وجاءَ ليخبرَ موسى بالمؤامرة عليه، ويَدعوهُ إلى الخروجِ السريع من المدينة.

وحددت الآيةُ المكانَ الذي جاءَ منه الرجل، بأَنه أَقصى المدينة، وأَقصى المدينة طرفُها، وهذا يشيرُ إلى المكان الذي اجتمعَ فيه الملأُ ليأتمروا بموسى عليه السلام، حيث كانَ في أَقصى المدينة، ولعلَّ قَصْرَ فرعون ومقَرَّ الإدارة والقيادة كان في أَقصى المدينة.

وجاءَ الرجلُ ﴿يَسْعَىٰ﴾ سعياً حثيثاً سريعاً، وكأنه قريبٌ من الجريِ والركض، لقد كان يسعى بجسمِه ليسارعَ في الوصول إلى موسى، وكأَنه يريدُ أَنْ يسبقَ رجالَ فرعون إليه، ليحذِّرَه منهم، قبلَ أَنْ يتمكنوا من القضاءِ عليه.

وقد كان الرجلُ في حركتِه وسعيه أسرعَ من رجال فرعون، حيث سبقَهم إلى موسى وأَخبره.

قال الرجلُ لموسى جملةً في غايةِ الاختصار والإيجاز، حتى يتمكَّنَ من الخروجِ والإفلات من جنود فرعون، فالمقامُ لا يسمحُ بالشرحِ والتفصيل، فقد كان جنودُ فرعون خلْفَه، ولا بدَّ أَنْ يسرعَ موسى بالخروج. قال له الرجل: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

والملأُ هم القيادةُ حول فرعون الذين يقودون الناس، ويُخضعونَهم لفرعون، ويَملأون عُيونَ وقلوبَ الناسِ مهابةً وخوفاً.

لقد اجتمعَ الملأ، وتآمَروا على موسى، واتخذوا قراراً بقتله. وقبلَ أنْ يُنفذوا قرارَهم، ويُصدروا أَمرهم باعتقالِ موسى وقتله، علمَ هذا الرجلُ بالأمر - ولا نعرفُ كيفَ علم - فجاءَ من أَقصى المدينةِ يسعى، وأَخبرَ موسى بذلك، وقال له: اخرج من المدينة.

«اخرج»: فالهدفُ هو الخروج فقط، أَمّا إِلى أينَ يخرج، فهذا ليسَ مهماً، فبعدَ أَنْ يخرجَ ويَنجوَ من القتل، يفكرُ ويحددُ وجهتَه.

وختمَ الرجلُ كلامَه لموسى بتذكيرِه بنصحه له: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وذلك ليطمئنَّ إِليه، ويأخذَ كلامَه مأخذَ الجد، وينجوَ قبلَ وصول الجنود.

خروج موسى خائفاً يترقب:

نفَّذَ موسى نصيحةَ الرجل فوراً، وخرجَ من المدينة، فلم يتمكنْ من العودةِ إِلى بيتهِ ليتزوَّدَ للسفرِ بالطعام والشراب والثياب والدواب، ويودعَ أَهلَه، ويحددَ وجهتَه.

خرجَ من النقطةِ التي كانَ واقفاً عليها في المدينة، وبالصورةِ التي هو عليها، ومعلومٌ أنه كانَ في المدينة عادياً، يلبسُ الملابسَ العادية، التي يلبسُها الذاهبون إِلى المدينة، ولم تكن الملابسُ تساعدُ على سفرٍ بعيد، لكن ماذا يفعلُ وقد فاجأه هذا الأمر المفاجئ.

وقد صوَّرَ القرآنُ حالةَ موسى عندما خرج من المدينة. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

خرجَ من المدينةِ خائفاً، وكان قد أَصبحَ في المدينة خائفاً، وخرجَ من المدينة يترقب، وكان قد أصبحَ في المدينة يترقب.

وهناك صلةٌ وثيقةٌ بين ثلاثِ آياتٍ تصوِّرُ وضعَ موسى في المدينة:

«ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها».

و«فأصبح في المدينة خائفاً يترقب».

و«فخرج منها خائفاً يترقب..».

كان في المرةِ الأولى خائفاً أنْ يتعرفَ عليه أحدُهم، لأنه قتَلَ قبطياً بالأمس، وكان يترقَّبُ ويتلفَّتُ وينظرُ يَمنةً ويَسرة.

أما الآن فهو خائفٌ من جنود فرعون، لأنَّ معهم أمراً بالقبضِ عليه وقتله.

وكان يترقَّبُ ويتلفَّت، وينظرُ هنا وهناك، لئلا يواجِهَ جندياً من جنود فرعون، فإذا شاهدَ أحدَهم من بعيد سارعَ بالاختفاء. وكان يسرعُ الخطى، ويسارعُ في السعي، ليخرجَ من المدينة في أقصر وقت.

وخوفُ موسى طبيعي، لا يُلامُ ولا يُعابُ عليه، وليس جُبناً ولا ضعفاً، ألا تريدُ من رجلٍ مطلوب القبضُ عليه وقتلُه أنْ يخافَ من ذلك؟

ولكنَّ خوفَ موسى الطبيعي من الخطرِ الفرعونيِّ المحدقِ به لم يؤثِّرْ على إيمانه بالله وتوكُّلِهِ عليه وثقتِه به، فكلُّ حياتِه كانت هكذا، وكان يرى فضْلَ اللّهِ عليه وحفظَه له، في كلِّ ما مَرَّ به من أَحداث.

استنجاد موسى بالله وتوجهه إلى مدين:

ولهذا كانَ عندما خرج من المدينة خائفاً يترقب ممتلئاً يقيناً بالله، وتوكُّلاً عليه، فَدَعا اللّهَ قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إنَّ فرعونَ وجنودَه قومٌ ظالمون، وهم الآن قد أَعلنوا الحربَ عليه، وهم أَقوياء يملكون كلَّ أسبابِ ومظاهرِ القوة، لكنه يوقنُ أنَّ القوةَ إنما هي لله، وأنَّ الله سينجيه منهم، ويخلِّصُه من مكرِهم وكيدهم، ولهذا سألَ اللّهَ أنْ يُنجيه منهم.

إنه يعلِّمُنا أنْ نلجأَ إلى الله عند الخطر، وأنْ لا نخشى الطغاةَ الظالمين مهما مَلَكوا من مظاهر القوة، وأنْ نمتلئَ إيماناً بالله وتوكُّلاً عليه، وأنْ نلحَّ في الدعاءِ والتضرع إليه، لأنه لا يكشفُ الغمَّ إلا هو.

وأَنجى اللّهُ موسى من القوم الظالمين، ولم يُدركوه، فخرجَ من المدينة ناجياً سالماً بفضْلِ رعايةِ الله وحفظه وتوفيقه.

وكان توجُّهه جهةَ «مدين»، ووضعَ قدميه في الطريقِ الممتدة من المدينة إلى مدين، وسارَ إلى مدين، وبما أنه لا يعرفُ الطريقَ إليها، فقد سألَ اللَّهَ أنْ يهديَه إليها. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

وحفِظَه ورعاه، وهداهُ سواءَ السبيل، وقطعَ المسافةَ الطويلةَ من مصر إلى مدين، ووصَلَها سالماً بفضلِ الله!!.

[٦]

موسى في مَدْيَن عشر سنوات

توجَّهَ موسى عليه السلام إلى أرض مدين، وسألَ اللهَ أنْ يهديَهُ سواءَ السبيل.

و«مَدْيَنُ» تقعُ شرقَ مصر. وقد تكلَّمْنا عنها وعن موقعِها الجغرافيِّ أثناءَ حديثِنا عن قصة شعيب عليه السلام، الذي بعثَه اللّهُ نبياً رسولاً إلى مدين.

موقع مدين شمال وشرق خليج العقبة:

ونُضيفُ إلى كلامنا هناك ما أوردَهُ ياقوتُ الحمويُّ عنها في «معجم البلدان».

قال: «مَدْيَن: قال أبو زيد: مَدْيَنُ على بحر القُلْزُم ـ هو البحر الأحمر ـ محاذيةً لتبوك، على نحوِ من ستِّ مراحل، وهي أكبرُ من

تبوك، وبها البئرُ التي استقى منها موسى عليه السلام.

... ومَدين اسمُ القبيلة، وهي مدينةُ قوم شعيب..

.. وقال الحازمي: هي بين وادي القُرى والشام. وقيل: مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام، على ستِّ مراحل، وبها استقى موسى عليه السلام..»[1].

وكانت «مدين» تُطلقُ على الأرضِ الواقعة شمال وشرق خليج العقبة، وهي الممتدةُ من وادي عَرَبَة إلى مَعان متجهةً إلى الشرق والجنوب الشرقي حتى تصلَ إلى القربِ من تبوك.

وهي قريبةٌ من قرى قومِ لوط زمانياً ومكانياً، ولذلك ذَكَّرَ شعيبٌ عليه السلام قومه بمدينَ بتدميرِ قوم لوط، وأخبرهم أنها ليست بعيدةً منهم، لا في الزمان ولا في المكانَ. قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

وقد وصلَ موسى عليه السلام إلى أَرض مدين، والتقى فيها رجلاً مؤمناً صالحاً، فرعى عنده الغنم، وتزوَّجَ ابنتَه، وأقامَ هناك عشر سنوات.

وتحدثتْ عن إقامتِه في مدين آياتُ سورةِ القصص.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا

---

(١) معجم البلدان ٥: ٧٧ ـ ٧٨.

جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٨].

قطعَ موسى عليه السلام المسافةَ بين مصر ومدين، وهي مسافةٌ طويلة، ولا نعرفُ مقدارَ المشقةِ والمعاناةِ التي أَصابتْه أثناءَ قطْعِها، ولا الزمنَ الذي استغرقَه في قطعها، فهذا من الفجواتِ الفنية المقصودة في عرض القصة في القرآن.

ما شاهده موسى على عين ماء مدين:

المهمُّ أَنه وصلَ مدين، والمحطةُ الأُولى له كانت عينَ الماء التي يَستقي منها أَهلُ مدين، ويَسقونَ مواشيهم.

وقدَّرَ اللّهُ أنْ يَرِدَ موسى عينَ الماء وقْتَ سقي الرعاة لمواشيهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾.

وُرودُ الماء هو القُدومُ إِليه للشرب، فموسى عليه السلام قصدَ العينَ ليرِدَها ويشربَ منها.

وعندما وردَ عينَ الماء وجدَ ﴿أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾. والمرادُ بِالأمة هنا الجماعة، أي أنّ موسى وجدَ جماعةً من الرعاة يَسقون أَغنامهم ومواشيهم من العين.

ونظرَ موسى حولَه، فرأىٰ منظراً عجيباً مثيراً، عَبَّرَ عنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾.

فالرعاةُ الرجالِ منهمكون في سقْيِ مواشيهم، ومتجمعون حول

عينِ الماء، وهناك امرأتان بعيدتان عن الماء، معهما ماشيتُهما وأغنامهما، حريصتان على أنْ لا تقتربا من الماء أَثناءَ تجمُّع الرجالِ عليه، وحريصتان على إِبعادِ ماشيتِهما عن الماء، فكلما اقتربَتْ بعضُ الأغنام من الماء، كانتا تَذودانِها وتُبعدانها عنه!!

لفتَ هذا المنظرُ نظرَ موسى، وأَعجبهُ حرصُ المرأتين على الابتعادِ عن الرجال وعدمِ الاختلاط بهم، وتحمُّلُهما المشقةَ الكبيرةَ في ذَوْدِ غنمهما عن الماء لحِين انتهاء الرجال من سقي مواشيهم، وشعَرَ نحوهما بالشفقة والرأفة، وأَرادَ أنْ يعرفَ سببَ موقفِهما، والباعثَ لهما على هذه المشقة والمعاناة.

موسى يسأل والمرأتان تجيبان:

توجَّه نحوَهما، وسأَلهما قائلاً: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟.

والمعنى: ما شأْنُكما وقصتُكما؟ ولماذا تَقومان برعْي الغنم؟ ولماذا لا تَسقيان الغنمَ مع الرُّعاة؟ ولماذا لا تُزاحمانِ الرجالَ على الماء؟.

قال الراغبُ في معنى الخَطْب: «الخَطْبُ: الأمرُ العظيم، الذي يَكثرُ فيه التخاطب. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه: ٩٥].

أَجابت المرأتان موسى قائلتين: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

ونلحظُ في سؤالِ موسى وجواب المرأتين القصْدَ والاختصارَ وتقليلَ الكلامِ والتخاطبِ والحوار.

فالدافعُ الذي دفعَ موسى للكلامِ معهما وسؤالِهما هو نخوتُه ومروءتُه وشفقته، وهي صفاتٌ متأصِّلة في شخصيته وكيانه، فلم يكن كلامُه معهما من أجلِ الكلام، أو تلبيةً للحاجةِ النفسية في الميلِ نحو الجنس الآخر، والانبساطِ في محادثته ومحاورته!!

ولهذا سأَلَهما بمنتهى الإيجازِ والاختصار، ليعرفَ السبب، ويقدمَ

الخدمةَ والمساعدةَ: «ما خطبكما؟».

ولما أَجابت المرأتان موسى على سؤاله، كان جواباً موجَزاً مختصَراً، بدونِ تفصيلٍ أو تطويل، حيثُ ذَكَرَتا سببَ ابتعادِهما عن الماء أَثناءَ سقي الرجال، وسببَ قيامِهما برعي الغنم، وهي مهمةٌ شاقةٌ لا تطيقُها النساء، ولا تتفقُ مع طبيعتِهن.

نقولُ هذا كي لا يسيءَ بعضُ الناس فهمَ التخاطبِ بين موسى وبين الفتاتين، وكي لا يَعتمدوا عليه ويحتجّوا به في اختلاطِهم بالنساء، وجلوسِهم معهن، وانبساطِهم في محادثتهن ومحاورتهن، بحيثُ يجلسُ الرجلُ مع المرأة فتراتٍ وفترات يُحادثُها وتُحادثُه، وكِلاهما يميلُ نحو الآخر، ويَرغبُ في إِطالةِ الجلسة والمحادثة!

وإِذا ما اعتُرِضَ على أَحدِهم في فعله احتجَّ بالحديثِ بين موسى وبين المرأتين! وشتانَ بين هذا وهذا.

حرص المرأتين على عدم مخالطة ومزاحمة الرجال:

كان جوابُ المرأتين لموسى من قسمين:

القسمُ الأول: سببُ ابتعادِهما عن الماء أَثناءَ سقْي الرجال: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

أي: لا نَسقي ماشيتَنا إِلا بعدما يَسقي الرِّعاءُ مواشيهم، ويَصدرون عن العين، ويُغادرونَ الماء.

ونرى في هذا الجواب حرصَ المرأتين على عدم الاختلاطِ بالرجال، وعدمِ مزاحمتهم، وعدمِ التغلغلِ بينَهم: فهما تنتظران بماشيتهما بمشقةٍ ومجاهدة، وتَسقيان بعد مغادرة الرجال الماء.

وهذا التصرفُ من المرأتين تصرُّفٌ فطريٌّ طبيعي، يتفقُ مع طبيعة المرأة وفطرتِها التي فطرَها اللّهُ عليها، فاللّهُ قد فطرَ المرأةَ السويَّة الحيِيّة

على عدمِ الرغبةِ في مخالطةِ الرجال الأجانب ومزاحمتهم.

وإذا كانتْ بعضُ النساء تَميلُ إلى مخالطةِ ومزاحمةِ الرجال، ومحاورتِهم ومحادثتِهم، فإنَّ هذا خروجٌ عن فطرتهن، ومخالفةٌ لطبيعتهن.

قد تضطرُ بعضُ النساء للعمل، ولكنَّ المرأةَ السويةَ لا تَقبلُ أيَّ عمل، وإنما تختارُه بعيداً عن مزاحمةِ ومخالطةِ الرجال، كما لاحظْنا في عملِ المرأتيْن المؤمنتيْن، حيث كانتا تأخذان أغنامَهما إلى أَماكنَ غيرِ التي يأخذُ إليها الرجالُ أغنامَهم، وإذا ما اشتركنا مع الرجالِ في الورودِ إلى ماءٍ واحد، حرصَتا على عدمِ مزاحمةِ الرجال، وأبعدتا أغنامهما إلى أَنْ يَصدر الرجال: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

اضطرار المرأتين إلى العمل بسبب كبر أبيهما:

القسم الثاني: سببُ قيامِهما بالمهمة الشاقة في رعي الغنم: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

وكأنهما بهذا الجواب تَعتذرانِ عن رعْيِهما الغنم، فما قامتا بذلك إلاّ من بابِ الاضطرار، ولو كانَ في بيتِهما رجالٌ لكفوهما هذه المهمة.

إنَّ أباهما المؤمنَ شيخٌ كبير، طاعنٌ في السن، ليستْ عنده قدرةٌ على رعيِ الغنم، ومتابعتِها في الجبال والوديان، ومعلومٌ أنه لا بدَّ أنْ يكونَ جسمُ راعي الغنم قوياً، ليُحسنَ رعايتَها، وهذا لا يتحققُ في جسمِ أبيهما الشيخِ الكبير.

ويُفهمُ من جوابهما أنه ليس لهما إخْوان، وليسَ في البيت خَدَمٌ يقومون بالرعي.

وفي هذا إشارةٌ إلى أَنَّ الأصلَ في المرأة أنْ تكونَ في بيتها، وأنْ تقومَ على شؤونه، وأنْ لا تعملَ في خارجه، وأنْ لا تنافسَ الرجالَ على أَعمالهم ووظائفهم، فالرجالُ فَطَرَهم اللّهُ على تحمُّلِ الشدائدِ

والمشاق، والقيام بالأَعمالِ الصعبة المضنية، والنساءُ فطرهنَّ اللّهُ على النعومةِ والرقة، كما قال الشاعر:

كُـتِـبَ الـقَـتْـلُ والـقِـتـالُ عَـلَـيْـنـا وعَـلـى الـغـانِـيـاتِ جَـرُّ الـذُّيـولِ

ولا تقومُ المرأةُ بعملِ الرجلِ إلاّ إذا اضطرت إلى ذلك، ولم تَجدْ أَحداً من محارمِها أَو خدمِها ليكفيها ذلك. كما حصلَ مع هاتين المرأتين، فلو لم يكن أَبوهما شيخاً كبيراً لما قمنَ برعايةِ الغنم.

موسى يسقي غنمهما ثم يأوي إلى ظل الشجرة:

لما سمعَ موسى كلامَ المرأتين وتبريرَهما الصادق، تحركَتْ نخوتُه وشهامتُه ومروءتُه، وذهبَ إلى الماء، وزاحمَ عليه الرعاء، وأَحضرَ غنمَ المرأتين، وسقاها حتى رويت. قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

أي: سَقى موسى للمرأتيْن غنمَهُما.

وذهبت المرأتان في هذا اليومِ قبلَ الرجالِ الرعاة، وغادرتا الماءَ مبكرتيْن، ويبدو أَنهما وصلَتا أَباهما مبكرتيْن أيضاً، مما أَثارَ دهشتَه واستغرابَه.

أما موسى عليه السلام فإنّه سقى لهما، ثم ذهبَ إلى ظلِّ شجرةٍ قريبة، وسألَ اللّهَ من فضله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

والمعنى أنَّ موسى عليه السلام يطلبُ فضْلَ الله وخيْرَه، ويُعلنُ أنه فقيرٌ ومحتاجٌ إلى فضلِ الله وخيره، وهو في هذا الدعاءِ يُشيرُ إلى مدى حاجته وافتقاره. فهو لا يملكُ شيئاً، ولا يَعرفُ أحداً في هذه الديار الغريبة، التي يدخلُها لأولِ مرة.

وهو لا يُعلنُ حاجتَه إلاّ لله، ولا يطلبُ إلاّ من الله، ولا يتوسَّلُ إلا إلى الله.

وإنَّ اللّهَ سيجازيه ويكافِؤُه على ما فعلَ من خير، حيثُ سقى الغنمَ

للمرأتين بدونِ مقابل، وأَحسنَ إِليهما إحساناً مجرّداً، ومعلومٌ أنَّ اللّهَ سَيجزي بالإحسان إحساناً: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾.

الرجل الكبير يكلف ابنته باستدعاء موسى:

وساقَ اللّهُ له الفضلَ والخيرَ الذي كان يرجوه، فقد تكلمت الفتاتان مع أَبيهما الرجلِ الصالح، وأَخبرتاهُ خبرَ ذلك الرجلِ الشهم الغريب، الذي خدمَهما وسقىٰ لهما بدون مقابل، وبدون أَنْ يعرفَهما أَو يعرفَ أهلَهما.

وأَحبَّ الرجلُ العجوزُ أنْ يَجزيَ على الإحسان إحساناً، وأَنْ يكافئَ هذا الرجلَ الغريبَ خيراً، فطلبَ من ابنتِه أَنْ تذهبَ إِلى الرجلِ لتدعوَهُ إِلى أَبيها. وطلبَ منها هي لأنهُ لا يَقدرُ هو على الذهابِ لكبرِ سنِّه، ولأنه لا يوجَدُ رجلٌ آخر في البيت ليقومَ بالمهمة، فاضطرَّ لتكليفِ ابنته بذلك!

وابنتُه فتاةٌ مؤمنةٌ صالحة، وهي صاحبةُ خلقٍ وأَدب، وهي مكلَّفة الآنَ بالذهابِ إِلى رجل غريب جالسٍ تحتَ ظلِّ شجرةٍ بقربِ عين الماء، ولا تَعرفُ عنه شيئاً سوى أَنه رجلٌ شهمٌ سقى لهما غنمهما، وليس لها به صلة.

وهي مكلفة الآنَ من طرفِ أَبيها الصالح بالذهابِ إِليه، ودعوتِه إِلى البيت. فكيفَ تفعلُ ذلك؟

إِنها مكلفةٌ بمهمةٍ شاقة، لا تتفقُ مع طبيعتِها وفطرتِها وحيائِها، ولكنها الضرورة.

وقد صوَّرَ القرآنُ حالَتَها عندما أَتَتْ موسى بقوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ..﴾.

الحياء والحياة متلازمان:

ما هو الاستحياءُ الذي كانتْ تَمشي عليه؟

قال الإمامُ الراغب: «الحياء: انقباضُ النفسِ عن القبائحِ وتركُها، ولذلك يقال: حَيِيَ فهو حَيّ. واستحْيا فهو مستَحْيٍ، وقيل: استحىٰ فهو مُسْتَحٍ.

وقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللّهَ حَيِيٌّ كريم، يَستحي إذا رفعَ الرجلُ يَدَيْه إليه أَنْ يَرُدَّهما صُفراً خائبتَيْن..»[1].

وليس المرادُ به انقباضَ النفس عن ذلك، فاللّهُ منزَّهٌ عن الوصفِ بذلك، وإنما المعنى أنَّ اللّهَ تاركٌ للقبائح، فاعلٌ للمحاسن»[2].

والاستحياء مصدر. تقول: استَحْيا، يستحْيي، استحياء. ولم يَرِدْ هذا المصدرُ «استحياء» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

والحَياءُ مشتقٌّ من الحياة، ومرتبطٌ بها ارتباطاً وثيقاً، فكلما اتصفَ الإنسانُ بالحياةِ الطيبة تعمق فيه خلقُ الحياء، وإذا ضعفَ اتصافُه بالحياة الطيبة، ضعفَ عنده الحياء.

فالحياءُ خلقٌ حميدٌ مطلوب، وهو شعبةٌ أصيلةٌ من شُعَبِ الإيمان، ويُمدحُ الإنسانُ المسلمُ المتصفُ به، وهو يَدعو صاحبَه إلى تركِ الرذائل، والتحلّي بالمكارم والفضائل. وإذا فقدَ الإنسانُ الحياء، فقدَ التحرجَ والتجمُّل، وصارَ عبداً لهواه وشهوتِه، وصارَ يفعلُ ما يحلو له، بدون حَياءٍ أو تحرج: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»!.

والهمزةُ والسينُ والتاء في الآية: ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ للتأكيد، أيْ أنَّ الحياءَ تعمَّقَ في مشاعرِها وأَحاسيسِها وكيانِها ووجدانها، وملأَ عليها وجودَها، وهي في طريقها إلى موسى!

وتُؤكدُ العبارةُ تَمَكُّنَ الحياءِ منها، وتُصَوِّرُ هذا تصويراً حياً: ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ١٤٨٨ وغيره. وقال ابن حجر في فتح الباري: سنده جيد. انظر المفردات: ٢٧٠ حاشية رقم ٤.

(٢) المفردات: ٢٧٠.

وكأنَّ هذا الحياءَ والاستحياءَ ليس حالةً نفسيةً شعورية، وإنما هو طريقٌ ماديٌّ معبَّدٌ ملموس محسوس، طريقٌ تمشي عليه هذه الفتاةُ الحييَّةُ مشياً، وتطؤُه بقدمَيْها الحييَّتَيْن وطئاً.

ولْنتصوَّرْ درجةَ ومستوى حيائها وتحرُّجِها وارتباكِها، وارتفاعَ نبضِها، وتسارُعَ دقاتِ قلبِها، واضطرابَ مشاعرِها، وخُفوتَ صوتِها، وهي قادمةٌ إلى موسى، تمشي له على استحياء.

لماذا؟

حياء المرأة أمام موسى فضيلة تحمد عليها:

ليس هذا الوضعُ والارتباكُ والاستحياءُ مرضاً نفسياً أَصابها، ولا ضَعفاً وهواناً أَلَمَّ بها، ولكنه حالةٌ نفسيةٌ إيجابيةٌ سوية، تتفقُ مع فطرتها وطبيعتها.

إِنها ذاهبةٌ إِلى رجلٍ غريبٍ وحيد، بعيدٍ عن بيتها، ذاهبةٌ إِليه وحْدَها، وتريدُ أَنْ تكلمَه وتخاطبَه، وتَدعوه إِلى الحضورِ لبيتها عند أَبيها، وستقفُ أَمامه وليس معها أَحد، وهو منفردٌ ليس معه أَحد. فهل نريدُ منها أَنْ لا تستحيَ، وأَنْ لا تتحرجَ، وأَنْ لا ترتبكَ، وأَنْ لا تضطرب؟؟

إِنَّ اللّهَ قد فطرَ المرأةَ السويةَ على الحياء، وعلى عدم مخالطةِ الرجالِ ومحادثتهم، إلاّ أَن يكونوا أزواجاً أو محارم، وأيُّ فتاةٍ غيرُ هذه الفتاة، اتصفَتْ بما اتصفَتْ به من إِيمانٍ وعفاف وستر، لو كانت مكانَها، وكُلِّفَتْ بما كُلفَتْ به، لمرَّتْ بما مرَّتْ به من حياءٍ وتحرجٍ واستحياءٍ وارتباك، وبذلك تكونُ ممدوحةً سويةً مستقيمة.

أما النساءُ اللواتي يفقدْنَ هذه الحالةَ النفسية من الاستحياء والتحرج والارتباك، عندما يخالطْنَ الرجالَ ويحادثْنَهم ويضاحكْنَهم وينبسطْنَ معهم، فهنَّ اللواتي خالَفْنَ طبيعتَهُن وفطرتَهُن، وهنَّ اللواتي يستحقِقْنَ اللومَ والتأنيبَ والتقريع.

بين المرأة الحيية والمرأة السلفع:

وقدْ عَلَّقَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه على موقفِ هذه المرأةِ وحيائها بقوله: فجاءَتْه إحداهُما تمشي على استحياء، واضعةً ثوبَها على وجهها، ليستْ بِسَلْفَعٍ من النساء، خَرّاجَةً وَلاّجَة، فقالت: إنّ أبي يدعوك ليجزيَك أَجْرَ ما سقيت لنا[1].

والمرأةُ السَّلْفَعُ: هي المرأةُ الصَّخّابَةُ البَذيئَةُ سيئَةُ الخُلُق، التي تجالسُ الرجال وتصخبُ عليهم، وترفعُ صوتَها في حديثها[2].

والخَرّاجة الوَلاّجة: المرأةُ التي تُكثرُ الخروجَ من بيتها والعودةَ إليه، بحيثُ تُرى دائماً خارجةً منه وعائدةً إليه، فلا تكادُ تستقرُّ فيه.

فهذه المرأةُ المؤمنةُ الحييةُ كانتْ في غايةِ الحياء والتحرج وهي تخاطبُ موسى، وتبلِّغُه دعوةَ أَبيها لإِكرامه.

وقفتْ أَمامَ موسى وقالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

كانتْ حذرةً ذكيةً في انتقاءِ كلامَها وهي تبلِّغُ رسالَتَها له:

فالذي يَدْعُوهُ إلى البيتِ هو أَبوها، وليس هي، منعاً للشبهةِ أَو الريبة. فلم تَقُلْ له: تعالَ معي إلى البيت، وإنما قالت: إنّ أبي يدعوك.

ثم بَينتْ له سببَ دعوة أَبيها، ليعرفَ ذلك، وهو أنَّ أَباها يُريدُ أَنْ يَجزيَه ويكافئَه، مُقابلَ إحسانهِ إليهما لمّا سقى لهما الغنم، ليجزيَه أَجْرَ ما سقي لهما.

ولما بلَّغَتْه الرسالة، وخاطبَتْه بهذه الجملةِ المختصرةِ المفيدة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٤٠٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٥.

(٢) الرجلُ السَّلْفَع: الجريءُ قليلُ الحياء. والمرأةُ السَّلْفَع: البذيئةُ الفحّاشَةُ قليلةُ الحياء، الجريئةُ على الرجال. لسان العرب ٨:١٦١ ـ ١٦٢.

شَعرتْ بالراحة، حيث استراحَتْ من الحملِ الثقيل، وهو مخاطبةُ الرجل الغريب.

والملاحظُ أنه لم يَجْرِ حديثٌ مطوَّلٌ بينها وبينه، ولم يَرُدَّ على كلامِها بكلام، وإنما قامَ وذهبَ معها.

موسى أمام المرأة في طريقهما إلى بيت أبيها:

ولقد أَبهمَ القرآنُ المرأةَ التي جاءت موسى، فقال: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

لكنَّ الرسولَ ﷺ حدَّدَها بأنَّها الأُخْتُ الصغرى:

عن أَبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا سُئِلْتَ: أيَّ الأَجلين قضى موسى؟ فقل: خيْرَهُما وأَتَمَّهُما وأَبَرَّهُما.

وإذا سُئِلْتَ أيُّ المرأتين تزوَّج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جَاءَتْ وقالت: يا أَبَتِ استأجره، إنَّ خيرَ مَنْ استأجرْتَ القويَّ الأَمين.

قال: وما رأَيْتِ من قوَّتِه؟

قالت: أَخَذَ حجراً ثقيلاً فأَلْقاهُ عن البئر.

قال: وما الذي رَأَيْتِ من أَمانته؟

قالت: قال: امْشي خلفي، ولا تَمْشي أَمامي»[1].

كانت الأُخْتَ الصغرى إذن، أَمّا اسْمُها فهو من المبهماتِ التي لم يبيِّنْها رسولُ الله ﷺ، فلا نحاولُ تبيينَه، ونقولُ هي الصغرى فقط.

قامَ موسى معها إلى البيت، ويبدو أَنَّها سارتْ أَمامَه لتدلَّه على الطريقِ إلى البيت. ولكنَّ موسى لم يرتَضِ ذلك. فقال لَها: امشي خلفي، ولا تمشي أمامي.

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط والخطيب في تاريخه، وقال الهيثمي: إسناده حسن. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٨.

وهذا تصرُّفٌ أخلاقيٌّ حكيمٌ من موسى عليه السلام. فلو سارَتْ أَمامَهُ فقدْ ينكشفُ بعضُ أجزاءِ بدنِها بسببِ الريح أو المشي، وقدْ تتجسَّمُ بعضُ أَجزاءِ جسمها وهي تسير، وقد يَرىٰ موسى ذلك منها، وهو لا يُحبُّ أنْ يَرى ذلك، لعظمةِ أَخلاقه وصَفاءِ روحه، وطهارةِ نفسِه ومشاعرِه.

ولهذا طلبَ منها أنْ تمشيَ خلْفَه، وسارَ هو أَمامها، وكانتْ ترشدُه إِلى الطريق وتوجِّهُه وهي خلْفَه.

موسى يخبر الرجل بقصته والرجل يطمئنه:

وَصَلا البيت، واستقبلَ الشيخُ الكبيرُ الكريمُ موسى الشهمَ القويَّ الأَمين. وأَنسَ موسى إِليه، وشعرَ بالأَمانِ والاطمئنان، وعَرَّفَه على نفسِه، وعلى قصتِه، فطمأَنه الرجلُ وهنَّأَه بالنجاة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قصَّ موسى على الرجلِ قصَّتَه منذ ولادته، إِلى نشأَتِه في قصر فرعون، وقتْلِه للقبطي، وأَمْرِ فرعونَ بالقبض عليه وقتله، وخروجِه من مصر، وتَوجُّهِهِ إِلى مدين، ووصولِه إِليه.

وأُعجبَ الشيخُ الكبيرُ المؤمنُ بقصةِ موسى المثيرة، ولاحَظَ فيها رعايةَ وحفظَ اللهِ له، وأَحَبَّ موسى لإيمانِه وأمانتِه وشهامته، ودَعاه إِلى الشعورِ بالأَمان، وإِلى عدمِ الخوف، وقال له: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والقومُ الظالمون هم فرعونُ وآلُه وجنودُه، الجادّون في البحثِ عن موسى عليه السلام لقتلِه، وكأَنَّ الرجلَ يريدُ أن يبينَ لموسى أنه لا سلطانَ لفرعونَ عليه، ولا نفوذَ لمصْرَ على مدينَ في تلك الفترة، وكأَنَّ «مدين» كانتْ مستقلَّةً عن مصر وقتها، وغيرَ خاضعةٍ لها.

فموسى أَوى إِلى مدين، وتحرَّرَ من الخطر الفرعوني، وشعرَ بالأمانِ والاطمئنانِ عند هذا الشيخ المؤمن، وزالَ عنه الخوفُ والغم.

وهذا من تقديرِ الله وتدبيرِه، فهو الذي ساقَ موسى إلى مدين، وهداهُ إِليها، وقدَّرَ له الوصولَ إِلى بيتِ هذا الشيخِ المؤمن.

الراجح أن هذا الرجل ليس شعيباً عليه السلام:

وقبلَ متابعتِنا لما جَرى بين موسى وبينَ هذا الرجلِ المؤمن، نتوقَّفُ لنحاولَ التعرفَ على هويته. فمن هو هذا الرجل؟

اختلفَ المفسرون والمؤرخون فيه. وقد أَوردَ ابنُ كثير في التفسير أَهَمَّ أقوالِهم في ذلك:

١ ـ قال بعضُهم: هو شعيبُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام، الذي بعثَهُ اللّهُ نبياً إِلى أَهل مدين.

وهذا هو المشهورُ عندَ كثيرٍ من العلماء، وهو قولُ الحسنِ البصري وغيره.

٢ ـ وقال آخرون: لم يكنْ شعيباً عليه السلام، وإِنما هو ابنُ أَخيه. وكان رجلًا مؤمناً صالحاً.

٣ ـ وقال آخرون: كان اسْمُه «يثرون». وهذا هو المذكورُ في أَسفارِ العهد القديم.

٤ ـ وقال آخرون: هو رجلٌ مؤمنٌ من أَهل مدين، لا نعرفُ اسمه.

والراجحُ هو القولُ الرابع ـ والله أعلم ـ فلم يُبين القرآنُ اسمَه، ولم يصحّ حديثٌ واحدٌ مرفوعٌ عن رسولِ الله ﷺ في تعيينه. ولو صحَّ حديثٌ منها لقلْنا به.

والراجحُ أَنه ليسَ شعيباً عليه السلام، لأَنَّ شعيباً كان قبلَ موسى بمدةٍ زمنيةٍ طويلة.

فمن خلالِ قصةِ لوطٍ وشعيبٍ عليهما الصلاة والسلام في القرآن، كان قومُ لوط وقومُ مدين متقاربَيْن من حيثُ الزمانُ ومن حيث المكان، وكان دمارُ قومِ لوط قبلَ دمارِ قوم مدين، وذَكَّرَهم شعيبٌ عليه السلام بما حلَّ بقومِ لوطٍ من دمار، منذُ عهدٍ قريب، وأنَّ الحادثةَ ما زالت قريبةً إلى أذهانهم، فقال لهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

وبما أنَّ هلاكَ قوم لوط كان في زمنِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام فقد كان هلاكُ قومِ مدين قريباً من عهدِ إبراهيم.

وبينَ إبراهيمَ وموسى فترةٌ زمنيةٌ طويلة، تمتدُّ لعدةِ قرون، فبينهما كلٌّ من إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وبين يوسف وموسى مدة طويلة، وقد قدر بعض المؤرخين المدة بين إبراهيم وموسى بأنها أربعة قرون.

وهذا هو رأي ابن كثير وسيد قطب:

وهذا معناه أنَّ شعيباً ماتَ قبلَ موسى بحوالي أَربعةِ قرون، فكيفَ نقولُ إن هذا الشيخَ الكبيرَ هو شعيب؟

ولو كان هذا الرجلُ هو شعيباً لنصَّ القرآنُ على ذكْرِه[1].

وقد رجَّحَ سيد قطب أنه ليس شعيباً، فقال: «سبقَ أنْ قلْتُ مرةً في الظلال: إن هذا الرجلَ هو شعيب. وقلْتُ مرة: إنه قد يكون شعيباً، أو لا يكون.

وأنا الآن أَميلُ إلى ترجيحِ أنه ليس هو، وإنما هو شيخٌ آخر من مدين.

والذي يحملُ على هذا الترجيح أنَّ هذا الرجلَ شيخٌ كبير، وشعيبٌ شهدَ مهلِكَ قومِه والمكذبين له، ولم يَبْقَ معه إلاّ المؤمنون به، فلو كانَ هو النبيُّ شعيب بين بقيةِ قومِه المؤمنين، ما سَقَوْا قبلَ بنتَيْ

(١) انظر أدلة ابن كثير على أنه ليس شعيباً في تفسيره ٣:٣٧١.

نبيِّهم الشيخِ الكبير. . فليس هذا سلوكَ قومٍ مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيّهم وبناتِه من أولِ جيل!

ويُضافُ إلى هذا أنَّ القرآنَ لم يذكُرْ شيئاً عن تعليمِه لموسى صهرِه، ولو كان شعيباً النبيَّ لسمعْنا صوتَ النبوة في شيءٍ من هذا مع موسى، وقد عاشَ معه عشرَ سنوات»[1].

والخلاصَةُ أنَّ الرجلَ الذي أكرمَ موسى عليه السلام، كان رجلاً مؤمناً صالحاً من قومِ مدين، وعاشَ بعد النبيِّ شعيب عليه السلام بعدةِ قرون، وهو مُبْهَمٌ من مبهماتِ القرآن، لا نحاولُ تبيينَ اسْمِه، لعدمِ وجودِ أدلةٍ على ذلك من الأحاديثِ الصحيحة.

أكرمَ الرجلُ الصالحُ موسى عليه السلام وكافأه، وشعرَ موسى عنده بالأمانِ والاطمئنان.

وحصلَ أُنسٌ وارتياحٌ بين الرجلين، ولعلَّ الرجلَ الصالحَ تَفرَّسَ في موسى خيراً، واستشرفَ له مستقبلاً إيجابياً، وعلمَ أنَّ اللّهَ يحفظُه ويَرعاه ويَحميه.

طلب الفتاة من أبيها استئجار موسى لقوّته وأمانته:

تدخلَتْ بعد ذلك ابنةُ الرجل الصغرى، وأُعجبتْ بأخلاقِ موسى وشهامتِه وقوتِه وأَمانته، ورغبتْ في أنْ يعملَ عندهم، ليريحَها هي وأخْتَها من مشقةِ رعْيِ الغنم. فقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

طلبتْ من أَبيها أنْ يستأجرَ موسى، ويوظِّفَه أَجيراً ليرعى الغنم، وذلك ليتكفَّلَ برعايةِ الغنم نيابةً عنهما، وفي طلبها إشارةٌ إلى أنَّ الأُختَيْن إنَّما رَعَتَا الغنم من بابِ الضرورة، لعدمِ وجودِ مَنْ يقومُ بذلك من الرجال، أما وقد تَيَسَّرَ الآنَ هذا الرجل، فَليقمْ هو برعْيِ الغنم بدلَهما، ولهذا سارعت البنتُ بالإشارةِ على أبيها بذلك.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٢٦٨٧.

وبرَّزَتْ طلبَها بقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾، فوصفت موسى عليه السلام بأنه قوي أمين.

وقد أوردْنا حديثَ رسولِ الله ﷺ الذي رواه عنه أَبو ذر الغفاري رضي الله عنه، أنَّ الفتاةَ لما قالت لأبيها: يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين، قال لها: ما رأيتِ من قوَّته؟

قالت: أَخذَ حجراً ثقيلاً فألْقاه عن البئر.

قال: وما الذي رأيت من أمانته؟

قالت: قال لي: امشي خلفي، ولا تمشي أمامي.

جمع موسى بين القوة الجسمية والقوة النفسية الأخلاقية:

وقد مَنَّ اللّهُ على موسى بأنْ وفَّقَه للجمْعِ بين الصفتيْن الحميدتيْن: القوة والأمانة.

القوةُ الجسميةُ واضحةٌ في حياته السابقة، عندما ضربَ القبطيَّ بوكْزَةٍ فقضى عليه، وعندما حملَ الحجرَ الكبيرَ الثقيل، فألْقاهُ عن فم البئر.

ورعْيُ الغنم يحتاجُ إِلى القوة الجسمية، لما يترتَّبُ على ذلك من متابعةِ الغنم في الجبال والوديان.

والأَمانةُ قوةٌ معنوية، وهي قوةُ النفسِ والروح، قوةُ الإرادة والعزيمة، قوةُ التحلي بالأخلاق الفاضلة، التي تمثلَتْ في موقفِه من الفتاة، حيث غَضَّ الطَّرَفَ عنها، وطلبَ منها أنْ تمشيَ خلفه، حتى لا ينظرَ إِلى جسمها.

إنه أَمينٌ على العِرْضِ والشرف، وأَمينٌ على المال والغنم، وأَمينٌ على ما يوكَلُ إليه ويُطْلَبُ منه.

والمهمةُ الملقاةُ على عاتقِه تحتاجُ إِلى أَمانة، فإن لم يكن الرجلُ أميناً فلنْ يحافظَ على الغنم، ولا على الفتاتَيْن، ولا على بيتِ الرجل.

وقد جمعَ موسى عليه السلام بين مظهَرَيْن من مظاهر القوة:

- القوةِ الجسميةِ المادية، المتمثلةِ في متانة الجسم.
- والقوةِ النفسيةِ المعنوية الأخلاقية، المتمثلةِ في الأمانة.

ولقد تمتعتْ هذه الفتاةُ الصالحةُ المؤمنةُ بفراسةٍ إيمانية عالية، حيث تفرَّسَتْ في موسى الخير، واستشرفَتْ له المستقبلَ المشرق الأَمين. وصدَقَتْ فراستُها فيه، فلما عملَ أَجيراً عندهم كان قوياً أميناً فعْلاً.

قالَ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: أَفْرَسُ الناس ثلاثة: صاحبُ يوسف حين قال لامرأتِه: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وصاحبةُ موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. وأَبو بكر حين استخلفَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهما[1].

وقد جمعتْ آياتُ القرآن مرتيْن بين القوةِ والأمانة، باعتبارهما صفتيْن لازمتيْن لمن سيوكَلُ إِليه مهمةٌ خاصة، أو سيقومُ بعملٍ خاص، يَحتاجُ إِلى القوة والأمانة.

المرةُ الأولى: في هذا الموضعِ من قصة موسى عليه السلام، حينما وصفتْه الفتاةُ المؤمنةُ بأنه قويٌّ أمين.

والمرةُ الثانية: في قصةِ سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، فعندما طلبَ ممن حولَه إِحضارُ عرشها، عرضَ عليه عفريتٌ من الجنِّ أنْ يُحضرَهُ له قبلَ أنْ يقومَ من مقامه، وأَخبره أنه عليه قويٌّ أمين.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٢٧٦.

﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩].

الرجل الصالح وعرضه على موسى الزواج والعمل:

ولما اطمأنَّ الرجلُ الصالحُ إلى موسى عليه السلام، ولاحظَ رغبةَ ابنتِه في تعيينه أجيراً ليرعى الغنم، ووثقَ بقوَّتِه وأمانته، عرضَ عليه أنْ يعملَ عنده أجيراً في رَعي الغنم، مقابلَ أنْ يُزوجَه إِحدى ابنتَيْه.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص: ٢٧ ـ ٢٨].

قالَ الشيخُ الكبيرُ لموسى عليه السلام: أُريدُ أنْ أُزوجَك بنتاً من هاتيْن الابنتيْن، بشرْطِ أنْ تعملَ أجيراً عندي، تقومُ برعْيِ الغنم، لمدةِ ثماني سنوات، فإنْ زدتَ المدةَ سنتين أُخريَيْن، وبلغتْ المدةُ عشرَ سنوات، فهذا كرمٌ منك. وأنا لا أُريدُ أنْ أشقَّ عليك وأُتعبَك في هذا العمل، فسوفَ ترى فيه اليُسْرَ والراحة، وستجدني إنْ شاءَ اللّهُ من الصالحين.

وردَّ موسى على عرضِ الشيخِ الكبير بالموافقة على الأمريْن: الموافقةِ على زواجه من إِحدى ابنتيه، والموافقةِ على أنْ يعملَ عنده أجيراً ثماني سنوات.

قالَ له: ذلك بيني وبينك، وأنا موافقٌ على ما قلت، وتمَّ الاتفاقُ بيني وبينك، أمّا المدةُ فأنا ملزمٌ بالثماني سنوات، وإنْ أردتُ أنْ أُكملَها عشراً فهذا زيادةٌ مني، لكنْ لا عدوانَ عليَّ لو عملتُ ثمانيَ سنوات. واللّهُ وكيلٌ على ما نقول.

مظاهر حكمة الرجل في عرضه على موسى:

لقد كانَ الرجلُ الكبيرُ حكيماً عندما استأجَرَ موسى ليعملَ عنده في رعْي الغنم، وبذلكَ يريحُ ابنتيْه من هذه المهمة، وفعلَ ذلك استجابةً لطلبِ ابنتِه الصغرى، عندما قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾.

وكان الرجلُ الكبيرُ حكيماً أكثرَ عندما قامَ بمصاهرةِ موسى، وتزويجِه من ابنتِه الصغرى، كما قالَ رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الذي سبقَ لنا إِيرادُه.

إنَّ موسى رجلٌ غريب، صحيحٌ أَنه على إِيمان وخلقٍ وحياءٍ وعفة، لكنه يبقى غريباً، والبيتُ فيه امرأتان شابّتان، صحيحٌ أَنهما مؤمنتان صالحتان، تتصفانِ بالحياءِ والخلقِ والعفة، لكنهما ستعيشان مع موسى في هذا البيت، والمدةُ ستكونُ طويلة، ثماني سنوات أو عشراً.

فالأَسلمُ والأَحوطُ أنْ يتزوجَ هذا الرجلُ الغريبُ إِحدى المرأتين، لتكونَ إقامتُه في البيت طبيعية، ويكونَ وجودُه آمِناً، ولا مكانَ لنزغاتِ الشيطان ووساوسِه، فهو يقيمُ مع امرأته، تلبّي حاجتَه ويلبي حاجتَها.

ومن حكمةِ الشيخِ الكبير أيضاً أَنه هو الذي عرضَ على موسى أَنْ يزوِّجَه إِحدى ابنتيه، ولم يجدْ مانعاً أَو حَرَجاً من ذلك، ولم ينتظرْ موسى حتى يتقدمَ هو بالطلب، فموسى شابٌّ صالح، يصلحُ للمصاهرة، ولماذا لا يَعرضُ هو عليه المصاهرة؟

ومن حكمةِ الأبِ الحكيم أنْ يبحثَ هو لابنتِه عن الزوجِ المناسب، وإِذا وجدَه سارعَ بعرْضِ الأمرِ عليه، وإِظهارِ رغبته في مصاهرته.

والبنتُ التي تزوجَها موسى هي البنتُ الصغرى، وهذا مظهرٌ آخرَ من مظاهرِ حكمةِ الشيخ الكبير، فلم يجدْ مانعاً عنده من تزويجِ الصغرى قبلَ الكبرى.

وبما أَنَّ موسى غريبٌ فقير، لا يملكُ مالاً ليدفَعَه مهراً للمرأة،

فقد وافقَ الرجلُ الحكيم أنْ يكونَ المهرُ هو عملَ موسى في رعي الغنم لمدة ثماني سنوات.

وهذه السنواتُ الثمانيةُ مهرٌ للمرأة، ومقابلَ إقامتِه في البيت، وتأمين طعامه وشرابه وملبسه.

حكمة موسى في قبول عرض الرجل:

وكما كانَ الرجلُ حكيماً في عرض الزواج على موسى مقابل تلك المدة، كان موسى حكيماً في قَبولِ العرض، والموافقةِ على ما قالَه الرجل.

إنه بذلكَ سيؤَمِّنُ إقامتَه في هذا البيت من بيوتِ مدين، ويحقِّقُ فيه حاجتَه من الإقامة والمأوى، ومن الطعام والشراب واللباس، وستكونُ له فيه زوجة أيضاً! وماذا يريدُ أكثر من ذلك؟؟

وقيامُه برعْيِ الغنم سيعطيه دروساً في العملِ والجدّ، والسعي والكدّ، والإرادةِ والعزيمة، والصبرِ والتحمل، لأنَّ الغنمَ تُتعبُ راعيها، وكأنَّ رَعْيَهُ للغنم هذه المدة «دورةٌ مكثفة» هيَّأها اللّهُ له، لتكون تمهيداً ومقدمة لما بعدها.

ثم إنَّ عملَه عند صهرِه الصالحِ عشرَ سنين يحققُ له الأمانَ من جانب آخر، وهو مشكلتُه في مصر، عندما قتل القبطي، فالحدثُ الآن ساخن، والقومُ جادّون في البحثِ عنه لقتله، لكنَّ سخونةَ الحدث ستبردُ وتتلاشى مع مرورِ السنوات، وتَضعفُ متابعته، والعشرُ سنوات كفيلةٌ بتركِ الأمر، فقد يموتُ فرعونُ الذي حدثت القضيةُ في عهده، وإذا عادَ موسى بعدَها إلى أهله في مصر، فيكون الأمر هيناً.

لقد هيَّأَ اللّهُ لموسى الإقامةَ في مدينَ بحكمتِه وتدبيره سبحانه وتعالى، لينتقلَ بعد ذلك لمرحلةٍ أُخرى قدرها الله له.

وهكذا تمَّ الاتفاقُ بين موسى وبين الرجل الكبير، وتزوَّجَ موسى

ابنتَه الصغرى، وعملَ عنده المدةَ المتفقَ عليها بينهما.

الإيمان والصدق يظللان الاتفاق بين الرجلين الحكيمين:

وعندما ننظرُ في كلامِ الرجلين ومحاوَرتِهما، نرى الإيمانَ والصدقَ والصفاءَ هو الذي يظلِّلُ اتفاقَهما.

فالرجلُ الكبيرُ يقول لموسى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فهو حريصٌ على عدمِ المشقةِ على أَجيره موسى، ويَعِدُه أنْ يجدَ عنده كلَّ الخير في سنواتِ الإجارة، ويخبرُه أنه سيكونُ صالحاً، ويعتمدُ في ذلك على الله، ويعلقُ الأمْرَ على مشيئته سبحانه.

وموسى يردُّ على صهرِه قائلاً: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

فهو ملتزمٌ بالمطلوبِ منه، وسيتكرمُ بزيادةِ سنتيْن، لتكونَ المدةُ عشرَ سنين، وهو في هذه المدةِ معتمدٌ على الله، متوكِّلٌ عليه.

وهكذا اتفقَ الرجلان المؤمنان الصالحان اتفاقاً ربانياً إيمانياً، وعاشَ موسى عندَ الرجلِ في مدينَ عشْرَ سنين، في ظلالِ طاعةِ الله ورضاه.

والدليلُ على أنَّ موسى عملَ عند صهرِه عشْرَ سنين ما رواهُ البخاريُّ عن سعيدِ بن جبير رضي الله عنه قال: سألَني يهوديٌّ مِن أَهلِ الحيرة: أيَّ الأجلَيْن قضى موسى؟

فقلت: لا أَدري، حتى أَقدمَ على حَبْرِ العرب فأَسأَله.

فقدمْت، فسألتُ ابن عباس، فقال: قضى أكثَرهما وأطيبَهما، إنَّ رسولَ الله إذا قال فَعَل[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٨٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٧.

ولما أَخبرَ ابنُ عباس رضي الله عنهما أنه أَمضى عشرَ سنوات، كان يعتمدُ على حديثِ رسول الله ﷺ.

فقد رَوىٰ عن رسولِ الله ﷺ أَنه قال: «سألْتُ جبريلَ عليه السلام: أيَّ الأجليْن قضى موسى؟

فقال جبريل: أَكملَهُما وأتمَّهُما»[1].

إنَّ طبيعةَ موسى عليه السلام، القائمةُ على الشهامةِ والمروءة والكرمِ والأريحية، لا تقبلُ إِلا الكرمَ والفضل، ولهذا لم يَكتفِ بالمطلوبِ منه، وإنما زادَ السنتيْن الأُخريَيْن، فضلاً وكرماً.

حكمة الله في تقديره لموسى الرعي عشر سنوات:

وهكذا أتمَّ اللّهُ لموسى ما قدَّرَه له في المرحلةِ الأُولى من عمره، التي قضاها في ظلالِ رعايةِ الله وحفظِه وتأييدِه وحمايتِه.

وقدْ قَدَّرَ اللّهُ أنْ تُختَمَ هذه المرحلةُ الأولى من حياتِه بعشرِ سنوات، أَمضاها موسى في البرِّ والصحراء، يُتابعُ الأَغنام، ويتعرضُ للحرِّ والريح والعرقِ والنصب، ويبذلُ في ذلك ما يبذلُ من الجهدِ والمشقةِ والصبر والمعاناة، وذلك في مقابلِ السنواتِ الأُولى التي قضاها منعَّماً مرفَّهاً في قصر فرعون، تُقضىٰ فيه كلُّ حاجاته، وتُؤَمَّنُ له جميعُ متطلباته.

وقد فعَلَ اللّهُ الحكيمُ ذلك بموسى، لأَنه يُعِدُّه لمهمةٍ كبيرة، حيثُ سيجعلُه نبياً رسولاً، ويبعثُه إلى فرعون، ويُنقذُ به بني إسرائيل، وهذه المهمةُ لا بُدَّ أنْ تسبقَها فترةُ تهيئةٍ وإِعداد، فكانت السنواتُ العشرُ في مدين!!

---

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند، والحاكم في المستدرك وصححه، والبزار في المسند، وابن جرير في التفسير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان، وهو ثقة. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٦.

المرحلة الثانية
موسى وهارون نبيّان يواجهان فرعون

[١]
تكليم الله لموسى في وادي طوى

أَقامَ موسى في أَرضِ مدينَ عشرَ سنين، ولما قَدَّرَ اللّهُ إِنهاءَ إِقامته في مدين أَلهمه أنْ يعودَ إِلى مصر، ليلتحقَ بأهله وأسرته.

أخذَ موسى أهلَه، وهم زوجُه بنتُ الرجل الصالح، وما أَنجبتْ له من أولاد، وما كان معه من خدم، وودَّع صهره، وتوجَّهَ نحو مصر.

وسارَ في طريقِ سيناء التي توصلُه إِلى مصر، ووصلَ إِلى وادٍ مقدَّس فيها، يسمّى وادي «طُوى»، وهو الوادي المحاذي لجبلٍ معروفٍ فيها، هو جبلُ الطور.

خلاصة ما جرى لموسى في وادي طوى:

وكانتْ ليلةً باردةً من ليالي الصحراء، كما كانت ليلةً مظلمة، وبينما كان يسيرُ مع أهلِه في ذلك الوادي، ضَلَّ الطريق، فلم يَعرفْ أين يسير ولا أَينَ يتوجَّه، واجتمعَ عليه ظلامُ الليلِ البهيم، وبردُ الصحراء القارص، ولم يَدْرِ ماذا يَفعل.

ونظرَ أَمامَه إِلى سفحِ جبلِ الطور، فرأى ناراً مشتعلَة، فاستبشرَ خيراً وأَنسَ بها، وطلبَ من أَهله أَنْ يمكثوا مكانَهم، لأَنه سيذهبُ إِلى النار، فقد يجِدُ عندَها أَحداً يدلُّه على الطريقِ الموصلِ إِلى مصر، وقد يأخذُ منها جمرةً أو قبساً ويُحْضِرُه إِلى أَهله ليصطلوا به!

حملَ موسى عصاه، وسار وسطَ الظلام، وتوجَّهَ نحوَ النار، ولما وصلَ النارَ ناداه الله، وأخبرَه أنه في الوادي المقدس طوى، وطلبَ منه أَنْ يخلعَ نعليه، وأمره بإلقاءِ عصاه، ولما جعلَها اللّهُ حيةً تسعى خافَ موسى، فطمأَنَه الله، وأَعطاهُ آيةً أُخرى، وهي يدُه السمراء، إِذا أَدخلَها في جيبه تكونُ بيضاءَ من غير سوء.

وبعثَه الله نبياً، وكلَّفه بالذهابِ إِلى فرعون. وشَدَّ عَضُدَه بأَخيه هارون، وجعلَه نبياً مساعداً له.

هذه هي خلاصةُ ما جرى لموسى في تلكَ الليلةِ المباركة، في تلكَ البقعةِ المباركة، بجانبِ الشجرة المباركة، في ذلك الوادي المقدس.

ذهبَ موسى ليجدَ مرشداً دليلاً يرشدُه ويدلُّه على طريقِ مصر، فوجدَ الهادي الذي يَهديه في حياته كلِّها، حيث هداهُ اللّهُ إِلى الحق، وجعلَه نبياً رسولاً. وذهبَ موسى عندَ النار، فوجدَ هناك النور، النورَ الرباني، الذي أَضاءَ له حياتَه، وعَرَّفَه على ما يريدُ اللّهُ منه.

وهذا الموضوعُ وردَ في أَكثرَ من سورةٍ من كتاب الله، وبالذات وردَ في سور القصص وطه والنمل والشعراء.

وسوفَ نعيشُ مع الآياتِ التي تحدثَتْ عن ذلك بإيجاز.

موسى آنس من جانب الطور ناراً:

قال تعالى في سورة القصص: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: ٢٩].

أي: لما عملَ موسى عند صهرِه الرجلِ الصالح عشرَ سنين، وأتمَّ المدةَ التي اتفقا عليها، وقضى الأجل، غادرَ مدين، وسارَ بأهلِه ـ زوجِه وأولاده ـ وتوجَّه عائداً إِلى مصر.

وبينما كان يَمُرُّ بجانبِ جبلِ الطور في سيناء ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا . .﴾.

رأى ناراً بجانبِ الطور، فطلبَ من أَهلِه أنْ يمكثوا مكانَهم، وأنْ لا يُغادروه، وسيذهبُ هو إلى النارِ التي رآها.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنه عَبَّرَ عن رؤيةِ موسى للنار ليلاً بفعل «آنس»، وليس بفعلِ «رأى» أو «أبصر».

فهنا قال: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾.

وفي سورة طه قال: ﴿إِذۡ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠].

وفي سورة النمل قال: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا . .﴾ [النمل: ٧].

إنَّ الفعلَ الماضي «آنس» وردَ خمسَ مرات في القرآن، أَربعَ مراتٍ منها في سياقِ رؤيةِ موسى للنارِ بجانبِ جبلِ الطور.

والتعبيرُ بفعلِ «آنس» يُعطي معنى أبلغَ وأعمَّ من معنى فعلِ «رأى».

إِنَّ فعل «رأى» يدلُّ على الرؤيةِ والإبصارِ بالعين. أما فعلُ «آنس» فإنه يُعطي معنى فعلِ «رأى»، ويَزيدُ عليه معنى الأُنسِ والاستئناس بما رأى، والانشراحِ لما رأى، والرضى النفسيِّ والشعوري بما رأى، والتفاعلِ مع ما رأى.

وبما أنَّ موسى كان في حالةِ ضيقٍ وهَمّ، ويُعاني ما يعاني من البرد، وقد أَضَلَّ الطريقَ في الليلِ المظلم، فقد وجدَ أُنسَه وطمأنينَته بتلك النار التي رآها وآنسَها من بعيد، فاستأنسَ بها، واستروحَ إليها، وانشرحَ صدرُه لها، ورجا أنْ يجدَ عندها حلًّا لمشكلتِه، وهكذا كان.

ما الذي رجا أن يجدَه عند النار؟:

قال تعالى في سورة القصص: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

رجا أنْ يجدَ شخصاً عند النار، فيسألَه عن الطريقِ إلى مصر، فيأتيَ أهْلَه بخبرٍ يستدلُّ به على الطريقِ الصحيح.

فإنْ لم يجدْ خبراً فسوفَ يأتيهم من النارِ بجذوة، يَصطلون بها ويتدفَّئون عليها في هذهِ الليلةِ الباردة.

والجذوةُ هي الجمرة.

قال الراغب: «الجذوةُ: الذي يَبقى من الحطبِ بعد الالتهاب..»[1].

ولم تَرِدْ كلمةُ «جذوة» في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

رجا أَنْ يأتيَهم منها بخبرٍ من رجلٍ عندها يخبرُه عن الطريق، أو يأتيهمْ بشهابٍ مشتعل، يقبسُه منها ويشعلُه، ثم يأتيهم به مقتبساً مشتعِلاً ليصطلوا به.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾.

رجا أنْ يجدَ على النارِ هدى، بأنْ يجدَ عندها رجلاً يخبرُه بخبرِ الطريقِ الصحيح، أَو يأتيهم منها بقبسٍ مشتعلٍ من النار.

نظرة في آيات السور الثلاث: القصص وطه والنمل:

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني في التعبيرِ عن هذا المشهدِ من قصة

---

(١) المفردات: ١٩٠.

موسى عليه السلام، أَنه عَبَّرَ عنه بكلماتٍ خصَّها به، ولم تَرِدْ في غيره في القرآن.

منها: ﴿جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩].

ومنها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. حيث ذُكرتْ مرتيْن. في سورة النمل [آية: ٧]. وفي سورة القصص [آية: ٢٩].

ومنها: «قبس». حيث ذكرتْ مرتيْن. في سورة طه: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ..﴾ [آية: ١٠].

وفي سورة النمل: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ..﴾ [آية: ٧].

ويُمكنُ أن نرتبَ السورَ الثلاثَ التي ذَكرتْ هذا المشهدَ من قصةِ موسى ترتيباً متدرِّجاً هكذا: سورةُ القصص، ثم سورةُ طه، ثم سورةُ النمل.

فعبَّرَ في سورةِ القصص بالجذوةِ من باب الرجاء: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

وتحولتْ هذه الجذوةُ إِلى قبس، رجا أنْ يأخذَهُ رجاءً في سورة طه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ..﴾.

بينما تحوَّلَ هذا القبسُ إِلى شهابٍ قَبَس في سورة النمل، وجَزَمَ موسى بإحضاره جزماً، وليس من باب الرجاء، حيث قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ..﴾.

ولا ننسى ملاحظةَ التعبيرِ بالسين الجازمة بدلَ «لعلَّ» الراجية، في فعل «سآتيكم»، بدلَ فعل «لعلي آتيكم..».

إنَّ جمْعَ المواضعِ الثلاثة التي عبَّرَتْ عن نفس الحادثة بهذا التنويع المقصودِ المعجزِ قادَنا إلى هذه الملاحظة. وسبحان الله منزلِ هذا القرآن!!.

أتى موسى النارَ التي كانت نوراً في الحقيقة، وعندها ناداهُ اللّهُ سبحانه وتعالى. فوجَدَ عندَها الخبرَ اليقين، والهدى المأمول، خبرَ الإيمان، وهدى الحياة.

المكان الذي نادى الله موسى فيه:

وقد حرصتْ آياتُ القرآن على تحديدِ المكانِ الذي كانت فيه النار، والذي سمعَ فيه موسى كلامَ الله.

ففي سورةِ النازعات ذُكِرَ اسمُ الوادي المقدس «طوى»، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٦].

ووردَ هذا أيضاً في سورة طه، في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢].

لقد جعلَ اللّهُ وادي «طوى» الواقعَ بجانبِ جبل الطور في سيناء وادياً مقدَّساً. بنصِّ هذه الآيات، والقداسةُ هي الطهارةُ والتنزيهُ عن المفاسدِ والرذائل.

و«طُوى» في هذه الآيات هو اسمٌ للوادي المقدس، وهو «عطفُ بيان» ـ كما يقول النحويون ـ على «الواد المقدس»، وكأنه قاله له: إنك بوادي طوى.

وفي سورةِ القصص وَرَدَ تحديدُ المكان في هذه الآيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ..﴾ [آية: ٢٩].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ..﴾ [آية: ٣٠].

الثالثة: قولُه تعالى خطاباً لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

الرابعة: قولُه تعالى خطاباً لنبيِّه محمد ﷺ أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ

﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ..﴾ [آية: ٤٦].

وفي سورةِ مريمَ وردَ تحديدُ مكانِ نداءِ الله لموسى في آيةٍ قريبةٍ من هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾[مريم: ٥١ ـ ٥٢].

ومعنى هذه الآياتِ أنَّ الواديَ المقدَّس «طوى» كان بجانبِ جبلِ الطورِ المبارك.

وكانت الشجرةُ المباركة في سفحِ جبل الطور، ورأى النارَ فيها عن بُعْد.

وجانبُ جبلِ الطور هو الجانبُ الأيمن، بنصِّ آيةِ سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ..﴾.

والجانبُ الأيمنُ من جبل الطور هو الجانبُ الغربيّ، كما في آيةِ سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: ما كنتَ بالجانبِ الغربيِّ الأيمنِ لجبل الطور، وهو الجانبُ الذي نادَيْنا موسى منه.

وجانبُ الطورِ الأيمنُ الغربيُّ الذي فيه الشجرةُ المباركة هو نفسُه جانبُ الوادي الأيمن، المذكورُ في قوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ..﴾.

و﴿شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ هو جانبه.

ويمكنُ تصوُّرُ المكان من خلال هذه الآيات هكذا:

لما وصلَ موسى بأهلِه إلى وادي طوى وجبل الطور، سارَ هو في وادي طوى، ووجَّه وجْهَهُ نحوَ مصر، وجعلَ جبلَ الطور عن يمينه، وبذلك كان جانبُ وادي طوى عن يمينِه أيضاً، وهو شاطئ الوادي الأيمن.

وكانت الشجرةُ المباركةُ على يمين موسى، فهي على شاطئ

وجانبِ الوادي الأيمن، الذي هو في جانبِ جبلِ الطور الأيمن.

وهذه البقعةُ اليمنى كلُّها بقعةٌ مباركة، باركَها الله في تلك الليلة المباركة، وهي المذكورةُ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ..﴾ [القصص: ٣٠].

والمعنى: لما أتى موسى المكان، ناداه اللّهُ من الشجرة، وهذه الشجرةُ في شاطئ وادي طوى، وهذا الشاطئ هو جانب الوادي الأيمن، وهذا الوادي هو في جانبِ جبلِ الطور الأيمن، وهذه البقعةُ كلُّها هي البقعةُ المباركة.

ولهذا قالَ تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [آية: ٨].

نظرة في حقائق آيات سورة طه:

لما وصلَ موسى ذلك المكانَ المبارك ناداه الله، وكلَّمه، وبلَّغه أَنه اختاره نبياً.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [طه: ٩ ـ ١٦].

أَخبرَ اللّهُ موسى أنه ربُّه: ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾. وأنَّه لا إله إلا هو. كما في قوله تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وأنه هو العزيز الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: ٩].

لقد بدأ اللّهُ كلامَه لموسى بالبدايةِ الضرورية، وهي العقيدةُ والوحدانية، حيث أَخبره أنه لا إله إلا هو، وأَنه ربُّ العالمين، وأنه ربُّه هو، وأنه العزيزُ الحكيم.

ومعلومٌ أن هذه هي نقطةُ البدء في كلِّ دين، البدءِ بتوحيدِ الألوهية، وتقريرِ وحدانيةِ الله في أُلوهيته وربوبيته وفي أسمائه وصفاته.

وهذه البدايةُ ضروريةٌ لموسى عليه السلام، حيث سيبعثُه الله رسولاً إلى أعتى كافر، وهو فرعونُ الذي ادّعى الألوهيةَ والربوبية، ودعا شعبَه إلى عبادته. فلا بدَّ أنْ يَعلمَ موسى عليه السلام منذ اللحظةِ الأولى أنَّ اللّهَ العزيزَ الحكيم هو وحده ربُّ العالمين.

لماذا خلع النعلين في الوادي المقدس:

وقالَ اللّهُ لموسى بعد ذلك: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى . .﴾.

وهذا إخبارٌ من الله بقدسيةِ هذا المكان، فاللّهُ قد قدَّسَ وباركَ هذه البقعة: وادي طوى وجبلَ الطور، ولهذا اختارَ أنْ ينادِيَ موسى فيه.

وبما أنَّ طوى وادٍ مقدس فلا بدَّ أنْ يستعدَّ موسى له بطهارةٍ خاصة، ولهذا طلبَ اللّهُ منه أنْ يخلعَ نعليْه. فنفّذَ موسى أمْرَ الله وخلَعَ نعليه مباشرة.

وفي هذا إشارةٌ إلى أهميةِ الطهارةِ المادية والمعنوية، والتزكيةِ النفسية والقلبية والسلوكية، كمقدمةٍ وتمهيد لتلقّي أحكام الله ودينه. وهذا وفقَ المبدأ المعروف «التخليةِ قبلَ التحلية». أي: التخلية عن الرذائل والتطهرِ منها قبلَ التحلية بالفضائل والاتصاف بها.

إخبار موسى بالنبوة والرسالة:

وبعدما خلعَ موسى نعلَيْه أَخبرَه اللّهُ أَنه اصطفاهُ نبياً. قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

اختارَ اللّهُ موسى عليه السلام ليكونَ نبياً رسولاً، وسنواتُ عمرِه السابقة كان إعداداً من الله له، دونَ أنْ يَشعرَ هو بذلك، فاللّهُ قد اصطنعه لنفسه، وأَضفىٰ عليه رعايتَه وعنايتَه، وأَوصلَه إلى هذه البقعة المباركة، وناداه في هذه الليلةِ المباركة، وبعثَهُ نبياً رسولاً عليه الصلاة والسلام.

وطلبَ اللّهُ من موسى أنْ يستمعَ لما يوحي به اللّهُ إليه، وأنْ ينتبهَ لذلك، وأنْ يعيَه ويتدبرَه: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

وقد كلَّمَ اللّهُ موسى من وراءِ حجاب، وكان الحجابُ هو الشجرة، المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ..﴾ [القصص: ٣٠].

وهذا هو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

إنَّ كلامَ الله للبشر محصورٌ في هذه الحالاتِ الثلاثة:

الأولى: وحيٌ فطريٌّ مباشرٌ للإنسان، كما حصلَ مع أُمِّ موسى، عندما أَوحى اللّهُ لها بالتصرفِ المناسبِ لنجاةِ موسى.

الثانية: أنْ يكلمَ الإنسانَ من وراءِ حجاب، كما حصلَ في تكليمه سبحانه لموسى، حيث كان كلامُه له من الشجرة، وكانت الشجرةُ هي الحجاب. وكما حصلَ مع رسول الله محمد ﷺ ليلةَ المعراج، حيث كلَّمهُ اللّهُ عند سدرةِ المنتهى، وكان نورُ الله هو الحجاب.

الثالثة: أنْ يكلمَ الإنسانَ عن طريقِ الرسول من الملائكة، وهذا ما حصلَ مع رسلِ الله وأنبيائه، حيث كان يرسلُ لهم الروحَ الأَمين جبريل عليه الصلاة والسلام، فيبلغهم الرسالة.

تكليم الله لموسى مباشرة:

لقد كانَ وحيُ الله إلى الرّسل عن طريقِ جبريل، حيث كان ينزلُه على الواحد منهم، فيخبرُه أنَّ الله قد بعثَه نبياً.

إلاّ موسى كليمَ الله عليه الصلاة والسلام، حيثُ اختصَّه اللّهُ بهذه الفضيلة، فلم يَبعثْ له جبريل، وإنما ناداهُ مباشرة، وكلَّمه من وراءِ حجاب تكليماً.

وورِدَ هذا صراحةً في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

وذَكَّرَ آدمُ موسى بهذه الخاصيةِ يومَ القيامة. فقد أَخبرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ آدمَ يقولُ لموسى يومَ القيامة: «يا موسى: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه..»(١).

وفي روايةٍ ثانية، يقول له: «أنت موسى بني إسرائيل، الذي كلمك الله من وراء حجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً..»(٢).

ويَعرفُ الناسُ هذه المنزلةَ الخاصَّة لموسى، ولهذا يذكِّرونَه بها يوم القيامة، عندما يطلبونَ منه الشفاعةَ إلى ربه. قالَ رسولُ الله ﷺ ضمنَ حديثِ الشفاعة الطويل: «فيأتون موسى فيقولون: يا موسى: أنتَ رسولُ الله، فضَّلك اللّهُ برسالاته، وبتكليمه، على الناس، اشفعْ لنا إلى ربِّك..»(٣).

وبعدما أَخبره اللّهُ أنه اختارَه ليكون نبياً قال له: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤..﴾.

وهذه خلاصةُ رسالةِ موسى عليه السلام، وهي خلاصةُ رسالةِ كلِّ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٥٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٤.
(٢) أخرجه أبو داود ومالك وأحمد وأبو يعلى. انظر الأحاديث الصحيحة: ٣٥.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٤٠. ومسلم برقم: ٣٩٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٤.

نبي، فكلُّ رسالةٍ تقومُ على الوحدانية، وأنه لا إله إلا الله، ثم على العبادةِ الصادقةِ لله، وإفرادِه وحدَه سبحانه بالعبادة، لأنَّه لا يُعبدُ غيرُه، وهي ثمرةٌ ونتيجةٌ لما قبلَها، فعندَ إفرادِ الله بالألوهية، يقومُ المؤمنُ بإفرادِه بالعبادة، لأنَّ من لوزامِ أنه لا إله إلا الله، أنه لا معبودَ بحقٍّ إلاّ الله.

ومن أهمِّ مظاهرِ العبادة الصلاة، والصلاةُ ركنٌ في كلِّ دينٍ من عند الله، أوجبَها اللّهُ على كلِّ مَنْ آمنَ بالله.

وجمعت الآيةُ بين هذه الحقائقِ الثلاثة: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾..﴾.

إخبار موسى بحقيقة الآخرة:

ثم أخبرَه عن حقيقةٍ إيمانيةٍ أُخرى، وهي الآخرةُ وقربُ قيام الساعة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾: حقيقةُ انتهاءِ الدنيا وقيامِ الساعة، ومجيء الآخرة.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: حقيقةُ اختصاصِ الله بعلم الساعة، فلا يعلمُ أحدٌ غيرُه متى تقوم، وحقيقةُ قربِ قيامها، فهي توشكُ أنْ تأتيَ فجأة، والله يكادُ يخفيها.

وتدلُّ هذه الجملة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ على قُربِ قيام الساعة، وكأنَّ بعثةَ موسى عليه السلام من علاماتِ الساعة، لأنَّ فعلَ «أكادُ» من أَفعالِ المقاربة، وهو يدلُّ على قربِ وقوعِها.

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾: حقيقةُ الحساب في الآخرة، فاللّهُ

سوف يحاسبُ كلَّ نفس بما عملتْ في الدنيا من خيرٍ أو شر، فيثيبُ الصالحَ ويعاقب الطالح.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ..﴾ حقيقةُ انقسامِ الناس إلى قسمين: مؤمنٍ بالحقائقِ المذكورة في الآيات، ومنها مجيء الساعة. وكافرٍ بها منكر لها.

وإخباره بحقيقة المواجهة بين الحق والباطل:

ويتفرعُ عن هذه الحقيقةِ حقيقة أخرى، وهي حرصُ الفريقِ الكافر على صدِّ الفريقِ المؤمن عن الإيمانِ بتلك الحقائق.

وينتجُ عنهما حقيقةٌ ثالثة وهي المواجهةُ بين فريقِ المؤمنين وفريق الكافرين، والصراعُ بين الحق والباطل، لأنّ أصحابَ الباطل الذين لا يؤمنون بالحق لا يطيقونَ السكوتَ عن أَصحاب الحق، فيعلنون عليهم الحربَ لصدِّهم عن الهدى، ويَردُّ أَصحابُ الحقِّ على الحرب بمثلها، فيواجهون أَصحابَ الباطل. وهكذا لا تخلو فترةٌ من فتراتِ الزمان من المواجهةِ بين أَصحاب الحق وأَصحاب الباطل.

وتقودُ هذه الحقائقُ إلى حقيقةٍ رابعة وهي وجوبُ ثباتِ أَصحابِ الحقِّ على حقهم، مهما تطلَّبَ ذلك منهم من تضحيات، واللّهُ يوصي بالثبات، وعدم الاستجابةِ لمحاولات أَصحابِ الباطل: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ..﴾.

وتقدمُ الآيةُ حقيقةً خامسة، تُعرفُنا بها على طبيعةِ الكافر بالحق، المنكرِ للساعة، وهي أنه إنسانٌ متبع للهوى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ولا يجتمعُ الهوى والهدى، ولا يُمكن لمتبعٍ لهواه أنْ يؤمنَ طالما هو متبعٌ لهواه.

واتباعُ الهوى أَساسُ كلِّ مصيبة، وهو سببٌ لهلاكِ صاحبه وضياعِه وخسارتِه في الدنيا والآخرة، وتردّي حياتِه في الدنيا، وتردّيه في جهنم في الآخرة، ولهذا قالت الآية: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ..﴾. وهذه حقيقةٌ

سادسة تضمنَتْها هذه الآيةُ الموجزة. وسبحانَ اللّهِ مُنَزِّلِ القرآنَ المعجز!!.

هذه هي الحقائقُ والمعلوماتُ التي أخبرَ اللّهُ بها موسى عليه السلام عندما ناداه في تلك البقعةِ المباركة من تلكَ الليلةِ المباركة، والتي أشارتْ لها الآياتُ الستةُ من سورةِ طه.

سأل الله موسى عن عصاه لإيناسه:

بعد ذلك أَرادَ اللّهُ إِيناسَ موسى عليه السلام، فسأَلَه عن عصاه، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨].

كان موسى عليه السلام يحملُ عصاه بيدِه اليمنى، ومعلومٌ أَنَّ اللّهَ سميعٌ بصيرٌ عليم، فاللّهُ رأى موسى وهو يحملُ عصاه، وهو يعلمُ أنهُ يحملُ عصاه، ومع ذلك سألَه سبحانه قائلاً: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

فلم يكن سؤالُ الله لموسى سؤالَ استعلام، لأنَّ اللّهَ يعلمُ أنها عصاه، وإنما سؤالُه سؤالَ إيناسٍ واسترواح، فاللّهُ يريدُ أَنْ يشعرَ موسى بالأُنس والراحة، يريدُ له أنْ تهدأَ أعصابُه، وأنْ تطمئنَّ نفسُه، وأنْ ترتاحَ مشاعرُه، لأنها ليلةٌ خاصة، تجري فيها أَحداثٌ خطيرة، وستمرُّ به بعدَ قليل أَحداثٌ مخيفةٌ مفزعة، ولا بد أَنْ يقابلَها موسى بهدوءٍ وأُنس واطمئنان.

ثم إنَّ اللّهَ يعلمُ أَنها ستكونُ معجزةً باهرة في هذه العصا، وسيحولُها بعد قليل إلى حيةٍ تسعى، وسيفاجَأُ موسى بذلك، فسأَلَه اللّهُ عن العصا، لينتبهَ موسى لها، ويتذكَّرَ أَنها عصا خشبية، فيسهلُ عليه تصوُّرُها حيةً تسعى.

ومن بابِ التقريب ـ ولِلّهِ المثلُ الأعلى ـ قد يُعطي أَحدُ الناس آخرَ قطعةَ قماش، ويَدعوه إِلى أَنْ يلمسَها بيديه، فيقول له: ما هذا؟

فيجيبُه: إنها قطعةُ قماش. فيقولُ له: انظر كيفَ سأَحرقُها وأُحوِّلُها الآنَ إلى رماد.

فسؤالُ الله لموسى عن عصاه ليُشعره بالأُنسِ والاطمئنان، وليعِدَّهُ للتعاملِ معها عندما يحوِّلُها الله إلى حية.

ولما سمعَ موسى سؤالَ الله تَحَسَّسَ ما في يده، إنها عصاه، فأَجابَ فوراً: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾.

من وظائف عصا موسى:

ثم استرسلَ موسى في الجواب، فأضافَ الحديثَ عن وظائفِ العصا، ولم يسأل اللّهُ عنها.

إنه يستعملُ العصا في «الإِتكاء»، وهو الاعتماد، حيث كانَ يتوكَّأُ ويعتمدُ عليها في سيْرِه وتنقُّلِه.

ويستعملُها في رعْيِ الغنم، حيث يَهُشُّ بها على غنمه.

ولم تَرِدْ كلمةُ «هَشَّ» في القرآن في غير هذا الموضع.

قال الراغب: «الهَشُّ: يقاربُ الهزَّ في التّحريك. ويقعُ على الشيء اللين كهشِّ الورق. يقال: هَشَّ الوَرَقَ. أي: خبطَه بالعصا..»[1].

فمعنى: «أَهُشُّ بها على غنمي»: أَهُزُّ بها الشجرَ ليتساقطَ ورقُه على غنمي فتأكله.

قال الإمامُ مالك: الهَشّ: أنْ يضعَ الرجلُ المحجنَ ـ العصا ـ في الغصن، ثم يحركُه، حتى يسقطَ ورقُه وثمرُه، ولا يكسرَ العود، ولا يخبطه»[2].

---

(١) المفردات: ٨٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٤١.

وليس استعمالُه العصا مقصوراً على الحالتيْن السابقتين، بل إنه يستعملُها في أَغراضٍ أُخرى، وتحققُ له مآربَ وأهدافاً أخرى. ولهذا أَضافَ موسى عليه السلام قائلاً: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ولم يُحدِّدْ تلك المآربَ الأخرى، وهي مآربُ وأغراضٌ قد تَعرضُ له في بعضِ الحالات، كأنْ يدفعَ بها عدوانَ معتدٍ عليه، أو يَصدَّ بها هجومَ حيوانٍ عليه، أوْ يضربَ بها غنمَه ودوابَّه وهو يرعاها أو يسوقُها، وهذه مآربُ اعتيادية قد تَعرضُ لأيِّ إنسانٍ يملكُ عصا.

ونحبُّ أنْ ندعوَ هنا إلى نبذِ الإسرائيليات التي ذكرها أَصحابُ الإسرائيليات والأَساطيرِ حول تلك العصا، ونقررُ أَنها كانت عصا عادية، قطعَها موسى من شجرةٍ من أَشجارِ الصحراء، وتوكَّأَ عليها وهَشَّ بها على غنمه، وهي كسائرِ العصيِّ التي يستعملُها الرعاة، ولم تلفتْ نظرَ موسى من قبل، ولم تَحدثْ له بها حوادثُ عجيبةٌ مثيرة، فما هي إلا عصا عاديّةٌ خشبيةٌ كسائر العصي.

حوّل الله العصا حية تسعى:

أَمرَ اللّهُ موسى بإِلقاءِ العصا من يده، وحقَّق على يده معجزةً باهرة، فحوَّلَها من عصا خشبيةٍ إلى أفعى، وراحت الحيةُ تسعى أَمام موسى!!!

ولم يتمالَكْ موسى نفسَه أَمامَ هذا الأمرِ المخيف، وخافَ من تلك الحية التي تهتزُّ كأنَّها جانّ، فولّى مدبراً، وأَرادَ أَنْ يهربَ من المكان خوفاً من تلك الحية، ولكنَّ اللهَ طمأَنه وأَزالَ عنه خوفَه، ودَعاه إلى عدمِ الهروب والخوف، فإنه سيعيدُها عصا جامدةً كما كانت.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ١٩ ـ ٢١].

والحيةُ هي الأَفعى المعروفة، ولم تَرِدْ «حية» في القرآن في غيرِ هذا الموضع، وهي مشتقَّةٌ من الحياة.

وتسمّى أَفعى، كما تسمى «ثعباناً».

ولما رأى موسى عصاه قد تحوّلتْ إِلى حية حقيقية، فيها روح، وتسعى كما تسعى الحيات، وتَسيرُ وتتحركُ كباقي الحيات، خافَ منها.

وتحويلُ العصا الجامدةِ اليابسةِ إلى حيةٍ حقيقيةٍ زاحفة، معجزةٌ باهرة، وهي من أَمرِ الله وفعله، ولذلك لا غرابةَ في ذلك.

إنَّ الإنسانَ يعجزُ عن خلقِ الأَحياء، ويعجزُ عن نفخ الحياة في الجوامد، وتحويلِها إِلى مخلوقات حية.

أما اللهُ الخالقُ المحيي البارئُ المصور، فهو قادرٌ على ذلك، وكما يخلقُ الحيَّ خلقاً مباشراً، فإنه يحوِّلُ الجامدَ إِلى حي، ولهذا نفخَ الحياةَ في العصا، فحوَّلَها إلى حيةٍ تسعى..

ثم أعادها الله عصا:

وأَمَرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يأخذَ الحيةَ بيده، وأن لا يَخافَ منها: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾.

إنَّ كلَّ ما مَرَّ بموسى عليه السلام في هذه الليلة مثير، وها هي عصاهُ حية، تسيرُ وتسعى، وها هو مأمورٌ أنْ يأخذَها بيده، وأنْ لا يخافَ منها! يأخذَ حيةً مخيفة، ولو كانت حيةً حقيقيةً لخاف أنْ يأخذَها، لأنه يعلمُ أنَّ لدغَتَها سامّة، فكيف وهي حيةٌ غيرُ عادية، وإنما هي متحولةٌ عن عصا؟؟

وحتى يُزيلَ اللّهَ خوفَه طمأَنَه بأنّه سيعيدُها عصا كما كانت: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

والمعنى: سنعيدُها إِلى طبيعتها، وهي عصا خشبية.

والسيرةُ لم تَرِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

قال الإمامُ الراغبُ الأصفهاني: «السيرةُ: الحالةُ التي يكون عليها الإنسانُ وغيره، غريزياً كان أو مكتسباً.

يقال: فُلانٌ له سيرةٌ حسنة. وفلانٌ له سيرةٌ قبيحة.

وقوله: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾: سنعيدُها إلى الحالة التي كانتْ عليها، وهي أَنها عود»[1].

حياة العصا على مرحلتين تهتز ثم تسير:

ولما حوَّلَ اللّهُ العصا إِلى حية، لم تكن مجردَ حية، بل كانت «تهتز» وتتحركُ وتضطرب.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ [النمل: ١٠ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

انقلبت العصا حيةً بمجردِ أنْ أَلقاها موسى، وصارتْ حيةً عظيمةً كبيرةً هائلةً مخيفة، في غايةِ الكبر وسرعةِ الحركة، وكانت تهتزُّ وتضطرب، وتَسعى وتَسير، وتتحركُ حركةً سريعةً مخيفة.

وقد شبَّهتها الآية في ذلك بالجانّ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾. والجانُّ في القرآن يطلقُ على «الجنّ» الخلقِ المعروفين الذين خلقهم اللّهُ من النار. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

ولم يُطلق «الجانُّ» في القرآن على غيرِ الجنّ المعروفين.

وهنا شبَّهَ القرآنُ الحيةَ بعدما كَبرتْ وعَظمت واهتزتْ واضطربتْ بالجانّ ـ وهو الجني ـ في اهتزازِه وحركتِه واضطرابه: ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾.

---

(١) المفردات: ٤٣٣.

وعندما نجمعُ الآياتِ الثلاث التي تتحدثُ عن تحويلِ العصا إلى حية، فسوف نرى أنها تتحدثُ عن مرحلتيْن مرتْ بهما تلك الحية:

المرحلة الأولى: التغييرُ الذي طرأ على العصا، حين جعلَ اللّهُ فيها الحياة، حيث صارتْ تهتزُّ وتضطربُ وتتحرك، كأنها جانّ.

وهذا ما ذكرتْه آيةُ سورة النمل: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾. وآية سورةُ القصص أيضاً: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ ..﴾.

المرحلة الثانية: انتهاءُ اهتزازِ واضطرابِ الحية، وانتقالُها إلى مرحلةِ الزحفِ والمشي والسعي.

وهـذا مـا ذكـرَتْـه آيـةُ سـورة طـه: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ..﴾ فصارتْ حيةً تسعى بعدما اهتزتْ كأنّها جانّ.

كان خوفُ موسى عندما شاهدَ المرحلةَ الأولى، ورآها تهتز كأنّها جانّ، حيث هربَ من الموقع. وهذا ما وردَ في سورتي النمل والقصص: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ..﴾.

ولّى ظهرَه للحيةِ التي تهتز، وأدبرَ عنها، وجرى سريعاً بعيداً عنها، وهربَ منها، ولم يُعَقِّبْ، ولم ينظرْ خلفَه، ولم يلتفتْ إليها، وذلك من شدةِ خوفه.

ماذا قالَ اللّهُ له بعدما هربَ من الحية؟

الله ينهى موسى عن الخوف من العصا:

١ - نهاهُ اللّهُ عن الخوف، وذلكَ ليعودَ له اطمئنانُه وهدوءُه، ويزولَ عنه الخوف. وهذا ما وردَ في سورة النمل: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقولُ اللّهُ له: إنك رسول، والرسلُ لا يَخافون، فلماذا تَخافُ من هذه الحية التي تهتزُّ كأنّها جانّ؟.

والاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ استثناء

منقطع ـ كما يقول علماء النحو ـ المستثنى من غير جنسِ المستثنى منه، أي: أنتَ رسول، والرسلُ لا يخافون. ثم بدأ كلامٌ جديد، عن الذين يَخافون ويَظلمون ويُخطئون ويَعصون من غيرِ الرسل والأنبياء. فمن خافَ وظلمَ من غيرِ الرسلِ، ثم تابَ وفعلَ الحُسْنَ بعد السوء، فإن اللّهَ يتوبُ عليه ويغفرُ له، لأنه غفورٌ رحيم..

فما بعدَ الاستثناءِ لا ينطبقُ على موسى عليه السلام في خوفِه من الحية، وخوفُه منها خوفٌ طبيعيٌّ فطري، يَعتري البشرَ حتى لو كانوا أنبياء، أمامَ الأخطار.

ولا يُلامُ موسى على خوفِه من الحيةِ وهروبِه بعيداً عنها، لأنها كانت عصا خشبية، وإذا بها حيةٌ تهتزُّ وتَضطربُ وتتحركُ كأنّها جانّ. فهل نريدُ من موسى أنْ لا يَخافَ من هذا المنظر؟ في تلك الليلةِ المثيرة؟ في ذلك المكانِ البعيد؟ وليسَ معه أَحد؟

أيُّ واحدٍ لو كان مكانَ موسى عليه السلام في ذلك الجو، ورأى الحيةَ هكذا، فسوفَ يخافُ ويهرب، لأنه خَطر، وفطرَ اللّهُ البشرَ على الخوفِ من الخطر والابتعادِ عنه!!.

المهمُّ أنْ نعرفَ ماذا فعلَ موسى بعدما ناداهُ الله ونهاهُ عن الخوف؟ لو بقي خائفاً هارباً بعد تأمينِ اللّهِ له لكان مُلاماً في ذلك، وكان فعلُه مذموماً، وكان خوفُه جبناً! وحاشاهُ أنْ يفعلَ ذلك.

لقد سمعَ موسى نداءَ الله، وتوقَّفَ عن هروبه وجَريه، وأَزالَ عنه الخوف، وأَحلَّ محلَّه الهدوء والاطمئنان: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

الله يأمر موسى بالعودة وأخذ الحية بيده:

٢ ـ بعدما توقَّفَ موسى عن هروبه، وأَزالَ عنه الخوف، أَمَرَهُ اللّهُ بالعودةِ إلى الحية، وأكَّدَ عليه عدمَ الخوف، وأَبلغه بالأمن.

ووردَ هذا في سورةِ القصص: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾: عُدْ إلى مكانِك، حيث الحيةُ التي تهتزُّ كأنّها جانّ. ولا تَخفْ منها، فإنها لنْ تُؤذيك، إنكَ من الآمنين، ستكون آمناً عندَ الحية، فهي ليستْ عدوةً لك، كباقي الحياتِ التي جعلَ الله بينها وبين بني البشر عداوة، إنها حيةٌ خاصة، ستكونُ بينَك وبينها صلةٌ وصحبة خاصة، ستكون آمناً عندها، فعذْ إليها وأَقبلْ عليها: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

اطمأنَّ موسى إلى تبشيرِ اللهِ له بالأمن، وأَيقنَ أنه سيكونُ آمناً عند الحية، فأقبلَ عليها، ونفَّذَ أَمْرَ الله.

٣ ـ لما وصلَ موسى إلى الحية وَجدَها قد انتقلتْ إلى المرحلةِ الثانية من حياتها المعجزة، فلم تهتزّ واقفةً كأنّها جانّ، وإنما صارتْ تتحركُ وتزحف: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ..﴾.

نظرَ إليها موسى وهي تسعى، وكان آمِناً من جهتها، لأنَّ اللّهَ أمَّنَه.

وهنا أَمرَهُ اللّهُ أنْ يأخذَها بيده، وأنْ لا يخافَ منها عندما يمدُّ يَدَهُ إليها: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾..﴾.

وأَخبرَه أنَّ حياتَها حياةٌ عرضية وليستْ دائمة، وأنَّ اللّهَ أرادَ أنْ تكونَ حياتُها آيةً ومعجزة. وسوفَ يعيدُها عصا خشبية كما كانت.

اطمأنَّ موسى إلى وعْدِ الله، ومَدَّ يَدَه إلى الحية التي كانتْ تَسعى وتزحف، وحملَها بيده، بدونِ خوفٍ أو فزع أو اضطراب.. ونظرَ إليها فإذا بها تعودُ عصا خشبية! العصا التي كان يحملُها، ويعرفُها حقَّ المعرفة!!.

وهكذا أَجرى اللّهُ المعجزةَ على يد موسى عليه السلام، في تلك الليلةِ المباركة في وادي طوى، فجعلَ العصا الخشبيةَ حيةً تهتزُّ ثم تسعى، وأَعادَها عصا خشبية لما أَمسكها موسى.. فاللهُ هو الذي قذفَ فيها الحياة، واللّهُ هو الذي سَلَبَ منها الحياة، وكانت حياتُها عَرَضاً

سريعاً، وليس حياةً دائمة. وسبحان الله الخالقِ المحيي المميت..

معجزة تحويل يد موسى السمراء إلى بيضاء من غير سوء:

وبعدما أَعادَ اللّهُ الحيةَ عصا، وشاهدَ موسى المعجزة بعينيه، ولمسَها بيديه، أَرادَ اللّهُ أَنْ يُقدمَ له معجزةً أُخرى، ليست مخيفةً مثلَ الأولى، لكنها مثلَها في الدلالةِ على وحدانيةِ الله، وقدرتهِ على فعل ما يشاء.

قالَ تعالى عن معجزة اليد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٢ - ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢].

كانتْ يدُ موسى سمراء، لأن موسى كانَ أسمرَ اللون. كما أخبرَنا رسولُ الله ﷺ.

عن ابنِ عباس رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ قال: «أمّا إبراهيمُ فانظروا إلى صاحبكم، وأَما موسى فرجلٌ آدمُ جَعْدُ الشَّعَر»[1].

وعن ابنِ عباس أيضاً عن رسولِ الله ﷺ قال: «مررتُ ليلةَ أُسري بي على موسى بن عمران عليه السلام، رجلٌ آدمٌ طُوالٌ جَعْدٌ، كأَنه من رجال شنوءة..»[2].

ومعنى «آدم»: أسمرُ اللون.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٨. ومسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٧١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.

ومعنى «طُوال»: طويلُ الجسم.

ومعنى «جَعْد الشعر»: أنَّ شعْرَ رأسِه أَجعدُ قَطَط، وليس سبطاً مسترسلاً منسدلاً.

فالرسولُ ﷺ يخبرُ أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام كان أسمرَ اللون.

أَمَرَ اللّهُ موسى عليه السلام أن يُدخِلَ يدَه السمراءَ داخلَ جيب درعِه أو ثوبه، ويخرجها، فإنها ستخرجُ بيضاءَ ناصعةَ البياض، تلمعُ وتشعُّ وتتلألأ، وبياضُها من غيرِ سوء. فليسَ بياضُها عن بَرَصٍ أو بُهاق أو أيِّ مرضٍ آخر جلدي، وإنما بياضُها معجزةٌ من الله، وسوف تعودُ إلى لونِها الأسمر المعتاد.

كان تحويلُ يدِه السمراء إلى بيضاء، ثم عودتُها إلى لونها الأسمر معجزةً من الله له، كمعجزةِ تحويلِ العصا إلى حية تسعى، ثم عودتِها عصا خشبية بعد ذلك.

ولذلكَ قالَ له عن الآيتين: العصا تتحولُ إلى حية ثم تعودُ عصا، واليدُ السمراء تتحولُ إلى بيضاء، ثم تعودُ سمراء: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ . .﴾.

«ذانِك» مثنّى اسم الإشارة «ذا». والإشارةُ إلى العصا واليد، و«برهانان» مثنّى «برهان». وهو الدليلُ الواضح، والحجةُ الساطعة، فجعلَ اللّهُ العصا واليد لموسى برهانان بيِّنان على أنه نبيٌّ رسول، أرسله اللّهُ إلى فرعون وملئه.

ضم اليد إلى الجنب وإدخالها في الجيب:

الضمُّ في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ معناه الإدخال، فعبَّرَ في سورةِ طه بالضم، لكنه عبَّرَ في سورةِ النمل بالإدخال: «أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء . .».

والإدخالُ هو السلوكُ المذكورُ في سورة القصص: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ..﴾.

والسلوكُ هو النفاذُ والاختراق. يقال: سلكَ الطريق: إذا نَفَذَ فيها واخترقَها.

فضمُّ اليدِ إلى الجيب هو إدخالُها فيه، وإدخالُها في الجيب هو نفاذُها فيه واختراقُها له.

ونلاحظُ أنَّ الآياتِ الثلاثة من السور الثلاثة تركزُ على حقيقةٍ واحدة، وهي أنَّ يدَه ستخرجُ: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ..﴾.

أما الجناحُ المذكورُ في الآيتين: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ و﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ..﴾ فهو الجانب.

قال الإمام الراغب: «الجَناحُ: جَناحُ الطائر.. وسُميَ جانبا الشيء جناحيْه، فقيل: جناحا السفينة، وجناحا العسكر، وجناحا الوادي.

وقيل: جناحا الإنسان لجانبيه. قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى جانبك.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾: المراد بالجناحِ فيه اليد. أي: اضمم إليكَ يدك. لكون الجناحِ كاليد، ولذلكَ قيل لجناحي الطائر يداه...»[1].

فمعنى قولِه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ اضممْ إليكَ يدكَ بسببِ الرهبة والخوف.

إنه قد أدخلَ يدَه في جيبه لتخرجَ بيضاء من غير سوء، ليكونَ ذلك له آية: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ..﴾.

---

(١) المفردات: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

وسيلة مطردة لإزالة الخوف والرعب عن الإنسان:

وقد أَمره اللّهُ بشيء آخر، وهو أَنه عندما يشعرُ بالرهبِ والخوفِ والفَزَعِ والرعب، فعليه أنْ يضمَّ إِليه يدَه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾. وذلك ليزولَ عنه الرَّهَبُ والرعب.

وليست هذه الوسيلةُ التي أرشدَ اللّهُ لها موسى عليه السلام خاصةً بتلك الليلةِ المباركة، وإنما هي وسيلةٌ عامةٌ مطردةٌ لزوالِ خوفه وفزعه، في أيِّ موقفٍ يمرُّ به.

كما أن هذه الوسيلةَ الربانية لزوال الرعب والخوف ليستْ خاصةً بموسى عليه السلام، بل هي عامة، تصلحُ لكلِّ منْ مَرَّ بحالةٍ من الرهب والفزع، فإذا ضمَّ يده إليه، فإنه سيشعرُ بزوال ذلك.

قال الإمام ابن كثير في التفسير: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾:

قال مجاهد: من الفزع.

وقال قتادة: من الرعب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصلَ لكَ من خوفك من الحية.

والظاهرُ أنَّ المرادَ أعمُّ من هذا، وهو أَنه أُمِرَ عليه السلام إذا خافَ من شيء أنْ يضمَّ إِليه جناحه ـ وهو يده ـ من الرهب، فإذا فعلَ ذلك ذهبَ عنه ما يجدُه من الخوف.

وربما إِذا استعملَ أحدٌ ذلك على سبيل الاقتداء، فوضعَ يدَه على فؤاده، فإنه يزولُ عنه ما يجدُه من الخوفِ، إن شاء الله[1]..

ونفَّذَ موسى أمرَ الله، فأدخلَ يده في جيبه، فخرجَتْ بيضاءَ من

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

غير سوء، وبعد فترةٍ عادت سمراء كباقي جسمه. وضمَّ يدَه إليه، ووضعَها على قلبه فزالَ عنه ما كان يجده من الخوفِ والفزع والرعب والرهب، وعاد إليه اطمئنانه وهدوءه.

وأَعطى اللّهُ موسى عليه السلام الآيتين، وقالَ له عنهما: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ . .﴾.

قالَ ابنُ كثير رحمه الله: «هما إِلقاءُ العصا، وجعلُها حية تسعى، وإِدخالُه يده في جيبه، فتخرجَ بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرةِ الفاعل المختار، وصحةِ نبوةِ مَنْ جرى هذا الخارقُ على يديه. . .»[1].

[٢]

تكليف موسى وهارون الذهاب إلى فرعون

في تلك الليلةِ المباركة، في وادي طوى بجانبِ جبل الطور، أَخبر اللّهُ موسى بأَنه اختارَه نبياً، وأَعطاه آيتَيْن برهانَيْن على نبوته، وهما اليدُ والعصا.

وأَيقنَ موسى عليه السلام بأَنه نبيٌّ رسول، وأَنَّ اللّهَ هو الذي يكلمه، واطمأَنَّ إِلى الآيات التي أَعطاها الله له.

أمر موسى بالذهاب إلى فرعون الطاغية:

بعد ذلك، وفي نفس المكانِ والزمان ـ في الليلة المباركة في الوادي المقدَّس طوى ـ كلفَ اللّهُ موسى عليه السلام أَنْ يذهبَ إِلى فرعون، ويبلغَه الدعوة.

ووردَ هذا في صريحِ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

---

(١) المرجع السابق ٣:٣٧٥.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٩].

اذهبْ إِلى فرعون!. فرعونُ نفسُه الذي هربَ منه موسى قبلَ عشر سنوات، لما قتل القبطي!! كيفَ يذهبُ إِليه الآن؟ أَلا يحاسبُه على ما فعلَه من قبل؟ وبأيِّ صفةٍ يَذهبُ إِليه؟ بصفةِ النبوة! إِنه نبيٌّ رسول، بعثَه الله، وأَعطاه الآيات، وكلَّفه بدعوةِ فرعون!

وهنا عرفَ موسى عليه السلام حكمةَ الله في تدبيرِ وتقديرِ الأَحداث التي مرَّتْ به في حياته، منذ ولادتِه إِلى هذه اللحظة!

إِنَّ اللّهَ حكيمٌ خبير، قدَّرَ ودبَّرَ الأَحداث، وجعلها كلَّها تمهيداً لنبوةِ موسى عليه السلام، والآن بعثَ موسى نبياً رسولاً، وكلَّفه الذهابَ إِلى فرعون.

طغيان فرعون في ادعاء الألوهية والربوبية:

وأَبرزُ جريمة ارتكبها فرعونُ هي الطغيان ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

والطغيانُ هو تجاوزُ الحدِّ، والظلمُ والعدوان.

قال الإمامُ الراغب: الطغيان: تجاوزُ الحَدِّ في العدوان..»[(١)].

وقد برزَ طغيانُ فرعون وتعدّيه وتجاوزُ حدِّه في أَقبحِ صورة، وذلك عندما ادعى أَنه إِلهٌ وربٌّ لقومه، ودعاهم إِلى عبادته.

وتولَّدَ عن هذا الطغيانِ الفرعوني القبيح كلُّ مظاهرِ الطغيان الأخرى، من ظلمه وعدوانِه وبغيه وإِفساده، وتكبُّرِه واستعلائه.

---

(١) المفردات: ٥٢٠.

إنَّ أَبرزَ عنوانٍ لحكم فرعون هو الطغيان، وأَبرزَ صفةٍ لفرعون أنه طاغية، ولقد أَوجزَ التعبيرُ القرآنيُّ المعجزُ بهذه الجملة: ﴿فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ مظاهرَ وممارساتِ فرعونَ في حكمه، وملامحَ الحكم الفرعوني، مما أَغنى عن كلِّ تفصيلٍ وإِسهاب.

وطغيانُ فرعونَ الطاغية استدعى أَنْ يناديَ اللّهُ موسى في الوادي المقدَّس، وأنْ يكلمه تكليماً مباشراً، بدونِ واسطةِ الملَكِ جبريل، وأنْ يكلفَه بالذهابِ إلى فرعون.

وخلاصةُ دعوةِ موسى إلى فرعون أنْ يؤمنَ بالله، وأنْ يتخلّى عن طغيانِه، وأنْ يطهِّرَ ويزكيَ نفسه، وأنْ يخشى اللّهَ ربَّه، وأنْ يتابعَ موسى الذي يقودُه إلى ربه، ويهديه الطريقَ الصحيحَ إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

موسى رسول إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل:

ولم يكن موسى عليه السلام مكلَّفاً بالذهابِ إلى فرعون فقط، فقد أَخبره اللّهُ في تلك الليلةِ المباركة أَنه مبعوثٌ إلى فرعونَ وقومه، ووردَ هذا صريحاً في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١].

قومُ فرعون ظالمون كافرون عابدون لفرعون، وموسى مكلَّفٌ أنْ يأتيهم ويَدعوهم إلى الله ليتقوه: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾.

ولهذا جمعَ القرآنُ بين فرعون وقومه، باعتبارِ موسى عليه السلام مبعوثاً لهم جميعاً.

قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ

ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٢].

وهذه الآياتُ صريحةٌ في أنَّ اللّهَ بعثَ موسى نبياً رسولاً إلى فرعون وملئه وقومه، بالإضافةِ إلى كونه نبياً رسولاً إلى قومه بني إسرائيل.

ولا يتعارضُ هذا مع الحقيقةِ المعروفة من أنَّ اللّهَ كانَ يبعثُ كلَّ رسولٍ إلى قومه خاصة، إلاّ رسولَ الله محمداً ﷺ الذي بعثَهُ اللّهُ إلى الناس كافة، بل إلى الثقلَيْن من الإنس والجن.

لا يتعارضُ هذا معه لأنَّ بني إسرائيل كانوا مضطَّهدين أذلاء مستعبدين عند فرعون وملئِه، ولا بدَّ أنْ يُرفعَ عنهم الظلمُ والعدوان، وذلك لا يتمُّ إلا بالتخلّي عن الكفرِ من قِبَلِ الذين يذلّونهم ويَستعبدونَهم. ولذلك بعثَ اللّهُ موسى رسولاً إلى فرعون وملئه، قبلَ أنْ يبعثَه رسولاً إلى قومه بني إسرائيل، وبدأَ موسى بدعوةِ فرعون وقومه قبلَ أنْ يدعوَ بني إسرائيل. وبينما رفضَ فرعونُ وملؤُه دعوةَ موسى، فقد قَبِلَ قومُه بنو إسرائيل دعوتَه ودخلوا في دينه.

إذنْ بعثَ اللّهُ موسى نبياً رسولاً إلى فرعونَ وملئه بنصِّ آياتِ القرآن الكريم.

ما الذي طلبه موسى من ربه؟:

ولما علمَ موسى عليه السلام بالمهمةِ الشاقة التي كلَّفه اللّهُ بها، طلبَ من اللّهِ أنْ يُعينَه على تلك المهمة، وسألَهُ أشياءَ تحققُ له أداءَ مهمته.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٦].

سألَ موسى ربَّه أنْ يُعينَه على أداءِ المهمة أمامَ فرعون. قال الإمامُ ابن كثير في التفسير: «هذا سؤالٌ من موسى عليه السلام لربِّه عز وجل أنْ يشرحَ له صدْرَه فيما بعثَه به، فإنَّه قد أَمَرَهُ بأمرٍ عظيم، وخطْبٍ جسيم، بعثَهُ إلى أعظمِ مَلِكٍ على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرِهم، وأشدِّهم كفراً، وأكثرِهم جنوداً، وأعمرِهم ملكاً، وأطغاهم، وأبلغِهم تمرداً، بلغَ من أمرِه أن ادّعى أنه لا يعرفُ الله، ولا يعلمُ لرعاياه إلهاً غيره، هذا وقد مكثَ موسى في داره مدة، وليداً عندهم، في حجرِ فرعون وعلى فراشِه، ثم قَتَلَ منهم نفساً، فخافَهم أنْ يقتلوه، فهربَ منهم هذه المدةَ بكمالِها.. ثم بعدَ هذا بعثَه ربُّه عز وجل إليهم نذيراً، يَدعوهم إلى الله عز وجل، أنْ يَعبدوه وحدَه لا شريكَ له، ولهذا سأَلَ اللّهَ أَنْ يحققَ له ما يعينُه على أداء مهمته...»[1].

لقد توجَّه موسى إلى ربِّه سائلاً متضرعاً طالباً، لأَنه يعلمُ أنه لا يُعينُه ولا ينصرُه إلا الله، ولا يتمكنُ من أداءِ المهمة إلاّ بتوفيقٍ من الله.

ما الذي طلبهُ موسى عليه السلام من ربه؟

لماذا بدأ بطلب شرح الصدر؟:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾:

طلبَ من ربِّه أنْ يشرحَ له صدْرَه، وأنْ ييسرَ له أمره:

«وانشراحُ الصدرِ يُحَوِّلُ مشقةَ التكليف إلى مُتعة، ويُحيلُ عناءَه لذة، ويجعلُه دافعاً للحياة لا عِبْئاً يُثقل خطى الحياة... وتيسيرُ اللّهِ لعباده هو ضمانُ النجاح، وإلاّ فماذا يملكُ الإنسانُ بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك؟ وقُواه محدودةٌ وعلمُه قاصر والطريقُ طويلٌ وشائك ومجهول؟»[2].

يريدُ موسى من ربِّه أنْ يشرحَ له صدْرَه وييسرَ له أمره، لينطلقَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٤٣.

(٢) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٣٣.

لسانَه بالبيان، ويبلغَ الرسالةَ لفرعون وملئه، لأَنه يخشى أَنْ يضيقَ صدرُه، ولا ينطلقَ لسانُه، وبذلك يعجزُ عن أَداءِ الرسالة.

إِنَّ موسى عليه السلام يربطُ بين ضيقِ الصدر وحبْسِ اللسان وعدم إِقامةِ الحجة، ولهذا يريدُ شرحَ الصدر لانطلاقِ اللسان، لتقامَ الحجةُ ويتحققَ البيان!

بهذا الإِطارِ يجبُ أَنْ نضعَ قولَه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾.

عقدة لسان موسى وحكاية الجمرة والتمرة:

لا يَجوزُ أَنْ ننظرَ إِلى هذه الجملةِ مجردة، ونقطعَها عما قبلَها، ونذهبَ إِلى الرواياتِ غيرِ الصحيحة في الكلام على عقدةِ اللسان، كما قالَ بعضُ المفسرين، الذين قبلوا حكايةَ «الجمرة والتمرة»، التي حرقَتْ لسانَ موسى وهو صغير، فأَصابَتْه بلثغةٍ دائمة، وهنا طلبَ من الله أَنْ يُزيلَ هذه العقدةَ اللثغة.

وخلاصةُ حكايةِ «الجمرةِ والتمرة» كما رواها هؤلاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنه لما دعت امرأَةُ فرعون زوجَها إِلى تبنّي موسى وعدمِ قتله، استجابَ لها وتبنّاه، وفي يومٍ من الأيام كانت امرأَةُ فرعون جالسةً مع زوجها، وكان موسى طفلاً صغيراً في حضنها، فأَمسكَ فرعونُ بموسى وَحَمَلَه، ووضعَه في حجره، فتناولَ موسى لحيةَ فرعون، فشدَّها ومَدَّها إلى الأرض!!

فقال الغواةُ أَعداءُ الله لفرعون: أَلا ترى إِلى ما وَعَدَ اللَّهُ إِبراهيمَ نبيَّه أَنه يربُّك ويعلوك ويصرعُك؟ فأَرسلَ فرعونُ إِلى الذبّاحين ليذبحوه..

فقالت له امرأَتُه: ما بدا لك في هذا الغلامِ الذي وهبْتَه لي؟

قال: لقد شَدَّ لحيتي، وهو يزعمُ أَنه يعلوني ويصرعُني!

فدعَتْه إلى اختبارِه ليعرفَ أَنه لم يقصدْ ذلك، وأنه لا يَعقل، وأَنه لا يفرقُ بين الجمرة والتمرة.

فوضعَ فرعونُ أمامهُ جمرةً وتمرة، فتناولَ الجمرةَ ووضعَها على لسانه، فأحرقَتْه، فأصابتْه لثغةٌ دائمةٌ بسببها. فسأَلَ اللّهَ أنْ يحلَّ تلك العقدة بإزالةِ اللثغة[1].

الخلاف في تصحيح الحكاية والراجح عدم قبولها:

وقد قبلَ بعضُ المفسرين والمحدِّثين هذه الرواية، لأَنه صحَّ إسنادُها إلى الإمامِ ابنِ عباس رضي الله عنهما، واعتبرَها بعضُهم من باب المرفوعِ إلى النبي ﷺ، مع أَنَّ ابنَ عباس لم يصرِّحْ برفعها. بينما اعتبرَها بعضُهم موقوفةً على ابنِ عباس رضي الله عنهما، وليستْ مرفوعةً للنبي عليه الصلاة والسلام، لعدمِ تصريحِ ابن عباس بالرفع.

ونحنُ مع الإمامِ ابنِ كثير في تعليقِه على هذه الرواية: «وهكذا رواهُ النسائي في السننِ الكبرى. وأخرجَه أبو جعفر بن جرير وابنُ أبي حاتم في تفسيريهما، كلُّهم من حديثِ يزيدِ بن هارون به.

وهو موقوفٌ من كلامِ ابن عباس، وليسَ فيه مرفوعٌ إلاّ قليلٌ منه. وكأَنه تلقّاه ابنُ عباس رضي الله عنهما مما أُبيحَ نقلُه من الإسرائيليات عن كعبِ الأحبار أَو غيرِه، والله أعلم. وسمعتُ شيخَنا الحافظَ أَبا الحجاج المزي يقولُ ذلك أيضاً»[2].

وبما أنَّ الراجحَ أنَّ الروايةَ موقوفةٌ على ابن عباس وليستْ مرفوعةً للنبي ﷺ فإننا لا نعتمدُها ولا نقولُ بها، ونتوقفُ فيها. والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٤٥. وقصص الأنبياء لابن كثير: ٢٨٣. والأحاديث الصحيحة من قصص الأنبياء للشيخ إبراهيم العلي برقم: ١٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٤٩. وانظر استدراكَ أخينا الشيخ إبراهيم العلي على ابن كثير في كلامه السابق، في كتابه «الأحاديث الصحيحة في قصص الأنبياء» صفحات: ١٢٧ ـ ١٢٩ حاشية. وميلِه إلى اعتبارِ حديث الفتون من المرفوع، إلاّ أننا مع الإمامِ ابن كثير في اعتباره من الموقوف، ولهذا نتوقفُ فيه، ولا نعتمدُه ولا نقولُ به. والله أعلم!!.

إذنْ حكايةُ «الجمرة والتمرة» لم تصحّ عندنا، ولهذا لا نقول: إنَّ العقدةَ التي في لسانه إنما هي لثغةٌ بسببِ حرقِ الجمرة للسانِه وهو طفل! فلْنبحثْ عن تعليلٍ آخرَ لهذه العقدة!!

ترتيب الآيات في ضيق الصدر وعقدة اللسان:

يجبُ أنْ ننظرَ في طلبِ موسى كلِّه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨].

وأنْ نضيفَ إليه ـ من بابِ تفسيرِ القرآن بالقرآن ـ آياتٍ أُخرى تتحدثُ عن نفسِ الموضوع. قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤].

لماذا طلبَ موسى من اللّهِ أنْ يشرحَ له صدْرَه، ويحللَ عقدةً من لسانه ليفقهوا قوله؛ لأنه يَخافُ إن كَذَّبوه أنْ يضيقَ صدْرُه، وإذا ضاقَ صدرُه فإنه ينحبسُ لسانُه ولا ينطلق، وعندها لا يقومُ بالبلاغ والبيان!

إنَّ آياتِ سورة الشعراء: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ توضحُ المرادَ بالعقدةِ في آياتِ سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾.

الفرق بين الهادئ والمنفعل في التعبير:

من خلالِ النظرِ في الآيات السابقة مجتمعة، نقولُ مستعينين بالله: كانت العقدةُ في لسان موسى عليه السلام عقدةً معنويةً نفسيةً شعورية،

وليستْ عقدةً مادية متمثلةً بلثغة، وإنها مرتبطةٌ بضيقِ الصدر، ذلك الضيقُ الذي يترتَّبُ عليه عدمُ انطلاقِ اللسان.

الناسُ يتفاوتون في التعاملِ مع أَحداثٍ ومواقفَ صعبةٍ حرجةٍ يمرون بها، ويتفاوَتون في التفاعلِ مع مشاعرِ الخوف والقلقِ والانفعال، عندما يواجهونَ تلك الأحداث والمواقف.

فالشخصُ هادئُ الأعصاب يستقبلُ المواقفَ الانفعاليةَ بأعصابٍ هادئة، فلا ينفعلُ كثيراً، ولا تتوتَّرُ أَعصابُه، ولا يتسارعُ نبضُه، ولا تحتدُّ مشاعرُه، ويبقى محتفظاً بهدوئِه وأَناته، ويتكلمُ بهدوءٍ وتأنٍّ، ويضبطُ كلماته، فتخرجُ من لسانه واضحةً فصيحةً مسموعة.

والشخصُ المنفعلُ يستقبلُ المواقفَ الانفعاليةَ بأعصابٍ مشدودة، فتحتدُّ مشاعرُه، ويتسارعُ نبضُه، وتتلاحقُ أَنفاسُه، وينفعلُ انفعالاً عالياً، ويؤدي الانفعالُ النفسيُّ الشعوريُّ إِلى ضَياعِ صوته، وعندما يحاولُ التكلمَّ فإن الهواءَ ينحبسُ في رئتيْه، ولا يَصلُ إِلى جهازِ النطق، ولهذا تضيع منه الكلمات!!

وإذا لم يصلْ إِلى هذه الحالةِ الحادّةِ من انحباسِ الهواء وضياع الصوت، فإنه لا يتمكنُ من توضيحِ كلامه، لأنه يتكلمُ بسرعةٍ فائقة، كلاماً متسارعاً متتابعاً متدفقاً، وتتحكمُ في كلامه مشاعرُه المنفعلة، وأَنفاسُه المتسارعة، ونبضُه المتلاحق، فلا تخرجُ كلماتُه من مخارجها، ويَضيعُ كثيرٌ منها، وتخفى حروفٌ كثيرة منها، وبذلك يكونُ كلامُه غيرَ مفهوم ولا واضح. والسامعُ الذي يسمعُ كلامَه لا يَفهمُ عليه، ولا يَعرفُ ماذا يريدُ أَن يقول.

والذي أَوصلَه إِلى هذه الحالة من عدمِ الإفصاح والبيان هو ضيقُ صدره وانفعالُ مشاعره وأعصابه. هذا الشخصُ عنده عقدةٌ في لسانه وهي «الحبسةُ» التي تربطُه عند انفعالِه.

وهذان النموذجان موجودان مكروران في حياة البشر، فالأَوَّلُ

يتصفُ بالإفصاحِ والبيان المبنيّ على الهدوء وعدم الانفعال، والثاني يتصفُ بعدمِ الإفصاح والبيان، بسبب ضيقِ الصدر وانحباس اللسان!!

هارون أفصح لساناً من موسى لهدوئه:

ويبدو أنَّ هارونَ عليه السلام كان من النوعِ الأول، فكان يتمتعُ بشخصيةٍ هادئة، ويتصفُ بهدوءِ الأَعصاب، وعدمِ الانفعال في المواقف، ولهذا كان يتحكمُ في كلامِه وأنفاسِه ومشاعرِه، فيخرجُ كلامُه واضحاً فصيحاً متأنياً هادئاً مسموعاً.

وإنَّ موسى يعرفُ لأَخيه هارون عليهما الصلاة والسلام هذه الصفة، وأنه أَهدأُ من موسى بكثير، هذا الهدوءُ الذي يجعلُه أفصحَ منه، عندما يواجهُ المواقفَ الانفعالية، ولهذا قالَ موسى لربه: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

إنَّ موسى يعترفُ أنَّ أَخاهُ هارون ـ عليهما السلام ـ هو أَفصحُ منه لساناً.

وكلمةُ «أَفْصَح» لم ترِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الفصاحة: «الفَصْحُ: خُلوصُ الشيء مما يَشوبُه. وأَصْلُه في اللبن. يقال: فَصَحَ اللبنُ وأفصح، فهو مُفصحٌ وفصيح: إذا تعرّى من الرغوة..

ومنه استُعير: فَصَحَ الرجل: جادَتْ لغتُه..»[1].

هارونُ أَفصحُ من موسى عليهما السلام في كلامه ـ باعترافِ موسى نفسه ـ لأنَّ كلامَه واضحٌ فصيحٌ عند الانفعالات والإحراجات والاحتكاكات، وذلك لهدوئِه في أَعصابه ومشاعرِه.

---

(١) المفردات: ٦٣٧.

أثر انفعال موسى وضيق صدره على عدم انطلاق لسانه:

أَما موسى عليه السلام فيبدو أَنه كانَ من النوعِ الثاني، من النموذجيْن المذكوريْن سابقاً.

كان موسى عليه السلام يعرفُ من نفسِه أَنه ينفعلُ عند المواقف الخاصة، وانفعالُ مشاعرِه يؤدّي إِلى توتُّرٍ في أعصابه، وهذا يقودُ إِلى ضيقِ صدره، وتلاحقِ أَنفاسه، وانحباسِ الهواء في صدره ورئتيه، وينتجُ من هذا عدمُ انطلاقِ لسانه عندما يتكلم، وإِذا تكلّمَ كان كلامُه سريعاً متتابعاً غيرَ واضحٍ ولا فصيح، وبهذا لا يكادُ يُبينُ ويُفصح!

إِنهُ يَعرفُ هذا من نفسه، ويَعترفُ أَنَّ هذه «عقدةٌ نفسيةٌ معنوية» في لسانه، وأَنَّها تحولُ بينَه وبينَ الفصاحة والبلاغة في التبليغ وإقامةِ الحجة، وبذلك لا يَفقهُ الطرفُ الآخرُ كلامه.

ولهذا سألَ موسى ربَّه أنْ يَحُلَّ هذه العقدةَ النفسيةَ المعنوية من لسانِه، ليفقهَ فرعونُ وقومُه قولَه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾.

حل الله عقدة لسانه النفسية المعنوية:

وحَلُّ عقدةِ لسانه يكونُ بعدم ضيقِ صدره، لئلا ينحبسَ لسانُه، عندما ينفعلُ أَمامَ تكذيبهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ ..﴾.

وحتى يزولَ ضيقُ صدره، وهو السببُ في عدم انطلاق لسانه، وفي تَكَوُّنِ العقدةِ عليه، فقد سأَلَ اللّهَ أَنْ يَشرحَ له صدْرَه، ليزولَ سببُ العقدةِ والحبسة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾.

وإِذا شرحَ اللّهُ صدره، زالَ انفعالُه، وهدأَتْ نفسُه، واطمأَنَّتْ أَعصابُه، واستقرَّتْ أَنفاسُه، وبذلك تُحَلُّ عقدةُ لسانه، حيثُ ينطلقُ لسانُه، وتظهرُ كلماتُه بوضوحٍ وفصاحة وبيان.

وقد استجابَ اللّهُ دعاءَ موسى عليه السلام، فأَزالَ ضيقَ صدره،

وحَلَّ عقدةَ لسانه عندما شرحَ صدره، فانطلقَ لسانُه، وصارَ فصيحاً في البيانِ والتبليغ مثلَ أَخيه هارون عليهما السلام.

هذا ما نرجحُه في عقدةِ لسان موسى المعنويةِ النفسية الشعورية، واللّهُ تعالى أَعلم.

ذَكَرَ الإمامُ ابنُ كثير أَنَّ محمدَ بن كعب القرظي كان سريعَ الكلام، بحيث لا يَكادُ السامعُ يفهمُ كلَّ كلامه، فقال له قريبٌ له يوماً: لا بأسَ بك، لولا أنكَ تلحنُ في كلامك، ولستَ تُعْرِبُ في قراءتك!

فقالَ له محمد بن كعب: يا ابن أَخي أَلَسْتُ أُفَهِّمُكَ إِذا حدَّثْتُك؟

قال: نعم.

قال القرظي: فإنَّ موسى عليه السلام إنما سأَلَ ربَّه أنْ يَحْلُلَ عقدةً من لسانه، ليفقهَ بنو إسرائيل كلامَه.

رأي سيد قطب أن عقدة لسانه نفسية معنوية:

وممن فسَّرَ عقدةَ لسانِ موسى التي حَلَّها اللّهُ له هذا التفسيرَ النفسيَّ سيدُ قطب رحمه الله.

قالَ في تفسير سورة الشعراء: «والظاهرُ من حكايةِ قوله ـ عليه السلام ـ أنَّ خوفَه ليس من مجردِ التكذيب، ولكنَّ خوفه من حصولِ التكذيب في وقتٍ يَضيقُ فيه صدره، ولا ينطلقُ لسانُه، فلا يملكُ أنْ يُبين، وأنْ يناقشَ هذا التكذيب ويفنِّدَه، إذ كانتْ بلسانه حبسة، هي التي قالَ عنها في سورةِ طه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾، ومِنْ شأنِ هذه الحبسةِ أنْ تُنشىءَ حالةً من ضيقِ الصدر، تنشأُ من عدمِ القدرةِ على تصريفِ الانفعال بالكلام، وتزدادُ كلما زادَ الانفعال، فيزدادُ الصدر ضيقاً.. وهكذا.. وهي حالةٌ معروفة..

فمن هنا خشيَ موسى أنْ تقعَ له هذه الحالةُ وهو في موقفِ المواجهةِ بالرسالة لظالمٍ جبارٍ كفرعون. فشكا إِلى ربِّه ضعْفَه، وما

يخشاه على تبليغ رسالته، وطلبَ إليه أنْ يوحيَ إلى هارون أَخيه، ويُشركَه معه في الرِسالة، اتقاءَ للتقصيرِ في أَداءِ التكليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف.

فهارونُ أَفصحُ لساناً، ومن ثَمَّ هو أَهدأُ انفعالاً، فإذا أدركتْ موسى حبسةٌ أَو ضيق، نهضَ هارونُ بالجدلِ والمحاجة والبيان...»[1].

وبعدما طلبَ موسى عليه السلام من ربِّه أنْ يشرحَ له صدْرَه، وييسرَ له أمره، ويحللَ عقدةً من لسانه ليفقهوا قوله، تَذَكَّرَ ما فعلَه قبلَ عشر سنوات عندما قتلَ القبطي، وأَعلنَ أَنه يَخافُ أنْ يُحاسبوه ويَقتلوه.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤].

إِنهم يعتبرون موسى مذنباً بسببِ قَتْلِ القبطي، وإِذا ذهبَ إِلى فرعونَ وخاطبَه ودَعاهُ إلى الله، فإنه يَخافُ أنْ يأمرَ بقتْلِه.

مبهمات في حياة هارون وطبيعته الهادئة:

ولأَجلِ ذلك كلِّه، فقد طلبَ موسى من الله أَنْ يُرسلَ معه أَخاهُ هارون نبياً، وأنْ يجعلَه وزيراً مساعداً له، ليقومَ بدعوةِ فرعون معه.

قالَ تعالى مسجِّلاً طلبَ موسى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤].

من هذه الآياتِ عَرَفْنا أنَّ هارونَ أَخٌ لموسى عليهما السلام، ولا تخبرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينيةُ ـ المتمثلةُ في الآياتِ الصريحة والأَحاديثِ الصحيحة ـ شيئاً عن هارونَ عليه السلام، سوى أنه أَخٌ لموسى.

---

(١) في ظلال القرآن ٥:٢٥٨٩.

أَمّا متى وُلِدَ هارون فلا نعرفُ عنه شيئاً، كما لا نَعرفُ هل هو أكبرُ أَو أصغرُ من موسى، ولا كيفَ نجا من قتْلِ جنود فرعون، ولا كيفَ وأينَ كانت نشأَتُه.

ويبدو أنَّ هارونَ بَقيَ مقيماً في عاصمةِ مصر مقرِّ فرعون، عندما أَقامَ موسى في مدينَ عشرَ سنوات.

وقد أَشَرْنا من قبلُ إلى طبيعةِ هارون عليه السلام، القائمةِ على الهدوء وعدمِ الانفعال والتحكم في الكلام، ولهذا كانَ أفصحَ لساناً من موسى، باعترافه: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾.

موسى طلب إعانته بهارون:

ولذلكَ طلبَ موسى من الله أنْ يُرسلَ إلى هارون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢ ـ ١٣].

وقد يُخطئُ بعضُهم فهمَ قوله: إني أَخافُ أنْ يُكذبون... فأرسلْ إلى هارون. ويظنُّ أنَّ موسى عليه السلام نكصَ عن المهمة، ورفضَ النبوة، ولم يَقبل الرسالة، وطلبَ من ربِّه أنْ يكلفَ هارون بدلَه، وأنْ يجعلَ هارون نبياً رسولاً مكانَه!

وهذا فهمٌ خاطئٌ مردود. فموسى عليه السلام لم يرفض الرسالة، وما كان لنبيٍّ أنْ يرفضَ النبوة، أو أنْ يتخلّى عنها، لأنَّ اللّهَ هو الذي اختاره، واللّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه.

إنَّ معنى كلامِ موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ أنه يريدُ من اللّهِ أنْ يجعلَ هارونَ نبياً معه، وليسَ نبياً بدله! وذلك ليساعدَه في تبليغِ الدعوة، ومواجهةِ فرعون وملئه.

ووردَ هذا صريحاً في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾.

يريدُه أنْ يكونَ وزيراً له، ليشدَّ به أَزْرَه، ويُشركَه في أمْرِ النبوة والرسالة، وبذلكَ يكونُ رِدْءاً مساعداً له، يصدقُه ويعينُه في القيام بالمهمة: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾.

قال الراغب في معنى الرِّدْء: «الرِّدْءُ: الذي يتبعُ غيْرَه، مُعيناً له. قال تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾»(١).

فموسى عليه السلام يُريدُ أنْ يكونَ أَخوه هارون رِدْءاً مُعيناً له، يساعدُه ويتبعُه، ويبلغُ الدعوةَ ويواجهُ فرعون معه.

ولم يُذْكَر «الردء» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وقالَ الراغب في معنى الأَزْر: «أَصْلُ الأَزْر: الإِزار، الذي هو اللباس. يقال: إِزارٌ ومئزر.

ومعنى قوله: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾: أَتَقَوّى به.

والأَزْرُ: القوةُ الشديدة. وآزَرَه: أَعانَه وقَوّاه. وأَصْلُه من شَدِّ الإِزار».

إنَّ موسى عليه السلام يُريدُ أَنْ يشدَّ أَزْرَه بأَخيه هارون، أيْ أنْ يَستعينَ به ويتقوّى به، وهو يواجِهُ فرعونَ ويبلّغُه الدعوة: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾.

ولم يَرِد: «الأَزْرُ» ـ المصدر ـ في غيرِ هذا الموضع مِن القرآن.

هارون وزير وموسى رسول:

ولا يَكونُ هارونُ ردءاً لموسى يَشُدُّ به أَزْرَه إلا إذا كان وزيراً معه، ولهذا طلبَ موسى أنْ يجعلَ هارونَ وزيراً: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾.

والوزيرُ ليس مشتقاً من الأَزْر، الذي هو الشدةُ والقوةُ والمؤازرة

---

(١) المفردات: ٣٥٠.

والمساعدة، بل هو مشتقٌ من الوِزْرِ، وهو الحملُ الثقيل.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الوزر: «الوِزْر: الثِّقَلُ. تشبيهاً بِوَزْرِ الجبل وهو الملجأ.

ويُعَبَّرُ بالوزر عن الإثم، كما يُعَبَّرُ به عن الثقل.

والوزيرُ هو المتحملُ ثِقَلَ أَميرِه وشغله»[1].

طلبَ موسى من الله أنْ يجعلَ هارون وزيراً له، واستجابَ اللّهُ له، وصرحَ القرآنُ بذلك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: ٣٥ ـ ٣٦].

إنَّ موسى هو النبيُّ الرسول، المكلَّفُ بالرسالة أساساً، أما هارونُ فهو نبي، وهو «وزير» لموسى رِدْءٌ ومساعدٌ له.

ولم تُذْكَرْ كلمةُ: «وزير» إلاّ مرتيْن في القرآن، والمرتان في قصةِ موسى وهارون عليهما السلام، والوزيرُ في المرتيْن وصفٌ لهارون عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

وقد استجابَ اللّهُ لطلبِ موسى عليه السلام، فجعلَ هارونَ عليه السلام نبياً ووزيراً ورِدْءاً مساعِداً له. قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

أي: سنقوّي أَمْرَك، ونشدُّ عَضُدَكَ وأزْرَك، بأَخيك هارون، وسنبعثُه نبياً معك، ونجعلُه وزيراً لك، وسنعطيكَ أنتَ وأخاك الآياتِ

---

(١) المفردات: ٨٦٧ ـ ٨٦٨ باختصار.

والأدلةِ والبراهين، وسنجعلُ لكما السلطان، وسننصرُكما ونؤيدُكما، بحيث سيعجزُ فرعونُ وقومُه عن الوصول إليكما، ونجعلُكما غالبين لهم.

لقد شاءَ اللّهُ أنْ يكونَ هارونُ نبياً منذُ الأزَل، ولكنه شاءَ - سبحانه وتعالى - أنْ يبعثَه نبياً فعلاً بعدَ طلب موسى، فيكونُ طلبُ موسى سبباً في نبوةِ هارون، وموسى بذلك كان أَنفعَ أخٍ لأخيه.

عن عائشةَ رضي الله عنها أَنها خرجَتْ لأَداءِ العمرة، فنزلَتْ ببعضِ الأعراب. فسمعتْ رجلاً يسألُ آخر: أيُّ أخٍ كان في الدنيا أَنفعَ لأَخيه؟ فقال: لا أدري. فقال السائل: أَنا والله أَدري، إِنَّه موسى حين سألَ النبوةَ لأَخيه هارون.

وعلّقتْ عائشةُ رضي الله عنها قائلة: صدقَ والله[1].

بعدما سأَلَ موسى ربَّه ما سأل، وطلبَ منه ما طلب، أَخبرَه أَنَّهُ قد استجابَ له، وآتاه ما أَراد. قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦].

الله يذكر موسى بنعمه عليه لينشط في الدعوة:

وقبلَ أنْ يُغادرَ موسى عليه السلام ذلك المكانَ المبارك في تلك الليلةِ المباركة، ذَكَّرَهُ اللّهُ بنعمه عليه، ورعايتِه له في حياته، منذُ ولادته، حتى مجيئِه إلى هذه البقعة المباركة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٣.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤٣].

ذكَّرَ اللّهُ موسى برعايته له، وإنعامِه عليه، لينشطَ موسى في القيامِ بالواجب، ويتحمسَ في الدعوةِ إلى الله.

وأَخبره بأنه قد فَتَنَه فتوناً: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾. أي: ابتلاه بعدةِ ابتلاءات، وامتحنَه بعدةِ امتحانات، وأوقعه في عدةِ مِحَن، وحفظَهُ ورَعاه حتى تجاوزها.

وأَخبره بأَنه قد اصطنعَهُ لنفسه، واصطفاهُ لرسالته، واختارَه نبياً رسولاً، وجاءَ به على قَدَر، إلى هذا المكان المبارك، جاءَ به وأَراه النار، ليبعثَه نبياً رسولاً، ويكلفَه بالذهابِ هو وأَخوه إلى فرعون.

وهكذا انتهتْ تلكَ الدقائقُ المباركة في الوادي المقدس طوى، وغادرَ موسى عليه السلام المكان عائداً إلى أَهله الذين كانوا بانتظاره، لكنه عادَ لهم نبياً رسولاً، مكلَّفاً مع أَخيه بدعوةِ فرعون وقومه، ومزوَّداً بآياتٍ بينات، منها العصا واليد.

[٣]

موسى وهارون في طريقهما إلى فرعون

غادرَ موسى الوادي الأيمن «طُوى»، وعادَ إلى أَهله، الذين كانوا ينتظرونه، عادَ إليهم نبياً رسولاً، معه الهدى والنور، عادَ إليهم مكلَّفاً بالذهاب إلى فرعون، هو وأَخوه هارون، ليدعواه إلى الله، ومعه آياتٌ بينات، منها العصا واليد.

ووصلَ موسى عليه السلام بأَهله مصر، ودخلَ مقرَّ فرعون، وذهبَ إلى أَخيه هارون، وقصَّ عليه ما جرى له، منذُ أَنْ غادرَ مصر إلى أَنْ عادَ إليها، وأَعلمَهُ أَنَّ اللّهَ اختاره نبياً، ووزيراً مساعداً رِدْءاً له،

وأَنهما مكلفان بالذهاب إِلى فرعونَ ودعوتِه إِلى الله، ودعوةِ قومه معه أَيضاً.

عند المؤرخين فرعونان: فرعون الاضطهاد وفرعون الخروج:

ولا يهمُّنا تحديدُ اسمِ فرعون الذي ذهبَ إِليه موسى، وهل هو فرعونُ الذي وُلِدَ في عهدِه، ونشأَ في قصره، وهربَ منه لما قَتَلَ القبطي؟ أم هو فرعونٌ آخر، تولّى الحكمَ في غيبةِ موسى عشرَ سنواتٍ في مدين، بعدَ هلاكِ سلفه؟

قد يكونُ هو فرعونُ نفسه، امتدَّ به الحكمُ والعمرُ هذه السنينَ الطويلة، وبقيَ حاكماً على مصر منذُ ولادةِ موسى إِلى أَنْ عادَ إِليه نبياً، وكان هلاكُه غرقاً في البحر لما لحقَ ببني إسرائيل، وقد يكونُ فرعوناً آخر، حكمَ بعد الأوّل.

لا تتحدثُ آياتُ القرآن عن ذلك، وكلُّ ما تقررُه أَنه فرعون، ونحنُ نعلمُ أَنَّ «فرعونَ» لقبٌ يُطلقُ على مَنْ مَلَكَ مصرَ في تلك الفترة، وليس اسماً لملكٍ معيَّنٍ حَكَمَها. ولهذا لا تحددُ الآياتُ اسمَ فرعون، فهو من «مبهمات القرآن».

أمّا المؤرخون فيذهبون إلى أَنهما فرعونان، الأبُ والابن.

الأول: يسمّونه «فرعونَ الاضطهاد»، وهو الذي زادَ اضطهادُ بني إِسرائيل في عهده، من حيثُ تقتيلُ وتذبيحُ أبنائهم، واستحياءُ نسائهم، وهو الذي وُلِدَ موسى عليه السلام في عهده، وتربّى في قصره، ولما شبَّ قَتَلَ القبطي، ثم هربَ منه.

قالوا: فرعونُ الاضطهاد هو: «رمسيس» الثاني ـ وهو أشهرُ وأَقوى مَنْ حَكَمَ مصر. وحكمَ مصر سبعاً وستين سنة، من سنة ألف وثلاثمائة وواحدة (١٣٠١) قبلَ الميلاد، إِلى سنة ألف ومائتين وخمس وثلاثين (١٢٣٥) قبل الميلاد.

وماتَ رمسيسُ الثاني أَثناءَ إِقامةِ موسى في أرض مدين.

الثاني: يسمّونه «فرعون الخروج»، وهو «منبتاح» - أو منفتاح أو مفتاح - ابنُ رمسيس الثاني، وقد حكمَ بعدَ وفاةِ والده.

وهو الذي واجَهَه موسى وهارونُ عليهما السلام، وجرى بينهما وبينه ما جرى من أَحداث، وهو الذي لحقَ ببني إِسرائيل وخرجَ وراءهم - ولهذا سُمي «فرعون الخروج» - فأغرقَهُ اللّهُ في البحر.

وحكمَ مصرَ حوالي عشرَ سنوات قبلَ غرقه، ولما أَلقى اللّهُ جثتَه على شاطئ البحر، حَنَّطَ المصريون جثتَه، ودفنوه إِلى جانب أبيه.

هذا ما يقولُهُ المؤرخون عن الفرعونين: فرعون الاضطهاد رمسيس الثاني، وفرعون الخروج ابنه منبتاح[1].

ونحنُ نوردُ هذا من بابِ الإِخبار، وليس من بابِ الاعتماد والجزم، ونبقى على منهجِنا في التعامل مع أَحداثِ القصص القرآني، فلا نعتمدُ منها إِلاّ ما وردَ صريحاً في آياتِ القرآن، أَو صَحَّ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولهذا نُبقي اسمَ فرعون الذي واجَهَه موسى عليه السلام مبهماً، ولا نقولُ عنه إِلاّ أنه: فرعونُ الطاغيةُ المتجبرُ المفسد، الذي ادّعى الألوهيةَ والربوبية، وعَبَّدَ شعْبَه له، فجعلوه إلهاً ورباً.

موسى وهارون ذاكران لله:

وقبلَ أنْ يقومَ موسى وهارونُ بمقابلةِ فرعون ودعوته، طمأَنهما اللّهُ بأَنه معهما، وأَزالَ خوفَهما، ووجَّهَهما إِلى حسنِ مخاطبته، وإقامة الحجة عليه.

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا

(١) انظر كتابنا «البيان في إعجاز القرآن»: ٢٤١ - ٢٤٧.

رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٢ ـ ٤٦].

قالَ اللهُ لموسى: اذهبْ أنتَ وأَخوكَ هارون بآياتي ومعجزاتي، إلى فرعونَ الطاغيةِ المتألِّهِ المتجبر.

وحتى ينجحا في مهمتِهما أمامَ فرعون وملئه أَرشدَهما اللّهُ إلى الوسيلةِ التي يُحققان بها النجاح، وهي الاستمرارُ في ذكْرِ الله، والإكثار منه، ولهذا قال لهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾.

و«تَنِيا» فعلٌ مضارع مجزومٌ بحرف «لا» الناهية، وعلامةُ جزمِه حذف النون لأنه من الأفعالِ الخمسة، لأنَّ أصلَه «تَنِيان»، على وزن «تَفْعلان».

ولم يَرِدْ في القرآن في غيرِ هذا الموضع.

والماضي منه «وَنىٰ». وهو الفتورُ والتعبُ والضعف، يقال: وَنىٰ، يَني: أي: ضَعُفَ وفتر.

فمعنى قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾: لا تضعُفا عن ذكري، ولا تكسلا وتتوقفا عن ذكري، ولا تتعبا في ذكري..

قال الإمامُ ابنُ كثير في تفسير قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾:

قال ابن عباس: لا تُبْطِئا في ذكري.

وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تَضعُفا عن ذكري.

والمرادُ أَنهما لا يفتُران في ذكر الله. بل يذكران اللهَ في مواجهة فرعون، ليكونَ ذكْرُ اللهِ عوناً لهما عليه، وقوةً وسلطاناً لهما[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٩.

أهمية الإكثار من ذكر الله عند مواجهة الأعداء:

إنَّ الإكثارَ من ذكرِ اللّهِ توجيهٌ من الله لجنودِه وعباده، وبخاصةٍ عندما يواجهون أعداءَهم.

ووردَ هذا التوجيهُ في آياتٍ كثيرة في القرآن. منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وعندما يذكُرُ المؤمنُ ربَّه ذكراً كثيراً عند مواجهته لأعدائه، فإنَّ هذا يمدُّه بالكثيرِ من الإيمان والقوة، والصبرِ والشجاعة، والثبات والعزة، لأنه بذكرِ الله كثيراً يتذكَّرُ قوةَ الله وعظمتَه، فيستهينُ بالأعداءِ وقوتهم، ويتقوّى عليهم، ويعزمُ على مواجهتهم. وهذا كلُّه من أهمِّ عواملِ الثباتِ والانتصار.

وإنَّ موسى وهارون عليهما السلام مُقْدِمان على خطوةٍ خطيرة، حيث سيواجهان أعتى كافر، وفرعونُ يملكُ الكثيرَ من مظاهرِ القوة والبطش والطغيان، ولا يعينُهما في تحدّيه ومواجهتِه إلاّ اللّهُ القويُّ الجبار!!

لذلكَ أرشدَهما اللّهُ إلى الإكثارِ من ذكره، ونهاهما عن الضعفِ والونْيِ والفتور، فقال لهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾.

وهذا درسٌ لكلِّ مؤمنٍ يريدُ أنْ يقومَ بواجبه في عبادةِ الله، والدعوةِ إليه، ومواجهةِ أعدائه، فلا بدَّ أنْ يذكرَ اللّهَ ذكراً كثيراً، ولا يجوزُ أنْ ينيَ ويضعفَ ويفترَ عن ذلك.

أمرهما بالقول اللين لفرعون:

وبعدَ أنْ أرشدَ اللّهُ موسى وهارونَ إلى الإكثار من ذكره، ونهاهما عن الوني فيه، وجَّههما إلى حُسْنِ مخاطبةِ فرعون، ليحاولا الوصولَ إلى قلبه، واستحياءَ كوامنِ الخيرِ فيه، فقال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

قال الإمامُ ابن كثير: هذه الآيةُ فيها عبرةٌ عظيمة، ففرعونُ كان في غايةِ العُتُوِّ والاستكبار، وموسى هو صفوةُ اللّهِ من خلقه في ذلك الوقت. ومع هذا أَمَرَ اللّهُ موسى أنْ لا يخاطبَ فرعونَ إلاّ بالملاطفةِ واللين.

قال يزيدُ الرّقاشي يناجي ربَّه:

يا مَنْ يَتَحَبَّبُ إلى مَنْ يُعاديهِ   فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَولاّهُ ويُناديهِ؟

أي أنَّ اللهَ يتحبَّبُ إلى عدوِّه فرعون، ويطالبُ رسولَيْه موسى وهارونَ بمخاطبته بالقولِ اللين، رجاءَ أنْ يتخلّى عن كفره، ويؤمنَ بالله.

فإذا كان اللّهُ يفعلُ هذا بعدوِّه، فكيفَ يكونُ تحبُّبُه إلى أوليائه؟.

أما المرادُ بالقول اللين، فقد أوردَ فيه ابنُ كثير هذه الأقوال:

قال وَهْبُ بن مُنَبِّه: قُولا له: إنّي إلى العفوِ والمغفرة أقربُ مني إلى الغضب والعقوبة.

وقال عكرمة: قولا له: لا إله إلا الله.

وقال الحسن البصري: قولا له: إنَّ لك رباً، ولك معاداً، وإن بينَ يديك جنة وناراً.

وقال علي بن أبي طالب: عندما تخاطبانِه كَنِّياهُ بالكنية، ولا تخاطباهُ باسمه المجرد.

والحاصلُ من تلك الأقوال أنَّ دعوتَهما له تكونُ بكلامٍ رقيقٍ لينٍ سهلٍ رفيق، ليكون أوقعَ في النفوس وأبلغَ وأنجع. وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال في معنى قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: لعلَّهُ يَرجعُ عما هو فيه من الضَّلال والهلكة، أو يخشى اللّهَ فيطيعه.

فالتذكُّرُ الرجوعُ عن المحذور، والخشيةُ تحصيلُ الطاعة.

وأَوردَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ أَبياتاً شعريةً لطيفةً لزيد بن عمرو بن نفيل أو لأُميةَ بنِ أَبي الصلت، نوردُها لاتصالها بالموضوع:

وَأَنْتَ الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إِلى موسَى رَسولاً مُنادِيا
فَقُلْتَ لَهُ فَاذْهَبْ وَهارونَ فَادْعُوَا ... إِلى اللّهِ فِرْعَوْنَ الذي كانَ باغِيا
فَقولا لَهُ: هَلْ أَنتَ سَوَّيْتَ هذِهِ ... بِلا وَتَدٍ حَتّى اسْتَقَلَّتْ كَما هِيا
وَقُولاَ لَهُ: هَلْ أَنْتَ رَفَّعْتَ هذِهِ ... بِلاَ عَمَدٍ ارفُق إِذَنْ بِكَ بَانِيَا
وَقُولا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ وَسْطَها ... مُنيراً إِذا ما جَنَّهُ اللَّيْلُ هادِيا
وَقُولا لَهُ: مَنْ يُخرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً ... فَيُصْبِحُ ما مَسَّتْ مِنَ الأَرْضِ ضاحِيا
وَقُولا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ في الثرىٰ ... فَيُصْبِحُ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رابِيا
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ في رُؤوسِهِ ... فَفي ذاكَ آياتٌ لِمَنْ كانَ واعِيا[1]

مثال للقول اللين الذي يقوله لفرعون:

طلبَ اللّهُ من موسى وهارون عليهما السلام أَنْ يَقولا لفرعونَ قولاً ليناً، فقدْ يستمعُ فرعونُ لهذا القولِ اللين ويتفاعلُ معه، ويفتحُ له عقْلَه وقلْبَه، وبذلك يتذكَّرُ الحقائقَ والبدهيات، ويَعرفُ الحقَّ من الباطل، فيتخلّى عن ما هو عليه من كفرٍ وطغيان، ويؤمنُ بالله ويطيعُه ويخشاه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

وهذه الآيةُ كقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧ ـ ١٩].

وهذا مثالٌ للقولِ اللينِ الذي يجبُ أَنْ يُقالَ لفرعون. ولهذا قالَ لَهُ موسى عليه السلام: يا فرعون: هلْ لكَ إلى أَنْ تزكّى؟ ما رأيُك في أن تتزكّى وتتطهّر؟ وأَنْ تتخلّى عَمَّا أَنتَ فيه؟ وما رأيُكَ في أن تستمعَ وتستجيبَ لي، فإنني أريدُ أَنْ أَهديَك إلى ربك، وآخذَ بيدِك إلى الطريقِ التي يرضىٰ ربُّك عنها، فإنَّ لك رباً هو الله، ربُّك وربُّ العالمين، وهو

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٤٩ ـ ١٥٠ باختصار.

يريدُ منك أن تطيعه وتخشاه.

وخلاصةُ هذا القولِ اللين أنَّ موسى يُذَكِّرُ فرعونَ أَنه ليس رباً، فاللّهُ ربُّه، ويُذَكِّرهُ أَنه ليس متطهِّراً ولا متزكياً، وليسَ على طريقِ الرشادِ والهدى. ولذلك لا بدَّ أنْ يخشى اللهَ ربَّه، وأنْ يزكِّيَ نفسَه، وأنْ يتبعَ موسى ليهديه الطريق المستقيم.

لم يقلْ له هذه العباراتِ الصريحة، لكنه قالَ له عباراتٍ قريبةً تؤدّي معناها: هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى..

ليونة القول في الأسلوب وليس المضمون:

وهذا معناه أنَّ القولَ اللينَ هو في أُسلوبِ التعبير، وفي كيفيةِ القول، وفي نبرةِ الصوت، ليكونَ لينُ القول ورقتُه سبباً إِلى استماعِ فرعونَ له وتأثُّرِه به.

وليس القولُ اللينُ في ماهيةِ القول، ولا في مضمونِ العبارة، ولا في حقائقِ الفكرِ والتصور. فهذا المضمونُ لا يقبلُ الليونة، لأنَّ الليونة فيه تعني التحريفَ والتغييرَ والتبديل.

الليونةُ في المضمون أنْ يمدحَ موسى فرعون، وأنْ يصفَه بالخيرِ والحكمة والاستقامة، وأنْ يَرضى بما هو عليه من طغيانٍ وتجبُّرٍ وتألُّه، وأنْ يُداهنَه ويُرضيَه، وأنْ يكتمَ الحقَّ أمامه.. وحاشا لموسى أَنْ يفعلَ ذلك.

لقد كانت ليونةُ موسى أَمامَ فرعون في القول لا في المضمون، وفي كيفيةِ التعبير لا في ماهيتِه وحقيقته، وقد دعاهُ بالحكمة، كما سيمرُّ معنا في المباحثِ التالية.

ولما صَعَّدَ فرعون في كلامِه لموسى، وهاجَمَه بحدة، لم يسكتْ له موسى، بحجةِ الحكمة والقولِ اللين، بل ردَّ عليه بقوة! وقد سجَّلَ هذا قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ

مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٢].

قال لَه فرعون: أَنت يا موسى مسحور.

فرد عليه موسى قائلاً: أنتَ يا فرعونُ هالكٌ مثبور.

وهذا من الحكمةِ في خطابِ موسى له، وهذا لا يتعارضُ مع القولِ اللين الذي أُمِرَ أنْ يقولَه، فلكلٍّ مقامٍ مقال!!

والخلاصةُ أنَّ القولَ اللينَ هو في الأسلوب لا في المضمون، وفي كيفيةِ القولِ لا في ماهيته.

الله يزيل خوف موسى وهارون من فرعون:

ولما أَمرَ اللّهُ موسى وهارونَ بمواجهةِ فرعون بالقول اللين، أَعلنا خوفَهما من بطشِ فرعون، فطمأنهما الله. قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٤ ـ ١٥].

إنَّ موسى وهارونَ يعرفان بطْشَ فرعونَ وطغيانَه، ولهذا كانا يَخافانِ بغيَه وعدوانَه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾.

ومعنى: ﴿يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾: يتقدَّمُ إِلينا بالعقوبة، ويبادِرُنا بها.

قال عبدُ الرحمن بن زيد: ﴿يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾: يعجلُ بعقابنا.

وقال مجاهد: ﴿يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾: يبسطُ علينا العقاب(١).

وهذا معناه أنَّ فرعونَ عصبيٌّ نَزِق، وليس حليماً ولا متأنياً، وإذا سمعَ شيئاً لا يعجبُه ولا يتفقُ مع هواه، فإنه يسارعُ بالعقوبة، ويتعجَّلُ بالأمرِ بالقتل. وهذا منه طغيانٌ وعدوان.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٥٠.

وأزالَ اللّهُ خوفَهما بتقريرِ حقيقةٍ إيمانية: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، و﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

قال الإمامُ ابنُ كثير في تفسيرِ هذه الآية: «لا تخافا منه، فإنني معكما، أسمعُ كلامَكُما وكلامَه، وأَرى مكانكما ومكانَه، لا يخفى عَلَيَّ من أمركم شيء، واعْلَما أنَّ ناصيتَه بيدي، فلا يتكلمُ ولا يتنفسُ ولا يبطشُ إلاّ بإذني، وَبَعْدَ أَمري، وأَنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي»[1].

الله مع جنوده بحفظه ورعايته:

وإنَّ اللّهَ مع جنوده أَينما كانوا، معهم بعلمِه وسمعِه وبصرِه، فيعلمُ ما يفعلون، ويسمعُ ما يقولون، ويراهم وهم يسكنون أو يتحركون.

وعندما يواجه جنودُه الأعداءَ يكونُ اللّهُ معهم بعلمه وسمعه وبصره، كما يكون معهم بعنايتِه ورعايتِه، ومعهم بحفظِه وتأييدِه، ونصرِه وتثبيته، فيحميهم من بطشِ وطغيانِ أولئكِ الأعداء.

وهذه حقيقةٌ إِيمانيةٌ عقيدية، تؤثِّرُ في أَولياءِ الله تأثيراً إِيجابياً محركاً، وتُعطيهم مزيداً من القوةِ والشجاعة، والعزةِ والكرامة، والثباتِ والمواجهة، والجهادِ والمجاهدة.

فالمعيةُ التي ذَكَرَها اللّهُ لموسى وهارون عليهما السلام معيةُ علم وسمعٍ وبصر، ومعيةُ حفظٍ وعنايةٍ ورعاية، وليستْ معيةَ ذات، لأنَّ اللّهَ لا يشبهُ المخلوقين، فمعيتُه لا تشبهُ معيةَ المخلوقين!!.

آيات في بعثة موسى وهارون لكل من فرعون وملئه وقومه:

وقد نصَّتْ آياتُ القرآن على أنَّ موسى وهارونَ عليهما السلام بُعِثا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٥٠.

إلى فرعون. كما في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٣].

كما نصَّت الآياتُ على أنهما بُعِثا إلى فرعون وملئِه وقومِه. كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس: ٧٥].

وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٦].

ونصَّتْ آياتُ القرآنِ أَيضاً على أنَّ موسى بُعثَ إلى كلٍّ من فرعون وهامان وقارون. قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

ولا تَعارُضَ في الحقيقة بينَ هذه الآيات، فكلُّها تَنتهي إلى تقريرِ حقيقةٍ واحدة، وهي أنَّ موسى وهارون بُعِثا إلى فرعون، والبعثةُ إلى فرعون تتضمنُ البعثةَ إلى الملأ من قوم فرعون، وقيادةُ الملأ من قومِ فرعون تتمثلُ في هامان وقارون، ومَنْ بُعِثَ إلى فرعون وهامانَ وقارون، وباقي الملأِ من قوم فرعون، فقدْ بُعِثَ إلى قومِ فرعون، لأنَّ قومَ فرعونَ هم الرعيةُ الذين يَخضعون له، والشعبُ الذينَ تحت سلطانه وحكمه.

فموسى وهارون بُعِثا إلى قوم فرعون، وقيادةُ قوم فِرعون هي الملأ، ولذلك بُعِثا إلى الملأ، وقيادةُ الملأ كانت بيد هامان وقارون، ولذلك بُعِثا إلى هامان وقارون. ورأسُ السلطة في مصر هو فرعون، ولذلك بُعِثا في الدرجةِ الأُولى إلى فرعون.

ثلاثة أعمدة لحكم فرعون: هامان وقارون والسحرة:

ذَكَرَ القرآنُ اسمين من أَسماءِ الملأ الذين كانوا يحكمون قومَ فرعون باسم فرعون، وهما: هامان وقارون. فلماذا ذَكَرَ هذيْن الاسميْن دون غيرهما؟ وما الذي يُمَثِّلانه؟

لقد كانَ نظامُ فرعون وحكمُه يقوم على أَعمدةٍ ثلاثة:

١ ـالقيادةُ السياسيةُ والإدارية، وكان يمثِّلُها وزيرُه هامان.

٢ ـالقيادةُ الماليةُ والاقتصادية، وكان يمثِّلُها قارون.

٣ ـالقيادةُ الإعلاميةُ التأثيرية، وكان يمثِّلُها السحرة.

وهذه هي أعمدةُ كلِّ نظام جاهلي، لأنَّ كلَّ نظامٍ جاهلي في القديمِ والحديث يقومُ على القوةِ السياسية الإدارية، والقوةِ الاقتصاديةِ الماليةَ، والقوةِ الإعلامية التأثيرية!!

كان قارونُ من بني إسرائيل، ولكنه كان متحالِفاً مع فرعون، وكان أَغنى رجلٍ في مصر. وهذا ما وردَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

أَمّا هامانُ فيبدو أَنه كان الرجلَ الثاني في النظامِ المصري، ولهذا ذَكَرَ القرآنُ أَنَّ له جنوداً، هم جنودُ فرعون. قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨].

والشاهدُ فيه قوله: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾. فاعتبرَ جنودَ فرعون جُنوداً لهامان. واعتبرَ هامان من آلِ فرعون.

وكانَ فرعونُ يَطلبُ من هامان تنفيذَ ما يريد، وكان هامانُ يكلفُ مَنْ دونَه بالتنفيذ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ

﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص: ٣٨].

والخلاصةُ أنَّ اللَّهَ بعثَ موسى وهارون إلى قومِ فرعون، ويقودُ قومَ فرعون الملأُ من آله، وقيادةُ الملأ بيدِ هامان وقارون، وكانا من كبارِ نظام فرعون.

لكنَّ المواجهةَ كانت بين موسى وهارون وبين فرعون، حيثُ وجَّهَهُما اللَّهُ إلى فرعون نفسه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾.

أَمرهما اللَّهُ أنْ يُخاطبا فرعون ويَدْعواه إلى الله، وهو رأسُ الهرم وقائدُ الدولة، لأنه هو المتألِّهُ المتجبر، فإذا آمنَ بالله وتخلّى عن كفره، فإنَّ آله وملأَه وجنودَه وقومَه سيتبعونه.

وأَمرهما اللّهُ أنْ يُخبرا فرعون أَنهما نبيانِ رسولان، أَرسلهما اللّهُ إليه وإلى ملئه وقومه.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ..﴾ [طه: ٤٧].

وهي جملةٌ مختصرة، لكنها تحوي خلاصةَ الرسالة والدعوة، ففرعونُ ليسَ ربّاً، ولكنَّ اللَّهَ ربُّه وربُّ العالمين، وموسى وهارون رسولان، وعلى فرعونَ أنْ يؤمنَ بهما ويتبعَهما، ويدعوَ قومَه للإيمانِ بهما واتباعِهما أيضاً.

موسى وهارون رسول أو رسولان:

وورَدَ بهذا المعنى أَيضاً قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الشعراء: ١٦].

واللافتُ للنظرِ أنَّ نصَّ آيةِ سورةِ طه هو: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. بينما نصُّ آيةِ سورةِ الشعراء هو: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فوردتْ كلمةُ ﴿رَسُولَا﴾ في سورة طه مُثَنّى على الأصل، بينما وردَتْ كلمةُ ﴿رَسُولُ﴾ في سورة الشعراء مفردة!

إنّهما شخصان، فهما مُثَنى: «إنّا»، ومعنى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾: نحنُ رسولان من عندِ اللّهِ ربِّك.

وهنا توافقَ المبتدأُ والخبرُ في صيغة المثنى ـ وهما في سورة طه اسمُ إنَّ وخبرُها: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ـ وهذا هو الأصل.

أمّا في آيةِ سورة الشعراء فلم يتطابقْ اسمُ «إنّ» وخبرُها، حيث جاءَ اسمُ «إنّ» مثنى «إنّا»، بينما جاءَ خبرُها مفرداً: «رسول» وكان المتوقَّعُ أنْ يقولَ في سورة الشعراء: «إنّا رسولا رب العالمين» كما قال في سورة طه.

ويبدو أنَّ الحكمةَ من التفاوت في التعبير بين الموضعين: أَنه في سورةِ طه لاحظَ الشخص، وهما شَخْصان منفصلان، كلٌّ منهما نبي، ولهذا جاءَ الخبرُ مثنى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ..﴾.

بينما في سورةِ الشعراء لاحظَ الرسالة، ورسالةُ النبيَّيْن في حقيقتِها واحدة، فاللّهُ هو الذي أَرسلَهُما، وكلٌّ منهما يدعو إلى دينٍ واحد، ولهذا جاءَ الخبرُ مفرداً ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وملاحظةُ الرسالةِ وليس شخصها وصاحبها يتفقُ مع «شخصية» وموضوعِ سورةِ الشعراء، حيث عرضَتْ لنا دعواتِ ورسالاتِ مجموعةِ من الرسل، مثل موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، عليهم الصلاة والسلام، وكلُّ رسالاتِ هؤلاء الرسل الكرام في حقيقتها رسالةٌ واحدة.

بينما شخصيةُ وموضوعُ سورةِ طه التركيزُ على حياةِ موسى بالذاتِ عليه السلام، من الولادةِ إلى قُرب الوفاة، فهي تتحدثُ عن حياةِ وشخصِ صاحبِ الرسالة وحاملِها، ولهذا لاحظت الآيةُ شخصَيْ وذاتَيْ الرسولَيْن موسى وهارون، فقالت: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. واللّهُ تعالى أعلم.

وأَمَرَ اللّهُ موسى وهارون عليهما السلام أَنْ يطلبا من فرعونَ رفعَ

الاضطهادِ والعذاب عن بني إسرائيل، والسماحِ لهم بالخروج مع موسى وهارون من مصر.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٧ ـ ٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ١٧].

[٤]

المواجهة بين موسى وبين فرعون

نفَّذَ موسى وهارون عليهما السلام أَمْرَ اللّهِ لهما، وتوجَّها إلى فرعون، ليبلِّغاه الدعوة، ويُقيما عليه الحجة، وزالَ عنهما الخوفُ منه، بعد أنْ طمأَنهما اللّهُ بأَنّه معهما، يحفظُهما من بطش فرعونَ وآله، فلن يؤذوهما: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

ولم تُرهبهما قوةُ فرعون، لأَنّهما مزوَّدان بقوةِ الإيمان واليقين، ودخلا على فرعونَ بعزة، وخاطباه بجرأةٍ وشجاعةٍ وكرامة، وبلَّغاه ما أَمرهما اللّهُ بتبليغِه إياه.

وقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ١٧].

موسى أمام فرعون بعزة وشجاعة:

وجرى حوارٌ مفصَّلٌ بين فرعونَ وبين موسى عليه السلام، حوارٌ حولَ الإيمان والوحدانية، والأَدلةِ على وحدانية الله، وسجلتْ آياتُ القرآن بعضَ ما جرى بينهما.

بدأَ موسى مواجهتَه لفرعون بتقديمِ نفسه إليه، وتعريفِه بخلاصة

دعوته، وبخلاصةِ ما يريدُه منه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

خاطب موسى فرعونَ بعزةٍ وجرأة: ﴿يَـٰفِرْعَوْنُ ..﴾.

وقدَّمَ له نفسَه بصفةِ الرسالة: ﴿إِنِّى رَسُولٌ ..﴾.

وأَخبره أنَّ اللّهَ ربُّ العالمين هو الذي أرسله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وذكَرَ له حرصَه على قولِ الحق، وعدمَ كذبِه على الله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

ومعه البينةُ والحجةُ القاطعةُ من الله على صدقه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..﴾.

وهدفُه هو الخروجُ ببني إسرائيل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ..﴾.

لقد كان كلامُ موسى لفرعون مختصراً مفيداً، جمع فيه خلاصةَ رسالته، وأَعلَمَ فرعونَ أنه ليس إلهاً ولا رباً، فاللّهُ هو الإلهُ وحده، وهو وَحْدَهُ ربُّ العالمين، ومن ثم هو ربُّ فرعون وقومِه وإلههم.

إنَّ هذه الكلماتِ ردٌّ على فرعون في ادعاء الألوهيةِ والربوبية، وهي إِلغاءٌ لوجودِه القائمِ على الطغيان والإفساد.

وموسى هو رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، فما عليهم إلاّ أنْ يَتَّبعوه ويدخلوا في دينه، والحقُّ هو ما معه وما جاءهم به، لأنَّ الحقَّ هو ما جاءَ من عندِ الله، وقد زوَّدَهُ اللّهُ بالآياتِ البينات الدالةِ على صدقه.

لقد بدأَ موسى عليه السلام مع فرعونَ بالعقيدة، وهي نقطةُ البدء في كلِّ دعوةٍ صادقة، وما بعدها مبنيٌّ عليها.

ومعنى قولِ موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾: حريصٌ على أنْ لا أقولَ على الله إلا الحق. فعندما أَخبرتُكم أَني رسولٌ من الله كنتُ صادقاً، وعندما أَخبرتُكم أن ما معي هو الحق كنتُ كذلك صادقاً.

وبما أَنني رسولٌ من عند الله، فلا يجدُرُ بي إلاّ أنْ أقولَ الحق، ولا يليقُ بي إلاّ قولُ الحق، فأنا راغبٌ في ذلك، حريصٌ عليه.

و﴿حَقِيقٌ﴾ مشتقةٌ من ﴿ٱلْحَقَّ﴾، صيغةُ مبالغةٍ منه، على وزن «فعيل». ولهذا دلَّتْ على مبالغتِه في قولِ الحق.

ولم تَرِدْ ﴿حَقِيقٌ﴾ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

مفاجأة فرعون واستصغاره لموسى:

فوجِئَ فرعونُ بهذا الكلام الذي يسمعُه لأولِ مرة، وأدركَ ما فيه من خطورةٍ عليه، إنه ليسَ رباً ولا إلهاً إِذن، وهذا الرجلُ هو الرسول، فهو القائدُ للرعية، وهو يريدُ أنْ يَخرجَ ببني إسرائيل من مصر، ولهذا الخروجِ آثارٌ خطيرةٌ مدمرةٌ على مصر.

إذن فلْيرفضْ فرعونُ هذه الدعوة، التي تسلُبُه كلَّ مكاسبه المحرمة، وتفتحُ عيونَ رعيته على فساده، وتربطُهم مع الله ربه.

ونظرَ فرعونُ في الذي يحدِّثُه، واستذكَرَ ماضيَ موسى عليه السلام، وخاطبَه ممتنّاً عليه بتربيتهم له في صغره، وذكَّره بفعلتِه التي قَتَلَ فيها القبطي. وقال له: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ١٩].

لقد نظرَ فرعونُ إلى موسى عليه السلام نظرةَ احتقارٍ وازدراء، فلم يتعامَلْ معه باعتبارِه رسولاً معه الحق، وإنما نظرَ إليه باعتباره إِسرائيلياً من بني إِسرائيل، وقومُه أَذلاء مهانون، عبيدٌ للمصريين، فمن هو حتى يواجهَ فرعون هذه المواجهة؟ ويخاطبَه بهذه اللغة؟ ويَدْعوه إِلى أنْ يتبعَه

ويسيرَ معه؟ ويقول له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩].

لم يتعامَلْ فرعونُ مع الموضوع باعتباره فكراً ودعوة، ولم يُفَكِّرْ فيه تفكيراً منطقياً موضوعياً، وإنما حَوَّلَه إلى معركةٍ شخصية بينَه وبين موسى، ونظرَ إلى شخصيةِ موسى نظرةً فرعونيةً، قائمةٍ على التكبرِ والاستعلاء، فماذا يُساوي موسى في ميزان فرعون الجاهلي؟

فرعون يذكر موسى بماضيه ويمتن عليه:

ثم تذكَّرَ فرعونُ ماضي موسى، ونشأتَه في قصر فرعون، فهو ربيبُ نعمته، فكيفَ الآن يزعمُ أنه نبي؟. ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وتذكَّرَ بعد ذلك ما فعلَه موسى عندما قتلَ القبطي، وذكَّرَه بها قائلاً: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

إنَّ قَتْلَ موسى للقبطيِّ قبلَ عشر سنوات جريمةٌ عظمى عند فرعون وقومِه، ولهذا وصفَه فرعونُ بالكفر: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ولا يريدُ فرعونُ بالكفرِ معناه الديني الإيماني، لأنَّه لا يعرفُ هذا المعنى، فلا يعرفُ اللّهَ ليتهمَ موسى بأنه لما قتلَ القبطيَّ كانَ كافراً بالله.

وإنما أرادَ بالكفرِ الجحودَ ونكرانَ الجميل. أي: كنتَ من الجاحدين الذين جَحدوا نعمتَنا وكفروها، فقد أَحسنّا إليكَ لما ربّيناك في قصرِنا وأنتَ وليدٌ صغير، ثم اهتممنا بك سنواتٍ عديدة، حتى صرتَ شاباً، ولكنك قابلتَ إحسانَنا بالإساءة، وإنعامنا بالكفرانِ والجحود، فعدوْتَ على رجلٍ منا وقتلْتَه! أهكذا تُجازي إِحسانَنا؟ لقد كنتَ كافراً لنعمتِنا، جاحداً لفضلنا، عندما فعلْتَ فعلتَك، وارتكبتَ جريمتَك!!

و«فَعْلَة» في «فَعْلَتَك» بفتح الفاء، اسمُ مَرّة، والمرادُ بها قتلُ

موسى للقبطي. وهذه الحادثةُ لم تقعْ إلاّ مرةً واحدة.

لكنَّ فرعونَ لما قال لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ أرادَ تكبيرَ تلك الفعلةِ، والمبالغةَ في تبشيعِها، وتذكيرَ موسى بعِظَمِ جرمِها، ليشعرَ بالحرج والصَّغار.

معنى ضلال موسى في قتله للقبطي:

ولكنَّ موسى عليه السلام فَوَّتَ على فرعون قَصْدَهُ، وردَّ عليه بحكمة، وأجاب على سؤاله قائلاً: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢٢].

اعترفَ موسى عليه السلام بأنه قَتَل، وبأنه كانَ في ذلك الوقت ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والمرادُ بالضلالِ هنا الحالةُ التي كان عليها قبلَ الوحي، وهي حالةُ جهلٍ لعدمِ وجودِ أَحكام وتشريعات.

ولهذا قَالَ ابنُ عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: وأَنا من الجاهلين.

وقال ابن كثير: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: قبلَ أنْ يوحيَ اللّهُ إليّ، ويُنعمَ عليَّ بنعمةِ النبوة والرسالة.

وتابعَ موسى عليه السلام اعترافَه قائلاً: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾. أي: لما قتلْتُ الرجلَ خفتُ أنْ تَقتلوني، ففررتُ منكم قبلَ أنْ تدركوني وتُلقوا القبضَ عليّ، وذهبتُ إلى مدين، وأَقمتُ هناك عشر سنين.

وبعدَ ذلك: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ حيث آتانيَ اللّهُ العلمَ والحكمة، ومَنَّ عليَّ بالنبوة والرسالة، وجعلني رسولاً نبياً، وبَعثَني إليكَ يا فرعون، فإنْ أطعْتَني وأسلمْتَ ربحتَ وفزت، وإنْ

رفضتَ وكَفَرْتَ خسرتَ وخبت.

وكأنَّه يقولُ لفرعون: لا تبحثْ في ماضِيّ، ولا يمنعُك التفكيرُ فيه في الاستفادةِ مما معي من خير، ولا يَضيرُني أنكم ربيتموني وأنا صغير، ولا يُؤثر فيَّ قتلي للقبطي خطأ، فالمهمُّ أنْ تعرفَ رسالتي ودعوتي، وأنْ تفكرَ فيها، وأنْ تقبلَها وتتبعَها.

فرعون عبّد لنفسه بني إسرائيل:

ثم قال له: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟.

أي: لقد عَبَّدْتَ بني إسرائيل لك، وجعلْتَهم مستعْبَدين أذلاء مضطهدين، وسُمْتَهم سوءَ العذاب، وذبَّحْتَ أبناءهم واستحييتَ نساءهم، وأفسدتَ حياتَهم وظلمتهم، وهذه خسارةٌ كبيرة وقعَتْ بقومي بني إسرائيل، فكيفَ تمنُّ عليَّ بعدَ ذلك بأنكم ربيتموني عندكم؟

قال ابن كثير في معنى هذه الآية: ما أَحسنْتَ إليَّ وربّيتَني مقابلَ ما أَسأْتَ إلى بني إسرائيل، فجعلْتَهم عبيداً وخدماً، تُصرفُهم في أعمالك ومشاقّ رعيتك، أَفَيَفي إِحسانُك إلى رجلٍ واحدٍ منهم بما أَسأْتَ إلى مجموعهم؟ لا يساوي ما فعلته معي ما فعلْتَه بهم![(١)].

ويدلُّ قولُ موسى لفرعونَ معترِضاً عليه: ﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَنه كان يُعَبِّدُ بني إِسرائيلَ له، ويجعلُهم خاضعين له، وكأنه جعلَ نفسَه رباً لهم، وجعلَهم عبيداً له.

وهذا دليلٌ على أنَّ فرعونَ كان يَدَّعي الألوهيةَ والربوبية، ويعتبرُ نفسه إِلهاً ورباً لرعيته، ويَدعوهم إِلى أنْ يَعبدوه ويُؤلهوه، ويُعَبِّدَهم له.

وفعْلُ «عَبَّدَ» الرباعي لم يَرِدْ في القرآنِ في غير هذا الموضع.

إنَّ موسى يعلمُ أَنه لا يجوزُ أن يكونَ الناسُ عبيداً لغيرِ الله، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يُعَبِّدَهم ويُخضعهم له من دون الله، وكلُّ مَنْ عَبَّدَ الناسَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٢١.

له فقد اعتدى على حقِّ الله في الألوهية والربوبية، ولذلك أنكرَ على فرعونَ تعبيدَ واستعبادَ بني إسرائيل له.

وما فعلَهُ فرعونُ من تعبيدِ بني إسرائيل له، هو ما يفعلُه كلُّ طاغيةٍ ظالم، حيث يَعتدي على حقِّ اللّهِ في الألوهيةِ والربوبية والتشريعِ والحاكمية، ويُعَبِّدُ رعيتَه له بدلَ تعبيدِهم للّهِ ربِّ العالمين.

موسى يجيب على أسئلة فرعون ويعرفه على فعل الله:

وبعدما ردَّ موسى على فرعون استصغارَهُ له، وأنكرَ عليه تعبيدَ بني إسرائيل له، وبعدَما سمعَ فرعونُ كلامَ موسى عن أنه رسولٌ من الله رب العالمين، سأله عن ربه.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٥].

ورغم أنَّ موسى وهارون كانا أمامَ فرعون إلاّ أنه وجَّهَ السؤالَ إلى موسى: قال فمن ربكما يا موسى؟

وتولّى موسى جوابَه فقال: ربُّنا هو اللّهُ الخالقُ العليم القدير الحكيم، خلقَ كلَّ المخلوقاتِ الحية، وهدى كلَّ مخلوقٍ منها إلى حياته، وأَرشدَه إلى حسنِ التصرف فيما حولَه، وألهمه كيفيةَ تلبيةِ حاجاته، سواء كان هذا المخلوقُ إنساناً أو حيواناً أو طيراً أو حشرة أو سمكة..

فكلُّ هذه المخلوقات هداها اللّهُ إلى وظيفتها هدايةً بالفطرة، فهي تعرفُ ما تُريد، وتعرفُ كيفيةَ الحصول على ما تريد، وتعرفُ اللّهَ خالقَها، وتؤمنُ به وتسبحُه.

الأدلة الكونية على وحدانية الله:

وسأَلَ فرعونُ موسى سؤالاً آخرَ عن السابقين: قال: فما بالُ القرونِ الأُولى؟

أي: ماذا فعلَ اللّهُ بالسابقين الذين كانوا قبلَنا؟ فمنهم مَنْ آمنَ باللّهِ ربِّك يا موسى، ومنهم مَنْ كفرَ به.

أجابَهُ موسى عليه السلام قائلاً: علمُ تلك القرونِ عندَ ربي في كتاب، فاللّهُ هو الذي أَنهى أعمارهم، وسجَّلَ في كتابٍ عندَه أعمالَهم، وسيجزيهم عليها بحسبها، فيجزي المحسنَ بإحسانه، ويعاقبَ المسيءَ بإساءته.

واللّهُ ربّي عالمٌ بكلِّ شيء، لا يضلُّ عنه شيء من أَعمالِ القرون الأولى، ولا يَخفى عليه شيءٌ منها، ولا ينسى شيئاً من تلك الأَعمالِ أيضاً.

وإذا كان هذا فعلُه وعلمُه بالقرونِ الأُولى، فهذا هو علمُه وفعلُه بكم أنتم أيضاً، فهو مطلعٌ على كلِّ أعمالكم يا فرعون، وهو يسجلُها ويُحصيها، ولا يُضَيِّعُ ولا ينسى شيئاً منها، وسيحاسبُكم عليها، فليس أمامكم إلاّ الإيمانُ به وطاعتُه.

وتابع موسى في التعريفِ على أَفعالِ الله في الوجود، وعرْضِ الأدلةِ الدالةِ على وحدانيته، فقالَ لفرعون: اللّهُ ربي وربكم هو الذي مَهَّدَ لكم الأرضَ وهيَّأَها، وجعلها صالحةً لسكناكم عليها، وهو وحده الذي جعلَ لكم فيها سبلاً وطرقاً تسيرون فيها، وهو وحده الذي ينزلُ المطرَ من السماء، فيحيي به الأرض، ويُخرجُ به مختلفَ أَصنافِ وأزواجِ النبات، الصالح منه لكم تأكلونه، والصالحِ لأنعامكم ترعاه وتأكله.

وأَخبرَ فرعونَ أنَّ في تدبرِ أَفعالِ الله في الوجود، من الماءِ والنباتِ والمخلوقات، آياتٍ وبراهينَ لأُولي النهى وأَصحابِ العقول

السليمة والأَفهامِ المستقيمة، تقوّي إيمانَهم بالله، وتُعرفُهم على وحدانيته.

ولا يلتفت لها إلا أولو النهى والتعريض بفرعون وملئه:

وفي هذا القول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ تعريضٌ من موسى بفرعونَ وقومِه، وذمٌّ لهم، وإخبارُهم بأنهم ليسوا من أُولي النهى، لأنهم لم يلتفتوا إلى هذه الآياتِ الكونية الدالةِ على الوحدانية، ولم يتدبَّروها، فأين عقولُهم وقلوبُهم عنها؟

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أَن «أولي النهى» لم تَرِدْ في القرآن إلاّ في موضعيْن، والموضعان في سورةِ طه، والموضعانِ في الثناء على المؤمنين أُولي النهى أصحابِ العقول المستقيمة، الذين يلتفتون إِلى آياتِ الله ويَعونَها.

الأول: في الثناءِ على أُولي النهى الذين يلتفتونَ إِلى آياتِ الله الكونية: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

والثاني: في الثناءِ على أُولي النهى الذين يَتَّعظون ويَعتبرون من مصارعِ الكفار السابقين: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨].

وجاءَ التعقيبُ على تعريفِ موسى على الوحدانية وإجابتِه الموجزة على أَسئلةِ فرعون بقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

والضميرُ يعودُ على الأرض. أي: خلقَ اللّهُ الناسَ من الأرض، وبعدما تَنتهي أَعمارُهم يُعيدُهم في الأرض فَيُدفَنون فيها، وعند قيامِ الساعة يُخرجهم منها ويَبعثُهم ليحاسبَهم على أعمالِهم.

وهذا إشارةٌ إِلى انتهاءِ أَعمارِ البشر، وإِلى موتهم، وإِلى بعثهم يوم القيامة.

التوفيق بين سورة طه وسورة الشعراء في الحوار بين موسى وفرعون:

لقد ذكرتْ سورةُ طه موجزاً لأولِ حوارٍ بين موسى وبين فرعون حول الألوهيةِ والأدلةِ على الوحدانية، أما سورةُ الشعراء فقد فصَّلَتْ قليلاً في هذا الحوار، وفي أسئلةِ فرعون وإجاباتِ موسى عليها.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٣٣].

وسننظرُ في هذه الآيات وما تضمنَتْه من حوارٍ نظرةً مجملةً بعون الله.

لدى المقارنةِ بين موضوعِ آياتِ سورة طه السابقة، وموضوع هذه الآياتِ من سورة الشعراء، نرى «تصعيداً» من فرعونَ في حوارِه مع موسى عليه السلام، ونرى ارتفاعاً وحدةً في لهجةِ فرعون وهو يحاورُه.

ففي سورةِ طه طرحَ فرعونُ سؤالين بطريقةٍ هادئة. حيثُ قال: فمن ربُّكما يا موسى؟ وبعدما سمعَ جوابَ موسى أتبعه بسؤالٍ آخر فقال: فما بالُ القرون الأولى؟ فتوسَّعَ موسى قليلاً في جوابه.

أما في سورةِ الشعراء فقد كان فرعونُ محتداً في كلامِه وحوارِه مع موسى عليه السلام.

كما نرى أنَّ الحوارَ الذي سجلَتْه آياتُ سورةِ طه كان في جلسةٍ خاصة حضرَها موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون، وتوحي الآياتُ أنه لم يكن معهم أحَد. ولهذا كان كلامُ فرعون هادئاً في

الظاهر، لأنه كان يريدُ أنْ يتعرفَ على موسى ودعوتِه ورسالته ومهمته، فكان جاداً في البحث، راغباً في المعرفة، لا ليؤمنَ ويهتدي ولكن ليكَوِّنَ صورةً متكاملة عن موسى، ليعرفَ كيف يواجهُه ويحاربُه.

ويبدو أَنه كَوَّنَ صورةً متكاملةً عن موسى عليه السلام، وَتَعَرَّفَ على حقيقةِ دعوته وأَبعادِ رسالته، في ذلك اللقاءِ الخاصِّ الذي أعده له.

آيات سورة الشعراء تتحدث عن اجتماع موسع بين موسى وفرعون:

أَما آياتُ سورةِ الشعراء فإنها توحي بأَنَّ الحوارَ بينَه وبين موسى كان في جلسةٍ موسَّعة، حضرَها الملأُ من قومه، والملأُ هم كبار رجالِ دولته، الذين يتولَّون حكمَ الدولة باسمه.

ويبدو أنَّ فرعونَ حرصَ على أنْ يحاورَ موسى أَمامَ الملأ من قومه، ليُعَرِّفَهم على موسى ودعوته، ويضعَ أَيديهم على مدى خطورتها عليهم، وذلك ليُهيجَهم عليه، ويُنَشِّطَهم في حربه.

ولذلك «صَعَّدَ» فرعونُ في حوارِه مع موسى، وعلَتْ نبرتُه، وارتفعتْ حدةُ كلامه، وتخلّى عن هدوئِه الظاهريِّ المصطنع الذي ظهرَ في حواره الأول، كما سجلَتْه آياتُ سورة طه، ولجأَ إلى أُسلوبِ البطش والتهديد والوعيد.

والملاحَظُ أنَّ موسى عليه السلام بقي متمتعاً بهدوئِه في ذلك الحوارِ الثاني الموسع، كما بقي محافظاً على الموضوعيةِ الحكيمة في الحوارِ والجواب والكلام، ولم يُخرجْهُ تهديدُ فرعون عن موضوعيته وحكمته، كما أَنه لم يُضعفْه أَمامه، فلم يَخَفْه، ولم يَخْشَ تهديدَه، وبقيَ يواجههُ بعزةٍ وشجاعة وجرأة.

توحي آياتُ سورةِ الشعراء السابقة أنَّ فرعون دعا الملأَ من قومه إلى جلسةٍ خاصة، وكانَ من كبارِ الحضور قارون وهامان، وذلك ليسمعوا ما سيقولُ لموسى وما سيقولُ موسى له.

ولما بدأ الاجتماع، طرحَ فرعونُ على موسى سؤالَه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولا ننسى أنَّ فرعونَ كان ينكرُ وجودَ الله عناداً واستكباراً، وكان يَدَّعي الأُلوهيةَ والربوبية، ويقول لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وكان يُعَبِّدُ قومَه له.

الفرق بين ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ و﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

وفاجأهُ موسى عليه السلام في لقائِه السابقِ به بأنَّ اللّهَ هو ربُّ العالمين، وهو الذي بعثَه رسولاً إليهم، وقد سأله عن ربِّه في اللقاءِ السابق، فعرَّفَه موسى على بعضِ أفعال الله في الوجود، وبعضِ آياتِه الدالة على وحدانيته.

والآن في هذا اللقاءِ الموسَّعِ يسألُ فرعون: ما ربُّ العالمين؟ وسؤالُه ليس سؤالَ الباحث عن الحقيقة، الراغبِ في المعرفة، ولكنه سؤالُ المستنكرِ المستغرب، الذي يريدُ أنْ يَبنيَ عليه التهديدَ والوعيد، ويثيرَ عليه الآخرين بالتهييج.

ونلاحظُ أنه طرحَ سؤالَه بصيغة «ما» الدالةِ على غيرِ العاقل: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يسألْ بصيغةِ «مَنْ» المستعملة في العاقل.

كما نلاحظُ اختلافَ صيغةِ هذا السؤال، عن صيغةِ السؤالِ السابق في اللقاء الأول.

فهناك كان السؤالُ بلفظ «مَنْ»، وهو الذي وردَ في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟. وجاءَ جوابُ موسى عليه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وهنا كان السؤالُ بلفظِ «ما»: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

كان فرعونُ في اللقاءِ الأول يريدُ أنْ يتعرفَ على الله، لا ليؤمنَ به، لكن ليعرفَ فكرَ وعقيدةَ موسى. وكأنَّه يقولُ لموسى: مَنْ ربكما؟

ما فِعْلُه؟ فقال له موسى: ربُّنا الخالق، فهو الذي خلَقَ كلَّ شيء، وهداه إلى حياته.

وهنا يقول له: ما رب العالمين؟ أي: أَيُّ شيء ربُّك؟ وما هذا الكلامُ الذي تقوله؟ وما هذا الذي تدعو إِليه؟ وما هذه الربوبيةُ التي تتحدثُ عنها.

وكأنَّ سؤالَ فرعون عن الفكرةِ والمبدأ، ولهذا جاءَ بلفظ «ما». وهناك سألَ عن الله، ولهذا جاءَ بلفظ «مَنْ».

موسى يوجه كلامه للملأ الحاضرين:

سمعَ الملأُ المجتمعون سؤالَ فرعون، وانتظروا ليَسمعوا جوابَ موسى. فأجاب قائلاً: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

لقد كانَ موسى عليه السلام حكيماً في جوابه، فهو لم يُوجِّهْهُ إِلى فرعون السائل، وإِنما وجَّهه إِلى الملأ الحاضرين، وخاطبهم بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. وذلك ليُشرِكَهم في الحوار، وليلمسَ قلوبَهم، ويفتحَ آذانَهم، ليعلموا أَنهم المقصودون بالكلام والخطاب، فيفكِّرون في ما يَسمعون!

وبهذا نقلَ موسى الحكيمُ الداعيةُ عليه السلام المسألةَ من حوارٍ ثنائيٍّ بينَه وبين فرعون، إِلى ندوةٍ عامة بينَه وبين الملأِ أَجمعين!

وكانَ جوابُه أَنَّ اللَّهَ الواحدَ هو ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما، فالسمواتُ والأرضُ وما بينَهما لِلّه، ولا يَدَّعي أَحدٌ أنه ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما. حتى فرعونُ نفسُه لا يَدَّعي ذلك، فكلُّ ما ادَّعاهُ فرعونُ أنه ربٌّ لقومه، وقومُه جزءٌ من البشر، والبشرُ جزءٌ من العالمين، والعالمون جزءٌ من السمواتِ والأرض!!.

ولهذا ربطَ موسى في جوابه الحكيم بيْن الكُلِّيِّ المتمثلِ في السموات والأرض، والجزئيِّ المتمثلِ في رعيةِ فرعون، وقال للملأ:

ربكم أيها القومُ هو الله، وليس فرعون، لأنَّ اللّهَ هو ربُّ العالمين، وربُّ السموات والأرض وما بينهما، فهلْ فرعونُ ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما؟ بالطبع لم يزعمْ فرعونُ ذلك!

ولمس موسى الحكيمُ قلوبَ الملأ لمسةً خفيفة، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. أي أن هذه مسألةٌ بدهية، لا تحتاجُ إلا إلى يقين، فلا يَدَّعي مخلوقٌ أنه ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما، مهما بلغَ من الكفر والاستكبار، فكيفَ تتناقَضون مع أنفسكم، فتوقنون أنَّ ربَّ السموات والأرض هو الله، وربكم أنتم هو فرعون؟؟

فرعون يدعو الملأ إلى الاستغراب من كلام موسى:

ولاحظَ فرعونُ بدهائه أنَّ جوابَ موسى الموضوعيَّ الحكيمِ يهزُّ عرشَه، ويُلغي ربوبيتَه لقومه، فتركَ موسى، ووجَّهَ كلامَه للملأ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟.

لقد نجحَ موسى الحكيمُ عليه السلام في استدراجِ فِرعون، وفي تحويلِ الموضوعِ من حوارٍ ثنائي إلى حوارٍ عامٍّ مفتوح، فها هو فرعونُ يوجِّهُ كلامَه للملَأ من حوله، وها هم الملأُ يستمعونَ للحوارِ بين فرعون وبين موسى، وهم يعلمونَ أنهم مقصودون بذلك.

وقولُ فرعونَ لمن حولَه: ألا تستمعون؟ من بابِ الاستغرابِ والاستهجان، يَدعوهم إلى أن يستهجنوا ما يسمعونَ من موسى عليه السلام، لأنه يتكلمُ عن ربٍّ آخرَ غيرِ فرعون، وهم يؤمنون أنَّ فرعونَ وحده ربُّهم!!

فأهملَ موسى فرعونَ واستغرابَه، ووجَّه كلامَه إلى الملأ، وقدَّمَ لهم تعريفاً آخر على أنَّ اللّهَ وحده هو الرب، فقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فنقلَ موضوعَ الربوبية من بُعْدِها الكونيِّ الواسع إِلى بُعْدِها الإنساني، وبَنى على كونِ اللّهِ وحده ربُّ السموات والأرض وما

بينهما، كونَ الله وحده ربَّ الناس، على اختلافِ زمانِ ومكانِ وجودهم. فربُّ الكونِ هو ربُّ الناس.

وصارحَ موسى الملأَ حولَ فرعون بأنَّ ربَّهم هو الله، وليس فرعون كما يَدَّعي. وإذا كان فرعونُ لا يَدَّعي أنه ربُّ آبائهم الأولين فكيفَ يَدَّعي أنه ربُّهم هم؟ إنَّ ربَّ آبائهم الأولين هو ربُّهم!!

فرعون ينهزم أمام موسى ويتهمه بالجنون:

وأحسَّ فرعونُ بقوةِ وحكمةِ منطق موسى عليه السلام، ولم يستطعْ أنْ يُجاريَه في نفسِ المنطقِ والأسلوبِ العلمي الموضوعي، لأنه لا يقدرُ على هذا المنطق، ولا يملكُ حجةً يخاطبُ بها قومَه، ولهذا انتقلَ إلى أسلوب السَّبِّ والشتم، فشتمَ موسى بأنه مجنون، ووجَّه كلامَه للملأ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ۝٢٧﴾.

موسى رسولُهم مجنون! هل الكلامُ الذي قالَه كلامُ مجنون؟ وهل الأدلةُ التي عرضَها يمكنُ أنْ يعرضَها مجنون؟ وهل موسى مجنونٌ لأنه رفضَ الاعترافَ بربوبيةِ فرعون لقومه؟ ولأنه خرجَ على ما عليه فرعونُ وقومُه؟

هذا هو منطقُ فرعون المستكبرِ المتجبِّر، إنه ينقلُ القضيةَ من ميدانِها الفكريِّ الواسع، إلى ميدانٍ شخصيٍّ ضيق، لقد تركَ فرعونُ نقضَ أدلةِ موسى، وتحوَّلَ للكلامِ على شخصيةِ وعقليةِ موسى.

وانتقالُ فرعون هذا دليلٌ على هزيمتِه أمامَ موسى، وعدمِ وقوف كلامِه أَمامَ قوةِ حجةِ موسى، وبما أَنه عجزَ عن دفعِ حجةِ موسى الفكرية، فليقمْ بتشويهِ شخصيةِ موسى.

وما أَقدمَ عليه فرعونُ أمامَ موسى هو نفسُ ما يُقدمُ عليه كلُّ حاكمٍ طاغيةٍ مستبدّ، فعندما يعجزُ الطاغيةُ عن نقضِ حجج أصحابِ الحقّ، ولا يستطيعُ دفعَ الحجةِ بالحجة، فإنه يلجأُ إلى سبٍّ وشتمِ واتهامِ أَصحابِ الحق!

ترفع موسى عن الشتم وخطابه للملأ وتجاهله لفرعون:

ومن حكمةِ موسى في هذه المواجهة مع فرعون أَمامَ الملأ أنه لم ينزلْ إِلى مستوى فرعون الهابط، ولم يَرُدَّ على الاتهام باتهامٍ مقابل، ولم يدفعْ عن نفسِه تهمةَ الجنون، فليست المعركةُ شخصيةً بينه وبين فرعون، وليس الموضوعُ عقلَ موسى أو جنونَه، إنما الموضوعُ الربوبية، مَنْ ربُّهم، اللّهُ أم فرعون؟ ومَنْ ربُّ العالمين، اللّهُ أمْ فرعون؟

إنَّ فرعونَ يريدُ أنْ يصرفَ سيرَ المواجهة مع موسى عن هذا الخطِّ الأصيل، إِلى موضوعٍ هامشيٍّ تافه، يقومُ على الملاسنةِ والسبابِ والشتم بين شخصيْن، وموسى يدركُ هذه اللعبةَ الفرعونية، فلم يستجبْ له فيها، وأَبقى المسألةَ في إِطارها الصحيح.

ولهذا وجَّهَ كلامَه للملأ قائلاً: ربُّكم هو ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

يقولُ لهم: أيها القوم ليس ربُّكم هو فرعون، ولكنه ربُّ مشرق الكون ومغربه، وربُّ ما بين المشرق والمغرب.

لقد عرضَ موسى عليه السلام مسألةَ ربوبيةِ اللّهِ ربِّ العالمين في أَبعادٍ ثلاثة، وفرعونُ لا يَدَّعي ربوبيتَهُ لأيِّ بُعْدٍ منها:

الأول: المجالُ الكونيُّ الواسع، المتمثلُ في السموات والأرض وما بينهما: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾.

الثاني: المجالُ الإنسانيُّ التاريخي، المتمثلُ في الوجودِ الإنساني على الأرض: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

الثالث: المجالُ الأرضيُّ الواسع، المتمثلُ في المشرق والمغرب على وجه الأرض: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾.

وبهذا ضيَّقَ الأمْرَ على فرعون، ولم يعدْ له حجةٌ أو دليلٌ على أنه ربٌّ لقومه، اللهمَّ إلاّ منطقُ الطغيان والاستكبار.

تعريض موسى بفرعون وملئه في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

ومن حكمةِ موسى أنه خاطبَ الملأ قائلاً: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. حيث لمسَ عقولَهم لمسة، وخاطبهم بهذا الدليل الدال على وحدةِ الربوبية، ودَعاهم إِلى إِعمالِ عقولهم، والتفكيرِ في ما أَمامهم من أَدلةِ وآيات.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ردٌّ على اتهامِ فرعون له بأنه مجنون، وهو اتهامٌ ضمنيٌّ من موسى لفرعونَ وقومِه في عقولهم.

وكأنَّه يقولُ لهم: مَنِ المجنون؟ أَهو الذي يؤمنُ أنَّ اللّهَ وحده هو ربُّ العالمين، هو ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما، أم ذلك الذي يؤمنُ أنّ ربَّه مخلوقٌ ضعيفٌ مثله، لا يملكُ السموات والأرض وما بينهما، ولا يملك المشرق والمغرب وما بينهما؟

كأَنه يقولُ لَهم: إن كنتم تعتقدون أنَّ فرعونَ ربٌّ لكم فأنتم المجانين، ففكِّروا وأَعْمِلوا عقولَكم لتعرفوا الحقيقة.

لم يصمدْ فرعونُ أمامَ منطقِ موسى الموضوعي، وأَدلتِه المقنعة، ولم يستمرّ فرعونُ في التظاهرِ بالموضوعية والأَناةِ وسَعةِ الصدر، فقد تظاهَرَ بذلك حتى الآن، وقَدَّمَ نفسَه لمن حوله على أنه حليمٌ موضوعيٌّ واسعُ الصدر، يستمع الرأيَ الآخرَ المخالف، ولا يضيقُ به، أو قل قدَّمَ نفسَه أَمامهم على أَنه «ديمقراطي» ـ بالمفهوم المعاصر ـ.

هزيمة فرعون وتهديده لموسى بالسجن:

لم يستمرّ بذلك لأنه ضاقَ ذرعاً بعلميةِ ومنهجيةِ موسى في أدلته وكلامه، ولهذا ظهرَ فرعونُ على صورته الحقيقية، صورةِ الطاغيةِ المستبد، فهدَّدَ موسى تهديداً واضحاً صريحاً: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

فرعونُ هو الربُّ لقومه، وهو الإلهُ لقومه، ولا يسمحُ لأيِّ إِنسانٍ أنْ يخالفَ ذلك أو يتخلّى عنه، مهما ملكَ من أدلةٍ وحجج.

ولذلك دعا فرعونُ موسى إِلى التخلي عن قناعتِه ويقينه، ومخالفةِ أَدلته وبراهينه، وعدمِ الاعتقادِ بأن اللّهَ هو ربُّه وإِلهُه، والإيمانِ بأنَّ إلهه وربَّه هو فرعون، وهدَّدَه بأنه إنْ لم يفعلْ ذلك فسوف يضعُه في السجن.

وهذا هو الأسلوبُ الذي يتقنُه فرعون الطاغية، أسلوبُ التهديدِ والوعيد، أسلوبُ البطشِ والتعذيب، البطشِ بالمخالف وتعذيبه، ولو كان الحقُّ معه! وهذا هو نفسُه الأسلوبُ الذي يتقنُه الطغاة في كلِّ زمان ومكان، فعندما ينهزمون في المواجهةِ الفكرية، وتتلاشى مزاعمُهم أَمامَ منطقِ الحقِّ الواضح، فإنهم يستخدمون سلاحَ البطشِ والعدوان، والسجن والتعذيب.

ثم هم لا يسمحونَ لمن يخالفونَهم بالحريةِ أو الحركة، فمكانهم ليس الحياة مع الناس، وإنما مكانُهم في أقبيةِ السجون وظلامِ الزنازين. وإِلا فلماذا يضعُ فرعونُ موسى في السجن إنْ أصرَّ على مخالفتِه؟ ولماذا لا يَدَعُه يعيشُ بين الناس؟ ولْيَدْعُ إلى دينه إنْ شاء! ولْيسمع الناسُ حجتَه وحجةَ فرعون، ثم يتبعونَ الحجةَ الصحيحة! وإذا كان فرعونُ على حق فلماذا يخشى حجةَ موسى؟

إنَّ هذا أمرٌ لا يقبله فرعونُ الطاغية، ولا يقبلُه أيُّ طاغية، حتى لو زعمَ الموضوعيةَ وسَعةَ الصدر وقَبولَ المخالف و«الديمقراطية» ولذلكَ هددَ موسى بوضعه في السجن!!

ولكنَّ تهديدَ فرعون لم يُثْنِ موسى عن إِيمانه ودعوتِه، ولم يقذف الخوفَ في قلبه، فقد كان يوقنُ أَنَّ الله معه، يسمعُ ويرى، معه يحفظُه ويَحميه، ولهذا بقي ثابتاً على الحقِّ رغمَ التهديد والوعيد.

موسى يقدم الآيتين: العصا واليد:

كذلك لم يُخرجْه تهديدُ فرعون عن هدوئِه وحكمته وموضوعيته، ولهذا ردَّ على تهديدِه ونَزَقِه وغلظتِه قائلاً: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾؟.

يعني: سوفَ تضعُني في السجن لأَني اتخذتُ ربَّ العالمين إلهاً، حتى لو قدمتُ لك برهاناً مبيناً على ذلك؟

وأَرادَ موسى بكلامِه هذا أنْ يُحرجَ فرعون ويُفحمَه، أَمامَ الملأ الذين حولَه، فإمّا أنْ يرفضَ فرعونُ السماحَ لموسى عرضَ البرهان الذي معه ويضَعَه في السجن، وبهذا يفتضحُ أمامَ قومه، وإمّا أنْ يسمح له بذلك فيطلعَ القومُ على ذلك البرهان ويَعرفون الحق! فهي خطوةٌ ذكيةٌ حكيمةٌ من موسى عليه السلام في مواجهته مع فرعون.

واضطرَّ فرعونَ إلى السماح له، والتظاهرِ بالموضوعية: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

عند ذلك اعتمدَ موسى على الله، وقدَّمَ الآيتيْن اللتيْن رآهما في تلك الليلة المباركة في وادي طوى في سيناء: العصا واليد: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

وفوجئَ فرعونُ بما يرى، كما فوجئ الملأ حوله بما يرون عصا خشبيةً تتحولُ إلى ثعبانٍ حيٍّ مبين، ويدُ موسى السمراءُ عندما يخرجُها من جيبه تخرجُ بيضاءَ ناصعةَ البياض.

والثعبانُ نوعٌ ضخمٌ من الحيات. قال الإمام الراغب عن معناه: «الثعبان: يجوزُ أنْ يكونَ سميَ بذلك من قولهم: ثَعَبْتُ الماء فانثعب، أي: فجَّرتُه وأَسلْتُه فسال. ومنه: ثَعَبَ المطر. إذا تدفق»[1].

ولم يَرِد الثعبانُ إلاّ مرتين في القرآن، في المواجهة بين موسى وفرعون: وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٣٢ ـ ٣٣] و[الأعراف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وهاتان الآيتان: العصا واليد لإِثباتِ أنَّ الألوهيةَ والربوبية لا تكونُ

(١) المفردات: ١٧٣.

إلا لله. فاللّهُ الخالقُ هو الذي جعلَ الحياةَ تدبُّ في العصا الخشبية اليابسة، فتتحول إلى ثعبان، وهو الذي يسلبها الحياةَ بعد ذلك، ويُعيدُها خشبةً يابسة كما كانت.

واللّهُ القادرُ الفعالُ لما يريد، هو الذي يحولُ لونَ يد موسى السمراء إلى لونٍ أبيض، تختلفُ عن لونِ جسمه الأسمر، ثم يعيدُها سوداء كما كانت.

وإذا كان فرعونُ رباً كما يزعم فهل يقدرُ على ذلك؟ إنه لا يقدر.

وإنهما آيتان بينتان على نبوةِ موسى عليه السلام أيضاً، فالله هو الذي أَجرى على يديه معجزةَ العصا ومعجزةَ اليد، وهذا تصديقٌ عملي من الله لموسى في دعوى النبوة، وشهادةٌ فعليةٌ من الله له أنه نبيٌّ رسولٌ عليه السلام.

فرعون يتهم موسى بالسحر ويهيّج عليه الملأ:

وحتى يقضيَ فرعونُ على أثرِ الآيتين المعجزتين في نفوس الملأ، وخشيةَ أنْ يتفاعَلوا معهما، سارعَ إلى اتهام موسى بالسحر: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

واتهامُه بالسحر كاتهامِه له بالجنون، وهذا دليلُ تناقضه في اتهاماته، فهل موسى ساحرٌ أو مجنون؟ لا يهمُّ عند فرعون، المهمُّ عنده هو الاتهامُ والشتم والسباب.

ووردَ هذان الاتهامان من فرعون لموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٣٩].

ولم يكتفِ فرعونُ باتهامِ موسى بالسحر، وإنما خطا خطوةً أُخرى في «تهييج» الملأ من حولِه عليه، فالملأُ هم كبارُ رجال الدولة الذين يتولّون إدارةَ شؤون الحكم، وقيادةَ الرعية باسم فرعون، وفي التأثيرِ

على الناس، وتحويلِهم إلى ما يريدون، وهؤلاء الملأُ حريصونَ على البقاء مع فرعون لتحقيقِ المصالحِ وجنيِ المكاسب، وحريصون على الوقوفِ أمامَ كلِّ مَنْ خالفَ فرعونَ أو خرجَ عليه.

وقد لمسَ فرعونُ بخبثه هذا الجانبَ عند الملأ، فقال لهم: إن موسى بدعوتِه يريدُ أنْ يخرجكم من أرضكم!!.

أي: أنتم المهدَّدون من قِبَلِ موسى ودعوته وسحره، ومراكزكم ومكاسبكم في خطر مباشر، فإنْ سكتُّم على موسى، وتركتموه يتصلُ بالناس ويدعوهم إلى دينه، فسوف يَقضي عليكم، وسوف يُخرجكم من أَرضكم، ويَطردكم من بلادكم. فمِن مصلحتكم أنتم أنْ تقفوا أمامَه.

وبذلك ضمن فرعونُ بخبثِه انحيازَ الملأ المتنفذين له، وعدمَ تفكيرهم بالسير مع موسى ولو ثبتَ لهم أنَّ الحقَّ معه.

فرعون ديمقراطي يتلقى الأوامر من الملأ!!:

وبعد أنْ أَثَّر فَرعونُ على الملأ هذا التأثير، وأوحى لهم بهذا الإيحاء، أرادَ أنْ يتقربَ إليهم، لأنه في خطرٍ من موسى ودعوته، ومتى أحسَّ الطاغيةُ بالخطر يحسُّ أنه بحاجةٍ إلى أَنْ يتقرَّبَ إلى حاشيتِه وأعوانه!

تظاهرَ فرعونُ أنه يشاركُ الملأَ في الحكم والقرار، وفي القيادة والتوجيه، وأعلنَ أنه يحترمُ رأْيَهم، وينفذُ أمرهم، وقال لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾؟.

ومنذ متى يأمرُ الملأُ ربَّهم فرعون؟ ومنذُ متى يقترحون عليه؟ ومنذ متى يطلبُ منهم أَنْ يأمروه؟ ومنذُ متى ينفذُ فرعونُ أَمْرَهم؟

وما هذه اللعبةُ الفرعونيةُ التي يلعبها أمام ملئه؟ وما هذا النفاقُ منه لهم؟ إنه خبثُ ومكرُ فرعونَ الماكرِ الخبيث في استقطابِ الملأ حوله، لأنه في خطرٍ مباشرٍ من موسى ودعوته!

وصدَّقَ الملأُ فرعونَ في كلامه! وظنّوا أنهم يمكنُ أنْ يأمروا فرعون، وأنه بحاجةٍ إلى أمرهم، وأنه سينفذُ ما يأمرونَه به!! وهل يأمُرُ القومُ إلههَم وربَّهم؟ هكذا أوهمهم فرعون.

الملأ يقترحون جمع السحرة من المدائن:

فكَّرَ الملأُ المجتمعون مع فرعون، ثم اقترحوا على فرعونَ اقتراحاً. قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

اقترحَ الملأُ على فرعون أنْ يُرجئَ موسى وأخاه هارون، أنْ يؤخِّرَهما ويؤخِّرَ البتَّ في المسألة، وأنْ يستدعيَ السحرةَ من مختلف المدائن في مصر، لتتمَّ المباراةُ بينهم وبين موسى الساحر.

و«أَرْجِه» فعلُ أمر. من الإِرجاءِ وهو التأخير، وفعْلُه الماضي: أَرجأ. تقول: أَرْجَأَ. يُرْجِىءُ. أَرْجِئْ.

وأصْلُ «أَرْجِهْ»: أَرْجِئْهُ. وفاعل «أرجه» ضميرٌ مستتر تقديره «أنت». والهاء: في محلِّ نصبِ مفعول به، وتعودُ على موسى عليه السلام.

والمعنى: أرجِئْ يا فرعونُ موسى وأَخاه هارون، وأَخِّرْهما عندك، لحين قدوم السحرة.

ومعنى ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾: اطلبْ مِنْ رجالك وولاتك في مختلفِ مدنِ مصر أن يأتوك بالسحرة، وأنْ يَجمعوهم ويَحشروهم ويُحضروهم إليك.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ فعلَ «أَرْجِه» لم يَرِدْ في القرآن إلاّ مرتين، والمرتان في قصةِ موسى عليه السلام، وفي سياق طلب إحضار السحرة.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[الأعراف: ١١١. الشعراء: ٣٦].

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ كلمتَيْ «المدائن» و«حاشرين» لم تَرِدْ إلاّ في هذا السياق أيضاً. حيث وردت الكلمتان ثلاثَ مرات: [الأعراف: ١١١. الشعراء: ٣٦ و٥٣].

لماذا إحضار «كل سحار عليم»؟:

وكلمةُ «سَحّار» ـ التي هي صيغةُ مبالغةٍ من «ساحر» ـ لم تَرِدْ في غير هذا الموضع.

ما أرادَ الملأُ إحضارَ كلِّ ساحر عليم، وإنما أَرادوا إحضارَ كلِّ «سَحّار». والسّحّار هو المتمكنُ من سحره، الماهرُ فيه.

ما أَرادوا السحرةَ فقط، لأنهم مُقْدِمون على مباراةٍ حاسمة وخطيرةٍ مع موسى، وهذه المباراةُ لا ينفعُ فيها إلاّ كلُّ سَحّارٍ عليم.

وهكذا اتفقَ الملأُ من قوم فرعون على تأخيرِ البتِّ في دعوة ومهمةِ موسى عليه السلام، والاستنجادِ بقوةِ السحرة ـ وهي القوةُ القياديةُ المؤثرةُ في النظام ـ للوقوفِ أَمام موسى وآياته.

وهكذا اجتمعت القياداتُ الثلاثةُ التي تدعمُ فرعون وتساعدُه في حكم أهل مصر:

- القيادةُ الإدارية: المتمثلةُ في هامان.
- والقيادةُ المالية الاقتصادية: المتمثلةُ في قارون.
- والقيادةُ الإعلامية التأثيرية: المتمثلةُ في السحرة.

اجتمعت القياداتُ الثلاثةُ على مواجهةِ موسى والوقوف في وجهه، والانتصارِ لفرعون!

وانتهى لقاءُ المواجهة بين موسى وبين فرعون بحضورِ الملأ الكبراء، بانحيازِ الملأ إلى فرعون، وتبنّي اتهامِه لموسى، حيث قررَ هؤلاء الملأُ أنَّ موسى ساحرٌ عليم، وليس نبياً رسولاً، وأنه خطرٌ مباشرٌ

يهددُ فرعون، ويهددُ الملأ، ويهددُ مصرَ كلَّها، وأنه لا بدَّ أنْ يُحشرَ السحرةُ المتمكنون لمواجهةِ موسى وهزيمتِه.

وخرجَ موسى من لقاءِ المواجهة مع فرعون، وصارَ ينتظرُ قدومَ السحرةِ من المدائن المختلفة، لتتمَّ المباراةُ بينه وبينهم.

موسى يرد على اتهامات الملأ في حوار معهم:

وقد ردَّ موسى عليه السلام على اتهامِ الملأ له بأنه ساحر، ووردَ هذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٧٨].

وتدلُّ الآياتُ على أنَّ هارون كان مع موسى عليهما السلام في المواجهة مع فرعون، وأنهما كانا نبيَّيْن مبعوثَيْن إلى فرعون وملئه، وأنَّ الملأَ استكبروا عن اتباع الحق، وانحازوا إلى فرعون، وردَّدوا اتهامَه لموسى بأنه ساحر، واعتبروا ما قدَّمه من الآيات والبراهين على أنه سحر مبين.

وتدلُّ الآياتُ على حوارٍ جرى بين موسى وبين الملأ، في فترةِ انتظارِ قدوم السحرة من المدائنِ للمباراة.

قالوا لموسى: أَنت ساحر، وما معكَ سحرٌ مبينٌ ظاهر واضح.

فردَّ موسى على اتهامهم مستنكراً عليهم وقال: لقد قدمْتُ لكم الحق، ورأيتُم ما معي من الآيات، فكيفَ اعتبرتُم هذا الحقَّ سحراً؟ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أهذا الذي رأيتموه منّي سحر؟ فكيف تقولون عنه: هذا سحر؟.

وتابعَ موسى إنكارَه عليهم قائلاً: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾. وهذه

سنةٌ ربانية مطردة: إنَّ الساحرين لا يفلحون ولا ينجحون.

وكأنَّه يقولُ لهم: لو كنتُ ساحراً كما زعمتم لما كنت مفلحاً، لأنه لا يفلحُ الساحرون، وبما أَنني مفلحٌ ناجح، وبما أنَّ اللّهَ قد أيدني بالآيات، فإنني لستُ ساحراً.

اتهامهم لموسى وهارون باستغلال الدين لمصالحهما:

ولم يقبل الملأُ المستكبرون المنحازون إلى فرعون منطقَ موسى، وقالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وهم بقولهم هذا علَّلوا عدمَ قبولهم دعوةَ موسى بأنه يريدُ أنْ يُبعدَهم عن دينِ آبائهم، ويسلخَهم عن موروثاتهم، ويأتيهم بدينٍ جديد. فكيف يتخلونَ عن دين آبائهم ويدخلون في دينه.

واتهموا موسى وهارون في إِخلاصِهما لدعوتهما، فهما يدعوانِ هذه الدعوة، لتحقيقِ مكاسبَ مادية، وجنْيِ مصالح دنيوية، إِنهما يريدانِ أنْ تكونَ لهما الكبرياء في الأرض، ويريدانِ القيادةَ والسيادة والزعامة، ويريدانَ المالَ والجاهَ والحكم.

وحتى يُحققا ما يريدان من مصالحَ دنيوية ـ في زعمهم ـ فقد لَجَئَا إلى الدين، ودَعَوا إِلى توحيدِ الألوهيةِ والربوبية، ليستجيبَ لهما الناس، ويجعلوهما سادةً وقادة، وبذلكَ تكونُ لهما الكبرياء في الأرض!

وهذا هو نفسُ اتهامِ الطغاة للدعاة والمصلحين والعلماء، يتهمونَهم بأنهم يستغلّون الدينَ والدعوةَ إليه استغلالاً، لتحقيقِ مصالحهم ومكاسبهم!

وقد أَعلنَ الملأُ من قوم فرعون رأيهم في موسى بصراحة، وجاهَروا بموقفهم منه ومن أخيه، ولهذا قالوا لهما: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد أكدتْ آياتٌ أُخرى من القرآن اتهامات الملأ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧].

فلما شاهدَ الملأُ الآياتِ التي معَ موسى عليه السلام كفروا بها، ورفضوا دعوةَ موسى، وقابَلوها بالاستكبار والعلو، ورأوا أَنفسهم أكبرَ وأَعلى وأفضلَ من موسى وهارون، لأَنَّهم ملأٌ مُقَدَّمون عند فرعون، أَما موسى وهارون فهما إسرائيليان، من الإسرائيليين المضطهدين المستعبدين: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟.

ويعترفُ الملأُ بأنَّ الإسرائيليين كانوا خاضعين لفرعون وملئه، حيث كانوا يُخضعونَهم خضوعَ عبادة، وهو الإخضاعُ القائمُ على الاستعباد، كانوا يَعتبرونَهم عبيداً لهم، فكيفَ يظهرُ من بين هؤلاء العبيد الخاضعين لهم رجلان يزعمان أَنهما نبيان رسولان، ويَطلبان من فرعون وملئِه اتباعَهما وطاعَتَهما؟ كيف يتحوَّلون من ملأ قادةٍ إِلى أَتباع؟ وأَتباعٌ لمن؟ لرجليْن من الإسرائيليين!!

الملأ يرتبون اجتماعاً موسعاً مع وجوه القوم:

وبعدما اتفقَ الملأُ من قوم فرعون على الكفرِ بموسى عليه السلام ورفْضِ دعوته، واتفقوا مع فرعونَ على استدعاءِ السحرة من مختلف المدائن، خَرجوا يردّدون اتهامَ فرعون لموسى بأنه ساحرٌ مبين، وأَنه يريدُ تخريبَ البلاد وإخراجَ أَهلها منها.

ويبدو أَنَّ الملأَ دَعَوْا إِلى اجتماعٍ آخر موسّع، بعد اجتماعِهم السابق مع فرعون، وحضرَ ذلك الاجْتماعَ أناسٌ آخرون من وجوه القوم، وذلك لبحثِ وتدارسِ مسألةِ موسى ودعوته، وأَشارَ إِلى هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ

حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٢].

لقد وقَفْنا سابقاً مع آياتِ سورة الشعراء، التي تتحدثُ عن اجتماعِ فرعون مع الملأ، وما اتفقوا عليه في ذلك الاجتماع، والوقفةُ الآنَ مع آياتِ سورة الأعراف، التي تتحدثُ عن اجتماعِ الملأ من قوم فرعون مع وجوهِ القوم، لينقلوا لهم رأيَ فرعونَ في موسى، ويأخذوا منهم الموافقةَ على ما سيفعلُه فرعون.

حديث سورتي الشعراء والأعراف عن اجتماعين خطيرين:

ودليلُنا على أنهما اجتماعان، تتحدثُ آياتُ سورة الشعراء عن الاجتماعِ الأول الخاص، وتتحدثُ آياتُ سورة الأعراف عن الاجتماع الثاني الموسع الذي تلاه، دليلُنا سياقُ الآيات، والفرقُ بين آياتِ السورتيْن في التعبيرِ عن الاجتماعيْن.

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٢ ـ ٣٧].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧ ـ ١١٢].

سورة الشعراء تسجل اجتماع فرعون المغلق مع الملأ:

في سورةِ الشعراء قالَ فرعونُ للملأ حوله: إنّ موسى ساحرٌ عليم. يريدُ أنْ يُخرجكم من أرضكم بسحره! فماذا تأمرون؟ وماذا

تريدون منّي أنْ أَفعلَ معه؟

أَجابَ الملأُ الذين حولَه قائلين: أَرْجِهْ وأَخِّرْ موسى وأَخاه، واطلبْ من ولاتك في المدنِ أَنْ يَحْشروا السحرةَ وأنْ يأتوك بهم، ليباروا موسى!

وفي سورة الأَعرافِ قالَ الملأُ من قوم فرعون، ولم يقل فرعون، فالملأُ هم القائلون المتكلمون، بينما كان القائلُ المتكلمُ في سورة الشعراء هو فرعون.

وكررَ الملأُ القائلونَ في سورة الأعراف كلامَ فرعونَ الذي قالَه لهم في سورة الشعراء: إنَّ هذا لساحرٌ عليم، يُريدُ أَنْ يخرجكم من أرضكم، فماذا تأمرون؟

فلمن قالَ الملأُ هذا القول؟ ولمن قالوا: فماذا تأمرون؟ وإذا كان الملأُ هم القائلون السائلون فمن هم المقولُ لهم المسؤولون؟

وسورة الأعراف تسجل اجتماع الملأ الموسع مع وجوه القوم:

يدلُّ هذا على ما قلناه من اجتماعيْن: الاجتماعُ الأولُ كان خاصّاً مغلقاً بين فرعون وبين الملأ فقط. وبعدما اتفقوا على خطةِ مواجهةِ موسى عليه السلام رتَّبَ الملأُ اجتماعاً آخر موسَّعاً، دعوا فيه وجوهَ القوم، وبحثوا معهم قضيةَ موسى، وأَخذوا منهم موافقتهم على خطة فرعون، وبما أَنَّ وجوهَ القوم كانوا ممثِّلين للشعب كلِّه، فقد أَيَّدَ الشعبُ خطةَ فرعون في مواجهةِ موسى عليه السلام ودعوته!!

وكما تظاهرَ فرعونُ أمامَ الملأ بالمُشاوِرِ لهم المحترمِ لآرائهم المستعدِّ لتنفيذِ ما يشيرونَ به عليه، وقال لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾. تظاهرَ الملأُ أمامَ المدعوين من وجوه القوم بذلك، فقالوا لهم: ماذا تأمروننا أنْ نفعلَ لمواجهة موسى؟ إننا مستعدونَ لتنفيذِ ما تشيرون به علينا!

قالوا لهم هذا بعدما أَعطوهم رأيَ فرعون في موسى بأنه ساحرٌ

عليم يريدُ أنْ يُخرجهم من أرضهم بسحره، وكأنّهم يدعونهم إلى القولِ بذلك.

فما كانَ من المدعوين إلاّ أنْ أَشاروا بتأخيرِ موسى وأخيه، وحشْرِ السحرة من المدائن، واستدعائِهم لمواجهة موسى ومبارزته!

هذه هي «لعبةُ الديمقراطية» في صورتها البدائية، في النظام الفرعوني الجاهلي!!!

[٥]

المباراة.. والانتصار.. وإيمانُ السحرة

اتفقَ فرعونُ مع الملأ على تكذيبِ موسى ورفْضِ دعوته، واتهامِه بتخريب الوطن، وجمْعِ السحرة لمباراتِه وتحدّيه وهزيمته. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٦ ـ ٥٨].

حشر السحرة واتهامات لموسى:

وبينما ذهبَ حكامُ المدنِ وولاةُ الأقاليم المصرية يجمعونَ السحرةَ لإِيفادهم إلى فرعون، قامَ الملأُ من قومِ فرعون بتهيئةِ الناسِ للمباراةِ القادمةِ الحاسمةِ الفاصلة، المباراةِ بين السحرة العليمين المتمكّنين وبين موسى الساحرِ العليم. وقاموا بحملةٍ إعلاميةٍ إعلانية حاشدةٍ من أجل ذلك.

قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٤٠].

وهم في حملتِهم الإعلاميةِ يريدونَ التأثيرَ على الرأي العام، واستقطابَ الناسِ إلى جانبهم، فموسى إسرائيليٌّ ساحرٌ عليمٌ متمكّنٌ من سحره، يُحوّلُ العصا إلى حية، وهو ليس رسولاً كما يزعم، وهو يريدُ

استغلالَ الدينِ لمصلحته الشخصية، وهو مخربٌ مفسدٌ يريدُ تخريبَ الوطن، وإخراجَ أهله منه، والقضاءَ على منجزاتِ فرعون وملئِه الكبيرة. وقد تكفَّلَ فرعونُ والملأُ بمواجهةِ موسى الساحرِ والقضاءِ عليه، وقد حشَدوا وحشَروا له السحرةَ من مختلفِ المدائن، وسوفَ يهزمُه هؤلاء السحرةُ ويقضونَ عليه. وما على الناسِ إلاّ انتظارُ الميقاتِ المعلومِ القادم، ومشاهدةُ هذه المباراةِ الحاسمةِ المثيرة، والفرحُ بانتصارِ السحرة وهزيمةِ موسى، وسوفَ يتخلّصُ الوطنُ بفضْلِ حكمةِ فرعون وملئه من مشكلةِ موسى بعد ذلك!!

هذه هي الحملةُ الإعلاميةُ التي قامَ بها الملأ، وهذه هي الصورةُ التي قدّموا موسى للناسِ من خلالها، وهكذا صوّروا الخلافَ بين موسى وبين فرعون.

المباراة القادمة هي شغل الناس:

وصارتْ قضيةُ موسى مع فرعون هي شغلَ الناسِ الشاغل، وحديثَهم في مجالسهم، ومحلَّ نظراتهم وتحليلاتهم، سواء كانوا من المصريين أو من الإسرائيليين.

وصارَ تحديدُ موعدِ مباراة السحرة مع موسى موضعَ اهتمامِ الناس، ينتظرون تجميعَ السحرة، وقدومَهم إلى العاصمة، ويتلهَّفونَ لموعدِ المباراةِ المثيرة.

وقامَ الولاةُ في المدائنِ والأقاليم بتجميعِ وحشرِ السحرة، وأَوفدَ كلُّ واحد ما في مدينته ومنطقتِه من السحرةِ إلى فرعون، وقَدِمَ السحرةُ إلى العاصمة.

ولم تتحدثْ آياتُ القرآن عن عددِ السحرة القادمين، فعدُدهم من مبهماتِ القرآن التي لا نخوضُ فيها، ولا تترتبُ على العلم بعددهم فائدةٌ علمية، ولا يضرُّ الجهلُ به، كلُّ ما نقولُ به أَنهم جُمعوا من مختلفِ المدائنِ انتظاراً للمباراة الفاصلة: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾﴾.

واقتربَ موعدُ المباراة، وزادَ انتظارُ الناس لها حماساً ولهفة.

وأرادَ فرعونُ أنْ يَزيدَ في حماس السحرة للمباراة، وأنْ يعمِّقَ ولاءَهم له، وأنْ يهيِّجَهم ضدَّ موسى فالتقى بهم لقاءً خاصاً، واجتمعَ معهم اجتماعاً مغلقاً، وتحدَّث لهم عن قضية موسى، وكرَّرَ على مسامعِهم اتهامَ موسى بأنه ساحر، وأنه يريدُ تخريبَ البلاد، وبيَّنَ لهم أنه استدعاهم لأَنهم أَعلمُ من موسى، وأكثرُ علماً بالسحر منه، وأنه لا يقضي على موسى إلاّ هم، وسوفَ يُقدِّمون للبلاد خدمةً جليلة في تخليصها من فتنةِ موسى!

السحرة يفاوضون ويساومون فرعون:

وكان السحرةُ ذوي فطنة، وفطنوا إلى لهجةِ فرعون في مخاطبتهم، ولاحَظوا حاجتَه الماسةَ إليهم، ليخلِّصوه من مشكلةِ موسى، وصاروا يُفرقون بين أسلوبِ فرعون السابق، القائم على الاستكبار والاستبداد، وبين أُسلوبه الآن، القائمِ على التودُّدِ والتقرُّب.

وأَرادوا استغلالَ هذه الفرصة، والاستفادةَ منها لتحقيقِ مزيدٍ من المكاسبِ من فرعون وملئه، فلا تتكررُ هذه الفرصةُ مرةً أخرى، إنَّ فرعون الآن بحاجتهم، وها هو يتقربُ ويتوددُ إليهم، ولن يمانعَ في إعطائهم ما يريدون من ثمنٍ وأَجر، حتى لو كان مرتفعاً، لأنه ذو حاجة.

ففاوضوه على الثمن، ووافقهم فرعون على ما يريدون وزيادة. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١ ـ ٤٢].

طلبوا منه الأَجرَ الكثيرَ مقابل مباراتِهم ومواجهتِهم لموسى، إِذا غلبوه وهزموه.

ووردَ طلبُهم في سورتين: في الأعراف والشعراء. وجاء التعبيرُ في سورة الأعراف بصيغة: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾. بينما التعبير في سورة الشعراء بصيغة ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

وهو في سورةِ الشعراء مؤكَّدٌ أكثر، لأنَّ فيه الهمزةَ الداخلة على «إن».

والتنوين في: «أجراً» للتكثير، فلم يُحددوا مقدارَ الأجرِ المطلوب، وتركوا تحديده إلى فرعون.

فرعون يعدهم بالأجر والقربى:

وطلبُهم الأجرَ من فرعون هذه المرة يدلُّ على أنَّ فرعونَ وملأه كانوا يستغلونَهم قبلَ ذلك استغلالاً، ويُشَغِّلونهم سخرة، ولا يعطونَهم على أعمالهم أجراً.

وهذه طبيعةُ المسؤولين الظالمين المستبدين، يسخِّرون الآخرين لهم، ويستنزفون طاقاتهم، ويَسرقون جهودَهم، ويأخذونَ ما عندهم، بدون أجرٍ ولا جزاءٍ ولا ثمن ولا عطاء. وإذا بدا لهم أنْ يُعطوهم شيئاً كان شيئاً تافهاً هزيلاً، لا يساوي شيئاً.

ولما طلبَ السحرةُ الأجر، أَجابهم فرعون بالموافقة، واستعدَّ أَنْ يعطيهم ما هو أكثر، وقال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿نعم﴾: أنا موافقٌ على ما تطلبون، وسأُعطيكم الأجرَ الذي تريدون.

﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: ولكم عندي زيادةٌ على الأجر، هو أَنني سأُقرِّبكم مني، وأجعلُكم من المقرَّبين لديّ، وأضمُّكم إلى خاصتي

وحاشيتي، وتكونون من الملأ المتنفذين.

ووعْدُ فرعونَ للسحرةِ أنْ يجعلَهم من المقربين لأَنه بحاجةٍ ماسةٍ لهم، وهذا إِغراءٌ منه لهم، وترغيبٌ لهم ببذل كلِّ جهدهم لينالوا هذه المنزلة.

يريدُ فرعونُ أنْ يشتريَ ذممَهم، وأنْ يستحوذَ عليهم، ليكونوا إلى جانبه، ويَدعموه في موقفه، ويواجِهوا خصْمَه، ولما وعدهم المالَ والمنصبَ والجاهَ والمركز أرادَ أنْ يُشعرَهم أَنهم أَصحابُ قضية، لهم مصلحةٌ شخصيةٌ في مواجهة موسى، ليتفاعَلوا أكثرَ في المواجهةِ والمباراة.

وهذه وسيلةٌ مطردةٌ يستخدمُها المستبدون الطغاة، عندما يواجهون الحقَّ وأهلَه، حيث يحرصون على كسبِ الآخرين إلى جانبهم، وإغرائهم بالمالِ والجاهِ والمنزلة، وتحويلِهم إلى جنودٍ مندفعين في محاربةِ خصوم الطغاة!!

أَتمَّ فرعونُ استعدادَه، وعقدَ الاتفاقَ مع السحرة، وتحالفَ معهم للوقوفِ أمامَ موسى وهارون عليهما السلام، ووظَّفَ فرعونُ مرافقَ ومؤسساتِ الدولة لمواجهة موسى: المالَ والرجال، والمراكزَ والمناصب...

ولم يبقَ إلاّ تحديدُ موعد المباراة.

كيد فرعون في طلبه من موسى تحديد الموعد:

ومن كيدِ فرعون ومكرِه أنه طلبَ من موسى تحديدَ ذلك الموعد، قال تعالى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨].

أي: حدِّدْ يا موسى أنتَ الموعدَ الذي يناسبُك، وأيُّ موعدٍ تراه مناسباً فنحنُ موافقون عليه، ولا نتخلفُ عنه. وليكن مكانَ المباراة ﴿مَكَانًا سُوًى﴾.

ومعنى ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: مكاناً مستوياً ظاهراً بارزاً، يراهُ الجميع، ولا يَخفى أيُّ جزءٍ منه عن أيِّ مشاهد، ولا يكون هكذا إلاّ إذا كان سهلاً واسعاً ممتداً، لا جبلَ ولا تلَّ فيه، ولا أَشجَارَ عليه.

قالَ عبدُ الرحمن بن زيد: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: مكاناً مستوياً بين الناس، وكلُّ ما فيه بارزٌ للناس، لا يَغيبُ شيءٌ منه عن أحدٍ من الناس(١).

ولم يَرِدْ «سُوى» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

يريدُ فرعونُ أنْ تكونَ المباراةُ حاشدةً جامعة، ويريدُ أنْ يكونَ في مكانٍ واسع، يسعُ جميعَ الراغبين في الحضور، ويريدُ أنْ يكونَ المكانُ مكاناً «سُوى» ظاهراً بارزاً مستوياً، بحيثُ يَرى كلُّ شخص أَحداثَ المباراة، ليشهدَ انتصارَ السحرةِ وهزيمةَ موسى!

واعتبرْنا طلبَ فرعون من موسى تحديدَ موعدِ المباراة من بابِ كيدِه ومكره لأنه من بابِ «حربه النفسية» ضدَّ موسى عليه السلام. فكأَنَّه يقولُ له: الأمرُ محسومٌ عندنا، وفوزُ السحرة مضمون، وهزيمتُك مؤكَّدة، فقدْ جمعْنا لك السحرة من مختلفِ مدائن مصر، وأَحضروا معهم كلَّ خبراتهم ومهاراتهم، وأنت لن تصمدَ أَمامهم.

ولذلكَ حدِّدْ أنتَ مكانَ وزمانَ هزيمتِك، واخْتَرْ أَوسعَ مكان، وأكثرَه ظهوراً وبروزاً، ليشاهدَ الجميعُ هزيمتَك، ويشهدوا بذلك عليك!

موسى يجعله ضحى يوم الزينة:

حدَّدَ موسى الموعد. قال تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ معروفٌ عند فرعون وقومه، لكنه مبهمٌ في القرآن، ليس فيه بيانٌ عنه، ولهذا لا نقولُ عنه إلاّ أنه يومُ الزينة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٥٢.

ويبدو أَنه كان عيداً من أَعيادِهم المعروفة المشهورة، يتزيَّنُ فيه الناس، ويَخرجون بزينتهم يحتفلونَ بالعيد.

واختيارُ موسى ليومِ الزينة موعداً للمباراة من حكمتِه ويقينِه بالنصر، وحرْصِه على نشرِ الدعوة، إِنه يريدُ أَنْ يشاهدَ أكبرُ عددٍ من الناس المباراة، ليعرفوا أَنَّ الحَقَّ معه.

ومن حكمتِه أَيضاً أَنه حددَ وقْتَ المباراة، وهي ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾.

يريدُ أَنْ ﴿يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ من مختلفِ المناطق ليشاهدوا المباراة. وهذا من يقينِه أَنَّ الحقَّ معه، وأَنَّ الله سينصره، وحرصِه على إِيصالِ دعوتِه إِلى الناس، وعلى إِحضارِهم ليشاهدوا الأَحداث.

وحدَّدَ الوقتَ بأَنه ضحى اليوم، والضحى هو بدايةُ اليوم، قبلَ أَنْ ينصرفَ الناسُ إِلى أُمورهم الخاصة، كما أَنَّ الضحى يعني الضياءَ والنور، وليس الظلامَ والخفاء، فهو يريدُ أَنْ تكون المباراةُ في النور، ليشاهدَها الناس، فيفرقوا بين الحقِّ والباطل، بين ما معَ السحرة من سحرٍ وتخييل، وما مع موسى من الحقِّ المبين.

قال ابن كثير: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: وهو يومُ عيدِهم ونيروزِهم، وتَفَرُّغِهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم، ليشاهدَ الناسُ قدرةَ الله على ما يشاء، ومعجزاتِ الأنبياء، وبطلانَ معارضة السحر لخوارقِ العادات النبوية، ولهذا قال موسى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾: أي: ضحوةً من النهار، ليكون أظهرَ وأَجلى وأَبينَ وأَوضح، وهكذا شأنُ الأنبياء، كلُّ أمرِهم بَيِّنٌ واضح، ليس فيه خَفاءٌ ولا ترويج، ولهذا لم يقل: ليلاً. لكن نهاراً ضحى»[1].

إشارات وإيحاءات من اختيار موسى للموعد:

ويمكنُ أَنْ نستخرجَ من قولِ موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٥٢.

﴿ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ الإشاراتِ والإيحاءات التالية:

١ ـ لم يَرهبْ موسى ولم يَخفْ من الجيشِ الكبيرِ من السحرة الذين حشرهم فرعون، والذين أحضروا معهم سحرَهم. فموسى سيواجهُ هؤلاء ومعه عصاه، لكنه يوقنُ أنَّ اللّهَ معه ينصرُه ويؤيدُه، ولذلك لم تُخِفْهُ كثرةُ السحرة، ولا قوةُ الاستعدادات، وبقي ثابتاً مستعداً لمواجهةِ كلِّ هؤلاء.

٢ ـ موسى حريصٌ على أنْ يَرى أكْبرُ عددٍ ممكن من الناس أَحداثَ المباراة، وتجلّى حرصهُ في المظاهر التالية:

ـ اختيارُ يوم عيد ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، حيثُ يتفرغُ الناسُ للمباراة.

ـ اختيارُ مكانٍ سُوىً، واسعٍ بارز، ليشاهدَ الجميعُ المباراة.

ـ اختيارُ وقتِ المباراة في ضحى النهار، ليشاهدَ الناسُ المباراةَ بعيونهم، فيُحسنوا الحكمَ على ما يَجري فيها.

٣ ـ إنَّ أصحابَ الحق حريصون على توصيلِ الحقِّ لأكبرِ عددٍ ممكن من الناس، وحَريصون على أنْ يكونَ عملُهم ظاهراً معروفاً، وليس خفياً مجهولاً. وإنَّ النورَ والعلنَ يساعدُ على انتشارِ الحق، فليس عندَ أصحابِ الحق ما يخجلونَ من كشفه، أو يَخافون من إظهاره، ولهذا يختارون العلنَ والنورَ للعملِ ومخاطبةِ الناس.

أَمّا أَصحابُ الباطل فهم الذين يختارون الاستخفاءَ عن الناس، والعملَ في الظلام، لأَنهم يريدون التمويهَ والخداع، ويساعدُهم الظلام في ذلك، ولو عَملوا في العلنِ والجهر والنور أمامَ أبصارِ الآخرين فإنهم سيفتضحون وينكشفون!

ولهذا اختارَ موسى ضحىً يوم الزينة ليكونَ عملُه علناً جهراً لا سرّاً وخفاءً، وليكونَ في النورِ لا في الظلام، ليفرقَ المشاهدون بين الحقِّ الذي معه والباطل الذي مع السحرة.

٤ ـ إنَّ أصحابَ الحق يردّون على تحدّي أصحابِ الباطل بتحَدٍّ آخر، فلا يَنهزمون من الميدان، ولا يَخرجون من الساحة، ولا يَخافون عند المواجهة.

فها هو فرعونُ يتحدّى موسى بجمعِ السحرة له، ويَدعوهُ إلى اختيارِ مكانٍ وزمانٍ ووقتِ التحدّي والمباراة، وها هو موسى يردُّ على التحدي بتحدٍّ آخر، ويطالبُ بإِحضارِ الناس ليشاهدوا المواجهةَ والحسم.

اهتمام الناس بالموعد القادم:

وتمَّ تحديدُ ضحى يوم الزينة للمباراة، وتمَّ إِعلامُ الناس بذلك، واهتمَّ الناسُ بالحدثِ المثير، فلأولِ مرة يقفُ رجلان اثنان ـ موسى وهارون عليهما السلام ـ أمامَ فرعونَ الطاغيةِ المستبد، ويرفضان الخضوعَ له، ويُعلنان أنه ليس إلهاً ولا رباً، وأنَّ اللّهَ هو إلهُ الناس وربُّهم، ويَدْعُوان فرعونَ وقومَه للدخولِ في دين الله، ويواجهان فرعونَ ويتحدَّيانه، يحدُثُ هذا لأولِ مرة أَمامَ الفراعنة، فالأمرُ خطيرٌ عجيبٌ مثير، يستحقُّ أنْ يتابعَ الناسُ تطوراتِه المتلاحقة المفاجئة!

ثم إنَّ ما يقدمُه موسى من آياتٍ أمرٌ يدعو للإثارة، فيدُه السمراءُ تتحولُ إلى بيضاء، والأَعجبُ من هذا أَنه عندما يُلقي عصاه الخشبيةَ تتحولُ إِلى ثعبانٍ حي، فما هذه الآيةُ المثيرةُ المدهشة؟

ثم إنَّ فرعونَ حشدَ السحرة وحشرَهم من مختلفِ المدائن، وأَحضرَ كلَّ ساحر ما يقدرُ عليه من أدواتٍ سحرية، وسيقفُ موسى وهارون أمامَ هؤلاء جميعاً، يتحدَّيانهم!

أَلا يدعو هذا الأمرُ العجيبُ الخطيرُ المدهشُ إلى الاهتمام والمتابعة؟

لذلك صارتْ «دعوةُ موسى» ومواجهتُه لفرعون وتحدّيه للسحرة، حديثَ الناس في بيوتهم ومجالسهم، وصارَ حلولُ موعدِ المباراة في

ضحى يوم الزينة موعداً للناس ينتظرونه بلهفة وشوق.

وبذلك نجحَ موسى عليه السلام في نقلِ دعوتِه من حوارٍ خاصٍّ مع فرعون بين جدرانٍ ضيقة وخلْفَ أبواب مغلقة، إلى مكانٍ واسع سُوىً، وتحويلِها إلى حَدَثٍ شعبي، يهمُّ الناسَ كلَّهم، ويَحرصون على متابعة مشاهده المتلاحقة.

وهذا من حكمةِ موسى عليه السلام في الدعوة، ومن قَدَرِ اللّهِ الذي وفَّقَه هذا التوفيق، والذي قَدَّرَ وقوعَ الأحداث لتحقيق ما يريد سبحانه.

تصوير موقع المعركة ضحى يوم الزينة:

وحانَ موعدُ التحدي والمباراة، وجاءَ ضحى يومِ الزينة، وذهبَ الناسُ إلى المكان السُّوىٰ المعدِّ لذلك، ليشاهِدوا ما يجري، ويُتابعوا ما سيحدث!

وامتلأَ المكانُ الواسعُ بالناس القادمين، وضاقَ ـ على سَعته ـ بأعدادهم الكثيرة المهتمة بالحدث..

وجيء بالسحرة، ومع كلٍّ منهم أَدواتُه السحرية، وأَخذَ الملأُ من قوم فرعون مقاعدَهم، وهُيِّءَ لفرعونَ مجلسُه العظيمُ المتفقُ مع فرعنته وطغيانه.

وجاءَ موسى وأخوه هارون عليهما السلام، لا يحملُ موسى إلاّ عصاهُ، يتوكأ عليها.

واستغربَ المشاهدون من المنظر، سَحَرةٌ كثيرون ومعهم أَدواتُهم، وملأٌ مستنفرون، وفرعونٌ منتفشٌ متكبر، ورجلان اثنان يتحدّيان الجميعَ بعصا!!.

فرعون يجمع كيده ويأتي:

وقد لخصتْ آيةٌ واحدةٌ قصيرة هذا الحشدَ والحشرَ والتهيئة، قال

تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

وتُصَوِّرُ تلكَ الآيةُ الواحدةُ القصيرةُ ثلاثَ حركاتٍ متواليات: ذهابَ فرعون، وجمْعَ كيده، والإتيانَ به»[1].

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾: توجَّهَ نحو البلاد ليواجه موسى، وأَصدرَ أمرَه للملأ ليأمُروا حكامَ المدائن والأقاليم بجمعِ وحشرِ السحرة. فهو تولّي حشد، وليس تولّيَ إدبارٍ وانصراف.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: جمعَ وحشدَ كلَّ ما يقدرُ عليه لمواجهة موسى عليه السلام، وسخَّرَ كلَّ مرافقِ الدولة ومؤسساتها وإمكاناتها، ووظفَ لذلك رجالَها وأموالَها وجنودَها. واعتبرت الآيةُ هذا الأمر «كيداً» لأنَّهُ وظفَه كلَّه للدفاع عنه، ولمحاربةِ الحق، ولمواجهةِ موسى والقضاءِ عليه.

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾: أتى فرعونُ ومعه ما جمعه وحشده، وهو «كَمٌّ» كبير. بذلَ رجالُ الدولة كلَّ جهودِهم وطاقاتهم في حشْرِه، ولكنه لن يصمدَ على كثرتِه أَمامَ الحقِّ الواضح.

ولما نظرَ موسى إلى الحشدِ الكبير لم يفقدْ ثباتَه وهدوءَه، واستشعرَ أن اللّهَ معه بحفْظِه وتأييده، يَسمعُ ويرى كلَّ ما يجري، فازدادَ إيماناً ويقيناً، وتصميماً على المواجهة والتحدي.

موسى يبدأ بشن الحرب النفسية على السحرة:

وتصرَّفَ موسى مع هذا الحشدِ الكبير بحكمةٍ وفطنة، وأَرادَ أنْ يشنَّ عليهم حرباً نفسية قبلَ بدءِ المعركة، يزعزعُ فيها نفسياتهم، ويزلزلُ نظراتهم، ويُضعفُ معنوياتهم.

أَقبلَ على السحرةِ المتجمعين قائلاً: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٤١.

﴿كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

﴿وَيْلَكُمْ﴾: كلمةُ ذمٍّ وتوبيخٍ من موسى للسحرة، كأنه يقولُ لهم: ويلَكم ويحَكم، لماذا أنتم هنا؟ وماذا تُريدون أنْ تَفعلوا؟ ولماذا استجبتم لدعوةِ فرعون؟ ألا تفكِّرون في ما أنتم مُقْدِمون عليه؟.

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: وهذه إدانةٌ مباشرةٌ لهم، يقولُ لهم: أَنتم هنا مفترون كاذبون على الله، محاربون لدينه، وأنا لكم ناصحٌ أَمين: لا تَفتروا على الله كذباً، ولا تُحاربوا دينَه، ولا تَستجيبوا لعدوِّه فرعون!

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: معنى «يُسْحِتَ»: يُهلك ويُدمر. أي: إنَّ اللَّهَ لكم بالمرصاد، فإنْ أصررتُم على موقفكم، ولم تستمعوا لنصيحَتي، وافتريتُم على الله كذباً، فإنَّ اللّهَ سيصبُّ عليكم عذابَه، فيهلكَكم ويدمرَكم ويقضيَ عليكم، ولا يستطيعُ فرعونُ أنْ ينصرَكم ويدفعَ عنكم عذابَ الله.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾: كلُّ مَن افترى على الله كذباً فإنَّ نهايتَه هي الخيبةُ والخسارة، وهذه سنةٌ ربانية مطردة، تنطبقُ على البشريةِ في كلِّ زمان ومكان، ولا يفلتُ منها كاذبٌ مفتر.

وكأنَّ موسى بهذا يحكمُ على جهودِهم، ويَسْتَبِقُ الأَحداثَ ويَذكُرُ لهم نهايةَ المباراة، فهم مهزومون فيها، لأنهم كاذبون مفترون على الله، وقد خابَ مَن افترى، فلماذا يتحدَّوْن موسى ويحاربونه؟.

السحرة قسمان متنازعان أمام موسى:

لقد هزّتْ كلماتُ موسى عليه السلام السحرةَ هزّاً عنيفاً، وشكّكَتْهُم في جهودهم، وأَضعفَتْ هممَهم وإراداتِهم!

وحققتْ كلماتُه مفعولَها فيهم، بدليلِ اختلافِهم وتنازعِهم. قال تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٢ ـ ٦٤].

انقسمَ السحرةُ إِلى قسمين:

القسم الأول: لمستْ كلماتُ موسى اليقينيةُ السابقةُ قلوبَهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾. وشكّوا في موقفِهم، وخافوا عذابَ الله، وعزفوا عن الاشتراكِ في المباراة، ورغبوا في عدمِ مواجهة موسى.

القسم الثاني: أَصروا على موقفِهم، ورغبوا في الاستمرارِ في المواجهةِ حتى النهاية.

ويُعتبرُ انقسامُ السحرة إِلى قسمين، وهم مدعومون مِن كلِّ رجالِ ومرافقِ وإِمكانات الدولة نجاحاً لموسى، وشهادةً بحكمته عليه السلام، ولقد واجَهَ الجبهةَ المعاديةَ له وهي بهذا التنازعِ والتشكك والانقسام.

دعوة السحرة للاتفاق صفاً واحداً:

ولما لاحظَ السحرةُ المتشددون تراجُعَ الآخرين وتشكُّكَهم قاموا بتشجيعِهم وتحميسِهم على الاستمرار، وذكّروهم بخطرِ موسى عليهم وعلى مكاسبهم، ورغَّبوهم في الانتصارِ لينالوا ما وعدهم به فرعون!

قالوا لهم: لماذا ضعفتْ رغبتُكم في مواجهةِ وتحدّي موسى وأَخيه هارون؟ هل خفتُم منهما؟ هل صدَّقتم موسى في تهديدِكم بوقوع العذاب؟ هل صدَّقتم أَنهما نبيان من عندِ الله؟

كلاّ. ليسا كذلك. فما هما إِلاّ ساحران، وهما المفتريان الكاذبان على الله، وهما خطرٌ مباشرٌ عليكم وعلى وطنكم، لأَنهما يريدان أَنْ يُخرجاكم من أرضكم، ويُدمِّرا وطنكم! ويَذهبا بطريقتكم المثلى في الحياة، وهي عبادةُ فرعون، والاستفادةُ منه ومن نظامه!

ودَعْوُهُم إلى إزالة التردد، وإنهاءِ التنازع، والإقبالِ على المعركة المباراة بكلٍّ ما أُوتوا من قدرةٍ وطاقة، وتوحيدِ صفوفهم، ومواجهةِ موسى صفاً واحداً، وذلك ليفلحوا ويفوزوا: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

ونَدعو إلى ملاحظةِ التوافق بين وصْفِ جهدِ فرعون وكيده: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ وبين طلبِ السحرة المندفعين من زملائهم المتردِّدين: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

فاجتمعَ كيدُ فرعون مع كيدِ السحرة، للوقوفِ أمامَ الحق. والتعبيرُ عن الجهودِ بكلمةِ «كيد» ـ التي تُلقي ظلالَ الذمِّ والسوءِ والمكر ـ له دلالةٌ مقصودة في هذا المقام!

توجيه قراءات ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾:

ونحبُّ أنْ نقدمَ فائدةً تفسيرية في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ من حيث القراءات وتوجيهها.

ففي هذه الآيةِ ثلاثُ قراءات صحيحة:

الأولى: قراءةُ أَبي عمرو بن العلاء البصري ـ أَحَدُ القراء السبعة ـ: «قالوا: إِنَّ هذَيْنِ لساحران».

وهذه القراءةُ وفقَ القاعدةِ النحوية عند جمهورِ النحويين، في عمل «إِنَّ» وأَخواتها.

«هذَيْن»: اسمُ إِنَّ منصوب، وعلامةُ نصبه الياء، لأنها اسمُ إشارة مثنى، والمشارُ إِليهما: موسى وهارون عليهما السلام.

و«لساحران»: اللام. لامُ المزحلقة، داخلةُ على خبر «إِنَّ» للتوكيد، و«ساحران» خبر «إِنّ» مرفوع، وعلامةُ رفعه الألف، لأنه مثنى.

الثانية: قراءةُ نافع وحمزة والكسائي وابن عامر: ﴿قالوا إنَّ هذان لساحران﴾: بالألف في «هذان».

وللعلماءِ من القراءِ والمفسرين والنحويين كلامٌ كثير وأَقوالٌ عديدة، في توجيه هذه القراءة الصحيحة.

ومن أَشهرِ ما قالوه فيها أَنها جاءتْ وفقَ لغةٍ من لغات العرب، الذين يَجعلونَ إِعرابَ المثنى بالألف مطلقاً، سواء كان في حالةِ رفعٍ أَو نصبٍ أَو جر. وهي لغةُ «كنانة» القبيلةِ العربية المشهورة. يقولون: هذان رجلان. كان هذان رجلان: إنَّ هذان رجلان.

فعند هؤلاء: «إِنّ»: الثقيلة: حرفُ توكيد ونصب. و«هذان»: اسمُ «إِنّ» الثقيلة، منصوبُ بالألف، و«ساحران» خبرها مرفوع بالألف.

ولعلَّ أحسنَ ما يقالُ في توجيهِ هذه القراءة أَنَّ اسمَ الإشارة «هذان» مبني، وليسَ معرباً، لأَنَّ المفردَ منه «هذا». وبناءُ المثنى الذي مفردُه مبنيّ أَفصحُ من إِعرابه[1]!!.

الثالثة: قراءةُ ابنِ كثير وحفص عن عاصم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بتخفيفِ «إِنْ». والألف في «هذان».

ولا إِشكالَ في هذه القراءة، لأَنه عندما تخففُ «إِنْ» فالأَوْلى أَنْ تُلغى، فلا تعملُ فيما بعدها.

و«هذان» مبتدأٌ مرفوع بالألف، و«ساحران» خبره.

وعلى هذا يقولُ ابنُ مالك في الألفية:

وَخُـفِّـفَـتْ «إِنَّ» فَـقَـلَّ الـعَـمَـلُ   وَتَـلْـزَمُ الـلاّمُ إذا مـا تُـهْـمَـلُ

وهذه اللامُ هي التي في «لساحران»، وتسمى «لامَ الفرق»، وهي

(١) انظر هذا التوجيه في حاشية المحقق عمر الكبيسي على ما أورده ابن أبي مريم، حيث نسب هذا القول لابن تيمية نقلاً عن حذاق النحويين ٢: ٨٤٠، حاشية رقم (٢).

التي تفرقُ بين «إنْ» المخففة من الثقيلة الملغاة ولكنّ معناها مراد، وبين «إنْ» التي هي حرفُ نفي، وليستْ حرفَ توكيد[1].

والخلاصةُ أنَّ السحرةَ شَجَّعوا بعضَهم بعضاً على الاستمرارِ في مواجهة موسى وأَخيه، وكَرَّروا اتهاماتِ فرعونَ لهما بأَنهما ساحران مخربان!

وهكذا استعدَّ الفريقان للمباراة، السحرةُ من جانب، وموسى عليه السلام من جانب آخر، ولم يَبْقَ إلاّ البدءُ بها.

مكر السحرة في تخييرهم لموسى لبدء المباراة:

خَيَّرَ السحرةُ موسى في مَنْ يكون هو البادئ. قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ..﴾ [الأعراف: ١١٥ ـ ١١٦].

وهذا الموقفُ منهم من بابِ حربهم النفسية ضد موسى، كما فعلَ فرعونُ معه من قبلُ عندما طلبَ منه تحديدُ موعدِ المباراة الذي يناسبُه، فالسحرةُ هنا يريدونَ أنْ يُشعروا موسى عليه السلام بأنهم فائزون غالبون، ولا فرقَ عندهم بين أنْ يُلقوا ما عندهم أولاً، أَو يُلقي هو ما عندَه قبلَهم، فهم ضامنون للفوز.

ولكنَّ موسى ردَّ عليهم بكلِّ يقينٍ وثقةٍ وهدوء، ودَعاهم إلى أَنْ يُلقوا هم أَوَّلاً، فهو معتمدٌ على ربِّه، وهو موقنٌ بالفوز بإذنه سبحانه: ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ [الأعراف: ١١٦]. أو: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ..﴾ [طه: ٦٦]. أو: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الشعراء: ٤٣] أو: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يونس: ٨٠].

وهذا فيه ما فيه من ازدرائِهم، وكأَنه يقولُ لهم: ابدءُوا أنتم أَوَّلاً،

---

(١) انظر القراءات في الآية وتوجيهها في: الموضح في وجوه القراءات لابن أبي مريم ٢: ٨٣٦ ـ ٨٤٠.

وألقوا ما عندكم، ألقوا ما أنتم ملقونَ من السحر، فأنتم مهزومون.

السحرة يعتزون بعزة فرعون:

وبما أنَّ السحرةَ كانوا كافرين بالله، مؤمِنين بفرعون، معتمدين عليه، راغِبين فيما عنده، فقد توكَّلوا عليه، واستنجدوا بعزتِه!

وقد سجلَ القرآنُ عبارتَهم الغريبة التي نطقوا بها عندما ألقوا سحرهم. قال تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: ٤٤].

بعزةِ فرعون إنّا لنحنُ الغالبون؟ ومَن هو فرعون وما هي عزتُه؟ وماذا تساوي عزتُه وكبرياؤُه أمامَ عزةِ الله وقوتِه وكبريائه؟ وهل تقفُ عزةُ فرعون العبدِ المخلوقِ الضعيف أمامَ عزةِ اللّهِ الخالقِ القوي؟ وهل ينتصرُ مَن اعتزَّ بعزةِ فرعون الزائلةِ على مَن اعتزَّ بعزةِ الله الثابتة؟ صدقَ مَنْ قال: مَن اعتزَّ بغيرِ الله ذَلّ!!.

واعتزازُ السحرةِ بفرعونَ في قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يدلُّ على أنهم كانوا يَعبدون فرعون، ويَعتبرونه ربّاً وإلهاً، ولهذا اعتزّوا به، واعتمدوا على عزتِه!

حبالهم وعصيهم وسحرهم لأعين الناس:

وكان مع السحرة الكثيرُ من أدواتِ السحر، التي سَمّاها القرآنُ ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ وكانت حبالاً كثيرة وعصياً عديدة!!

وكان الناسُ يَنظرون إلى تلكَ الحبالِ والعصي، فيعجبون ويندهشون ويتأثّرون، بل إنَّ موسى عليه السلام لما نظرَ إليها تعجَّبَ وتأثّر قليلاً.

وقد أخبرَ اللّهُ عن أثَرِ حبالِهم وعصيهم بقوله: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وبقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

تتحدثُ آيةُ سورةِ الأعراف عن تأثُرِ الناسِ بحبالِهم وعصيهم، أما آيةُ سورة طه فتتحدثُ عن ما تخيَّلَه موسى منها.

والكلامُ في الآيتين عن نوعِ ذلك السحر الذي جاءَ به السحرة، وقدَّموه من خلالِ حبالِهم وعصيِّهم التي أَلقوها.

والذي يؤخَذُ من كلامِ الآيتيْن عن سحرِهم أَنه سحرٌ متخيَّل، لا حقيقةَ له، ولا رصيدَ له من الواقع، إنما يقومُ على الإيهامِ والتخييلِ والخداع، وسحْرِ العيون، وقذْفِ الرهبةِ في النفوس، بحيث يظنُّ المشاهدون وهم تحتَ تأثيرِ الرهبة أنه سحرٌ حقيقي، مع أَنه تخييلٌ وخداع!

ونَدعو إلى ملاحظةِ أَبعادِ ودلالاتِ هذه الكلماتِ في آيةِ سورة الأعراف:

كان سحرهم تخييلاً وخداعاً لأنهم استرهبوا الناس:

﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: أَي أَنهم أَثَّروا في أَعينِ المشاهدين، عن طريقِ الإيهامِ والتأثيرِ، فخطَفوا أَبصارَهم، وخلخلوا مقاييسَ الرؤية فيها، فصارتْ تتوهَّمُ أَنها ترى أشياء حية، وهي ليستْ حية، وأُصيبتْ أَعينُهم بعمى الألوان! فرأَتْ لسحرِهم حقيقةً وواقعاً، أي أَنها رأَتْ حبالَهم وعصيَّهم أفاعي وثعابين ضخمة، تتحركُ وتسعى، مع أَنها ليستْ كذلك في الواقع. وما هي إلاّ حبالٌ وعصِيٌّ جامدةٌ ساكنة!

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: مبالغةً من الرهبة التي قذفوها في نفوسِ وقلوب المشاهدين، الذين كانوا في حالةٍ نفسيةٍ خائفةٍ قلقة متأثرةٍ بالسحر، منفعلةٍ بالسحرة، وكان الناسُ في الماضي ينظرونَ للسحرةِ نظرةً خاصة، تقومُ على الخوفِ والرهبة، ويؤمنون بالسحر إيماناً كبيراً، ويُثبتونَ لأَصحابِه القدرةَ على تغييرِ الحقائق، وفعْلَ كلِّ ما يريدون!

والهمزةُ والسينُ والتاء في «استرهبوهم» تدلُّ على التأكيد، وتُثبتُ «إِرهابَ» السحرةِ للمشاهدين.

إنَّ «استرهابَ» السحرةِ للمشاهدين هو السببُ في تأثرهم النفسي، ثم في تفاعُلِ واستجابةِ أعينهم لسحرهم، ورؤيتِها الأُمورَ على غيرِ ما هي عليه، ورؤيتِها الحبالَ والعصيَّ ثعابين وأَفاعي تسعى! ولولا الاسترهابُ النفسي لما سُحِرتْ عيونُ المشاهدين.

﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾: هذه الجملةُ تعليلٌ للرهبةِ العظيمةِ التي أَصابت الناس، فقد شاهدوا سحراً عظيماً كبيراً ضخماً قدَّمَه السحرةُ أمامهم.

والتنكيرُ في ﴿بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ للتهويل والتضخيم. ويكفينا وصْفُ اللّهِ له بأَنه سحرٌ عظيم لنتصوَّرَ مدى عظمتِه وضخامتِه وكثرته. لأَنه نتيجةُ كلِّ ما جمعوه وأَعدّوه وحشدوه ومكروا به، حيث وظفوا كلَّ ما يَقدرون عليه من الأَدواتِ والأساليب، وجَنَّدوا كلَّ ما عندهم من قدرات وكفاءات، ولم يتركوا من ذلك شيئاً، وكانت النتيجةُ سحراً عظيماً!

وهذا السحرُ العظيمُ هو السببُ في استرهابِ الناس وتأثرهم وانفعالهم النفسيِّ بما هو أَمامهم، وهذا الاسترهابُ قادَ إِلى سحرِ أَعينهم، واختلالِ الرؤية فيها، ورؤيتِها الجامدَ الساكنَ ثعباناً حياً متحركاً!!

الحالة النفسية المنهارة للخائف المرهوب:

إنَّ الخائفَ المرهوبَ يرَى الأَشياءَ على غيرِ ما هي عليه، وهي حالةٌ نفسيةٌ معروفة. عَبَّرَ عنها الشاعرُ المتنبيُّ في مدْحِه لسيفِ الدولة الحمداني، حيثُ قالَ في تصويرِ مدى الخوف الذي سيطرَ على أعدائِه الروم:

وَضاقَتِ الأَرْضُ حَتّى كانَ هارِبُهُمْ   إذا رَأىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاَ

لقد كان الروميُّ الهاربُ يعيشُ حالةَ رهبة نفسية عجيبة، فإذا رأى

وهو هاربٌ يجري «غيرَ شيء» أَمامَه!! ظنّه رجلاً مهاجماً له، حاملاً سيفَه ليقتله، مع أَنه ليسَ شيئاً أساساً.

فإذا كان هذا وضعُ الخائفِ مع «غير الأشياء»، فكيفَ يرى الخائفُ المرهوبُ سحراً عظيماً أمامه، متمثلاً في حبال وعصي؟؟

قال سيد قطب عن ظلال قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾: «وحَسْبُنا أنْ يقررَ القرآنُ أنه سحرٌ عظيم، لندركَ أيَّ سحرٍ كان، وحَسْبُنا أنْ نعلمَ أَنهم سَحروا ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، وأَثاروا الرهبةَ في قلوبهم: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ لنتصوَّرَ أيَّ سحرٍ كان. ولفظُ «استرهبَ» ذاتُه لفظٌ مصوِّر. فهم استجاشوا إِحساسَ الرهبةِ في الناس، وقَسَروهم عليه قسراً. ثم حَسْبُنا أنْ نعلمَ من النصِّ القرآني الآخر في سورةِ طه، أنَّ موسى عليه السلام قد أوجسَ في نفسه خيفة، لنتصورَ حقيقةَ ما كان»[1].

خيل السحر لموسى ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾:

ومما يدلُّ على أنَّ سحْرَ السحرة في تلك المباراةِ كان تخييلاً وخداعاً وليست له حقيقةٌ واقعية هو ما ذكرتْه آيةُ سورة طه، من أنَّ موسى نفسَه عليه السلام تخيَّلَ أنَّ حبالَهم وعصيَّهم أَفاعيَ تسعى!!:
﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

الضميرُ في ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يَعودُ على موسى عليه السلام. و﴿يُخَيَّلُ﴾ مضارعٌ مُسْنَدٌ لغيرِ الفاعل، وفاعلُه محذوف. وتقديرُ الفاعل: فإذا سحرُهم يُخَيِّلُ لموسى أنَّ حبالَهم وعصيَّهم أفاعي تسعى، وليستْ مجردَ حبالٍ وعصيّ!!

وإذا كان سحرُهم يُخَيِّلُ لموسى عليه السلام أنَّ حبالَهم وعصيهم أفاعي تسعى، وهو الرسولُ المؤيَّدُ بالوحي، فكيفَ بالناسِ المشاهدين

---

(١) في ظلال القرآن ٣:١٣٤٩.

غيرِ المؤمنين الخاضعين لسلطانِ السحرِ والسحرةِ؟ ليس غريباً أنْ «يسترهبَ» السحرةُ هؤلاء الناس، وأنْ يَسحروا عيونَهم.

والخلاصةُ أنَّ السحرَ الذي قَدَّمَه السحرةُ في تلك المباراة من خلال الحبال والعصي كان من بابِ التخييل والخداع، وليسَ له رصيدٌ من الواقع، فكان ما معهم حبالاً وعصياً حقيقية ماديةً جامدة، وبقيتْ هكذا، حتى لما أَلقوها لم تتغيّر، فهي حبالٌ وعصي، لكنَّ المشاهدين تخيَّلوها أفاعي، حتى موسى عليه السلام تخيَّلَها أفاعي تسعى للحظات!!

السحر نوعان: تخييلي، وحقيقي ضار بإذن الله:

ونستدركُ قائلين: إنَّ هذا لا يعني أنَّ كلَّ السحرِ هو تخييلٌ وخداع ولا حقيقة له. فالراجحُ أنَّ السحرَ نوعان:

الأول: سحرٌ قائمٌ على خفةٍ ومهارةِ الساحر، وقدرتِه على خداعِ المشاهدين وسحرِ عيونهم، وتخييلِ الأمْرِ لهم على غيرِ صورتِه المادية، وما يقدِّمُه من سحرٍ ليس له رصيدٌ من عالمِ الواقعِ والحقيقة. وهذا معظمُ ما يقدِّمُه السحرة. ومن هذا النوع سحْرُ السحرةِ أَمامَ موسى عليه السلام.

الثاني: سحْرٌ له حقيقةٌ ورصيدٌ من الواقع، وقد يغيِّرُ الساحرُ بعضَ الأشياء بإذن الله، وهذا السحرُ قد يضرُّ مَنْ وُجِّهَ له ويُؤذيه، لكنْ بإذنِ الله أيضاً.

ومن هذا النوعِ سحْرُ أهلِ بابل الذي تعلَّموه من هاروت وماروت، حيث كانوا يُفرقون به بين المرءِ وزوجه بإذن الله، ويضرّون به الآخرين بإذن الله. قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ

وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الخيفة التي أوجسها موسى في نفسه:

ماذا فعلَ موسى عليه السلام عندما شاهدَ ما شاهد؟

تدسَّسَ الخوفُ إلى نفسه قليلاً. فأدركَه التثبيتُ سريعاً من الله! قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٨].

والتوجُّسُ لا يكونُ إلاّ مقترناً بالخوف، وهو يكونُ في النفس، فهو حالةٌ نفسيةٌ شعورية، وإذا تعمقَتْ في النفوس والشعور أدَّتْ إلى الخوفِ الفعلي، الذي يَنتجُ عنه التخلّي والتركُ للفعل.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن التوجس: «الوَجَسُ: الصوتُ الخفيّ، والتوجُّس: التَّسَمُّع. والإيجاس: وجودُ ذلك في النفس. قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. قالوا: فالوجَسُ هو حالةٌ تحصلُ من النفس بعد الهاجس، لأنَّ الهاجسَ مبتدأُ التفكير، ثم يكونُ الواجس ثم الخاطر»[1].

فالتوجُّسُ مبنيٌّ على الهاجس، وهو نداءٌ نفسيٌّ خفي، ووسواسٌ نفسيٌّ داخلي، يكونُ بسببِ مرورِ الإنسانِ بحالة معينة.

لقد أَوجسَ موسى خيفةً في نفسه. ومن دقةِ التعبيرِ القرآني أنه عبَّرَ عن توجُّسِه بكلمةِ «خيفة» وليسَ بكلمةِ «خوف».

وفرْقٌ بين الخوفِ والخيفة.

قال الإمام الراغب: «الخوف: تَوَقُّعُ مكروهٍ عن أَمارةٍ مظنونة أو معلومة..».

«والخيفة: الحالةُ التي عليها الإنسانُ من الخوف، قال تعالى:

---

(١) المفردات: ٨٥٥.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾.

«والتّخوُّف: ظهورُ الخوفِ من الإنسان..»[١].

فالتعبيرُ عن الحالةِ العَرَضيةِ التي مَرَّتْ بموسى عليه السلام بكلمةِ «خيفة» بَدَل «خوف»، وتعيينُ هذه الحالة بأنها كانتْ في نفسِه، يشيرُ إلى أنها كانتْ حالةً نفسيةً عرضية سريعة، سرعانَ ما زالَتْ وتلاشت، وحلَّ محلَّها يقينُه وثقتُه وثباتُه، وهذا التوجُّسُ النفسيُّ لم يؤثِّرْ على موقفِه وتحدّيه، ولم يتحوَّلْ إلى «خوفٍ» وجودي، ينتجُ آثاراً عملية سيئة!!

الله يتدارك موسى ويثبته لأنه الأعلى في كل شيء:

ثم إنَّ هذه الخيفةَ النفسيةَ سرعان ما زالت، عندما تداركَ اللّهُ موسى، وعافاه منها، وقال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وتدارُكُ اللّهِ لموسى في لحظةِ التحدي الكبير والمواجهةِ الخطيرة يؤكِّدُ ما قالَه له من قبل: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

قالَ اللّهُ لنبيه عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا تخفْ يا موسى من سحرِهم وحبالِهم وعصيهم، ولا تخفْ من كيدِهم وحشدهم، ولا تخفْ من اعتزازِهم بفرعونَ المتكبرِ المستعلي! إنكَ أنتَ الأَعلى! أنت الأعلى من الحاضرين، والأَعلى من السحرة المتآمرين، والأَعلى من الملأ الموجودين، والأَعلى من فرعون نفسِه المستكبرِ المنتفش أمامك، أنت الأعلى مِن كلِّ مَنْ أمامك، وما معك هو الأَعلى من كلِّ ما هو معهم!

أَنت الأَعلى بالحقِّ الذي معك، مقابلَ الباطلِ الذي معهم، وأَنتَ الأَعلى بالإيمان الذي معك، مقابلَ الكفرِ الذي معهم، وأنت الأَعلى

---

(١) المرجع السابق: ٣٠٣.

بالیقینِ الذي معك، مقابلَ الشكِّ والتنازعِ الذي معهم.

وقبلَ هذا كلّه أنت الأَعلى لاتصالِك بالله ربِّ العالمين الأعلى، واعتمادِك عليه، مقابلَ اتصالهم هم بفرعونَ واعتزازِهم، فماذا يُساوي فرعونُهم الأدنى أَمامَ ربك الأَعلى، الذي معك يسمعُ ويرى؟ لهذا لا تخفْ يا موسى، فإنك أَنتَ الأَعلى!

قال سيد قطب: «لا تخفْ إنك أنتَ الأَعلى، فمعكَ الحق ومعهم الباطل، معك العقيدةُ ومعهم الحرفة، معك الإيمانُ بصدقِ ما أنتَ عليه، ومعهم الأَجرُ على المباراةِ ومغانم الحياة، أنتَ متصلٌ بالقوة الكبرى، وهم يَخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً، مهما يكن طاغيةً جباراً..»[1].

زالتْ خيفةُ موسى السريعة عليه السلام، وحلَّ محلَّها يقينُه بأنه هو الأَعلى، وعاشَ موسى لحظتَها حالةً متألقةً متوهجةً من «استعلاء الإيمان»! ونظرَ من «عُلُوِّ نفسي» متألقٍ إلى مَنْ حوله، مِن فرعون وملئِه وجنودِه وأتباعه وسحرته، فإذا به يراهم أَقزاماً، ويرى نفسَه «الأَعلى» منهم لاتصالِه بالله. ونظرَ أَيضاً من عُلُوٍّ نفسيٍّ إلىَ ما قدمَه السحرةُ من حبالِهم وعصيهم، فإذا به يراها على حقيقتِها وتفاهتِها، وما هي إلاّ «فقاعاتٌ فارغة»، وزبدٌ منتفش، سرعانَ ما يذهبُ هباءً.

موسى يهز نفسيات السحرة ثم يلقي عصاه:

وقبلَ أنْ يلقيَ موسى عصاه، توجَّهَ إليهم قائلاً: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

إنهُ كلامُ الواثقِ الثابت، يهزُّ الطرفَ الآخرَ هزّاً، رغمَ ما قدّموه من سحرٍ عظيم. يخبرُهم أنَّ ما قدَّموه فهو سحرٌ وخداعٌ وتخييلٌ وتزييف، ليس له وجودٌ ولا حقيقة، ومن ثم ليس له أثرٌ ولا تأثير.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٤٢.

وهو يخبرُهم بأنه يواجهُهم ويتحدّاهم معتمداً على اللّهِ ربِّ العالمين، وإنّ اللّهَ سيبطلُ سحرَهم العظيم، ويكشفُ ما فيه من تزييفٍ وخداع، وإنّ اللّهَ سينصرُه هو عليهم.

ويقدِّمُ لهم ـ ولَنا من بعدهم ـ سنةً ربانيةً مطردة، تَحكمُ حياةَ الناس أينما كانوا، وهي أنَّ اللّهَ لا يُصلحُ عملَ المفسدين، ولا يؤيِّدُهم ولا يوفقُهم، وإنما يُبطلُ أعمالَهم، ويَجعلُهم يخسرون ويفشلون، ثم يندمون ويتحسرون.

وبما أنَّهم سحرةٌ مفسدون، فإنَّ الله لا يصلحُ عملهم، وبما أنَّ فرعونَ الذي يعتزّون به مفسدٌ، فإن اللّهَ لا يُصلحُ عملَه!.

عندَ ذلك أمرَ اللّهُ موسى عليه السلام أنْ يلقيَ عصاه التي في يمينِه.. لقد كانت العصا في يمينه، وكان المشاهدون جميعاً ينظرونَ إلى موسى، ليعرفوا ماذا سيفعل أمام السحر العظيم، أمامَ الحبالِ والعصيّ التي رأَوها تسعى.

لقد سمعوا عن عصاهُ الخشبيةِ التي تتحوَّلُ إلى أفعى تسعى، لكنها ماذا ستفعلُ أمامَ الأفاعي الكثيرةِ الضخمةِ التي تَسعى؟

وأَلقى موسى عصاه، وتحوَّلَتْ إلى ثعبان مبين، ووقعت المعجزةُ الباهرة، ولقفتْ كلَّ ما قدَّمه السحرةُ من حبالٍ وعصيّ، وعرفَ السحرةُ الحق، وأَنه مع موسى وليس معهم، وأَشرقَتْ قلوبُهم بالإِيمانِ فخرّوا ساجدين لله، وأَعلنوا إيمانَهم بالله!!!

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٦٩ ـ ٧٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ

صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٥ ـ ٤٨].

كان موسى عليه السلام يمسكُ عصاهُ بيده اليمنى، وكانت الأَنظارُ متوجهةً إليه، تنتظرُ ما سيفعلُه، فأمَرَه اللّهُ بإلقاءِ عصاه من يمينه على ما أَمامه من حبالٍ وعصي: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾.

عصا موسى ثعبان تلقف ما يأفكون:

ونظرَ المشاهدون جميعاً إلى عصاه، فإذا بها تتحولُ إلى ثعبانٍ مبين، وأَفعى حقيقية، وشاهدوا الحيةَ التي صارتْ تسعى، إِنها تسعى سعياً حقيقياً، وفيها حياةٌ حقيقية، وليس الأمرُ سحراً ولا تخييلاً كما في الحبال والعصي..

ونظرَ القومُ إلى الحية التي تسعى، فإذا بها تهجمُ على ما أَمامَها من حبالٍ وعصي، فتلقفها واحدةً واحدة، حتى أتتْ عليها كلِّها وابتلعَتْها، ولم تُبقِ منها واحدة.

دهشَ القومُ مما يرون، إنَّ ما ألقاه موسى عصا، تحولَتْ إِلى أفعى، وقضَتْ على كلّ ما أَمامها، فليس الموضوعُ موضوعَ سحر، إنما هو حقيقة، وموسى ليس ساحراً إذن!!

لقد أخبرَ اللّهُ موسى أنَّ عصاه ستلقفُ ما أَلقاهُ السحرة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وما ذكره اللّهُ لموسى تعليلٌ لسببِ قضاءِ العصا على ما أَلقوه، لأنَّ كلَّ ما قدموه إِنما هو سحر، وهو ثمرةٌ لكيدِهم وباطلِهم، وإِنَّ الساحرَ لا يفلحُ أَبداً، ولهذا لم يُفلحوا.

أَلم يقلْ موسى عليه السلام للسحرة هذه الحقيقة قبلَ قليل؟ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١].

حكمة التعبير عن ابتلاعها باللقف لما يأفكون:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني عن حادثةِ قضاءِ العصا الحية على الحبالِ والعصي، أنه ركَّزَ على «اللقف».

ففي سورة الأعراف قال: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

وفي سورة طه قال: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾.

وفي سورة الشعراء قال: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنَّ «تَلْقَف» لم يَرِدْ في القرآن إلاّ في هذه المواضعِ الثلاثة.

فما هو معنى «اللَّقْف»؟

اللطيفُ في معناه ما ذكَرَه الإمامُ الراغب: «لَقِفْتُ الشيءَ أَلْقَفُه، وتَلَقَّفْتُه: تناوَلْتُه بالحذق، سواءٌ في ذلك تناولُه بالفمِ أو اليد..»[1].

فاختيارُ فعل «تَلْقَفُ» للتعبيرِ عن ابتلاعِ العصا الحية للحبال والعصي مرادٌ مقصود. لأَنه يدلُّ على مهارةِ العصا الحية وحذقِها في الْتقافِ والتقام الحبالِ والعصيّ. لقد ابتلعَتْها بحذقٍ وإتقان، وتلذُّذٍ وتفنُّن، وسطَ أنظارِ المشاهدين المشدوهة!

وهذا ليعرفوا أَنها تلقفُ ما أَمامها لَقْفاً حقيقياً، وتتناولُه بحذق، وتبتلعُه بمهارةٍ وإتقان، وتُدخلُه جوفَها، وكأَنَّهم يسمعونَ صوتِ ازدرادِ العصا الحية لما تلقَفُه، وكأنهم يسمعونَ صوت سيرِ ما تلقَفُه في جوفها، فالأمْرُ حقيقةٌ وليس تخييلاً.

---

(١) المفردات: ٧٤٤.

وإذا كان القرآنُ قد عبَّرَ عن ابتلاعِ العصا الحية بفعلِ «تَلْقَفُ» الدالّ على الحذقِ والمهارة، فإنه عبَّرَ عن حبالِهم وعصيهم بلفظ «يأفكون».

ووردَ هذا في سورتين: الأعراف والشعراء: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

والإفكُ هو الكذبُ والافتراء. وما قدمَه السحرةُ لم يكن حقيقةً، وإنما كان إِفكاً وكذباً، ولا بدَّ أنْ يزول!

ألمْ ينصحْهُم موسى عليه السلام قبلَ إِلقائهم إفكهم؟ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١)﴾.

والآنَ ها هو قد تحققَ ما حذَّرَهم منه، وها هي العصا الحية تلقفُ ما يأفكون، وتَقضي على ما يَفترون ويكذبون!!

الحية تعود عصا بعدما لقفت ما يأفكون:

والمثيرُ هو أينَ وضعت العصا الحيةُ ما لقفَتْه وابتلعَتْه من الحبالِ والعصيّ؟ لقد كان ما قدَّمَه السحرةُ سحراً عظيماً، وألقوا «كَمّاً» كبيراً من الحبالِ والعصيّ. ولعلَّه كان يَزِنُ «أطناناً»!

وها هي العصا الحيةُ تلقفُ وتبتلعُ كلَّ هذه الأطنان! فأينَ وضعَتْها؟ وما هي معدتُها التي حوَتْها؟

وبينما دهشَ وفوجئَ الحضورُ جميعاً بهذا المنظر، كانت دهشتُهم أكبرَ عندما شاهدوا الحيةَ الكبيرة تتوقفُ بعدما لقفَتْ ما أَمامَها، فيُقبلُ عليها موسى عليه السلام بدونِ خوف، ويمسكُها بيدِه، ويحملها، ويرفعُها أَمامَهم، إِنها أفعى وهي لا تلدغُه.

ثم كانت دهشتُهم مضاعفة، عندما شاهَدوا الحيةَ تتحولُ في يدِ موسى إِلى عصا خشبية، كما كانت.

إنَّ الأمْرَ أمْرُ الله وليس أمْرَ موسى عليه السلام، فاللّهُ هو الذي نفخَ فيها الحياةَ أمامَ الناظرين، واللّهُ هو الذي سلبَها الحياةَ أمام «المندهشين».

وما موسى عليه السلام إلاّ سبب، أَجرى اللّهُ الآيةَ المعجزةَ على يديه.

انتصار الحق وهزيمة فرعون وملئه:

بهذا المشهدِ المثيرِ نَصرَ اللّهُ الحق، وهزمَ الباطل: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

إنَّ الكلامَ هنا عن فرعون وملئِه وجنوده، فعملُهم هو الذي بطلَ وزال، مِن حشدِهم وحشرِهم للسحرة حتى لَقْفِ العصا الحية لسحرِ السحرة، وبذلك غُلبوا وهُزموا، وانْقَلبوا صاغرين أذلاء، خاسئين مهانين.

وهكذا هزمَ اللّهُ فرعونَ الطاغيةَ المتجبرَ المستكبر، وظهرتْ هزيمتُه أَمامَ ملئِه وجنوده وقومه..

وهكذا «انقلبَ السحرُ على الساحر» كما يقولون، فقد حشدَ فرعونُ الناسَ ليشهدوا هزيمةَ موسى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾. وإذا بهم يشهدونَ هزيمةَ فرعونَ نفسِه، وهزيمةَ نظامه!

قال سيد قطب: «إِنه الباطلُ، ينتفش، ويسحرُ العيون، ويسترهبُ القلوب، ويخيَّلُ إِلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه مُحيق، وما هو إلاّ أَنْ يواجِهَ الحقَّ الهادئَ الواثقَ حتى ينفثئَ كالفقاعة، وينكمشَ كالقنفذ، وينطفئَ كشعلةِ الهشيم! وإذا الحقُّ راجحُ الوزن، ثابتُ القواعد، عميقُ الجذور.. والتعبيرُ القرآني هنا يُلقي هذه الظلال، وهو يصوِّرُ الحقَّ واقعاً ذا ثِقَل: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾.. وثبت، واستقر.. وذهبَ ما

عداه فلم يَعُدْ له وجود: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وغُلِبَ الباطلُ والمبطلون، وذُلّوا وصُغِروا وانكمشوا بعد الزهوِ الذي كان يبهرُ العيون..»[1].

السحرة يسجدون ويؤمنون برب العالمين:

وأكثرُ المواقفِ دهشةً وانفعالاً، ومفاجأةً وتأثيراً، في هذا المشهدِ العجيبِ المثير ـ مشهدِ المباراة والتحدي ـ كان موقفَ السحرة، وردَّ فعلهم على ابتلاعِ عصا موسى لحبالهم وعصيهم.

لقد دخلَ الإيمانُ قلوبَهم فأنارها وشعشعَ فيها، وفكَّروا في لحظةٍ في ما يشاهدون، إذ كيفَ تبتلعُ عصا موسى ما قدَّموه؟

إنهم يعلمونَ أنَّهم سحرة، وأنَّ ما قدَّموه من حبالٍ وعصي كان سحراً، وهم ماهِرون في السحر، مُتقنون له، عالمون به.

ولما شاهَدوا عصا موسى تتحولُ إلى أفعى تَسعى، علموا أنَّ الأَمْرَ ليس سحراً، وإنما هو على الحقيقة، فلو كان سحراً وتخييلاً وخداعاً لعرفوه.

ولمّا شاهدوا هذه الأفعى الحقيقيةَ تلقفُ كلَّ ما قَدَّموا حقيقة، علموا أَنَّ وراءَ الأمر ما وراءه، وأنَّ الدعوى التي يقدمُها موسى صحيحة.

علموا في لحظةٍ إيمانية أنَّ الذي حَوَّلَ العصا أَفعى ليس موسى، بل اللّهُ الخالقُ، الذي نفخ فيها الحياة، وعلموا في لحظةٍ أنَّ اللّهَ القادرَ هو الذي جعلَها تلقفُ كلَّ ما أَمامَها من حبالٍ وعصي.

إذن: إنَّ الإلهَ والربَّ ليس فرعونَ المتأله، وإنما اللّهُ ربُّ العالمين، وموسى وهارون صادقان في دعوى النبوة، واللّهُ ربُّ العالمين هو الذي أرسلَهما وبعثَهما، ودليلُ ذلك الآيةُ البينةُ التي أجراها اللّهُ على يد موسى.

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٥٠.

هذا التفكيرُ الإيمانيُّ السريع فكَّرَ فيه السحرةُ في لحظة، ثم أتْبعوه بخطوةٍ عملية، حيثُ قاموا بحركةٍ مثيرة أَمامَ المشاهدين جميعاً، فرعونَ والملأ والجنودِ والمدعوين، حيث خَرّوا ساجدين، للّهِ رب العالمين، وأَعلنوا إِيمانهم بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون. قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾!!

[٦]

من سحرة إلى شهداء بررة

كانت نتيجةُ التحدي بين موسى والسحرة انتصارَ الحق وهزيمةَ الباطل، وانحيازَ السحرةِ إِلى جانب الحق، بعدما كانوا منحازين إِلى جانبِ الباطل الفرعوني.

كان السحرة مرتزقة عابدين لفرعون:

جاءَ السحرةُ فرعونَ «مرتزقة»، طالبين أَجْره، راغبين في دنياه، قائلين له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؟

ورغَّبهم فرعونُ بقوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

وتواصَوْا بالاجتماعِ والاتفاقِ قُبيل إِلقاءِ سحرهم، وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

وكانوا مؤمنين بفرعون، عابدين له، متوكِّلين عليه، معتزِّين به، ولما أَلقوا حبالَهم وعصيَّهم اعتزّوا واستنجدوا به: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ولكنهم فوجئوا بعصا موسى الحيةِ تلقفُ ما يأفكون، وتبتلعُ

حبالَهم وعصيَّهم في لحظة، ثم تعودُ عصا خشبيةً يابسة!

عندها فكروا لحظة: إنَّ ما مع موسى ليس سحراً، وإنما هو من أَمْرِ الله، فاللّه هو الذي جعلَ العصا حية، وهو الذي أَمرها بلقْفِ ما أَلقَوْا من سحر، وهو الذي أَعادَها عصا.

فتحولوا إلى مؤمنين بالله:

وخرجوا بِنَتيجَةٍ يقينية: موسى رسولٌ من عندِ الله، واللّهُ هو ربُّ العالمين، وموسى على الحق. أما فرعونُ فإنه ليس ربّاً ولا إلهاً، وإنما هو كاذبٌ كافرٌ مفتر، فهو على باطلٍ وضلال.

وخطا السحرةُ خطوةً عمليةً يقينية مثيرة، لأَنهم لا يريدون أنْ تبقى معرفتُهم بالحقِّ ذهنيةً نظرية، وإنما يُتبعونها العملَ الواقعي.

فاجأَ السحرةُ فرعونَ وملأَه وجنودَه بسجودِهم وإعلانِ إيمانهم: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢].

لقد أَقدمَ السحرةُ على هذه الخطوةِ وهم يعلمون خطورةَ ما هم مُقْدِمون عليه، لكنهم كانوا صادقين في إيمانهم القوليِّ والفعلي.

يَعرفونَ فرعونَ وطغيانَه، وظلمَ واستبدادَ ملئه، ويَعرفون أَنهم مُقْدمون على التعذيبِ الرهيب، وأَنهم بإيمانِهم خسروا ما عندَ فرعون من مالٍ وجاهٍ ومركز وقربى!!

وإيمانهم العلني فضيحة لفرعون:

لكنهم يَعرفون الثمنَ الكبيرَ الذي ينالونَه من اتِّباعهم لموسى عليه السلام، إنهم ينالونَ ما عندَ الله، ويكسبون فضلَه ورضاه، وهذا هو الفوزُ الكبير.

إنه الصدقُ في الإيمان، والصدقُ في اختيارِ الحق، والصدقُ في الالتزامِ به بعد معرفته.

إنِ اللّهَ يمكرُ بفرعون، ويقلبُ كيدَه عليه، ويذيقُه مُرَّ الهزيمة، فقد أَرادها فرعونُ «مظاهرةً» إعلاميةً إعلانية، ليتشفّى في موسى أَمامَ الجماهير التي حشدَها، ولتزدادَ تلك الجماهيرُ إيماناً به وبقوته وقدرته، وحرصاً على عبادتِه وتأليهه.

فجعلَ اللّهُ الحشدَ والميدانَ دليلاً على «فضيحةِ» فرعون، فها هم رجالُه من السحرة ـ وهو الذي حشرَهم وجمعَهم واختارَهم ـ يشهدون بأَنَّ موسى رسولٌ صادق، وأَنَّ اللّهَ ربُّ العالمين، وها هم يعلنونَها صراحةً أَمامَ الجميع!

لقد هزتْ نتيجةُ التحدي فرعونَ هَزّاً عنيفاً، وهَزَّت الملأَ والجنود، وهُزِمَ فرعونُ وملؤُه هزيمةً بالغة. وغادرَ الناسُ ميدانَ المعركة وهم شامتون بفرعون، يتندَّرونَ به، ويسخرونَ منه!!

فرعون يلومهم لعدم استئذانهم له:

ما هي خطوةُ فرعون التالية؟

إنّه سيتوجَّهُ إلى السحرة الذين آمنوا بالسِّبابِ والشتم، وباللومِ والتقريع، وبالاتهامِ والتهديدِ والوعيد.

أولُ ما فعلَه أَنه أنكرَ عليهم إيمانَهم قبلَ استئذانهم منه!!. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ [الأعراف: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ [طه: ٧١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ [الشعراء: ٤٩].

وإنكارُه عليهم إيمانَهم قبلَ استئذانهم منه من باب طغيانِه واستكباره، وهو أَمْرٌ في غايةِ السماجة والوقاحة!!

إنه يعتبرُهم موظَّفين عنده، بل عبيداً له، والعبدُ لا يفعلُ شيئاً إلاّ بأمْرِ سيدِه، ولا يتحركُ إلا بإذنه.

إنه «يسحقُ» شخصياتِهم، ويُلغي وجودَهم، ويَحرمُهم الحقَّ في اختيارِ ما يريدون، وفعْلِ ما يختارون! حتى لو كان الأمْرُ فكراً ومبدءاً!!

قلوبُهم لا تنبضُ إلاّ بإذنه، ولا تتوجَّه إلا إليه، وعقولُهم لا تفكرُ إلاّ بما يُريد، ومشاعرهم لا تكونُ إلاّ على ما يرضى، ومن ثم تكونُ حركاتُهم وأفعالُهم محكومةً برغبتِه وإِذنِه ورضاه.

فكيف الآنَ يخالفون إرادتَه؟ وكيف يسمحونَ لقلوبهم وعقولهم ومشاعرِهم وأرواحِهم أنْ تتحركَ بدون إذنه؟ وكيف يجرءون على الإيمانِ قبلَ استئذانه؟

وهل يحتاج الإيمان إلى استئذان؟:

إنَّ فرعونَ الطاغيةَ المستبدَّ لا يعرفُ أنَّ النورَ والضياءَ لا يَستأذنُ ليصلَ القلبَ المتوجِّهَ إليه، ولا يعرفُ أنَّ القلبَ لا يحتاجُ إلى إذنٍ ليتقبَّلَ الإيمانَ والنور، فما هي إلاّ «ومضةٌ» تضيءُ جوانحَ القلب، فتبددُ ما فيه من ظلام، وتجعلُه يختارُ الإيمان. إنه لا يعرفُ أنه قد يتحكمُ في جوارحِ الناس، وأنَّ له سلطاناً على أَجسامهم، لكنه لا سلطانَ له على قلوبهم ومشاعرهم، وعقولهم وأرواحهم.

ولهذا إِنكارُه على السحرة إيمانَهم قبلَ استئذانه أَمْرٌ في غايةِ السماجةِ والوقاحة.

إنَّ نظرةَ فرعون لهذه المسألة، واشتراطَه استئذانَه للإيمان، هي نفسُها نظرةُ كلِّ طاغيةٍ ظالم مستبدٍّ من الحكام، فهم يريدون من أَتْباعِهم أنْ يكونوا عبيداً لهم، وأنْ يكونوا أصفاراً، أو «دُمىً» متحركةً أمامهم، تكونُ أفكارُهم واختياراتُهم وأقوالهم وأفعالهم وفقَ ما يريدونَ لهم، ويشترطون حصولَهم على الإذنِ المسبقِ منهم، قبلَ أن يفكِّروا ويختاروا، وقبلَ أنْ يُحبوا ويَكرهوا، وقبلَ أنْ يقولوا ويفعلوا!!

الفرق اللطيف بين «آمنتم به» و«آمنتم له»:

وهناكَ لطيفةٌ قرآنيةٌ في تسجيلِ إنكارِ فرعونَ على السحرة إِيمانهم، فقد اختلفَ تعبيرُ القرآن عن ذلك.

في سورةِ الأعراف قال تعالى: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾.
وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾.

فما حكمةُ هذا الاختلافِ في التعبير؟

فرْقٌ بينَ أنْ يتعدّى فعْلُ «آمَنَ» لما بعدَه بحرفِ اللاّم، وأنْ يتعدّى بحرفِ الباء.

«آمنَ به» معناه: صَدَّقَه، وأَيقنَ أنه على حق.

و«آمن له» معناه: وثقَ به واستسلمَ به واتَّبعه، وأسلمَ له قيادَه، وصارَ جندياً مطيعاً له.

وهما مرحلتان متعاقبتان، فالإنسانُ يؤمنُ بالإنسانِ أَوَّلاً ويصدقُه ويثقُ به، ثم يؤمنُ له ويتبعُه بعد ذلك، وإذا لم يؤمنْ به فإنه لنْ يؤمنَ له.

ولذلكَ قال في سورة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾. أي: صدَّقْتموه وأَيقنتم أنه نبيٌّ رسول.

ثم قالَ في سورة الشعراء: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾. أي: اتبعتُموه وأعطيتمُوه قِيادَكم وولاءَكم.

وسورةُ الأعراف في ترتيبِ المصحف قبلَ سورةِ الشعراء، ولهذا ذَكرت المرحلةَ الأولى ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، بينما ذَكرتْ سورةُ الشعراء المرحلةَ الثانية ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾.

وهذا من دقائقِ التعبيرِ القرآني، وسبحان منزلِ القرآن!.

اتهام فرعون لهم بالتلمذة على موسى في السحر:

وبعدما أنكرَ فرعونُ على السحرة إِيمانَهم بموسى واتباعَهم له، صارَ يتهمُهم عدةَ اتهامات.

اتهمَ موسى بأنه «الساحرُ الكبير»، الذي علَّمهم السحر، وهم سَحرةٌ صغارٌ عنده، تلاميذٌ بين يديه: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

كانوا عند دخولِهم المباراةَ سحرةً كباراً في عرف فرعون، وهو لم يحشرْهم من المدائنِ إلاّ لأنهم سحرةٌ كبار، وكلٌّ واحدٍ منهم ساحرٌ سَحّارٌ عليم.

أما الآن، فقد أَصبحوا سحرةً صغاراً، وتلاميذَ جهالاً يتلقون دروسَ السحرِ على يدِ كبيرِهم موسى!!

ما هذا المنطقُ الفرعونيُّ العجيب؟.

ومن لطائفِ التعبيرِ في سورة الشعراء، أَنه وردَ فيها قولُ الملأ لـفـرعـون: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٦ ـ ٣٧].

بينما وردَ في سورة الأعراف قولهم: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٢].

ولم يكن العدولُ في سورةِ الشعراء عن ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ إلى ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ مصادفةً، وإنما لقصد.

ولعلَّ من حِكَم ذلك أنَّ آياتِ سورة الشعراء ستسجِّلُ اتهامَ فرعون للسّحارين العليمين بأنهم سذَّجٌ أَغرارٌ جهلاء، جاءوا ليتتلمذوا على يدِ كبيرهم موسى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

لم يكونوا في عرفِ فرعونَ ساحرين فقط، بل كانوا «سَحّارين» فكيف صاروا الآن تلاميذَ جهلاء؟.

ثم اتهمهم بالتآمر على الوطن مع موسى:

ثم اتهمهم فرعونُ بعد ذلك اتهاماً آخر أخطر، اتهاماً أمنياً وطنياً.

قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣].

قالَ لهم: إنَّ هذا الموقفَ الذي وقفتموه، والذي أَيَّدتم فيه موسى خيانةٌ وطنية، وأنتم خائنون لوطنكم، متآمرون مع موسى، وهو أجنبيٌّ دخيلٌ قادمٌ من مَدْيَن.

لقد اتفقتُم معه على هذه الخيانة، ومكرتُم معه هذا المكر، ومكْرُكم مع موسى موجَّهٌ ضدَّ الوطن، وضدَّ النظام، وضدَّ الدولة، وضدَّ الأمة، فأنتم مفسدون مخرِّبون، تريدونَ تخريبَ البلاد وإِخراجَ أَهْلِها منها، وتحويلَهم إِلى مشرَّدين.

وهي التهمةُ نفسُها التي اتهمَ فرعونُ موسى بها عندما قابلَه أولَ مرة، فقد قالَ للملأ عن موسى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤ ـ ٣٥].

وقال الملأُ لوجوهِ القوم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠].

فموسى يريدُ أنْ يُخرجَ أهلَ مصر من أَرضهم بسحرِه، وموسى تمكَّنَ من كسبِ السحرةِ إِلى جانبه، وحَوَّلَهم إِلى عملاء له، فاتفقوا معه على إِخراجِ الناسِ من أرضهم.

وبما أَنَّ موسى أَجنبيٌّ دخيل، فإِنَّ السحرةَ عملاءُ للأجنبي، متصلون بالعدوِّ الخارجي، خائنون لوطنهم وأمتهم. ولا بدّ أنْ يُقضىٰ عليهم بتهمة «الخيانة العظمى»!!

وهي تهمة كل طاغية ضد الدعاة:

وهذه التهمةُ الفظيعةُ التي وجَّهها فرعونُ للسحرةِ المؤمنين هي

نفسُها التهمةُ الفظيعة التي يوجِّهُها كلُّ حاكمٍ طاغيةٍ مستبدٌ ظالمٍ للدعاة المصلحين في بلاده.

إنه يطعنُ في «وطنيتهم»، ويَعتبرُهم أعداءَ للوطن، مُتآمرين على منجزاته، عُمَلاءَ للأعداء، مُتصلين بالأجانب، من أَجلِ تخريبِ الوطن وإِرهابِ أهله!!

هي تهمةُ كلِّ طاغية مستبدٌ ضدَّ الدعاة المؤمنين الصالحين، بدأَها فرعونُ الظالم، ويرددُها كلُّ ظالمٍ من بعده.

وبما أنَّ السحرةَ عملاءُ للعدوِّ الخارجي موسى، خائنون لوطنهم فلا بدَّ أنْ يقضيَ فرعونُ عليهم. ولهذا هدَّدَهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وهدَّدَهم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

وبقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

فرعون يهدد بتعذيب السحرة:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: خطورةَ ما أَقدمتُم عليه، وستدفعونَ ثمن ذلك عالياً غالياً باهظاً، ستدفعونَ حياتَكم مقابلَ ذلك، فكيف تجرَّأْتُم على مخالفةِ رغبتي؟ وكيف قمتم بمواجهتي؟ وكيف آمنتم بربِّ موسى وهارون وكفرتم بي؟

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾: بيَّنَ لهم وسيلةَ تعذيبهم المخيفة، وأكَّدَ على ذلك تأكيداً خاصاً، كما توحي بذلك كلمة «لَأُقَطِّعَنَّ» وكلمة «لَأُصَلِّبَنَّكُمْ»، في حروفِهما ومعناهما، وفي جرسهما وإيقاعهما.

سيقَطِّعُ أَيديَهم وأرجلَهم من خلاف. وهم يشاهدون ذلك بعيونهم، ولْنتصَوَّرْ مدى بشاعةِ هذا التعذيب، فكيف تُقَطَّعُ يدا ورجلا إنسانٍ وهو ينظر؟

ومعنى «من خلاف»: أنْ تُقْطعَ اليدُ اليمنى ثم الرجلُ اليسرى، وبعد ذلك تُقطعُ اليدُ اليسرى ثم الرجلُ اليمنى، أو بالعكس!!

وبعد تقطيعِ أَيديهم وأَرجلِهم سيعذِّبُهم عذاباً آخر، حيث يُصَلِّبُهم على جذوع النخلَ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

لا للتناوب ولا للتضمين في حروف الجر و«في جذوع النخل»:

والتعبيرُ بحرفِ الجر «في» بدلَ حرفِ الجر «على» في الآية: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ مقصود.

ولَسْنا ممن يقولُ بالتناوبِ بين حروفِ الجرّ في التعبير القرآني، فهذا قولٌ مرجوحٌ عندنا، ولا ممن يقولُ بالتضمين كذلك.

والتناوبُ هو أنْ «يَنوبَ» حرفٌ عن حرف. وهنا قالوا: حرف «في» ناب عن حرف «على». والمعنى: لأُصلِّبنكم على جذوع النخل.

والتضمينُ أنْ يتضمَّنَ الحرفُ المذكور معنى الحرفِ غيرِ المذكور، فهما حرفان في حرفٍ واحد. وهنا قالوا: حرفُ «في» ضُمِّنَ معنى حرف «على». والمعنى: لأصلبنكم على جذوع النخل، ومن مبالَغتي في ذلك فكأنني أُدخلُكم جذوعَ النخل وأصلبُكم فيها.

والأَوْلى نسيانُ حرف «على» هنا، وفهمُ الآيةِ على معنى حرف «في»، الدالِّ على الاستغراق.

إِنه يريدُ أنْ يؤكِّدَ تصليبَه لهم، ومبالغتَه في ذلك التصليب، ويتفاعلَ مع ذلك تفاعلاً كبيراً، ويصبَّ عليهم أَثناءَ التصليب كلَّ حقدِه، فكأَنَّه من شدةِ حقدِه الأسودِ عليهم شقَّ جذوعَ النخل شقاً، وأَدخلَهم فيها إِدخالاً، وهم مقطوعو الأَيْدي والأرجل، وكأنَّه يتمنّى لو ذابوا داخلَ جذوعِ النخل ذوباناً!!.

هذه الإيحاءاتُ والظلالُ يلقيها حرفُ «في»، وليس حرفَ «على»، ولهذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾: سوفَ تعلمون مَن المعذَّبُ عذاباً شديداً ودائماً وباقياً، نحن أم أنتم.

وكلامُ فرعون سخريةٌ بموسى وبالسحرة الذين آمنوا به، فقد كان موسى عليه السلام يهددُ فرعونَ وقومَه بالعذابِ الأبديِّ الدائم، وكانَ يَعدُهم بالنعيمِ إنْ آمَنوا به.

إفلاس وهزيمة فرعون دفعاه إلى تعذيب المؤمنين:

ويَسخرُ فرعونُ هنا بالسحرة، لأنهم آمَنوا بموسى خوفاً من عذابِ اللّهِ الشديد الباقي، فيقولُ لهم: سأعذبُكم هذا العذابَ، وهو عذابٌ شديدٌ باق، وعندها تعلمون مَن المعذَّبون عذاباً شديداً باقياً؟ نحن أم أنتم!!

إنَّ لجوءَ فرعون إلى تعذيبِ السحرة المؤمنين دليلٌ على هزيمتِه أمامَ المنطقِ الإيماني، وإفلاسِه من الحجة المقنعة. فلماذا يعذِّبُ السحرةَ المؤمنين؟ إذا كانوا مخطئين في إيمانِهم فلماذا لا يبينُ لهم فرعونُ خطأَهم؟ ولماذا لم يخاطبْ عقولَهم بخطابٍ عقليٍّ موضوعي؟ وإذا كان هو على صواب فلماذا لا يقدِّمُ حجتَه ويحاولُ إقناعهم؟

إنَّ فرعون مفلسٌ من كلِّ ذلك، وقد انهزمَ في هذا الميدان، ولهذا لجأَ إلى العنفِ والإرهاب، والاضطهاد والتعذيب، والتهديد، والوعيد، وهذا هو الذي يلجأُ إليه كلُّ مهزومٍ مغلوب.

وهذه الوسيلةُ الفرعونيةُ هي نفسُها الوسيلةُ التي يسلكُها كلُّ طاغيةٍ مستبدٍّ ظالم، يسيرُ على طريقِ فرعون، فعندما ينهزمُ في ميدان الحجة والإقناع، ويفلسُ من كلِّ رصيدٍ موضوعي علمي، يلجأُ إلى أُسلوبِ المهزومين، فيبطشُ بالمخالفين، ويصبُّ عليهم عذابَه واضطهادَه!!

كيف واجهَ السحرةُ اتهاماتِ فرعون؟ وكيفَ استقبلوا تهديدَه؟

السحرة يبينون السبب الحقيقي لعداوة فرعون لهم:

اتهمهم فرعونُ بأنَّهم متآمرون مع موسى الأجنبي ضدَّ البلادِ وأهلها، وسيقضي عليهم لأجْلِ ذلك، فردّوا على هذه التهمة قائلين: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

كلامُهم هذا تعليلٌ حكيمٌ لسببِ اضطهادِ وتعذيبِ فرعون لهم، فليسوا تلاميذَ يتعلَّمون السحرَ من كبيرهم موسى كما زعم فرعون، وليسوا عملاءَ لموسى متآمرين معه ضدَّ البلاد كما ادعى فرعون، وإنما هم مؤمنون، سارَعوا بالإيمان بآياتِ الله، لما عرفوا الحق مع موسى عليه السلام.

إنَّ فرعونَ ينقمُ منهم إيمانَهم بالحق، ولا يريدُ منهم التخلّي عن ما كانوا عليه من باطلٍ واتباعٍ له. أيْ أنَّ عداءَ فرعونَ لهم عداءٌ فكريٌّ عقيدي، وليس عداءً شخصياً أو سياسياً أو وطنياً!! إنه عَدَاءٌ قائمٌ على الحقِّ والباطل، فهم آمَنوا بالحقِّ لما عرفوه واتَّبعوه، وهو يكرَهُ الحقَّ وأهْلَه لأنَه على الباطل. فلماذا «يُمَوِّهُ» فرعون ويزيِّفُ أَسبابَ العداء؟ ولماذا يخادعُ الآخرين باختراعِ تهمٍ غيرِ صحيحة؟

إنها عداوة تقوم على الانتقام الأسود:

وتعبيرُ السحرةِ عن عداءِ وحربِ فرعون لهم بلفظ «تَنقِمُ» له دلالةٌ خاصة في هذا المقام. فالانتقامُ قائمٌ على مرضٍ نفسيٍّ عميقٍ في نفسية فرعون، إنه يكرهُ أَصحابَ الإيمان كرهاً شديداً، ويحقدُ عليهم حقداً أسود، وهذا الكرهُ والحقدُ هو الوقودُ الذي يَدْعوهُ إلى المبالغةِ والاستمرارِ في عدائهم وحربهم، وكلما أوشكَ العداءُ أَنْ يخفَّ أعطاهُ الحقدُ جريمةً ودفعةً جديدة!

وهذا الحقدُ هو الذي يدعو صاحبَه الحاقدَ إلى «الانتقام» من المخالف، والانتقامُ معناه أنْ يحاربَ الحاقدُ خَصْمَه بكلِّ وسيلة، ولا يُراعي في ذلك عهداً ولا قرابة، ولا قانوناً ولا عرفاً، فهو يُلغي كلَّ الأَعرافِ والمبادئ والقوانين والتشريعات، كي يُبيدَ المخالفَ إبادة!

وإذا كان السحرةُ الأذكياءُ قد وَصَفوا حربَ فرعون لهم بأنها حربٌ انتقامية: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾، فإنَّ القرآنَ قد وصفَ حربَ أصحابِ الباطل لأصحاب الحق بهذه الصفة. فقالَ عن انتقامِ الظالمين لأَصحابِ الأخدود بسبب إيمانهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٤ ـ ٨].

إنَّ حقْدَ الطغاةِ على أَصحابِ الأخدود المؤمنين وانتقامَهم منهم، دعاهم إلى حرقِهم في الأَخاديدِ المشتعلةِ ناراً! وإنَّ حقْدَ فرعونَ على السحرة المؤمنين وانتقامَه منهم دعاهُ إلى تقطيعِ أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبِهم في جذوعِ النخل!!

ألم نقلْ إنها حربٌ انتقامية قائمةٌ على الحقدِ الأسود؟ وهذه هي طبيعةُ عداءِ وحربِ أصحابِ الباطل لأَصحابِ الحقِّ في كلِّ زمانٍ ومكان، وهي أوضحُ ما تكونُ في هذا «القرن العشرين»، قرن التقدم والمدنية والإنسانية ـ كما يقولون ـ فعندما كان الكفارُ والظالمون يحاربون المسلمين والدعاة، كانوا يحاربونَهم لإيمانِهم، وينقمون عليهم إيمانَهم، ويصبّون عليهم حقدَهم الأسود!!

السحرة لجأوا إلى الله والفرق بين الضرر والضير:

وبعدما وضَّحَ السحرةُ المؤمنون سببَ انتقامِ فرعون منهم واجَهوا تهديدَه وتعذيبَه وانتقامَه بالإيمانِ والصبرِ والثبات، والإقبالِ على الله والتوكلِ عليه، والرغبةِ فيما عنده.

ولْننظرْ في ما قالوه لفرعون جواباً على تهديده.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء: ٥٠ ـ ٥١].

الضَّيْرُ هو الضررُ الشديد، ولم تَرِدْ كلمةُ «ضَيْر» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

ومعنى قولهم «لا ضير»: إنَّ تهديدَك لنا بالتقتيلِ والتصليب لا يَضيرُنا. إنه قد يضرُّنا، لكنه لا يَضيرُنا!!

وفرْقٌ بين «الضرر» وبين «الضير».

الضررُ هو ما يصيبُ الإنسانَ من سوء. قال الإمام الراغب: «الضّرُّ: سوءُ الحال. إمّا في نفسه، لقلةِ العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه، لذهابِ جارحة، وإما في حالةٍ ظاهرة، من قلة مال وجاه..»[1].

إنَّ فرعونَ قد يوقعُ بهم الضر ـ بإذن الله ـ وقد يقطِّعُ أَطرافَهم، ويَقضي على أبدانِهم، وهذا ضرٌّ واضح، لكنه ضرٌّ ماديٌّ خارجي، يُصيبُ الجوارحَ والأطرافَ والأبدان، ولا يصلُ إِلى القلوبِ والأرواح والمشاعر.

تبقى قلوبُهم وأَرواحُهم في مناعة، ولهذا يَبقونَ ثابتين على الحقِّ والإيمان، يواجهون كلَّ ما يُصيبهم من ضرٍّ ظاهري بصبرٍ وتحمُّلٍ وثبات.

أمّا الضيرُ فهو تأثُّرُ قلوبهم وأَرواحِهم بالضررِ المادي الخارجي المصبوبِ على أَبدانهم، وهذا التأثرُ يَدْعوها إِلى التراجعِ والانتكاس والارتداد، وتركِ الحق، والرجوعِ إلى الباطل. فإنْ حصلَ هذا فهو ضير، ولهذا قالوا لفرعون: «لا ضير».

أي: بإمكانِك أنْ تعذِّبَنا كما تشاء، وأنْ توقعَ بأبداننا الضرَّ الشديدَ كما تشاء، لكن هذا لن يكونَ ضَيْراً، ولن تصلَ إِلى أَرواحِنا وقلوبنا، ولن تفتَّ في هممِنا وعزائِمنا.

استعلاء وعزة السحرة أمام فرعون:

لماذا سيصبرُ المؤمنون على اضطهادِ فرعون؟ لأَنهم ينظرونَ نحو

---

(١) المفردات: ٥٠٣.

الآخرة، ويتطلَّعون إلى ما فيها من نعيم. فهم منقلبونَ إلى اللّهِ ربِّهم، ليُثيبَهم على ثباتِهم وصبرهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

وبما أنهم راغبونَ في نعيم الآخرة، حريصون على نيلِ رضوانِ الله، فلن يتخلَّوا عن الحق، ولن يُؤْثِروا فرعونَ ودنياه الزائلة على ذلك الحق: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه: ٧٢].

لقد كانوا صريحين في رَدِّهم على فرعون، من أنهم تركوه وتخلَّوا عنه، بعد أنْ كانوا قبلَ قليلٍ متحالفين معه، حريصين على مالِه وقرباه. الآنَ عرفوا الله، وعَرفوا الحق الذي جاءهم منه، فلن يَختاروه بدلَ الله، ولن يُؤْثِروه على الله، ولن يَطلبوا ما عنده ويتركوا ما جاءَهم من البيناتِ من عند الله: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾.

وبما أنهم عرفوا طريقَ الحق، فقد صغرتْ في نفوسِهم طريقُ الباطل، وهانَ عليهم أَصحابُ الباطل، وازدَروا ما هم عليه، ولهذا لم يَعُدْ يخيفُهم فرعونُ ولا سلطانُه ولا جنوده، ولم تُرهبهم قراراتُه وتهديداته، فصارحوه قائلين: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾.

أي: أَصْدِرْ ضدَّنا ما شئتَ من أحكام، واتخِذْ ضدَّنا ما شئتَ من أقضية، اقضِ فينا ما تشاء، وعَذِّبْنا كما تشاء، فما عُدْنا نحسبُ لذلك حساباً!!

لماذا لم يعودوا يَأبهون لأقضيتِه وأَحكامه؟ لأَنهم أَحسنوا النظرَ إِليها ووزْنَها، نظروا لها باعتبارِها تحدثُ في هذه الدنيا الفانية، ووضعوها مقابلَ نعيمِ الآخرة الباقية فلم تُساوِ عندهم شيئاً: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

طلبهم الباقي وحرصهم على السبق:

وعللَ السحرةُ المؤمنون لفرعونَ وقومِه سِرَّ مسارعتِهم إلى الإيمان بالحق: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٣].

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٥١].

إِنهم يشعرونَ الآنَ بالذنب، لأَنَّهم واجَهوا موسى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام، ويُريدونَ التكفيرَ عن ذنبهم وخطيئتهم، وفرعونُ هو الذي أَكرهَهم على السحرِ إكراهاً، وقد استجابوا وخَضعوا له، عندما كانوا كافرين، أمّا الآنَ وبعدَما آمنوا فلا!

قالوا له: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وماذا يُساوي فرعونُ أمامَ الله؟ وما عندَ الله من الجنةِ والنعيم خيرٌ وأبقى مما عند فرعون! وماذا يساوي ما عند فرعون من متاعٍ دنيوي زائل، أَمامَ ما عندَ الله من نعيمٍ مقيمٍ دائم؟

وقد ردَّ السحرةُ الحكماءُ في قولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ على كلامِ فرعونَ السابق لهم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

فليس عذابُ فرعونَ هو الأبقى، ولكنَّ خيْرَ الله ونعيمَه هو الأَبقى، ولذلك اختاروا ذلك الخيرَ الأَبقى!

ورَغبوا أنْ يكونوا الأوائلَ السابقين في مؤمِني عصرهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

لقد فتحَ اللّهُ عليهم، وأَراهم الحق، وأَلهمهم المسارعةَ إِليه، وأَخَذَ بقلوبهم إِليه، ووجَّهَ أَنظارهم إلى الجنة، ورَغَّبهم في التسابقِ إليها.

يُريدونَ أنْ يكونوا أولَ المؤمنين في تسابقِهم إلى الإيمان، وسبْقِهم إليه، وكانوا أولَ مؤمني عصرهم فعلاً، حيث لم يسبقْهم أحدٌ إِلى الإيمانِ بموسى عليه السلام.

إِنهم يَدْعونَ السابقين المتسابقين من هذه الأمة إِلى أَنْ يَحرصوا على التفردِ والريادة، والفوزِ بالمنزلةِ الأولية، في الإيمان والعلم والدعوة والجهاد.

لأوائلِ المؤمنين من الفضلِ والمنزلة عندَ الله ما ليس للآخرين، والسابقون السابقون مقرَّبون عند الله في الجنة أكثرَ من أَصحابِ اليمين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢].

ولكنَّ السابقين السابقين الروادَ الأوائل، يَدفعون ثمنَ سَبْقِهم وريادَتِهم وأَوليتِهم غالياً في هذه الدنيا، حيث تُصَبُّ عليهم أحقادُ وعداوةُ الأعداء، ويَزيدون في تعذيبِهم واضطهادِهم والانتقامِ منهم، ويبذلُ السابقون الأوائلُ ذلك برضا واحتساب، لأنهم يعلمون الجزاءَ الجزيلَ الجميلَ الذي ينتظرُهم عند الله!!

فلأنَّ السحرةَ الصادقين كانوا أولَ المؤمنين، فقد واجهوا كيدَ وحقدَ ونقمةَ وعداوةَ فرعون، وتحملوا عذابَه واضطهادَه، وهكذا كلُّ أوائلَ سابقين في حمْلِ هذا الدين، ومواجهةِ أَعدائه الحاقدين!!

تحول السحرة إلى دعاة للحق وأقبلوا على الله:

وتحوَّلَ السحرةُ المؤمنون الحكماءُ إِلى دعاةٍ بمجردِ إيمانهم، فَدعوا فرعونَ إِلى الإيمان، وذكَّروه بالدنيا والآخرة والقدومِ على الله، وجاءَ في بيانِهم الدعوي له: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦].

لقد أحسنَ السحرةُ وزنَ الدنيا عندما وَضعوها بجانبِ الآخرة، فإذا بها لا تُساوي أَمامَها شيئاً، وفرَّقوا بين حالةِ مَنْ يأتي ربَّه يومَ القيامة كافراً مجرماً ظالماً باغياً ـ مثل فرعون ـ حيث ينتظرُه فيها العذابُ الدائمُ الباقي، فلا يموتُ فيها ولا يَحيا، وحالةِ مَنْ يأتي ربَّه مؤمناً قد عملَ الأعمالَ الصالحة، حيث تنتظرهُ الدرجاتُ العالية في جناتِ عدن، جزاءً من الله له.

ولأجلِ هذا رغبوا في الآخرة، وطلبوا الدرجاتِ العُلى في جناتِ عدن، وحَرصوا على أنْ يأتوا اللّهَ مؤمنين صالحين، ودعاةَ مجاهدين!

وأَقبلَ السحرةُ على الله، يستمدّون منه الصبرَ والثبات، ويَطلبون منه حسنَ الختام والوفاةَ على الإيمان، لأَنهم يعلمون خطورةَ ما هم مُقْدمون عليه، من تعذيبٍ واضطهاد، وتقطيع وتصليب، فَدَعوا اللّهَ من أعماقِ قلوبهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

طلبوا من الله أَنْ يُفرغَ عليهم الصبرَ إِفراغاً، وأنْ يصبَّهُ عليهم صَبّاً، وذلك ليَثبتوا على الحق، ولا يَتراجعوا أَمامَ بطش فرعون وأذاه، وأَمامَ قتْلِه لهم وتصليبهِ لأجسامهم: فلا يثبتُهم إلاّ الله، ولا يصبِّرُهم إلا الله.

أَرادوا أن يكونوا مسلمين، وحَرصوا على أنْ يموتوا مسلمين، وهدفُهم هو أنْ يتوفّاهم اللّهُ مسلمين، فإذا حققوا هذا فقدْ ضمنوا القدومَ على اللّهِ مؤمنين صالحين، وعندها يكونون هم المفلحين الفائزين.

سيد قطب في تعليق رائع على موقف السحرة:

قال سيد قطب معلقاً على موقف السحرة العظيم: «ويقفُ الطغيانُ عاجزاً أمامَ الإيمان، وأَمامَ الوعي، وأَمامَ الاطمئنان.. يقفُ الطغيانُ عاجزاً أَمامَ القلوب التي خُيِّلَ إِليه أنهُ يملكُ الولايةَ عليها كما يملكُ الولاية على الرقاب! ويملكُ التصرفَ فيها كما يملكُ التصرفَ في الأجسام. فإذا هي مستعصيةٌ عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله، وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوبُ في جوارِ الله؟ وماذا يملكُ الجبروتُ إذا اعتصمت القلوبُ بالله؟ وماذا يملكُ السلطان إذا رغبت القلوبُ عما يملكُ السلطان!

إنه موقفٌ من المواقفِ الحاسمةِ في تاريخ البشرية. هذا الذي كانَ بينَ فرعون وملئِه، والمؤمنين من السحرة السابقين.

إِنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية. بانتصارِ العقيدةِ على الحياة، وانتصارِ العزيمةِ على الألم، وانتصارِ «الإنسان» على «الشيطان»!

إِنه ميلادٌ حاسمٌ في تاريخِ البشرية. بإعلانِ ميلادِ الحرية الحقيقية، فما الحريةُ إلا الاستعلاءُ بالعقيدة على جبروتِ المتجبرين وطغيانِ الطغاة، والاستهانةُ بالقوةِ المادية التي تملكُ أنْ تتسلطَ على الأجسام والرقاب، وتعجزُ عن استذلالِ القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوةُ الماديةُ عن استذلالِ القلوب فقد وُلدت القوةُ الحقيقيةُ في هذه القلوب.

إِنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخِ البشرية بإعلانِ إفلاسِ المادية! فهذه القلةُ التي كانتْ منذ لحظة تَسأَلُ فرعونَ الأجرَ على الفوز، وتُمْنىٰ بالقربِ من السلطان.. هي ذاتُها التي تستعلي على فرعون، وتستهينُ بالتهديد والوعيد، وتُقبلُ صابرةً محتسبةً على التنكيلِ والتصليب.. وما تغيَّرَ في حياتِها شيء، ولا تغيَّرَ من حولِها شيء - في عالم المادة - إنما وقعت اللمسةُ الخفية التي تُسلكُ الكوكبَ المفردَ في الدورةِ الكبرى. وتَجمعُ الذرةَ التائهةَ إِلى المحور الثابت، وتَصلُ الفردَ الفانيَ بقوةِ الأزل والأبد.. وقعت اللمسةُ التي تحولُ الإبرة، فيلتقطُ القلبُ إيقاعاتِ القدرة، ويتسمَّعُ الضميرُ أَصداءَ الهداية، وتتلقى البصيرةُ إشراقاتِ النور.. وقعت اللمسةُ التي لا تنتظرُ أيَّ تغييرٍ في الواقعِ المادي، ولكنها هي تغيِّرُ الواقعَ المادي، وترفعُ «الإنسان» في عالمِ الواقع إلى الآفاقِ التي لم يكن يَطمحُ إِليها الخيال..

ويَذهبُ التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويَمضي الإيمانُ في طريقه، لا يلتفتُ، ولا يترددُ، ولا يَحيد[1]!!

من سحرة إلى شهداء بررة:

انتهى التحدي بإيمانِ السحرة، واختيارِهم لما عندَ الله، واستعلائهم على ما وجَّهَهُ لهم فرعونُ من تهديدٍ ووعيد، وثباتِهم على

---

(١) في ظلال القرآن ٣:١٣٥١ ـ ١٣٥٢.

الحق الذي اختاروه، وصبْرِهم على التعذيبِ الذي صَبَّه عليهم فرعون!

فها هم أُولاء الذين جنَّدَهم فرعونُ ليشهدوا له يشهدون ضدَّه ويكونون عليه، وهذا من مكْرِ اللّهِ بفرعون. فبعضُ مَنْ حولَه ليسوا معه، وإنما هم مع الله.

ولا يتحدثُ القرآنُ عن ما فعلَه فرعونُ بهم بعد التهديد، ولا يُبينُ كيفَ قَطَّعَ أَيديهم وأرجلهم من خلاف، ولا كيفَ صَلَّبَهُم في جذوع النخل، ولا كيفَ قَتَلَهم!

هذه مبهماتٌ في العرضِ القرآني لقصةِ السحرة المؤمنين، وما جرى لهم بعدَ إعلانهم الإيمان، وحوارهم السابق مع فرعون «فجوةٌ فنيةٌ» مقصودةٌ في العرض القرآني.

ونهايةُ السحرة المؤمنين مفهومة، فهم قد أَعلنوا إِيمانَهم صراحة، وخالَفوا فرعون علانية، وفرعونُ هو الظالمُ المتجبرُ المستبدُّ المتأله، الذي لا يسمحُ لأَحدٍ أنْ يقفَ أَمامه، ولا أنْ يقولَ له: لا.

وبما أنَّ السحرةَ وَقفوا من فرعونَ هذا الموقف، فإنَّ الأرجحَ أنَّ فرعونَ قد نَفَّذَ فيهم تهديدَه ووعيدَه، فقطَّعَ أَيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلَّبَهم في جذوع النخل، وقتل الجماعةَ في سبيل الله، ولقوا وجْهَ الله شهداءَ بررة.

قالَ ابن عباس رضي الله عنهما: أَصبحوا سَحَرة، وأَمْسوا شهداءَ بررة[1].

وهكذا انتصرَ الإيمانُ في التحدي الكبير بين فرعون وموسى عليه السلام، وانتصرَ السحرةُ عندما لقوا وجْهَ الله شهداء، ثابتين على الحق!!

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٥٥.

[٧]

مؤمن آل فرعون ينتصر لموسى عليه السلام

قَتَلَ فرعونُ السحرةَ المؤمنين، ولقوا وجهَ اللّهِ شهداءَ بررة، واشتدَّ تعذيبُ فرعونَ لأَتْباعِ موسى عليه السلام، وخطا خطوةً خطيرةً في حربِ موسى عليه السلامَ وأَتْباعه، حيثُ أَرادَ قتْلَ موسى نفسِه، فوقف له رجلٌ مؤمنٌ من آله، وتصدّى له، وانتصرَ لموسى عليه السلام ودافعَ عنه، ودعا الناسَ إلى الإيمان.

قصته في سورة غافر ومنهجنا في بحثها:

وقد وردَتْ قصةُ مؤمنِ آلِ فرعون في سورةِ غافر، وللسورةِ اسمٌ توقيفيٌّ آخر، هو سورةُ «المؤمن»، لأَنه وردَ فيها قصةُ ذلك الرجلِ المؤمن، وهذا من عظمةِ موقفه رضي الله عنه.

وقد اختلفَ المؤرخون والمفسرون في تحديدِ ذلك الرجلِ المؤمن، وفي بيانِ قصته وصلتِه بفرعون، وأَوردوا في ذلك أقوالاً عديدة، وتفصيلاتٍ مطوَّلَة. وأَخذوا ذلك من الإسرائيليات وغيرها.

ولم يَرِدْ في مصادرِنا الإسلاميةِ اليقينية تفصيلاتٌ عن قصةِ ذلك الرجل المؤمن، إلاّ ما وردَ عنه في سورةِ غافر، فلا نملكُ إِضافةً نضيفُها على ما أَوردتْه السورةُ عنه، وما سكتتْ عنه آياتُ السورة نسكتُ عنه، ونعتبرُه من «مبهمات القرآن»، التي نتوقفُ عندها ولا نحاولُ بيانَها.

وبَدَلَ أَنْ نخوضَ في الإسرائيليات لنأخذَ منها تفصيلاتِ قصته، علينا أنْ نقفَ أمامَ الآيات التي عرضتْ قصتَه متدبِّرين، لنأخذَ منها بعضَ ما فيها من دروسٍ ودلالات، في العقيدةِ والدعوةِ والمواجهة، ولنقتدي بذلك الرجلِ المؤمن في انحيازِنا للحق، وفي مواجهةِ الباطل!

وقبلَ الدخولِ في تفصيلِ قصةِ ذلك الرجل المؤمن نُشيرُ إلى أنَّ الصحابةَ كانوا يقارنونَ بين موقفِ ذلك الرجل المؤمن في دفاعه عن

موسى، وبين أَبي بكر الصديق رضي الله عنه في دفاعِه عن رسولِ الله ﷺ، ويُبينون أنَّ أَبا بكر كان أفضلَ من ذلك الرجلِ المؤمن.

مقارنة بين مؤمن آل فرعون وأبي بكر الصديق:

وقد لاحظَ الإمامُ البخاريُّ ذلك، ففي كتابِ التفسيرِ من صحيحه، في بابِ تفسير سورة المؤمن، أوردَ حديثاً يبينُ موقفَ أبي بكرٍ في الدفاعِ عن رسول الله ﷺ.

فروى بسنده عن عروةَ بنِ الزبير قال: قلتُ لعبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أَخبرْني بأَشدّ ما صنعَ المشركون برسول الله ﷺ؟

قال: بينما رسولُ الله ﷺ يصلّي بفناءِ الكعبة، إِذ أَقبلَ عقبةُ بن أبي معيط، فأخذَ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبَه في عنقه، فخنَقَه خنقاً شديداً.

فأَقبلَ أبو بكر، فأخذَ بمنكبه، ودفعَ عن رسولِ الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ..﴾[1].

جهرَ أَبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه بدفاعِه عن رسول الله ﷺ، واستشهدَ بالآيةِ القرآنية التي سجلَتْ قولَ مؤمنِ آلِ فرعون في الدفاعِ عن موسى عليه السلام، حيث نهى آلَ فرعون عن قتله، وقالَ لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟

وهذا يدلُّ على أنَّ سورةَ غافر كانت قد أُنزلتْ قبلَ تلك الحادثة، ولذلك استشهد أَبو بكر رضي الله عنه بتلك الآيةِ من آياتها.

علي بن أبي طالب يفضل أبا بكر على مؤمن آل فرعون:

وقد فَضَّلَ عليُّ بن أَبي طالب أبا بكر على مؤمن آل فرعون رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨١٥ في كتاب التفسير.

أوردَ ابنُ كثير في تاريخه عن محمدِ بن عقيل أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خطبَ الناسَ يوماً، فقال: مَنْ أشجعُ الناس؟

قالوا: أنتَ يا أميرَ المؤمنين!

قال: أما أني ما بارزني أحدٌ إلاّ انتصفتُ منه!

ولكنَّ أشجعَ الناس هو أبو بكر. إنا جعلْنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: مَنْ يكونُ مع رسول الله ﷺ؟ فوالله ما دَنا منّا أحدٌ إلاّ أبو بكر، شاهراً بالسيفِ على رأسِ رسولِ الله ﷺ، لا يَهوي إليه أحد إلا أهوى إليه.

ثم قال: ولقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ، وقد أخذَتْهُ قريش، فهذا يُحادُّه، وهذا يتلتلُه. ويقولون: أنتَ جعلتَ الآلهةَ إلهاً واحداً؟

فواللّهِ ما دنا منّا أحدٌ إلاّ أبو بكر. يضربُ هذا، ويجاهدُ هذا، ويتلتلُ هذا، وهو يقول: ويلكُم. أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربي الله؟

ثم رَدَّ عليٌّ بُردةً كانت عليه، فبكى. حتى اخضلّتْ لحيتُه.

ثم قال: أَنشدكمُ اللّهَ. أمؤمنُ آلِ فرعون خيرٌ أم هو؟ فسكتَ القوم.

فقال عليٌ: فواللّهِ لساعةٌ مع أَبي بكر خيرٌ مِن ملء الأرضِ من مؤمنِ آلِ فرعون! ذاك رجلٌ يكتم إيمانَه، وهذا رجلٌ أعلنَ إيمانَه[1]!!

ونحنُ مع عليِّ بن أَبي طالب في تفضيلِه أَبا بكر على مؤمنِ آلِ فرعون، لأنَّه على الرغم من عظمةِ موقفِ مؤمنِ آلِ فرعون إلا أنَّ موقفَ أبي بكر كان أعظم. ولأنَّ السابقين الأولين من أصحابِ رسول الله ﷺ أفضلُ من جميعِ أَتباعِ الأنبياء والرسل السابقين.

ونعودُ إلى مؤمنِ آل فرعون!

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٧١ ـ ٢٧٢.

القلعة الفرعونية مخترقة إيمانياً:

لقد كانَ هذا الرجلُ من آل فرعون المقرَّبين، كما صرحَ بذلك القرآن، فهو ليسَ إسرائيلياً من بني إسرائيل. ونحنُ لا نخوضُ في تعيين اسمه، ولا في درجةِ قرابته لفرعون، ولا في عمله عند فرعون، لما سبقَ أنْ بيّنّا.

إنه من آلِ فرعون المقرَّبين عنده، ومع ذلك شرحَ اللّهُ صدره للإيمان، فصدَّقَ موسى عليه السلام وآمنَ بالله، وكفَرَ بفرعون، ورفضَ أنْ يتخذه إلهاً ورباً له.

وهذا هو اختراقٌ إيمانيٌّ آخرَ لقلعةِ فرعون الكفرية!

إنَّ قلعةَ فرعون مختَرَقةٌ إيمانياً من قبل، فامرأةُ فرعون خرجَتْ عليه، وكفرتْ به، وآمنتْ بالله. فعلَتْ ذلك وهي أقربُ الناسِ إليه. وهذا من مكرِ اللّهِ به.

والاختراقُ الإيمانيُّ الثاني تمثلَ في ذلك الرجلِ المؤمن الذي حضرَ اجتماعَ الملأ وائتمارِهم بموسى لقتله، بعدما قتلَ موسى القبطي، فجاءَ من أقصى المدينةِ يسعى، وأخبرَ موسى بذلك، ونصحهُ بالخروج.

وهذا هو الاختراقُ الإيمانيُّ الثالث، فها هو رجلٌ من آلِ فرعون، كفرَ به وآمنَ بموسى عليه السلام، وكان يكتمُ إيمانَه، ولما صار موسى في خطرٍ مباشر اضطرَّ هذا الرجلُ إلى إظهارِ إيمانه.

إنَّ هذا من مكرِ اللّهِ بفرعون وسخريتِه به، فكيفَ يزعمُ أنه ربٌّ إله، وبعضُ المقربين إليه لا يوافقونه؟ لقد غزا الإيمانُ قلعةَ فرعون، ودخلَ قلوبَ هؤلاء الثلاثة، فثبتوا على الحق. وهذه إشارةٌ إلى ضعفِ وتصدُّعِ الكفر، حتى لو كان يمثلُه أعتى الكافرين، وهو فرعون!!

ونقفُ الآنَ مع حديثِ القرآنِ عن مؤمن آل فرعون.

فرعون يتهم موسى ويعذب أتباعه:

مَهَّدَ القرآنُ للحديثِ عن قصةِ مؤمنِ آل فرعون بالحديثِ عن إرسالِ موسى عليه السلام رسولاً إلى فرعونَ وهامان وقارون، وتكذيبِهم له، وتَواصي الملأِ من قوم فرعون على تقتيل أبناء المؤمنين بموسى واستحياء نسائهم، ورغبةِ فرعونَ في قتلِ موسى عليه السلام.

قالَ الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

أَعطى اللّهُ موسى معجزتي العصا واليد، ووجَّهَه إلى فرعونَ وهامان وقارون.

وسبقَ أنْ ذكرْنا أنَّ فرعون كان يعتمدُ على قوةِ هامان الإدارية، وعلى قوةِ قارون المالية. ولهذا نصَّ على إرسالِ موسى لِهؤلاء الثلاثة، الذين كانوا يمثلونَ أعمدةَ نظام الحكم في مصر.

ولما خاطبهم موسى وقدَّمَ لهم الآياتِ اتهموه بالسحرِ وبالكذب، اتهموه بأنه ساحر كذاب.

ولم يكتفوا بتكذيبه واتهامِه، بل تواصوا على إيذاءِ أَتباعه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ..﴾.

طلبَ الملأُ من الآخرين اعتمادَ سياسةٍ باغيةٍ ظالمة، حيثُ طلبوا منهم محاربةَ المؤمنين في أَبنائهم وأُسرهم، وذلك بقتْلِ أَبنائهم الذكور، وترْكِ بناتهم الإناث بدون قتل، واستحيائِهن واستعبادهن.

وهذا يؤكدُ قولَ السحرة السابق لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ..﴾ [الأعراف: ١٢٦].

فقد حاربَهم حرباً انتقامية سوداء حاقدة، وهذا دليلٌ آخر على

ذلك، إنهم يحاربون المؤمنين، فما ذنبُ أبنائهم وبناتهم؟ وهم لم يفعلوا شيئاً يستحقّون به هذا الانتقام! هذه هي العقليةُ الجاهليةُ الباغيةُ في حربِ الحق وأهله توجّهُ أصحابَها في كلِّ زمان ومكان!

فرعون ديمقراطي يستأذن لقتل موسى:

وبعدما تواصى الملأُ على حربِ المؤمنين في أبنائهم وبناتهم انتقلَ فرعونُ إلى خطوةٍ أخطر، وهي قتلُ موسى عليه السلام.

ويبدو أنَّ الذي دفَعه إلى هذا استمرارُ دعوةِ موسى في انتشارِها وتقدمِها، فلم يوقفْها قتلُ السحرةِ واستشهادُهم، ولم يوقفْها تقتيلُ أبناءِ المؤمنين واستحياءُ نسائِهم، ولذلك أرادَ أن يوجّهَ ضربتَه إلى إمامِ الدعوة عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

قالَ فرعون لقومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي: دَعوني أقتلْ موسى، ولا تَمنعوني من ذلك.

والسؤالُ الذي يُثار: لماذا طلبَ فرعونُ من قومِه هذا الطلبَ العجيب؟ وما معنى طلبه؟

هل يستأذِنُهم في قتل موسى؟ ولماذا يستأذنُهم؟ ومنذُ متى يستأذنُهم في قراراته وأفعاله؟

لقد كان يحكمُ فيهم بما يشاء، ويأمرهمْ بما يشاء! فلماذا يستأذنُهم في قتل موسى؟

إنها لعبةٌ من ألاعيبِ فرعونَ ومكائدِه، إنه يريدُ أنْ «يُشركهم» معه في تحمُّلِ هذا الفعلِ الخطير، يُشركُهم في سفكِ دمِ موسى، وذلك ليَشعروا أنَّ مصلحتَهم تكمنُ في الانحيازِ الكاملِ إلى جانب فرعون، وكي لا يتبرءوا من دمِ موسى في المستقبل، فهم الذي أَذِنوا لفرعونَ في

قتله، وهم شركاءُ لفرعون في التخلصِ منه.

ومن أَهدافِ فرعون في ذلكَ أيضاً التقربُ إلى قومِه، والحرصُ على الظهورِ بمظهرِ المستشيرِ والمستأذنِ لهم، أو الديمقراطيِّ في التعاملِ معهم ـ حسب المفهومِ المعاصر ـ!

وقاحة فرعون على الله وعدم توقيره له:

ولما طلبَ منهم الإذنَ بقتْلِ موسى قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾. وهذه العبارةُ من توقُّحِ فرعون وتجبرِه، حيثُ أطلقها سخريةً بموسى عليه السلام ودعواته.

يقولُ لهم: إنْ كان لموسى ربٌّ فلْيَدْعُهُ ليحفظَه! إنه لن ينصره أحدٌ مني، ولن يقفَ أحدٌ أمامي، ولن يمنعني أحدٌ من قتله! فإنْ كانَ له ربٌّ غيري فلْيمنَعْني ربُّه من قتلِه!!.

وهذه العبارةُ الفرعونيةُ الوقحةُ تدلُّ على السببِ الذي يدعو الطغاةَ إلى التجبرِ والطغيان، وسفكِ دماءِ الأبرياء، والوقاحةِ في الكلام عن اللّهِ ربِّ العالمين! إنَّ السببَ هو في عدمِ إيمانِهم بالله، وعدمِ تقديرِهم وتوقيرِهم لله، وعدم خوفهم من الله.

ففرعونُ الطاغيةُ كافرٌ بالله، ولهذا لا يَحسبُ للهِ حساباً، ولا تُخيفُه دعوةُ موسى لربه كي يحفظه منه.

وهكذا الطغاةُ في كلِّ زمانٍ ومكان، وهذا ما قالَه طاغيةٌ معاصر، عَذَّبَ الدعاةَ في السجنِ تعذيباً رهيباً، ووضعَ كلَّ واحدٍ منهم في زنزانة. فمرَّ بأحدِ الدعاة في الزنزانة يدعو اللّهَ ويستنصرُه، فلما سمع الطاغيةُ ذلك قالَ جملةً فرعونيةً كافرة: لو جاءَ ربُّك لوضعْتُهُ معك في الزنزانة!!

فرعون مصلح وموسى مخرب مفسد:

لماذا يريدُ فرعونُ أنْ يقتلَ موسى عليه السلام؟

عللَ ذلك لقومِه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

إنَّ فرعونَ حريصٌ على دينِ قومه، ويَخافُ من موسى على دينهم، ويعتبرُه خطراً على دينهم، يُريدُ أنْ يُبدلَه ويُغيرَه، وهذا هو الفسادُ بعينه، فموسى مفسدٌ مخربٌ مدمر، خَطرٌ على الدين والإصلاح والخير، ولذلك لا بدَّ أنْ يُقتلَ للحفاظ على الصلاح والمحافظةِ على الدين! أي: يَجبُ قتلُه باسمِ الدين للمحافظةِ على الدين!!.

ومعنى هذا أنَّ فرعون هو حامي الدين، وموسى هو المحاربُ للدين!!.

ودينُهم الذي يخشى عليه فرعونُ التبديلَ هو القائمُ على عبادةِ فرعون وتأليهه، وتعبيدِ الناسِ له، والإيمانِ بكونه إلهاً ورباً. وهذا هو الحقُّ والصلاحُ والخير!!

أمّا ما ينادي به موسى فإنَّه خطرٌ على الدين، والذي ينادي به هو توحيدُ الله، الإيمانُ به وحده، وعبادتُه وحده، وتعبيدُ الناس له وحده، والاعتقادُ بأنَّه وحده هو ربُّ العالمين!

هذا هو الخطرُ والدمارُ الذي يحملُه موسى، وهو بهذه الدعوةِ يريدُ أنْ يبدِّلَ دينَ الناس الصحيح، ويُظهرَ في الأرض الفساد!!

وفي هذا المنظارِ الفرعوني يبدو موسى عليه السلام مُفسداً مُخرباً، وضالاً مضلاً. أما فرعونُ فإنه هو المصلحُ الخيِّرُ النافعُ المهتدي.

وهذا المنطقُ الفرعونيُّ المقلوبُ هو نفسُه المنطقُ الذي يلجأُ له كلُّ طاغيةٍ متجبر، يريدُ أنْ يحاربَ الحقَّ وأهلَه، فهو يقدِّمُ نفسَه لقومِه على أنه هو الصالحُ المصلح، المؤمنُ المهتدي. أما حَمَلَةُ الدعوة وأَصحاب الحق فيقدِّمُهم للناس على أنهم ضالّون مضلّون، مُفسدون مُخربون، ظلاميّون إرهابيّون، أُصوليّون مُنغلقون!!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢].

وكم استخدمَ طغاةُ القرنِ العشرين المنطقَ الفرعونيَّ المقلوبَ في حربهم للدعاةِ إلى الله!!

ولما سمعَ موسى عليه السلام تهديدَ فرعون بقتله لجأَ إلى اللّهِ سبحانه، واستعاذَ به من كيدِ فرعون وبطشِه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٧].

إِنَّ تهديدَ فرعونَ لموسى بالقتل لم يُؤَثِّرْ فيه، ولم يُضعفْ إيمانَه، ولم يوقفْه عن دعوتِه، فهو يتوجَّهُ إلى اللّهِ ربِّه، طالباً حمايتَه ونصرتَه، ولهذا يعلنُ التجاءَه إليه، واعتمادَه عليه.

وهذا درسٌ للمؤمنين الذين يواجهون طغيانَ واستبدادَ وتهديدَ الظالمين، إذْ عليهم أَن يَستعيذوا بالله من شرورهم، وأَنْ يَستعينوا بالله عليهم.

مفتاح الشخصية الفرعونية: الكبر والكفر:

وقد قدَّمَ موسى عليه السلام تحليلاً موجَزاً صادقاً لشخصيةِ فرعون، حيث قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

وهذا هو مفتاحُ الشخصية الفرعونية، إنه متكبرٌ في نفسه، وما زالَتْ نفسُه تكبرُ حتى رأى نفسَه أكبرَ مِن كلِّ مَنْ حولَه من الناس، وما زالَتْ نفسه تكبرُ حتى رأى نفسَه إلهاً رباً، فحَلَّ مَحَلَّ الإلهِ الرب، ودعا قومَه لعبادته.

والعقدةُ الثانيةُ في الشخصيةِ الفرعونية هي عدمُ إيمانه بيوم

الحساب. فلو آمنَ بيومِ الحساب والجزاءِ لحسبَ له حساباً، ولما تكبَّرَ على الآخرين.

ولا يتكبرُ إلاّ الكافرُ بيوم الحساب، وبذلكَ يجمعُ بين المرضَيْن الخبيثين اللذين كانا سببَ خرابِ نفسيةِ فرعون وانحرافِ شخصيته.

وهما نفسُهما مفتاحُ شخصيةِ كلِّ طاغيةٍ ظالمِ جبار، إنه ﴿مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

الموقف الإيماني الرجولي للرجل المؤمن:

ولما سمعَ الرجلُ المؤمنُ كلامَ فرعون عن توجُّهِه لقتْلِ موسى وقفَ الموقفَ الإيماني العظيم، وانتصرَ لموسى وتصدّى لفرعون، وسوفَ نَسِيرُ مع الآياتِ التي تحدثتْ عن بيانِه الدعوي، وعن ردودِه على فرعون، ونَعرضُ لقطاتِ قصتِه لقطةً لقطة إن شاء الله!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨].

أَخبرَ القرآنُ عن مؤمنِ آلِ فرعون بأنه: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

والوصفُ بالرجولةِ هنا وصفُ تكريمٍ وتشريف، ويُرادُ بالرجولةِ المعنى المادي والمعنى النفسي.

المعنى المادي: وهو كونُه رجلاً ذكراً، فهو رَجلٌ ذكر، ليقابلَ الوصفَ المقابلَ في الجنسِ الآخر. يقال: هذا رجلٌ ذكر، وهذه امرأةٌ أنثى.

والمعنى النفسي: وهو كونُه يقفُ مواقفَ الرجال، القائمةَ على

قوةِ الإرادةِ والعزيمة والهمة، والجرأةِ والشجاعة والإقدام.

فهذه المعانِي تَحتاجُ إِلى رجولة، ولا يَقدرُ عليها كلُّ الذكور، إنما يَقدرُ عليها الرجالُ من الذكور.

وكلُّ رجلٍ ذَكَر، لكنه ليسَ كلُّ ذَكَر رجلًا، فهناك ذكورٌ لا يَعرفونَ معاني الرجولة، ولا يقفونَ مواقفَ الرجال!

إنه ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾: والتنوينُ هنا مقصود. إنه تنوينٌ للتكريم، كما أَنه تنوينٌ للإبهام. وهذا الإبهامُ دعوةٌ لنا كيْ لا نحاولَ تحديدَ وتعيينَ اسمِه. وتحديدُ اسمِه لا يقدِّمُ فائدةً جديدة، ولا يضرُّ الجهلُ به.

ووَصَفَهُ القرآنُ بأنه ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: وهذا تحديدٌ قرآنيٌّ لنَسَبِه، وهو ردٌّ على مَنْ زعمَ أَنه «إسرائيلي».

وكونُه من آلِ فرعون يَعني أنه كانَ من قادةِ النظام الفرعوني، ومن المقرَّبين عند فرعون، والمتنفذين في قومه.

وإِيمانُ هذا القائدِ بموسى عليه السلام شهادةٌ لموسى في نجاحِه الدعوي، حيث تمكَّنَ من إِيصالِ الدعوة إِلى هذا الزعيمِ الفرعوني، وإِقناعِه بالدخولِ في دينِ الله!

كما أَنَّ إِيمانَه شهادةٌ له، فرغمَ أنهُ مقرَّبٌ عندَ فرعون إلاّ أَنَّهُ فتحَ قلبه للإيمانِ وأَنوارِه، فاختارَ ما عندَ الله. إن البيئةَ الفرعونيةَ الكافرةَ لم تفسدْه، ولم تطمسْ على فطرتِه.

ثم إِنه آمنَ بالله وكفرَ بفرعون، وهذا دليلٌ على جرأتِه وشجاعته فهو يعلمُ مَنْ هو فرعون، وما هو بطشُه وطغيانُه، ومع ذلك آمنَ بالله، واستعدَّ لدفعِ ثمنِ هذا الموقف!

السرية والعلنية في دعوة موسى:

وقد أَخبرَ القرآنُ أنَّ هذا الرجلَ كان «يكتمُ إِيمانه». ويشيرُ هذا إِلى أنَّ

دعوةَ موسى في بعضِ مراحلِها كانت سرية، وأنَّ بعضَ المؤمنين به كانوا «سريّين» يكتمونَ إِيمانَهم.

لقد كانتْ دعوةُ موسى عليه السلام تأخذُ جانبيْن:

الأول: الجانبُ العلني: وهو المتمثلُ في إِمامِ الدعوة موسى عليه السلام، حيث كانَ يتحركُ تحركاً علنياً، ويدعو ويحاورُ ويناقش، فقد قابلَ فرعون، وكانت المباراةُ في يوم الزينة بينه وبين السحرة، وتحدَّثَ مع الملأ من قوم فرعون.

الثاني: الجانبُ السري: حيث كان بعضُهم يؤمنون به ويكتُمونَ إِيمانَهم، وقد عرفْنا ثلاثةً من هؤلاء، كانوا مقرَّبين عند فرعون: امرأةَ فرعون، والذي أخبرَ موسى عن ائتمارِ الملأ به لقتله، ومؤمنَ آلِ فرعون.

إنَّ كتْمَ هؤلاء وغيرِهم لإِيمانِهم دليلٌ على جوازِ كتمانِ إِيمانِ بعض المؤمنين في بعضِ الحالات الخاصة، وعلى جوازِ سريةِ الدعوة في بعضِ الظروف والأَجواء.

فإذا ما أَسَرَّ بعضُ الدعاةِ دعوتَهم، وإذا ما كتَمَ بعضُهم انتماءهم فلا بدَّ أنْ يعلنَ آخرون إِيمانَهم، وأنْ يُظهروا دعوتَهم، ليعرفَ الناسُ الدعوةَ من خلال بعض «رموزها» وقادتِها، فيقتدوا بهم، ويستعدُّ هؤلاء المجاهدون لدفعِ الثمنِ الباهظ المترتبِ على ذلك!

ففي قصةِ مؤمن آلِ فرعون كان موسى عليه السلام يجهرُ بإِعلانِ دعوتِه وإظهارِ إيمانه، بينما كان مؤمنُ آلِ فرعون يكتمُ إِيمانَه!

لماذا أظهر الرجل إيمانه:

ومعَ أنَّ هذا الرجلَ المؤمنَ كان يكتمُ إِيمانَه إلاّ أنه اضطرَّ الآن إِلى إِظهارِ إيمانه!

إنَّ حياةَ موسى عليه السلام في خطر، وإنَّ فرعونَ يريدُ أنْ يقتلَه،

ويمكنُ لهذا الرجلِ القائدِ الفرعونيِّ أنْ يحولَ دونَ ذلك، وأنْ يمنعَ قتْلَ موسى! لكنه لن يفعلَ ذلك إلا بإظهارِ إيمانِه، وإذا أظهرَ إيمانَه سيكشفُ أوراقَه أمامَ فرعون.

فماذا يفعل؟

هل يبقى كاتماً لإيمانه، حريصاً على مركزِه ومنصبه، ولو قُتِلَ موسى فعليه رحمةُ الله؟ أم يقومُ بواجبه وينتصرُ لموسى عليه السلام، ويدافعُ عنه، ويُظهرُ إيمانَه، وليكن بعد ذلك ما يكون؟

أخذَ بالخيارِ الثاني المتفقِ مع إيمانِه ورجولته وشجاعته، وقدمَ مصلحةَ الدعوة على مصلحتِه هو. بل إنَّ مصلحتَه هو لا تكونُ إلاّ مع مصلحةِ الدعوة.

وهذا درسٌ بليغٌ للدعاة، في وجوبِ تقديمِ مصلحة الدعوة على مصالحِهم الشخصية المادية، وفي وجوبِ التضحيةِ بالمنافع الشخصية من أجل دعوتهم ودينهم!

المنهجية الدعوية في خطوات الرجل المؤمن:

وعندما اضطرَّ مؤمنُ آلِ فرعون للدفاعِ عن موسى عليه السلام والوقوفِ أمامَ فرعون، خطا خطواتٍ منهجية، في غايةِ الحكمةِ والترتيب والتخطيط، وقدَّمَ «بياناً» دعوياً حكيماً، وتمكَّنَ من إحراجِ فرعون وهزيمته، وأقامَ الحجةَ عليه وعلى قومه، وكان في ذلك كلِّه ناجحاً نجاحاً كبيراً!!

أنكرَ الرجلُ على قومِه قتْلَ موسى، وبيَّنَ أنه لا ذنبَ له إلا إيمانَه بالله، وهذا ليس ذنباً: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟

وأشارَ إلى الآياتِ التي قدَّمها لهم، والتي آمنَ السحرةُ لما شاهدوها: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

ودعا قومَه إلى التفكيرِ في مسألةِ موسى بموضوعية، فموسى قد

يكون صادقاً في دعوته، وقد يكون كاذباً: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

إنَّ الرجلَ المؤمنَ حكيمٌ في خطابه، موضوعيٌّ في طرحه، ودليلُ ذلك أنه بدأ باحتمالِ كون موسى عليه السلام كاذباً، مع أنه يوقنُ جازماً أنه رسولُ الله. ولكنه بدأ بهذا الاحتمالِ ليؤثِّرَ في قلوبِ وعقولِ قومه، وليبنيَ عليه خطواتِه التالية.

يقولُ لقومه: لماذا تقتلونَ موسى؟ ألأنَّه يقولُ ربي الله؟ فكِّروا في دعوتِه، إنه قد يكون كاذباً في دعواه! فإنْ كان كاذباً فلا يَستدعي ذلك أنْ تقتلوه، لأَنه هو الذي يتحملُ عاقبةَ كذبه، وأنتم لا تتأثرون بذلك!

وألا يمكنُ أنْ يكونَ صادقاً في دعواه؟ فكِّروا في ما يصيبُكم إن كان كذلك! بَدَلَ أنْ تَقوموا بقتْلِه! إنه يعدُكم بالعذابِ والهلاك، فإنْ كان صادقاً وقتلْتُموه فإنَّ العذابَ والهلاكَ سيصيبُكم ويقعُ بكم! ففكِّروا في إنصافِ وموضوعية!

وبعدَ أنْ طرحَ أَمامهم الاحتمالَيْن: صدْقَه وكذبَه، رجَّحَ بطريقٍ حكيم غيرِ مباشر صدْقَه، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وكأنَّه يقولُ لهم: موسى صادق، لأنَّ اللّهَ أَيَّده بالآياتِ والمعجزات، ولو كان كاذباً لما أَيَّدَه بذلك، لأنَّ اللّهَ لا يَهدي مَنْ هو مسرفٌ كذاب!

المؤمن يخوف قومه زوال نعم الله عليهم:

وبعدَ أنْ خاطَبَ عقولَهم بموضوعية، استثارَ مصالحَهم الدنيوية، ولمسَهم لمسةً مادية، فقال لهم: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

ذَكَّرَهم بمُلْكهم وسلطانِهم، ورفاهيتِم في حياتهم، وحَذَّرهم من

الإقدامِ على قتْلِ موسى بطريقٍ غيرِ مباشر، وكأنه يقولُ لهم: اليومَ لكمُ الملكَ، وأنتم ظاهرون في الأرض، منعَّمون فيها، فإذا قتلْتُم موسى وكان صادقاً في أَنه نبي رسول، فماذا سيفعلُ اللّهُ بكم؟ إنه سينتصرُ لنبيه ويوقعُ بكم بأسَه وعذابَه، فهل تَقْدرون على دفعِ العذابِ عنكم؟ إنه لا يوجَدُ أحدٌ ينصُرُنا من بأسِ الله!!.

ونلاحظُ في كلماتِ هذا الداعية الحكيم أَنه لم يوجِّهْ كلامَه لفرعون، وإنما وجَّهَ كلامَه للقوم، ولعلَّ من أَهدافِه في ذلك أَنْ لا يبدأَ «بيانَه» في احتكاكٍ مباشرٍ مع فرعون، حتى لا يُثيرَه، والأهمُّ من هذا أنه يريدُ أَنْ يؤثِّرَ في القومِ، وأَنْ يَكسبهم إِلى جانبه، فهم المقصودونَ في كلامه.

وكان قاصداً «تجاهُلَ» فرعون وعدمَ مخاطبته، لأنه لا يطمعُ في تغييرِ موقفِه، وكسبهِ إِلى جانبه!

ومن حرصِه على التقربِ إِلى قومِه، أَشركَ نفسَه معهم، في دفعِ ثمنِ قتْلِ موسى، واستقبالِ عذابِ الله، والعجزِ عن دفعه، وذلك في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾؟.

يقولُ لهم: أنا واحدٌ منكم، ومصيرُنا جميعاً واحد، فلنفكِّر معاً كيفَ نبتعدُ عن بأسِ الله وعذابه.

الخطاب الفرعوني الاستعلائي لهم ما أريكم إلا ما أرى:

وكان فرعونُ حاضراً المشهد، واستمعَ إِلى كلماتِ الرجل المؤمن، وأَدركَ فرعونُ أَثرها على القوم، وخشيَ أَنْ ينجحَ المؤمنُ في التأثيرِ فيهم، وكسبِهم إِليه. فاضطرَّ فرعونُ إِلى التدخل، والتصريح بأَنَّ الحقَّ لا يكون إِلاّ معه، ولهذا خاطبهم بمنتهى الاستعلاءِ والتكبير: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

لقد أظهرَ الرجلُ المؤمنُ فرعونَ على حقيقتهِ، مستعلياً متكبراً

جباراً، فَتَخَلّى عن «تمثيلِه» السابق، في إِظهارِه التقربَ إلى قومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ . . .﴾، وأعلنَ لهم أنَّ الرأيَ رأيُه، والكلامَ كلامُه، والهدْيَ هديُه، وأنَّهم مُلْزَمون بأخْذِ رأيه، ولا يجوزُ لأحدٍ مخالفَتَه في رأيه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ . . .﴾.

إنَّ فرعونَ يَضيقُ بالرأيِ المخالف، ولا يتحملُ الحوارَ والمناقشة، ولا يَرضىٰ أنْ ينظرَ في ما يوردُه الطرفُ الآخر من حججٍ وآيات، إنه مصِرٌّ على رأيِه وموقفِه، ولا يستعدُّ أنْ يتراجعَ عنه!

وليست هذه العقليةُ عقليةَ فرعون فقط، ولكنها عقليةُ كلِّ حاكمٍ طاغية ظالم، يريدُ من قومِه أَنْ يَكونوا «نسخاً مكرورة» عنه، مردِّدينَ لآرائه، متابعين له، ولا يَسمحُ لأحدٍ منهم أنْ يخالفَه أَو يناقشَه أو يحاوره، أَو يدعو إِلى غيرِ رأيه.

كلُّ حاكمٍ طاغيةٍ ظالم يتعاملُ مع قومه بهذه اللغةِ الفرعونية، ولسانُ حاله يَقول لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . .﴾.

يقولُ لهم هذا، حتى لو كانَ رأيُه خطأً باطلًا، وحتى لو جَرَّ البلادَ والعبادَ إِلى الكوارثِ والخراب، ومَن يجرؤُ على مناقشته في ما يَعرضُه، أو مخالفته في رأيه؟ مَنْ يجرؤُ على أنْ يقولَ له: هذا رأيٌ خطأ، وهذا كلامٌ مردود، وهذا اختيارٌ غيرُ مناسب، وهذا قرارٌ يحتاجُ إِلى إِعادةِ نظر!!

ماذا كان رَدُّ فعلِ المؤمنِ الداعيةِ على التكبر الفرعوني، وعلى تهديده لكلِّ مَنْ يرى خلافَ رأيه؟ أي: تهديدِه للرجلِ المؤمن الذي قالَ ما قال؟

لم يتأثَّرْ بتهديدِ فرعونَ غيرِ المباشر، لأنَّه وَطَّنَ نفْسَه على مواجهتِه وتصدّيه، واستعدَّ للسير في ذلك حتى آخرِ الطريق، مهما كان الثمن!

الرجل المؤمن يخوف قومه عذاب الله:

لم يلتفت الرجلُ المؤمنُ لفرعون، بل استمرَّ في تجاهله له، واستمرَّ في توجيهِ كلامِه للقوم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١].

تحببَ المؤمنُ الداعيةُ إلى القوم في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾. وذلك ليؤثرَ فيهم، فهم قومُه، وهو الحريصُ عليهم بصدق، الخائفُ عليهم من العذاب: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ..﴾.

ونَدعو إلى المقابلةِ والمقارنة بين كلامِ الرجلِ المؤمن لقومه، وبين مخاطبةِ فرعونَ لقومه.

ففرعونُ يخاطبُ قومَه بتكبرٍ واستعلاء: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

بينما يتحبَّبُ الرجلُ المؤمنُ إلى قومه بلطفٍ ومودة: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ...﴾.

ولمسَ الرجلُ المؤمنُ قلوبَ قومِه لمسةً تاريخية، حيث ذكَّرهم بمن كان قبلَهم من الأحزابِ والأقوامِ الكافرة، ودَعاهم إلى التفكُّرِ بما جرى لهم، فلعلَّ ذلك يدعوهم إلى تغييرِ موقفهم.

إنه يصارحُهم بخوفِه عليهم من أن يُعَذِّبَهم الله، كما عذَّبَ قومَ نوح وعاد والذينَ مِن بعدِهم. وما عليهم إلاّ أنْ يُؤمنوا بالله، لئلا يصيبَهم ما أصابَهم.

وبعد أنْ لفتَ أَنظارَهم إلى الماضي، انتقلَ بهم إلى المستقبل، إلى الآخرة التي هم مُقْدِمون عليها، وصوَّرَ لهم بعضَ ما ينتظرُهم هناك من عذاب. قال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣].

يومُ القيامة هو يوم التنادي. والتنادي من المناداة، حيث يُنادي فيه الناسُ بعضُهم بعضاً، يطلبونَ المساعدةَ والنجدةَ من بعضهم لبعض، أو يسخرُ بعضُهم من بعض، أو يلومُ بعضُهم بعضاً، أو يعترفُ بعضُهم على بعض!

إنه يخوِّفُهم من مشاهدِ وأهوالِ ذلك اليومِ القادم، ويدعوهم إلى العملِ على النجاةِ منها، وذلك عن طريقِ الإيمان. ويقدمُ تخوُّفَه عليهم بلهجةِ الإشفاقِ والحرصِ المعهودة منه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ...﴾.

ويذكرهم بموقفهم من يوسف عليه السلام:

ثم استخدمَ المؤمنُ الداعيةُ مؤثِّراً جديداً، لمسَ به قلوبَهم وعقولَهم، وأضافَه إلى المؤثراتِ السابقة، وظَّفَ فيه معلومةً عقيديةً تاريخية، تتعلقُ بالنبوة والرسالة. قال لهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٤ ـ ٣٥].

إنهم يَعرفونَ يوسفَ بن يعقوب عليهما السلام، ويتذكَّرونَ قصتَه وحكمَه لأجدادِهم، ويعلمون أنه جاءَ بالنبوة، وقدَّمَ عليها الآياتِ البينات، وحكمَ مصر فترةً من الزمن، خرجَ بالبلادِ من ضائقتها الاقتصادية، إلى الرخاءِ والخصب. ومع ذلك لم يؤمنْ به المصريون، وتمنّوا سرعةَ الخلاص منه، وما أنْ ماتَ حتى فرحوا لخلاصِهم منه، وقالوا: لن يبعثَ اللّهُ لنا رسولاً من بعده!!

وقد عبَّرَ الرجلُ المؤمنُ عن وفاةِ يوسفَ عليه السلام بقوله: ﴿إِذَا هَلَكَ﴾ مع أنه مؤمنٌ بالله وبنبوةِ يوسف وموسى عليهما السلام، وكلُّه أدبٌ مع الأنبياء الكرام!

ويبدو أنه عبَّرَ عن موتِه من وجهةِ نظرهم هم، فلأنهم كافرون فقد كرهوا نبوتَه وحكْمَه، رغم ما جلَبَه لهم من خير، وتمنَّوا موتَه، واعتبروا موتَه هلاكاً وفَرَجاً لهم. ولهذا قال لهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾.

إنه يربطُ ربطاً حكيماً لطيفاً بين يوسف وموسى عليهما السلام، من حيثُ النسب، ومن حيثُ الرسالة.

إنهما إسرائيليان من حيث النسب، وهذا متفَقٌ عليه عندهم.

ومن حيثُ الرسالة متفقان، فبما أنَّ يوسفَ نبي، وهذا أمْرٌ لا يناقشون فيه، وبما أنَّ موسى يَدّعي النبوة، فالأصلُ أن تثبتَ له النبوةُ أيضاً، لأنه إذا ثبتتْ نبوةُ يوسف ثبتتْ نبوةُ موسى!

وللرجلِ المؤمنِ هدفٌ آخر من تذكيرِهم بيوسف عليه السلام، فقد واجَهوه بالتكذيب: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾، ولذلك ينصحُهم أن لا يكون موقفُهم من موسى كذلك، وبذلك يَخسرون، فإذا كان موسى نبياً مثلَ يوسف فعليهم أنْ يؤمِنوا به، وأن لا يكونوا متكبرين عليه، مكذِّبين له.

إنَّ كلامَ الرجلِ المؤمن موضوعيٌّ مؤثر، يخاطبُ عقولَهم بمنطقٍ حكيم، وقد لاحظَ فرعونُ أثرَ كلامِه فيهم، وخشيَ أنْ يستميلَهم إِليه، وأَرادَ أنْ يكسبَهم هو، فاضطرَّ إِلى التراجعِ عن طلبه السابق بقتل موسى، وأظهرَ لهم عدولَه عن ذلك.

فرعون يطلب من هامان بناء الصرح:

وقامَ فرعونُ بحركةٍ مسرحية فرعونية خبيثة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

توجَّهَ فرعونُ إِلى وزيرِه هامان، وطلبَ منه بناءَ صرحٍ له، ليبحثَ عن إِله موسى في السماء.

وقد أَشارتْ سورةُ القصص إلى هذا الصرح الفرعوني. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الصرح: «الصرحُ بيتٌ عالٍ مُزَوَّق، سميَ بذلك بكونِه صَرْحاً خالِصاً عن الشَّوْب»[١].

أي أنَّ أساسَ معنى «الصرح» في اللغة هو الخالصُ الصافي، الخالي من الشوائب والأشياءِ الغريبة.

وسميَ البناءُ العالي صَرْحاً لأنه قويٌّ متماسكٌ متين، وهذا دليلٌ على خلوصِه من الشوائب، فلو كان مخلوطاً بها لما كان ثابتاً.

وقد فصَّلَتْ آيةُ سورةِ القصص مادةَ بناءِ الصرح: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾.

لقد كانَ الصرحُ مصنوعاً من «اللَّبِن» أو الطوب، وهو المصنوعُ من الطين، وبعدما يجفُّ الطينُ وييبسُ يُحْرَقُ بالنار ليزدادَ متانة وتماسكاً.

الباعث له على بناء الصرح وهدفه الظاهري والحقيقي منه:

أرادَ فرعونُ من بناءِ الصرح العالي أنْ يبلغَ أَسبابَ السموات.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى الأسباب: «السبب: الحبلُ الذي يُصْعَدُ به النخل، وجمعُه أسباب.. وسُمي كلُّ ما يُتَوَصَّلُ به إلى شيء سبباً. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ..﴾: أي: لعلّي أعرفُ الذرائعَ والأسبابَ الحادثةَ في السماء، فأتوصلُ بها إلى معرفةِ ما يَدَّعيه موسى...»[٢].

(١) المفردات: ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٩١.

لماذا تظاهرَ فرعونُ بالموضوعية والبحث؟ لأَنه هُزِمَ أمامَ منطقِ الرجلِ المؤمن الحكيم.

ما هو هدفُ فرعونَ من بناءِ الصَّرْح؟

هدفُه الظاهريُّ هو البحثُ عن إِله موسى في السماء، والوقوفُ على الأدلةِ السماوية التي تثبتُ وجودَه ووحدانيتَه. وذلك ليكسبَ القومَ إلى جانبه!

لكنَّ هدفَه الحقيقيَّ من ذلك خبيث، فهو يريدُ إِلهاءَ وإِشغالَ الناسِ عن القضية الأساسية التي يطرحُها الرجلُ المؤمن، ويريدُ أن يصرفَهم عن منطقِهِ الدعويّ، وذلك بأنْ يُتابعوا بناءَ الصرح، والمراحلَ البطيئةَ التي سيمرُّ بها، وعندها تفقدُ دعوةُ الرجل المؤمن حيويتَها وتوهُّجَها و«سخونتَها»، وتتحولُ إلى قضيةٍ هامشيةٍ ثانوية باردة، ثم يتناسونها بعد ذلك.

ومن كيدِ فرعونَ ومكْرِه الخبيث أنه سيعودُ من جولتِه العلمية البحثيةِ المزعومة بأنَّ موسى كاذب، وأنه ذهبَ إِلى السماءِ ليبحثَ عن إِله موسى، ولكنه لم يجدْه، ولو وجدَه لآمنَ به.

إنَّ هذه النتيجةَ عنده قرارٌ مسبق، لكنه أَرادَ أنْ يُلْبسها ثوبَ العلم والبحث، أَي أَنه يوظفُ البحثَ والعلم توظيفاً شيطانياً خبيثاً، لمحاربةِ موسى ودعوته، وللشهادةِ له ولفرعنته!

بين فرعون و«غاغارين» الروسي الملحد:

وتذكِّرُنا مسرحيةُ فرعونَ بما فعلَه رائدُ الفضاء الروسي السابق «غاغارين» حيث زيَّفَ وحرَّفَ وكذبَ وافترى على البحث والعلم.

فهو ماركسيٌّ ملحد ينكرُ وجودَ الله، ولكنه لما صعدَ إلى السماء في سفينةِ الفضاء، أُعجبَ بجمالِ الكون وتناسقِه، فاستيقظتْ فطرتُه لحظة، ونطقَ عبارةً إيمانيةً لا إرادية، وهو مبهورٌ بإبداعِ الكون، قال: لا بدَّ أنْ يكونَ لهذا الكون إله!!.

وهذه العبارةُ إلغاءٌ للماركسيةِ من الجذور، ولهذا ما أَنْ هبط «غاغارين» إلى الأرض، حتى اتصلَ به سادتُه مهدِّدين متوعِّدين، وطلبوا منه تعديلَ تصريحِه السابق. فرضخَ لهم، وأخبرَ الصحفيين قائلاً: لقد صعدتُ إلى السماء، وذهبتُ أبحثُ عن الله، لكني لم أجده!!!

وكان فرعونُ يريدُ أنْ يخرجَ بهذه النتيجة، يريدُ أنْ يقولَ للناس: لقد بنيتُ الصرح، وصعدتُ إلى السماء، وبحثتُ فيها عن أدلةٍ تشهدُ لموسى، وتُثبتُ وجودَ الله، وتمنيتُ أن أجدها، لكني ما وجدتُ منها شيئاً، وما وجدتُ اللّهَ في السماء، ولذلك ليسَ لكم إلهٌ غيري، وموسى كاذبٌ في دعوته!!

إذن لم يكن فرعونُ جاداً في البحث، ولا في بناءِ الصرحِ، ولكنه هازلٌ عابثٌ ساخر. وكم سينفقُ وزيرُه هامان من أموالٍ على بناء الصرح، وكم سيرصدُ له من ميزانيةِ الأمة، وكم سيوظِّفُ له من طاقاتِ وقدراتِ الأمة، وهذا هو هدفُ فرعونَ المسرحيُّ منه!!.

وإنَّ الطغاةَ الظالمين يقتدونَ بفرعون في هذه الملهاة المسرحية، حيث يقررونَ إنشاءَ مشاريعَ عديدة، ويرصدون لها الأموالَ الكثيرة، وينفقونَ فيها الطاقات والأوقاتِ والجهود، وهدفُهم هو إلهاءُ وإشغالُ الناس، وصَرْفُهم عن الأمورِ الجدية النافعة!!.

مظاهر تراجع فرعون أمام حجة الرجل المؤمن:

وتدلُّ لهجةُ فرعون على تراجعِه أمامَ منطقِ الرجل المؤمن، وبدا تراجُعُه في المظاهرِ التالية:

١ ـ قال في السابق: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ والآن يتراجعُ عن هذا الطلب، ويأمرُ ببناءِ الصرح بحجةِ البحثِ عن إله موسى.

٢ ـ في السابقِ طلبَ من قومِه الإذنَ له بقتل موسى، والآن يطلبُ من قومه الانتظارَ بحيادية، ليطلعَهم على نتيجةِ بحثِه في السماء.

٣ ـ في السابق جزمَ بأنَّ موسى عليه السلام ساحرٌ كذاب، والآن تراجعَ عن الجزم، وعَبَّرَ بالظن فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًاۚ ..﴾!!

ويُسَجِّلُ تراجُعُ فرعون لصالحِ الرجل المؤمن، ويدلُّ على نجاحِه في عرضِ حجته، وخطابِ قومه بحكمة وموضوعية.

الرجل المؤمن يدعوهم صراحة إلى اتباعه:

والآنَ رأى الرجلُ المؤمنُ أنَّ الوقتَ قد حانَ للجهر بإيمانه، ودعوةِ قومه إلى اتباعِه، بصراحةٍ مجردة وليس بتلميحٍ إشاري. فقد أَوصلَ قومَه الذين يخاطبُهم منذُ مدةٍ إلى هذه النتيجة، وقد دفعَ فرعونَ إلى التراجعِ العَلَنِيِّ عن ما أرادَه.

ثم هو يخشى أنْ ينشغلَ القومُ ببناءِ الصرح، وينسوا دعوتَه وحجته وبيانَه، ولهذا يريدُ أنْ يسارعَ بتقديمِ الخلاصة لهم.

بدأَ المصارحةَ بدعوتِهم إلى اتباعه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر: ٣٨].

وهذه الجملةُ تَحَدٍّ صريحٍ لفرعون ودعوتِه.

فقد سبقَ فرعونُ أنْ قالَ لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وهنا يقولُ الرجلُ المؤمنُ للقومِ أنفسِهم: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وهذه المواجهةُ الصريحةُ منه لفرعون دليلٌ على جرأتِه وشجاعته، وحرصِه على دعوته، وتوكُّلِه على ربه، لأنه لا يقفُ أمامَ فرعون هذا الموقفَ ولا يتحدّاه هذا التحدي، إلا رجلٌ عظيمُ الإيمان، كاملُ الاعتمادِ على الله.

وعندما دعى القومَ لاتِّباعِه عرضَ الدعوةَ بلهجتِه المعهودة، القائمةِ على الإشفاقِ والتحبب: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾.

وفرقٌ كبيرٌ بين قولِ فرعون لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وبين قول الرجل المؤمن لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ ..﴾.

والرجلُ صادقٌ في قوله لقومه: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، بينما كانَ فرعونُ كاذباً في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ويقدم لهم خلاصة دينه:

واعتبرَ الرجلُ المؤمنُ دعوةَ قومِه للدخول في دينه واتباعِه فرصةً مناسبةً لتعريفِهم على دينه، فما هي خلاصةُ دينه الذي يَدعوهم إليه؟

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٣٩ ـ ٤٠].

وركَّزَ في تعريفِه على العقيدة، فقد حَدَّثَهم سابقاً عن الألُوهية، والآنَ يحدثُهم عن الآخرة وما فيها من جزاءٍ وحساب، فالدنيا التي يَعيشونها متاعٌ زائل، والآخرةُ باقيةٌ دائمةٌ، والكفارُ معذَّبون فيها مخلَّدون في النار، والمؤمنون منَعَّمون مخلَّدون في الجنة، والعاقلُ هو الذي يختارُ الآخرةَ الباقيةَ على الدنيا الفانية، ويختارُ نعيمَها على عذابها، والسبيلُ الوحيدُ لذلك هو الإيمانُ ومتابعةُ الرجلِ المؤمن على الحق.

ويقارن لهم بين دعوته ودعوة فرعون:

ماذا بقيَ بعد ذلك ليضمِّنَه هذا المؤمنُ الحكيمُ بيانَه الدعوي؟ بقيَ أنْ يقارنَ لهم بين دعوتيْن موجَّهتيْن لهم:

دعوةِ فرعون الذي قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ودعوته هو الذي قالَ لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

قال تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٣].

يقارنُ بين الدعوتَيْن بنفسِ اللهجةِ المحببة: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

ويبينُ لهم أنهما دَعوتان اثنتان، لا ثالثَ لهما، فإمّا دعوةٌ إلى الإيمانِ والخير، وهي دعوتُه الموجَّهة لهم، وإمّا دعوةٌ إلى الكفر والشر، وهي دعوةُ فرعونَ الموجهةُ لهم.

وأَخبرَهم أنَّ دعوتَه لهم للإيمان هي دعوةٌ إلى نجاتِهم، فلا نجاةَ في الحقيقةِ إلا بالإيمان: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾، وهذا ترغيبٌ آخرَ منه لهم، وتعريفٌ آخرَ بدينه، ومن ذا الذي يرفضُ الدعوةَ إلى النجاة؟ إلاّ أنْ يكونَ في عقلِه شيء!!

وبينما رغَّبهم في اختيارِ دعوته باعتبارِها دعوةً إلى النجاة، فقد حَذَّرهم من الاستجابةِ لدعوة فرعون، لأنَّ عاقبتَها هي الدخولُ في النار! ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

وحكمة جمعهم مع فرعون في الدعوة إلى النار:

ومن فقهِ الرجلِ وحكمتِه أنه قال لهم: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مع أَنهم لم يوجِّهوا له دعوةً إلى النار!

إنَّ الدعوةَ هي دعوةُ فرعون، عندما قال لهم: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾. وقد اعتبرهم مشاركين لفرعون في توجيه الدعوة ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

وهو اعتبارٌ صحيح، فهم إذا وافقوا فرعونَ على دعوتِه واستجابوا له فيها، كانوا بذلك مشارِكين له فيها، وكأنَّ الرجلَ المؤمنَ يدعوهم إلى رفْضِ دعوةِ فرعون، وإعلانِ رفضِهم لها، و«فَكِّ ارتباطهم» بفرعون، فإنْ لم يفعلوا ذلك كانوا مشاركين له فيها.

ومن هذا الباب جمعُه لهم مع فرعونَ في قوله لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟، مع أنَّ الذي أرادَ قتلَ موسى هو فرعونُ وحدَه عندما قال لهم: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾. فهم إنْ وافقوا فرعونَ على قتل موسى، كانوا مشاركين له في القتل.

إنَّ الرجلَ المؤمنَ يريدُ منهم الجهرَ بمخالفة فرعون، وإعلانَ رفضِ دعوته، وممارسةَ ذلك بجرأةٍ وشجاعة وإقدام، والاقتداءَ به هو في الجهرِ بالحق والانتصارِ له!!

وأَجرى المؤمنُ مقارنةً أُخرى بين الدعوتين، فخلاصةُ دعوةِ فرعون هي الشركُ بالله والكفرُ به، لأنَّ فرعونَ ادعى أَنه إلهٌ رب، ولهذا قال المؤمن: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أَما خلاصةُ الدعوةِ الإيمانية التي يوجِّهها هذا الداعيةُ الحكيمُ فهي دعوةٌ إلى اللّهِ العزيزِ الغفار: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

واختيارُ هذين الاسمينِ من أسماءِ الله هنا مقصود.

إنَّ اللّهَ هو العزيزُ القويُّ الجبارُ القهار، ويَمنحُ مَنْ يؤمنُ به ويجاهدُ أَعداءَه العزةَ والقوة، ويَحميه من أَذى الأعداء. وماذا يساوي فرعونُ وقوتُه أمامَ عزةِ وقوةِ الله العزيز القوي؟؟

واللّهُ هو الغفار، يغفرُ لمن تابَ وأَناب وأقبلَ عليه، وتخلّى عن كفره وفجوره ومعاصيه.

وكأَنَّ هذا المؤمنَ يرغِّبُهم في الإيمانِ بالله، لأَنه عزيزٌ غفار، يقبلُ

توبتَهم إِليه، وإِقبالَهم عليه.

الرجل المؤمن يجرد فرعون من الضر والنفع:

وبعدَما قارنَ المؤمن بين دعوتِه ودعوةِ فرعون، خطا خطوةً أُخرى في التصدي لفرعون، ودعوةِ القوم إلى عدم الخوف منه، فقال لهم: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ..﴾.

ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً وصدقاً.

قال السديُّ وابن جريج: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً.

وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: بلى. إنَّ الذي تَدعونني إليه من الأصنام والأوثان لا يُجيبُ داعيهِ في الدنيا ولا في الآخرة[1]..

ما الذي يَعنيه بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ..﴾؟

إنه يعني فرعونَ نفسَه! لأَنهم كانوا يؤلِّهونَه ويعبدونَه من دون الله، وكأنَّهم يدعونَ ذلك الرجلَ المؤمنَ إِلى تأليهِه وعبادته ودعائِه والتضرعِ إليه.

يقولُ لهم: لا شَكَّ أنَّ فرعونَ الذي تعبدونه وتدعونني لعبادته عاجزٌ عن دفعِ الضرِّ عن نفسه، أو جلبِ الخير له، فإذا كان عاجزاً في حقِّ نفسه فهو في حقِّ غيره أكثرُ عجزاً! لأنه مخلوقٌ ضعيف، حتى لو كان ملكاً فرعوناً! والضرُّ والنفعُ إنما هما بيدِ الله وحده، الخالقِ القويِّ القادرِ الضارِّ النافع.

هذا هو فرعونُ في نظرِ الرجل المؤمن، إِنَّه لم يُخْدَع بما أَحاطَ

---

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير ابن كثير ٤: ٨٢.

به فرعونُ نفسَه، من مظاهرِ القوة وهالاتِ العظمة، ولقد نظرَ إليه بمنظارِ الإيمانِ بالله، واليقينِ بقوةِ الله، فرآهُ على حقيقته، ووزَنه بميزانِ الإيمان، فعرفَ وزْنَه البشريَّ الحقيقي، مجرداً من الحوْلِ والطَّوْل والضرّ والنفع. ولهذا وقفَ أَمامَه، وتحدّاه، وأظهرَ إيمانه، وانتصرَ لموسى عليه السلام.

وكأنَّ الرجلَ المؤمنَ يدعو المؤمنين إلى الاقتداءِ به في هذا الموقف، وأنْ ينظروا للطغاةِ بمنظارِ الإيمان، ويَزِنوهم بميزانِ الإيمان، ليعرفوا حجْمَهم الحقيقي، بدون انتفاشٍ أو تهويل، فلا يَرهبوهم، ولا يتركوا الحقَّ بسببِ تهديدِهم.

وبهذا يكونُ قد انتهى من بيانِه الدعويِّ الحكيم، وبهذا أَثَّرَ في المستمعين لموضوعيتِه ومنهجيته، وتحدَّى فرعون وتصدّى له بجرأةٍ وشجاعة.

الرجل المؤمن بقيم الحجة على قومه:

ولم يبقَ له إلاّ أنْ يختمَ «البيانَ الدعويَّ» بالخاتمةِ المناسبة، قبلَ أنْ يغادرَ المكان.

قالَ لقومه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

لقد قدَّمَ لهم دعوتَه، ودَعاهم إلى اتِّباعه، وهذا هو الواجبُ عليه، وقد أدّى هذا الواجبَ على أتمِّ وجْه.

والخطوةُ التاليةُ عليهم، فالحقُّ أصبحَ واضحاً لهم، فماذا يفعلون؟ وأيَّ الطريقيْن سيسلكون؟ وأيَّ الدعوتين سيلبون؟ دعوتَه إلى النجاة والجنة؟ أم دعوةَ فرعونَ إلى الهلاك والنار؟

هذا الاختيارُ لهم، فإن استجابوا له فازوا وسعدوا، وإن استجابوا لفرعونَ خسروا وشقوا.

وهو لا يقدرُ على إلزامِهم اختيارَ الحق، لأَنه لا سلطانَ له على قلوبهم. وصدقَ اللّهُ القائل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

ولهذا من المناسبِ أنْ يقولَ لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾..

وهذا التذكُّرُ يكونُ في المستقبل، في الدنيا وفي الآخرة.

فإنِ استجابوا له وآمَنوا، حقَّقوا ثمرةَ الإيمان في الدنيا وفي الآخرة، وعندها يتذكَّرون ما قالَه لهم، فيشكروه على دعوتِه. وإنْ رَفضوا دعوتَه وأَصرّوا على الكفر، فسيدفعون ثمنَ ذلك غالياً في الدنيا والآخرة، وعندها يتحسّرون ويَندمون لرفضهم دعوتَه.

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ليس تهديداً لهم، وإنما هو نصيحةٌ وتذكير. وهو وسيلةٌ أُخرى من وسائلِ التأثير عليهم، وكأَنه يقولُ لهم: إذا اخترتم طريقَ الكفر، ووقعت بكم عاقبةُ ذلك، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم!!

ويعلن تفويض أمره إلى الله ودلالة ذلك:

ثم أَعلنَ اعتمادَه على الله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

لماذا أَعلنَ هذه الحقيقة؟

إِنه في موقفٍ خطيرٍ غايةٍ في الخطورة، ولا يحفظُه فيه إلاّ الله. لقد واجَهَ فرعون، المتألِّهَ المتجبرَ الطاغية، وتصدّى له وتحدّاه، وردَّ عليه دعوتَه، وأَعلنَ إيمانَه بالله، واتبعَ خصْمَه موسى، ودعا القومَ إلى اتباعه..

وهذا يعرضُه إلى أَذى فرعون وبطشِه، واضطهادِه وتعذيبه، وليست معه قوةٌ بشريةٌ قوية، تَحميه وتَنصره، وتدفعُ عنه أَذى فرعون.

فمن الذي يَنصره ويَحميه؟ إنه الله! ولذلكَ أعلنَ هذا المؤمنُ الحكيمُ تفويضَ أمره إلى الله.

إنَّ موقفَ الرجل المؤمن، وإعلانَه تفويضَ أَمرِه إلى الله، يقدمُ لنا معلماً دعوياً إيمانياً، من معالم الإيمان والدعوة والمواجهة، فالمؤمنُ الداعيةُ يدخلُ المعركة مع الباطلَ، ويواجهُ أصحابَ الباطل، وهو مدركٌ لحقيقةِ المعركة وقواها وأطرافها، يدخلُ المعركةَ وكلُّه إيمانٌ بالله، وتوكُّلٌ عليه، واستنصارٌ واستغاثةٌ به، وتفويضٌ مطلقٌ إليه. ويعرفُ أصحابَ الباطل على حقيقتهم، وأَنهم أعداءٌ لله، وأنَّ اللّهَ سيقصمهم.

وهذه الحالةُ الإيمانيةُ العاليةُ التي يعيشُها تُعطيهِ المزيدَ من الجرأةِ والشجاعة، والصبرِ والثبات، والفوزِ والظفر.

حياةُ المؤمن كلُّها تقومُ على تفويضِ الأمرِ كلّه لله، وهذا هو الإيمانُ بالله وقدرِه، يفوضُ أمْرَه إلى الله وهو يوقنُ أنَّ اللّهَ معه يحفظُه ويحميه، وينصرُه ويؤيدُه.

الله وقاه سيئات ما مكروا وإبهام نهايته:

ولقد كانَ اللّهُ مع الرجل المؤمن، فلما أعلنَ لجوءَه له وتفويضَ أَمرِهِ إليه، وقاهُ اللّهُ مكْرَ فرعون وملئِه، وأَوقعَ بهم عقابَه. قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

وقى اللّهُ الرجلَ المؤمنَ مكْرَ وكيدَ فرعون وآله، وهذا يدلُّ على أنَّ القومَ الذين استمعوا إلى بيانِه الدعويِّ الحكيم لم يستجيبوا له، ولم يَقبلوا دعوتَه، وبقوا إلى جانبِ فرعون، خائفين من بطشه وأذاه، ملتزمين عبادتَه وتأليهَه، مستجيبين لدعوته.

ولكنَّ الرجلَ المؤمنَ قام بواجبه، وبذلَ جهدَه في دعوتِهم ونصحهم، وأَقامَ عليهم الحجة، وهم الذين خسروا برفضِهم دعوتَه.

ونجحَ الرجلُ المؤمنُ في حملِ فرعون على التراجع عن طلبه السابق لقتْلِ موسى عليه السلام، ويبدو أنه «شُغِلَ» بقضيةِ الرجل المؤمن عن قضيةِ قتل موسى، وأنَّ الأحداثَ تطورتْ وتلاحقَتْ، فصرفَهُ تتابعُها عن ذلك.

ولا تخبرُنا مصادرُنا الإسلاميةُ اليقينية ـ المتمثلةُ في الآياتِ الصريحةِ والأحاديث الصحيحة ـ عن ما جرى لمؤمن آل فرعون بعد ذلك، ولا كيفَ وقاهُ اللّهُ سيئاتِ ما مكرَ فرعون وآله. فهذه النهايةُ من «مبهمات القرآن» التي لا نعرفُها، ولا نخوضُ في بيانها.

لقد ختمَ القرآنُ قصةَ مؤمنِ آل فرعون خاتمةً إيمانيةً دعوية مقصودة، لتقدِّمَ ظلالَها ودروسَها وعبرَها للمؤمنين، فآخرُ لقطةٍ فيها تفويضُه كلَّ أَمره إلى الله، ووقايةُ الله له سيئاتِ ومكر وكيد فرعون وآله، والانتقامُ منهم وتعذيبُهم.

أمّا كَمْ عاشَ مؤمنُ آلِ فرعون بعد ذلك، وكيفَ مات، وماذا كان ردُّ فرعونَ عليه، فهذا سكتَ عنه القرآن، ونحن نسكتُ عن ما سكتَ عنه، ونَكِلُ العلمَ به إلى الله تعالى.

ونشيرُ إشارةً سريعةً إلى دلالةِ الآيةِ التي أَمامنا على عذابِ القبر، فاللّهُ يقول: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

سوءُ العذاب الذي حلَّ بآلِ فرعون بعد وفاتِهم غرقاً هو النار، يُعَذَّبون فيها يومياً، ويُعْرَضون عليها كلَّ يوم مرتين: مرةً في الصباح ومرة في المساء.

وهذا العرضُ قبلَ قيامِ الساعة، أي وهم في قبورهم في مرحلةِ البرزخ بانتظارِ يوم البعث. وعندما يُبعثون يومَ القيامة يُعَذَّبون العذابَ الأبديَّ في جهنم، حيث يقول الله لملائكته: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

أربع علاجهن في أربع:

ونختمُ كلامَنا عن مؤمنِ آل فرعون بالوصفةِ القرآنية العجيبة، التي قدَّمَها الإمامُ جعفرُ بن محمد الصادق رضي الله عنه.

قال: عجبتُ لمن ابتليَ بأربعٍ كيف يغفلُ عن أَربع:

١ ـ عجبتُ لمن خاف، كيف لا يَفزعُ إلى قولِه سبحانه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فإني سمعتُ اللّهَ يقول بعقبِها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

٢ ـ وعجبتُ لمن اغتم، كيف لا يَفزعُ إلى قوله سبحانه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإني سمعتُ اللّهَ يقولُ بعقبها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

٣ ـ وعجبتُ لمن مُكِرَ به، كيفَ لا يفزعُ إلى قوله سبحانه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فإني سمعتُ اللّهَ يقول بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

٤ ـ وعجبتُ لمن أَرادَ الدنيا وزينتها، كيفَ لا يفزعُ إلى قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ..﴾ [الكهف: ٣٩ ـ ٤٠].





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة